

لِجَيِّدٍ وَعَدْلٍ كَامِلٍ

الْإِمَامُ

عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ

عَبْدُ الْفَتْاحِ عَبْدِ الْقُصُودِ



مَنْشُورَاتُ مَكْتَبَةِ الْعُرْفَانِ - بَيْرُوتَ



www.haydarya.com

الامام
علي بن أبي طالب

الجزء الخامس

تأليف
عبد الفتاح عبد المقصود

منشورات مكتبة العرفان
بيروت

هدية الشهيد السيد
السيد محمد الدين محمد الطوم
لمكتبة الروضة الحسينية

٢٩٢٢



نذر معاوية — وعينه من الصباح للمغرب على هذه البقعة من الميدان — لن
أظفروه الله من بعد بريعة ليجعلنها أمثلة العرب مثلة ، وليقتلن منها المقاتلة ،
وليسبين النساء ...

وكان حنقه هو الذي ألهمه نذره ... فالنهار انسلخ إلا أقله . ولعة الشمس
غابت في الغرب . والنساء أقبل عليه بسواده وما تزال هذه الطائفة ، كبذنها
الوقعة ، كالعلم ، على قدم ...

حين أخرج «الحضرية» تزحف كان الصير كله في يمينه . العزة له . الدحرة
لغريمه . اللوت والخوف والفرار تنتشر أمامه في صفوف على انتشار النار ..
في اليمين .. في القلب .. في الطليعة .. في كل مكان من أرجاء الميدان إلا هذه
البقعة الصغيرة من ميسرة أهل العراق التي دافقت عن حرمها «ريعة» . وقد
حمتها حقيقة كالحرم . ووقفت دونها تردد دنس الهزيمة ... من ساعة الظهيرة
لم يرعها القتل الذي غاع في رجالها حتى انقضى عمر هذا النهار ، وكانت ثقة
معاوية والشمس تزهو أن ظفروه بها رهين ساعة تصول فيها «حمير» ثم ينتهي
بعدها القتال .

غير أنها لم تتزلزل . وجاهدت باليد والقلب كتيبته التي أعلنتها الحضرة ،
وحركها زهو ابن عمز ، وجيشتها حمية ذى الكلاع . لم يقص فيها معاوية وطره .
ولم تفتنها — حتى هذه اللحظة التي شاعت خلالها عتمة المساء — أفانين تغريه
إنما غالبته في قلنها كأنها كثرة ، وتعثرت بها خطاه الوسيعة حتى آثر جمعه المدل
المختال أن يمشي إليها المويبي على حذر ، يصابر القدر ، ويداور الوقت عسى أن
تلوح له في صفوفها المرصوفة ثغرة تنقض الجدار !

وطال بهذا العناد العجيب أجل الصراع وانقضت سويقات ذلك اليوم بطيئة
رتيبة ، كعيس القافلة ، يتبع اللاحق السابق ، ويلوى بعضها على بعض ، دراكا
دراكا على منبسط الرمل كأن أحادها العديدة دابة واحدة تسير . ثم تدور
وتسير ، ثم تعاود الدوران والسير ...

هدية الشهيد الشهيد

السيد محمد الدين محمد المصطفى

لمكتبة الوثائق التاريخية

احتدام التزال لم يأخذ منها . ولا اشتداد العدو . ولا تحول النهار .. إنما غيرها نالت منه الغمرة ، وهزه الجهد ، وأوهنته الساعات ... الزهو في صدر ابن عمر بهت . الحمية في نفس ذي الكلاع بردت . الثقة بقلب معاوية في النصر السريع العاجل نزع معينها قطرة قطرة حتى عاد يؤمن ، وهو أسيف ، أنها كانت حدسا خالصا زيفه عليه وهم الحيال ... وعندما شحب لون النهار ، وغاض في الأفق ينبوع النور ، كان الخوف — كالظلمة الزاحفة على المسكون — يزحف إلى نواد العاهل المتوجس زحف الرقطاء .

وانتفض كحجموم . من حنق وقلق . ومن خشية وحيرة ... ففي جوانب الميدان أخذت نقط صغيرة بيضاء تبدو لعينيه من بعيد على الأديم الأغبر كأنها قطر الطل . ثم راحت تتقارب كالنمل . ثم صارت تلتئم وتنتظم هنا وهناك ، عقوداً موصولة ، فرقائق كالسحب ، فكسفة واحدة كثيفة من السواد وقد صبغتها ظلال المساء ...

الشراذم المقطعة من جند على رتقت فتقها من بعد تمزق . والفلول الفرارة آبت إلى الصبر بعد الحور ، وإلى الوحدة بعد التفرق ... الآن غابت فرصة النصر العاجل ، غربت كالشمس . خبار جاء ابن أبي سفيان . غدت أهدافه — التي بدت له في النهار دانية — في مشرق الأنجم ..

ليس ثمة ، هذه اللحظة ، في جوانب اللوامة رجل واحد من رجال الإمام إلا نضاع عن نفسه الفرعة الأولى ، التي أذهلته حين تهاوت لليمنة المراقية ، ثم لاذ بإيمانه ... كلهم رجع يلتف بالأشتر . كلهم عاد إلى مكانه الأول قبل الفرار . كلهم فاء للولاء والفداء . وما كاد جمعهم يلتئم حتى التحم بعدوه وقائدهم الجديد الفارع ينطلق أمامهم كالرمح ، نافثا في أرواحهم من عزمه ، نانفا فيها من صدقه وهو يسبق إلى مهاوى الردى خطاهم ...

ورددت جنابات صفين صيحة الأشتر :

« . إن القرار فيه سلب العز ، وذل الحيا والمات ، وعار الدنيا والآخرة .. » فلم تبق بعدها أمامهم هنا قدم ثبتت إلا أن تكون قد بثرها عن جسدها

حسام ، وكان اليوم حينذاك يدنو المغرب . . . ولم تبق هناك حبال ربيعة من الحضرية أصابع تحمل السلاح إلا أن تكون تقبضت عليه وهي على الثرى رمام ، وكان النهار حينذاك يذوب في المساء . . .

عندئذ نذر معاوية في نذرة : رجالها ذبح ، ونساؤها إماء . . .

وضاقت عليه من بعد آفاقه . . .

الهواء الذي يحرك رئتيه ينفذ إليه من سم إبرة . قلبه إن خفق شرق ، دقته رجفة كاهتزاز السراج المريض وهو يلفظ آخر لمعات شماعه ، ونبضته خلجة كومضة الشهاب للنقض إلى هاوية الظلمة . . . المر في حلقه . الحسرة في نفسه . القلق في لمح عينيه . حتى هذه النجوم المجاورة — تلك الليلة الساجية من ليالي الصحراء — لاحت له تتدأب وتضطرب ، وتظهر وتغور ، وتزهر وتعم كأنما تداولتها سحائب من ضباب فسكره المخير . . .

وقال معاوية لحليفه لعله بالحديث يقتنص فرجة لهما :

« أما ترى ، يا أبا عبد الله ، ما قد وقعنا فيه . . . إنا لبحر ض خطر عظيم . . »

فأغضى عمرو وهو يجيبه الجواب الذي لا يخفف قلقا ولا يكف حيرة :

« إن أصبحت ربيعة متعطفين حول طي تعطف الإبل حول خلفها لقيت منهم

جلادا صادقا ، وبأسا شديدا ، وكانت التي لا يتمرى عنها . . . »

فيا لبيعة . . .

ياله منها اليوم ، وغدا ، وبعده إن امتد به على أرض الوقعة أجل أحلامه .

فهو الشجى الذي يفس به الخلق . وقد يشرق ، فلا يمرد يزفر أو يشق . . .

وهي قطرة السم في الدسم . . . وهي بموضة « عمرو » . . . وكلما انطلق والزمن

طالعه من خلاله نكبة فيها لبيعة إصبع ، وعليها من أثرها ظل . تثبت حين ينفرط

الناس . وتثبت فتوهى شداده وأجلاده . وتثبت حتى يلم الأشر من شعث القرار ،

ثم يقر ، فيصبر ، فيكر كأنها حينذاك حصاة الملح غممت في ماء أجاج فراح

يحمد عليها ذوبه ، ويتبلور ملحه ، رويدا رويدا ، حصاة حصاة . . .

كل أحلامه انهارت أمامه وأنباء هذا القتال تأتيه ، لحظة بعد لحظة ، في قبته البيضاء . . . لم يطل دم ابن بديل . لم يذهب هدرًا . لم يدم مكث هذا الشهيد وحده إلا قطعة من يوم وهو بذلك المجاز المجهول الذي يفصل وادي الحياة الضيق عن أودية الموت . فما انقضت عليه سويقات ، ساكنا بمصرعه ، منذ تهاوى عليه الصخر ، حتى تبعه من عدوه مئة خاسرة ، فمئة أخسر ، فمئون بعدهم عديدة باءت مثلهم بالبوار ولحقت به إلى المجاز المجهول . . . الليسرة التي شردت في النهار ميمنة على طارت ترحح مع الغروب على جناح الهزيمة . مشاتها انشنت بهم سوقهم كالأعواد المقصوفة إلى مشاويهم فوارسها اختلطت جثثها على الأديم يبقايا الأفراس . والبقية الذين أمهلهم العحر أعجلهم الدعر فولوا سراعا عن الليدان ، يلصقون بقلب جيشهم ، عند القبة البيضاء ، كأنما ينشدون في ظل عاهلهم الحزين الحماية .

* * *

وقال الإمام ليمنته التي نسلها الأشتر من ذلة الخوف والقهر وطفنا بها على سطح المزة :

« . . . إني قد رأيت جولتكم ، وانحيازكم عن صفوفكم يحوزكم الجفافة الطعام وأعراب أهل الشام . ولولا إقبالكم بعد إداركم ، وكركم بعد انحيازكم ، وجب عليكم ما وجب على المولى يوم الزحف دبره . ولقد هون على بعض وجدى أنى رأيتم بآخره حزنهم كما حازوكم ، وأزلموهم عن مصافهم كما أزالوكم ، تحوزونهم بالسيوف ليركب أولهم آخرهم كالإبل المطردة الهيم . . . فالآن فاصبروا ، أنزلت عليكم السكينة ، وثبتكم الله باليقين . . . »

فصبروا كصبره . ولم يسدل الليل الذي زحف ظلامه على مواقع الحرب سترا حاجزا بينهم وبين الأعداء . كما في النهار ، جمعهم الأمسية على خصومة وتناجز . ليست الموقعة تدور الآن في ركن ربيعة في كل ناحية تنسج للقدم تدور . كالرحى الحاصدة لا تكف من أمام لحاف ومن يمين ليسار . كقطر الطل على الرمل تناثرت دماؤهم تبل صدى هذه البقعة التي أحرقتها حرارة النهار . . . ليست

القوى المتصارعة هي وحدها تلك التي قدمتها الظهيرة ، وصاحبها العصر ، وعكست جراحها الحمراء على وجنة الأصيل . بل الليل أيضا أطل بعينه الوسنانة على الصراع . والظلف تبعه ظلف ، والحلف تبعه خف ، والسواعد والأقدام تراجعت على الفناء والنجاء من أمام لوراء ومن وراء لأمام ... عجت الحلبة بهم أجمعين : ثعالب وآسادا ، من هذا الفريق ومن ذاك ، عجيج الحلبة بنحلاها تفيض بالدوى وتمتلي بالطين . وكانت الحناجر تهدر كالرعد ، والسيوف تلمع كالبرق ، والجياد تركض كما صفة ، والليلة — دون هذه العلام الفوارة — فيها هدوء ودعة ، على سمائها صفاء وسلام ، وفي نجومها تزهو وابتسام ..

٢

عندما سكب الليل سواده على رمال صفيين ، لاح أمام معاوية قبس من الأمل ، رقيق كالطيف ، لامع كالشعاع . على دفئه تبددت همومه كما تبدد الضحوة ضباب البكور . وعلى برقه تبين أحلامه تنهض من كبوة ، فتتنفض غفوتها ، وتلحق جراحها ، ثم تمضى قدما في طريقها للرسوم ...

وارتاح العاهل ... كرة أخرى يعاود عبيد الله بن عمر محاولته . الآن قام لما بدأ . تسربل بالليل . تسلل من بين ظلاله بكتيبته الخضرية ، لياغت ربيعة العنيدة من وراء ظهرها ، لعله يظفر منها في الظلمة بما أوهن عزمه طوال النهار ...

وانطلق عبيد الله . وانطلقت خلفه الآلاف الحضر تشرب الرمال الظمأى وقع قدمها وخفها وحافرها ، وتسترد كنة الأمسية زحفها للريب ... الأنجم في الأفق أعين . القمر ينسج للسكون الأغبر بردة رقيقة من خيوط نوره البيض . ولكن الجوع الزاحفة مضت لطبتها ، لا يشى بها الرمل ، ولا العيون الساهرات في منافذ السماء ، ولا الظلال التي ألقتها آحادها العديدة على الأرض ، فما كان أكثر الظلال التي مدها حولها في هذه الناحية كثيب ، وفي تلك كثيب ...

في خفية كان انطلاقه . وعلى روية وحذر . وإلى غاية له دانية تنفسح وراءها
سبيله إلى النصر . . . البغته سلاحه . الظلام مسربه ، الصفوف التي تساندت
هناك عند حد بصره آمنة السرب ، تغالب الإعياء بعد حرب النهار ، هي الفريسة
للشهادة . غير أن قلبه في قفص ضلوعه كان — فيما أحسب — يتوثب كالطائر ،
يضطرب من قلق ، يحتاج على وقع قدميه . وكلما دنا من عدوه وضائق الشقة
ضائق معها نفسه ، وانقبض صدره ، وامتد أنفه ليلقف الهواء . . .

لكأنى به كان يحس أنه سائر إلى قدره . فما برحت دعوة الحسن بن علي
تصك سمعه وتسرى إليه على النسمة . من خلال الظلام الخيم . كان يبرز له وجه
سبط الرسول كالغرة في الليل ، مائلا لعين عجلته . أينما أدار بصره طالعه . وحيثما
انطلق لاحقته همساته تصور له الحتام الرهيب القريب . ولم يشغله عن الغرة
زحفه ، ولا عن الهمس ضجيج جنده على أرض الديدان ، بل ظل ذلك الهيا
الوضئ يبدو حياه في سواد أمسيته ، وعلى صفحة القمر ، وبين ثنايا السحاب
الريقة . وظلت الهمسة النذرة تسرى إلى مسمعيه ، من الهدأة الساكنة ،
ومن وقع الخطا للزفافة على الرمل ، ومن ديب قلبه للضطرب وهي تردد له
مصيره في تواتر رتيب رهيب :

« سيصرعك الله . . . ويطحك لوجهك . . . يومك أو غدك . . . »

وما هي كذلك بالدعاء الوحيد ، في يوم واحد نعب الشؤم فوق رأسه مرتين
نعياً هز فيه إيمانه بالمجد واطمئنانه إلى الحياة . . . عمار أيضاً دعا ، بشفتيه
الذابلتين ذبول وريقة الخريف ، دعاء ثقل له قلبه وشرق حلقه وغامت عيناه .
وإنه ليخضى الآن إلى حيث يريد مباغتة ربيعة وفي أذنيه دوى ذلك الدعاء :

« صرعك الله . . . »

فيتلفت حوله ، باحثاً في الظلمة عن الشفتين الذابلتين ، والوجه المضميم للعروق ،
والقامة النحيلة التي براها عمرها الطويل وكأنما في حسابانه أن عماراً روح تهم
في الفضاء لا تردها عنه حدود الزمن والسافة ، حتى إذا غارت في الظلام نظراته ،
وتاه باله الحيران ، نشط خياله المحموم فرأى وسمع ما لاتنقله صورة ماثلة ولا يؤديه
لسان قوال :

« يا ابن عمر . . . بعت دينك بالدنيا من عدو الله وعدو الإسلام . . . »
وإذ ذاك يردد لنفسه كالمسحور :

« كلا . ولكن أطلب بدم عثمان . . . » .

« أشهد على علي فيك أنك أصبحت لا تطلب بشيء من فعلك وجه الله .
فانظر إذا أعطى الله العباد على نياتهم ما نيتك . . . » .
ثم يحمد الحيال . . .

وما هذه أيضا بخاتمة الأحاديث التي هزت دخيلة فؤاده بالطيرة . . إنه في هذا
الصباح — نفس هذا الصباح الذي يختم ليله بزحفته المخالسة ، قد سمع مازلزلته ،
وصبغ دنى أحلامه بالسواد . . . فلقد تهيأ حينذاك للقتال وقام نساؤه يشددن
عليه — كماداته — سلاحه . إلا الشيبانية بنت هاني انتحلت عنه ناحية . فلما
فرغ وهم أن يبرح ، صر بها كأنما ييكتها على ما كان من قعودها عنه .
قال لها وهو يدل باعتزازه :

« إني قد عبأت اليوم لقومك . وإيم الله إني لأرجو أن أربط بكل طنب
من أطناب فسطاطي سيداً منهم . . . » .
قالت المرأة ، ولم ترفع وجهها إليه :
« ما أبغض إلا أن تقاتلهم . . . » .
« ولم ؟ » .

« لأنه لم يتوجه إليهم صنيدي إلى أبادوه . . . » .
فابتسم . أدل عليها فلعلها أدلت عليه . ولكنها ما لبثت أن أردفت
بنبرة أسيانة :

« أخاف أن يقتلوك . . . » .

« ويحك . . . » .

« وكأنني بك قتيلاً وقد أتيتهم أسألهم أن يهبوا لي جيفتك . . . » .
عندئذ ثار . وأهوى عليها بقوسه فشجها .

وحين غادرها ، خلف في أذنها كلماته المغيظة للزهرة :

« ستعلمين بمن آتيك من زعماء قومك . . . » .

على أنه إن تغافل نبوءة الحسن وتناسى دعاء عمار ، واستهان بتطير الشيبانية لم يكن قط مستظيما أن يحجو من ذاكرته كلمات الإمام يوم عدا على الهرمزان فقتله انتقاما لأبيه عمر الذي جند له خنجر أبي لؤلؤة . كانت ترن في أذنه . فر فلاحته إلى حيثما سار . طار دته خلال الأعوام الطويلة السالفة في خلال خلافة عثمان من سنة لسنة ومن مكان لمكان ، ولم تفاح حماية الخليفة الشيخ إياه ، وتراخى قبضته اللينة عن عنقه ، أن تجعله في مأمن من القصاص المنتظر . وها هو الآن وقد عاش كالشريد ، ولحق بالمسكر الذي حسبه سيجنبيه نعمة ذلك المستمسك بحق ربه فيه ، لا يزال يسمع من وراء الزمن كلمات على كآها القضاء المقدور : « لئن فاتني في هذا اليوم لا يفوتني في غيره . . . » .

يسمعه تنبوع من مواقع خطاه . ويسمعه من سليل السلاح في كتيبتة الحضرية وهو يزحف بها تحت كسفة الظلام . ويسمعه ويتلفت حوالبه كأنما يتوقع أن يبرز له الإمام من ثنایا الليل لينفذ فيه ذلك القضاء . حتى إذا أشرف على مقصده ، استغرقته بعد ذلك هذا حركة جنده ، فيمضي شأوه وقد تنص عن نفسه ما جسم وهمه ، وانطلق في جمعه المعلم ، إلى غلبة خيلته ، ونصر تراءى له قريبا — قريبا هناك تنفسح سبيله وراء هذه الصفوف التي قامت دونه ودون مجده للمروق منذ الصباح . .

أما عمار فهو حينذاك في خلوة مع ربه ، غاب فيها قلبه عن حومة الصراع ، وخشعت نفسه ، وامتدت عينه إلى القبة السامقة التي نطقها الكواكب ، يضرع ويناجي الله ودمعه يبيل بحياه :

« اللهم إنك تعلم أني لو أعلم أن رضاك في أن أقذف بنفسي في هذا البحر لفعلت . . . اللهم إنك تعلم أني لو أعلم أن رضاك أن أضع ظبة سبني في بطني ثم أنحنى عليها حتى يخرج من ظهري لفعلت . . . اللهم وإني أعلم مما علمتني أني لا أعمل اليوم عملا هو أرضى لك من جهاد هؤلاء الفاسقين ، ولو أعلم اليوم عملا هو أرضى لك منه لفعلت . . . » .

أما معاوية فقد أنساه رجاؤه للمعاود ، ووثة ابن عمر ، ولعة الظفر التي صاحبها في بدء خطاه ، أن الامل والوثة والمعة جميعا رؤى وأحلام . إنها لتحجب عنه حقائق لولا وهمه لم تكن لتغيب . تحجب عنه ما في يمينه . وتحجب عنه ما تحت عينيه . وتدع خياله الجامح يسبح به في عوالم من الفراغ بغير نهاية ولا حدود . فصحيفة النصر التي كتبها له النهار قد طواها الغروب . أودعها الماضي . جعلها أسطورة . . . ومنذ ثبتت ربيعة ، ثم قوم الأشر بقية الخطوط ، ثم فرت الحضرية بات واضحاً أن حظ عاهل الشام في هذه الحرب عثر ، وأن نجمه غار . وليس هذا رجاء بغيب ، ولا انسياقاً لطيرة . ولكنه نتيجة حتمية نمت عنها طبيعة القتال والعوامل النفسية التي كانت تحرك خطأ أعدائه وأوليائه على السواء . فما كان عمرو بكفء عمار ، ولا ابن عمر نظير هاشم ، ولا هو نفسه يطول قدر الإمام حين ينظر إلى نتائج المعارك خلال الإيمان بالفكرة قبل الإيمان بالكثرة ، ومن ثنايا القدرة على الجلال والشوق للشهادة قبل تراكم العدة والأعداد من السلاح والأجناد . . . ومن اليسير أن نقبين أن الشك كان دائماً في جانبه ، وأن اليقين كان دائماً في جانب خصمه . وحليف الريبة أبدا خاسر ، وصاحب الثقة أبدا ظافر وإن توطأت للأول للنازل وتوعرت دروب الأخير . . على هذه الهيئة نفس معاوية والحضرية تعاود الهجوم : رجاء ساطع ولكنه سراب ، وقلق باهت ولكنه ثابت . وهل يغنيه أن يتشبث بمد هذا بالني العذاب الحلب وأفعى الريبة تنشب نابها في فؤاده ؟

ومع ذلك فلم تنتصف له الحضرية ، ولم يختلب ثمرة النصر التي شق في سبيلها جيشه الكبير كان الكفاح كرة وفرة ، وغلبة ودبرة ؟ والعيون التي لاحقت ذلك الصراع من ثنايا الظلام كان عسيراً عليها أن تميز القهور من القاهر ، والخاسر من الظافر . فاليدان مضطرب هنا وهناك بالخيول والرجل والمشاة والفوارس من هذا الفريق ومن ذاك ، وقد اختلطت الصفوف والخطوط كانتكاث الخيوط . والظلام مهيمن على الثرى المخبوب إلا للحبات كوكب طالت عليه شقة السير وأوهن عينه السهر . . .

تلك ليلة حازية ذاق فيها معاوية صاب الموت وما مات . لفحت قلبه في
جوها الرطب البليل ريح مثلوجة ، أوشكت أن تشله ، وتحيل الدم في عروقه
قطعة من جليد . . .

وكانت الريح من نفحات ربيعة !

إذ ذاك كانت هذه الفئة العنيدة من جنود غريمه تخطو نحوه على زوبعة ،
وتسرع على إعصار ، وتيمم من بين مصافه وفرقه وألويته شطربة لها وحيدة ،
بيضاء كالغرة بين مضارب عسكره ، لا تفلتها الأبصار .

ونحله حرصه على الحياة ذعراً مجنوناً نار بجسده الذي شلته البغته فاندفع
يعدو إلى غير غاية كالفرس الجامح حتى خلف قبه البيضاء إلى خباء من أخبية
جنوده يتوارى فيه . . .

وتلاحقت أنفاسه اللاهثة تختلط بهمسة :

« يا وبع ربيعة ! . . . لئن أظفرتني الله . . . » .

ثم لم يتم صيغة نذره إذ نفث شيطانه في ضميره فومضت عينه ، وهدأ جأشه ،
ومال بغمه على أذن رسول . . .

وعندما تهاوت من صفوف حماته الخمسة ثلاثة ، وخرق الرابع ، وهمت
ربيعة تقصف الأخير ، كان رسوله قد بلغ غايته ، وتقدم يسر لخالد بن العمر
رسالة العاهل للمهيض للذعور :

« إنك قد ظفرت . . . لك إمرة خراسان إن لم تتم » .

ولم يعقب خالد .

وشهدت الواقعة الظفر يندثر . . .

وشهدت الليلة القائد المهاجم يعود . . .

وشهدت ليلة سواها لاحقة ، عقيب أعوام ، ذلك الحائن وهو يسير على
طريق خراسان وفي يمينه كتاب توليته عليه خاتم ابن أبي سفيان . . .

الرضا في العين ، والحيرة في الفكر . اللعنة في الأفق ، والجحيم في الصدر . . .
معاوية إن نجما إلى حين . وإن اجتاز من الخطر غمرة فأمامه بعد غمرات . .
هو لا يفسى أنه الآن بإزاء عصابة من أصحاب علي واحد فرقة ، وفردهم كتيبة ،
يتوثبون إلى المصارع توثب النحل على الزهر ، خفاف الخطا ، ثقال القلوب من
يقين فلا تهزها الخطوب ، ولا ترجها النوازل

الآن هو بإزاء هاشم بن عتبة بن أبي وقاص . دعاه الإمام : « أقدم ! »
فلباه ، ووقف مصغيا بين يديه لحديثه وفيه دعاية ومزاح :
« يا هاشم . . حتى متى تأكل الخبز وتشرب الماء ؟ » .
فابتسم الرجل وأجاب :

« لأجهدن على ألا أرجع إليك أبدا ! . . » .
« إن بإزائك ذا الكلاع وعنده الموت الأحمر » :
« أما والله لتعلمن ، يا أمير المؤمنين ، إن شاء الله ، ألف بين جماجم القوم ! »
ثم استضحك ومضى بلوائه تملكه خفة ليست فيه هي غرس الشوق للفداء .
فلما وقف بصحبه على حافة وديان الموت ، راح يسألهم وعينه تحيط بالمسكر للقبائل :
« من أولئك ؟ » .

قيل :

« أصحاب ذي الكلاع » .

« وأولئك ؟ » .

« جند أهل المدينة وقريش » .

« ومن عند هذه القبة البيضاء ؟ »

قالوا له :

« معاوية وجنده . »

« فإني أرى دونهم أسودة . . . »

« ذاك عمرو بن العاص وابناه ومواليه .

فأعاد عينه إلى رفاقه ، وهتف في ثقة واعتداد :

« . . . إذا رأيتموني هزئت هذه الراية ثلاثا فاعلموا أن أحدا منكم

لا يسبقني إلى الحملة . . . »

ثم تخير من بينهم واحدا وأوصاه :

« . . . فإذا رأيته قد صرعت خذها . »

وسار يرقل بلوائه ، وإلى جواره عمار بن ياسر نضا عن نفسه وهن التسمين

واشتد في سيره ، كلما رأى من رفيقه التؤدة في الزحف راح ينخسه بسن رمح

معاتبا ويتمجله :

« أقدم يا أعور ! . . لا خير في أعور لا يأتي الفزع ! . . » .

فيضحك هاشم ويرد عليه :

« رحمك الله يا عمار . . . إنك رجل تأخذك خفة الحرب . وإني إنما أزحف

باللواء زحفا وأرجو بذلك أن أنال حاجتي . . . » .

ثم يتقدم فيركز الراية . فإذا تنامت له الصفوف عاد للزحف من جديد . . .

وقال عمرو بن العاص ، وقد بدت الفرق الزاحفة أمام عينيه تنطلق وثيدا ،

وتقاتل وثيدا ، ولا تسكاد تمضي بها القدم خطوة أخرى إلى أمام حتى تظهر

الأرض من كل منازل :

« إني أرى لصاحب الراية السوداء عملا . . . ثمن دام على هذا لتفنين

العرب اليوم ! » .

وتساءل معاوية :

« من هذا للقبيل ؟ »

قيل :

« هاشم للرقال » .

فعمدند طفرت به الفرعة ، وصاح :

« أعور بني زهرة ؟ . . قاله الله ! » .

ثم خاطب ابن العاص :

« ويحك يا عمرو . . . إن اللواء اليوم مع هاشم بن عتبة ، وقد كان يرقل به من قبل إرقالا . . . فلئن زحف به اليوم زحفا إنه لليوم الأطول لأهل الشام . . » .

وهو الآن بإزاء عمار . . أفينكر قدره ؟ . . أم يغفل خطره ؟ . . أم ينسى تلسم السنين المواضي التي سطر هذا للعمر الشيخ في سجلها خفراً يزرى بكل نحر ، وصبرا أو هن عزائم الكفر قد باركه محمد وحياء الله ؟ . .

لا ينسى معاوية ما كان . . إن الغابر لينساب إلى ذاكرته ، قطرة قطرة ، حسوة حسوة ، حق تتجمع بها شوارد ظلاله وخطوط نوره وتلتئم صورة كاملة للفناء في الحقيقة الواحدة التي كل ما عداها باطل هباء . . فيومذاك — والعرب فوضى همل ، والحكم بينهم لميل والعزى واللات ، والدين زر والشرك بحر — عذب عمار ، وقتلت أمه ممية ، وقتك بأبيه ياسر أمام عينيه فلم ينل من إيمانه كل هذا الإيذاء مثلما يقضى عين ذباب . . . وعندئذ أكرمه ربه ، وأنزل فيه والصابرين معه :

« والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا ، لنبوئتهم في الدنيا حسنة ، ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون . . . » .

فكأنما استأخره الله لموتة أخرى تبوء بإعها طائفة من سلالة معذيه ، وكأنما حدد أجله — ذات نهار سالف ، من نحو جيل — ذلك الحديث الذي جرى به لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم . ذات نهار كان المسلمون إبانة يماونون نبيهم في بناء مسجده ، ويحملون إليه الأحجار حجراً حجراً ويحمل عمار حجرتين حجرتين ، والجهد على عيائه ظاهر ، والخشية أن ينوء — وهو هزيل ضعيف — تضطرب في خواطر الكثيرين . . .

وأشفق محمد عليه :

« يا أبا القظان ، لا تشفق على نفسك » .

ثم ما لبث — وقد تكشف لبصيرته أن تعب عمار ذاك لن يودى به ، وأن
حينه لا زال بعيداً — أن رق له ، ومسح ظهره ، وبشره :

« إنك من أهل الجنة — تقلك الفئة الباغية . . . » .

وها هي الآن : هذه الفئة للنكودة ، تضطرم نفوسها تحرقاً لهرعه وإن
بقيت فيها قلة ذكرت فراح القلق ينوشها خشية أن تحقق عليها قولة الرسول فتبوء
بشر منقلب ، وتؤوب أخسر مأب . حق ابن العاص كانت الخشية تهز عصبه ،
وكانت الريبة ترج قلبه ، وكانت نفسه المفتونة بزخرف الحياة يرين عليها الانقباض
والوجوم كلما سبج خياله إلى ساعة من عمر هذه الحرب قد تطلع الليلة ، أو في
غد ، أو ذات صباح على عمار وهو مقتول .. ولقد ساقه فزعه إلى الشيخ يلقاه
بكلام عساه يعطفه إلى صفوف فئته ، أو يبعده عن مهاوى الأجل بوقعتهم تلك ،
فيجنيه حينه إلى حين ، تتجنب الشام أن تبوء بدمه . ولكن ابن ياسر كان
قد عزم عزمه ، وعرف موطنه ، وعلم من نفسه أنها على هدى وحق ، فلم يختله
الدهاية الخائل ، بل ذاق من لسانه كل مهانة وتحقير . . .
وقال عمرو بعد فشل حيلته :

« . . ولم تشتنني يا أبا اليقظان ولست أشتمك ! »

أجابه الشيخ :

« وبم تشتنني ؟ أتستطيع أن تقول إنى عصيت الله ورسوله يوماً قط ؟ . . » .

« إن فيك لمسات سوى ذلك . . » .

فسخر عمار من لمز غريعه :

« أيها الأبترا . . . إن الكريم من أكرمه الله . . . كنت وضعيماً فرفعنى

الله ، ومملوكاً فأعتقني الله ، وضعيفاً فقوانى الله ، وفقيراً فأغنانى الله . . . » .

وغضب معاوية إذ فشا خبر ذلك اللقاء في رجاله ، وإذ علم الكثيرون بحديث

عمار والفئة الباغية التي تجندله فتزد النار . . . واستحضر إليه ابن العاص يلجأه :

« ويحك ! . . أفسدت على أهل الشام . »

« وكيف ؟ » .

أكل ما سمعت من رسول الله تقوله ؟

قال عمرو يعتذر :

« قلتها ولست والله أعلم بالغيب ولا أدري أن صفيين تكون . . . قلتها
وعمار يومئذ لك ولي ، وقد رويت أنت فيه مثل الذي رويت فيه . . . »
وقلب العاهل كفيه من حيرة ، وغام وجهه ، ثم أسر لنفسه وهو متوجس :
« هلكت العرب إن أخذتها خفة العبد الأسود . . . »

وهو الآن بإزاء قيس بن سعد بن عبادة ، مارد الأنصار . لو قد هادن معاوية
زمانه لقبع ذلك الداهية بالمدينة يجتر فيها آلامه . . . لكن الحق أبقظه ، وأحيى
غضبة الجبار فيه . . . فما كاد يشمر كيد صاحب الشام ويخرج العملاق من أرض
النيل حتى انبرت له طائفة بمستقره الجديد ، تنخسه بسخريتها مرة ، وبشمتها
أخرى وهي ترجو أن تخيفه أو تذله . . . وكانوا جميعهم من حزب عثمان ، ومن
جماعة ابن هند وأذنابه الذين أيدوه باللسان ، وناصروه في صراعه بالهتان ،
ورنوا غير حافلين بالمبادئ السوية إلى أن يعيدوا إلى الحياة عهداً مات ، قد طوى
الغابر أيامه ، وختم شرووه وآثامه ، وغربت الشمس على وجهه البغيض . . .
وقطع حمقهم غفوة الأنفوان . . .

وعندئذ نفص إهابه ، ونفخ سحره ، وانطلق يسعى وهو يفع ، يضرب
بذيله ، ويبدى نابه ، ويلوك لعابه . . .
هنالك عيروه إذ نزع ابن أبي طالب ووضع مكانه ابن الصديق عاملاً
على النيل . . .

توعده مروان . . .

وهدهد الأسود . . .

وركبه حسان بن ثابت بالهتان والشماتة :

« نزعك على ، وقد قتلت عثمان فبقى عليك الإثم ولم يحسن لك الشكر . . . »

فضاق بالمارد اللقام ، وعنف بالشامت الضرير :

« يا أعمى القلب والبصر ! .. والله لو لا أن ألقى بين يدي وهطى ورهطك حرباً
لضربت عنقك ! .. » .

وسار من فوره فقدم صفين يضع عمره وسيفه في يد الإمام . . .
وربيع معاوية فبعث للأسود ومروان ، طرفي تلسم الجماعة المناصرة للحقهاء :
« أمددتما عليا بقيس بن سمد ورأيه ومكانه . . . والله لو أنسكما أمددتما
بمائة ألف مقاتل ما كان ذلك بأعْيظ لي ! .. »

وبإزائه أيضاً الأشتر ، صاحب منجج والنخع ، وأعدى الناس لباطل
الشام ، وأول ناصر لحق الإمام . . . وحين يذكر الأشتر فقد ذكر الذي لا يثبت
لعناده صابر ، ولا يتقدم عليه مغامر ، ولا يسبق خطاه حين الفجرة مقدم .
الذي حرك الدم إذ جمد ، وسعر القتال إذ برد ، واختلب النصر وكان لقي بين
برائن الهزيمة . . . ثبت وقد تفرق الناس ، ونهد وقد قعد الناس ، وكر بطوائف
على وأجناده وهم حينذاك مزق وحلول فعدوا به كتلة مرسوسة من البطش
والأيد ، ومن الصبر والجلد ، ومن البذل والفداء ، لا تزال تضرب وتنطلق فتهد
من عدوها العزائم ، وتزلزل تحته المواقع ، وتنتثر بينه الخوف والمصارع ، وليس
لها من ورائه غاية إلا تلسم الغبة الكبيرة البيضاء !

ثم دع عنه الأشتر ، فدونه غيره كثير . . . دونه الأحنف بن قيس ،
ودونه سهل بن حنيف ، ودونه أبو أيوب الأنصاري ، وصعصعة ، وجارية ،
وابن سرد ، وابن عباس — رجال لا يطولهم الأبطال ، وليس كمثلهم خلاصة
الرجال . . . فمنذ له هو الآن ؟ عمرو ؟ ابن عمر ؟ ذو الكلاع ؟ .
أم هذه الملائكة من أهل بيته ، كعتبة والوليد ومروان ؟ . .

كلا أدار ذهنه فيهم طاموهم بالتخاذل . . . جمعهم يأمرون حين تحزبت عليه
الأمور عسى أن يحكموا له الرأي ، أو يسوقوا للمشورة ثم يجرهم حديثهم إلى حمية
تدفنهم دفناً إلى الوقوف لابن أبي طالب صخرة عاتية تسد طريقه أو توحيه . . .
وانبرى عتبة بن أبي سفيان — كأنما ينطق بنزع أخيه — يشير فيهم النخوة
وهو يذكرهم ثأرهم لدى على ، ودم الأسلاف الذي بل رذنه ، وصنع كفيه ،
وسقى التراب تحت قدميه :

« إن أمرنا وأمر على لعجب ، ليس منا إلا موتور . . . »
ثم عدد لهم مصارع الآل :

« . . . أما أنا فقتل جدى ، واشترك فى دم عمومتى يوم بدر . . . وأما أنت
يا وليد فقتل أباك وأيتهم إخوانك . . . وأما أنت يا مروان فكما قال امرؤ القيس :
وأفلتهن علباء جريضا ولو أدركته صفر الوطاب
وتذاكروا جميعا بلوهم ، واجتروا همهم وما منهم إلا ناغم يكاد نسانه لو طال
عليها لنال منه ما تجبن السيوف عنه . . . عندئذ حسب معاوية أن قد بلغ غايته ،
فكلم محفزهم :

« هذا الإقرار ، فأين الغير ؟ »

قال مروان يسأله :

« أى غير تريد ؟ » .

« أريد أن يشجر بالرماح . . . »

فإذ ابن الحكم — وقد قبدت له الحياة فى جانب يهم أن يقتحمه على عليه —
غدا كالدلى إلى قبره وما يزال نفسه ملء صدره . . . أفما يتشبث بالحاقة
قبل أن يبلغ القاع ؟ ألا يؤثر السلامة ، وينسى النقم ، ويطل الدم ؟ . . .
بل قد أثر الرجل ، ثم سخر :

« إنك يا معاوية لهازل . . . »

وتبعه الوليد يتهم :

« غير ؟ » .

أتأمرنا بحية بطن واد إذا نهشت فليس لها طيب ؟ »

ثم عرض به حين نكل عن مبارزة طى ، وعرض أيضا بصاحبه عمرو حين
اتقى المنية بسواته . . .

وخزى ابن هند ، وصمت . . .

وغضب ابن العاص ، وثار :

« إن كان صادقا فلياق عليا أو ليقف حيث يسمعه صوته . . . »

٤

فرغ الشجار وانقض السامر . . .

انقضت تلك الجلسة بين معاوية وذويه ، وعلى هو هو ، ملفوفا برهبة تصدم عن لقاءه إلا أن تنوشه السنم العيابة . أما النخوة ، وأما خروجهم له فرادى في مجال مبارزة ، أو خلصة لغيلة ، وأما تأرهم منه لمن قتل من آبائهم وأهليهم في با كورة الإسلام فظلت كأنها حديث حلم وهينمة نائم . . .

ولم تكن هذه الجلسة وحدها مشهود للملاحاة الفريد بين العاهل وآله ، والخلص من رجال نيته ، والحيرة الملتفة حوله من عشيرته . . . في كل يوم كان له معهم حديث ، ومنهم شكوى ، وفيهم حث وتث وتحريرض لملهم أن يكفوه خصمه ، ويرسموا لغيرهم من الأعوان قدوة الكفاح . . . والكنهم كانوا دائماً يؤثرون السلامة إن علموا الغمرة ستدنو بهم من يد الإمام ، فالنأى عندئذ أجدى ، والتولى أجمل . . .

ولقد بلغ من تهافت بعضهم ما لعله أطمع الناس في مجموعهم بأكملة ، فكانت نظرة الجيش الأموى إلى خاصة معاوية كالنظرة إلى معرة . وأنكرت العامة تأمرهم ، وضافت بهم قبائل المحاربين ، وبات معاوية لا يأمن بعدها أن يختلف عليه أجناده الذين قلد أمورهم رجالا من بين أولئك نفر من آلهم وقومه ، الصلف بأصله ، الهين بفعاله . . .

جاءه من اليمن امرؤ لم يكتف عنه ما خالج النفوس من موجدة على أولئك الأمراء الذين قدمتهم الأحساب ، يقول له :

« يا معاوية . . . إني قلت شيئا فاسمعه ، وضعه منى على أنه نصيحة . . . »

« هات .. »

« عقدت لبسر وأصحابه وما الناس حولك إلا اليمن

فلا تخططن بنا غيرنا كما شيب بالماء محض اللبن ! »

ومضى الرجل بشعر يضم نخره بقومه ، ولا يغفل غمز من تأمروا عليهم من
خامسة العاهل وأقربائه ، حتى كبا لحديثه وجه معاوية وأظلمت من الحجل عيناه .
وأغضى ابن أبي سفيان ملياً ، فلما رفع محياه الذي طانت به خطوط خزيه ،
قال عاتياً لوجوه اليمن :

« أعن رضاكم ، قال هذا ما قال . . . »

فلعلهم استحيوا حينذاك أن يجبهوه ، واكتفوا بأن ترفقوا له في الجواب :

« لا مرحباً بما قال . . . »

وعندئذ فأت إليه نفسه ، ويطن رده عليهم بمألوف مداورته وليته :

« إني إنما خلطت بكم ثقاتي وثقاتكم ومن كان لي فهو لكم ، ومن كان
لكم فهو لي »

ولكنه في قرارة نفسه كان يعلم أن مدافقته إياهم ليست تنال الرضا منهم ،
ولا تبدد من مسخطهم على الوضع القائم إلا بقدر ما يبدد النسيم من جبل . . .
ما كان هذا ليخفي عنه وهو العليم بالناس ، الخبير بالأنفس ، العارف بأطوائهم
كمعرفته طواياه . . . بل الأيام أيضاً صدقته حدسه وحققت له ظنه المستريب فيهم
كما حققت بأسه من وفاء أهله له ، وبذلهم من أجل أهدافه سواء بسواء . . .
وكان ذلك وقد حميت الوقدة ، واشتجر الناس ، وأوفت الحرب على
الفصل . فإذ ذاك دعا إليه مروان يحثه :

« إن الأشتر قد غمى وأقلعني . فاخرج بهذه الخيل في كلاع ويحصب ،
فالفقه . . . »

فما زاد ابن الحكم على أن أجابه بغير مبالاة :

« ادع لها عمرأ فإنه شمالك دون دثارك . . . »

قال العاهل يدهاته :

« وأنت نفسي دون ويردي . . . »

« لو كنت كذلك ألحقني به في العطاء ، أو ألحقته بي في الحرمان . . . »

ولكنك أعطيته ما في يديك ومنيته ما في يدي غيرك . فإن غلبت طاب له اللقام ،
وإن غلبت خف عليه الحرب . . . »

ففرغ صبر معاوية وصاح :

« يغنى الله عنك . . . » .

وأقبل عليه عمرو يقول رياء وشماتة :

« والله إني لا أقول لك كما قال مروان . . . » .

فتار العاهل الحليم لهذا الملق للكشوف :

« ولم تقوله ؟ . . . قدمتك وأخرته ، وأدخلتك وأخرجته ! »

وهنا لم يموز عمرو أن ييدهه بما يكره :

« قدمتنى كافيا ، وأدخلتنى ناصحا . . . قد أكثر القوم عليك في أمر مصر ،

فإن كان لا يرضيهم إلا أخذها فخذها . . . »

ولكنهما تصافيا . . . وخرج عمرو في كلاع ويحصب للأشتر ليعلم سيده أنه

رام نصره لا يرجو نمنا سوى رضاه . . . فإذا هو — وقد سدد خصمه إليه رجه

— ينثنى ، ثم ينأى ، ثم يفر إلى النجاة والحياة . . .

وعندئذ صاح به فقي من جنوده :

« يا عمرو . . . عليك العفا ما هبت الصبا . . . يا حمير . . . إنما لكم

ما كان معكم . . . أبلغوني اللواء . . . » .

وثبت الفتي حيث هرب قائده ، وقضى وهو قائم على قدميه في الميدان .

وشمت مروان بعمرو . . .

وغضبت اليمنية ، وعادت سخطها القديم . . .

وقال قائلهم لمعاوية :

« تولى علينا من لا يقاتل معنا ؟ . . . ولرجالنا ، وإلا فلا حاجة

لنا فيك . . . » .

وقال شاعرهم :

« معاوى إما تدعنا اعظيمة يلبس من ذكرائها الغرض بالحقب

قول علينا من يحوط ذمارنا من الحميريين الملوك على العرب

ولا تأمرنا بالقي لا نريدها ولا تجعلنا للهوى موضع الذنب . . . »

هذه غيرة خلصائه ، وتلك الروح التي سirt خطاهم — أو قعدت بهم —
والساعات تجري سراعاً إلى خاتمة صفين . ولقد أحمه أن ظل على دائماً بنجوة
عن المبارزة ، أو الهجمة ، أو الغيلة يتقدم بها إليه دارع أو حاسر من أبطال
الشام حتى غدا لا يظهر لهم إلا لووا عنه أفراسهم وتحاموا لقاءه . وكم نغم منهم
معاوية فعلهم ، وعاب عليهم تهاوت القلوب وتبدد الحمية كأنما نسي أن نكوصه
هو عن نزال الإمام قد عساه عليهم التشبث ببقية العمر . . . وكان دائب الثلب
لهم ، لا يكف عن تأنيبهم كلما ضاقت عليه الأحوال :

« العجب يا معشر قريش أنه ليس لأحد منكم في هذه الحرب فعال يطول به
لسانه ما عدا ابن العاص . . . فما بالكُم ؟ . . . وأين حمية قريش ؟ . . . »
فقليلاً ما حفلوا . . . لا يحرك حفزه وتعييره فيهم دماءهم الراكدة ، البيضاء
كلما . . . إنما انطلقوا دائماً وسنتهم للأمن ، يسمعون كسمع الصم إن ارتضوا
السكوت عنه وعافوا الملاحاة والجدال . . . ولقد يشهد الرجل منهم الرجل من
الدهاء والحشالة يستفزه حفز العاهل فيقدم حمية يبارز الإمام فلا يعد غير بصره
يتابع اللقاء إن كاد . ولقد يحق معاوية هذا الجود الذي التزموه فيعدو حلمه ،
ويعنف لهم في القتال فلا يدعونه وغضبته ، بل يبادلونه للمرة بمرة ، ويردون عليه
عنفه الصاع بصاع ، والذراع بذراع ، وإن جهره ، وإن على ملأ الأجناد

كذلك فعلوا غيب نكوله عن مبارزة علي ، وما من بينهم شريف واحد
مقدام يسل سيفه ليدفع به عن « شجاعة » . ولأه التي اقتحمها الأعيان ولا كتبها
الأفواه ثم لفظتها على الرغام . . . إنما انبرى دونهم رجل من عرض الناس ،
هو عروة بن داود الدمشقي ، بهم ليأخذ مكان سيده ، وقد امتلأ بالفرور صدره ،
وحى أنه ، وعمى قلبه ، ولعت عيناه — نطق حينه بلسانه فصاح :

« إن كان معاوية كره مبارزتك ، يا أبا الحسن ، فهلم إلي . . . »

وهذا بال ابن هند وارتاح . . .

وعجبت الشام . . .

وتقدم إلى علي بمض رفاقه يثنونونه عن الفرور :

« ذر هذا الكلب فإنه ليس لك بمخطر . . »
ولكنه أبى إلا أن يجيب للغامر إلى ما أراد ، وقال :
« والله ما معاوية بأغيط لى منه . . دعونى وإياه . . »
ثم هتف يحدث المغرور المختال :
« اذهب يا عروة فأخبر قومك ! »
فإن هى إلا كلماته تنطلق ، بعضها لا يزال فى فيه ، وبعضها على النسيمة ،
وبعضها تلتفقه الأسماع ، حتى هوت ضربته ، وهوى معها عروة بن داود : قطعة
يعة إلى هذا المسكر ، وقطعة يسرة إلى ذاك .
وارتج الميدان . . .
وصرخ ابن عم لعروة وقد هاجه الدم للمهراق :
« واسوء صباحاء . . . »
ثم تقدم ليثأر . فإذا هو فى هنية لحم وعظام على الأديم الأحمر ،
بجانب القليل . . .
عندئذ ارتجف معاوية من حنق وغيط وهو يشهد رفاقه قد انكشوا جميعهم
فى جلودهم كأنهم قنافذ ، لا يجرؤ واحد منهم على تلبية دعوة على المبارزة ،
وهتف فى ثورة :
« تبا لهذه الرجال . . أما فيهم من يقتل هذا مبارزة أو غيلة ، أو فى
اختلاط الفيلق وثوران النقع ؟ . . »
وكانت إصبعه تشير وهى تهتز إلى الإمام .
فما أتم حتى انبرى له الوليد بن عقبة يقول :
« ابرز إليه أنت ؟ فإنك أولى الناس بمبارزته . . »
ولفظ بمثل قوله الرفاق الآخرون ، على ملأ الناس ، حتى ديست كبرياء
العاهل وانتكح إباؤه . وحتى رأى عتبة بن أبى سفيان — ليحسم القضية —
أن يعفيهم من الهول ، فقال لهم وهو يرمى إلى على وقد كان لا يزال يدعو
صناديدهم لئلازلته :

« الهوا عن هذا كأنكم لم تسمعوا نداءه ، فلا أرى أحدا يتحرك به إلا قتله . . . »

لكن معاوية خاف مغبة هذا الجبن الذي شاع في قلوب أبطاله أن ينتقل لعامة جيشه فيعديهم ، وييث فيهم الجزع والتخاذل . فما زال يحث ، ويحرض ويستصرخ القادة والأشراف ، حتى هم نفثه الساحر في نفس بسر بن أرطاة أن يعيل به . . .

وعاد يفرجه :

« أتقول لمبارزته ؟ » .

« ما أحد أحق بها منك . وإذا أبيتموه فأنا له . . »

فمست الزاحاة قلب العاهل أن استجاب هذا لتحريضه ، وقال :

« ستلقاء في العجاجة غداً في أول الخيل . . » .

وعلى هذا افرق الرجلان .

وقال ابن عم لبسر يسأله ، وقد آب ذلك اليوم من الليدان :

« إني سمعت أنك وعدت من نفسك أن تبارز عليا . . . » .

« نعم » .

« فما يدعوك إلى ما أرى ؟ » .

خفص بسر وجهه هنية . ثم قال :

« الحياء . . . خرج مني كلام فأنا أستحي أن أرجع عنه . . » .

وحين آن اللقاء في اليوم التالي ، راح بسر يشجع نفسه :

« وهل هو إلا للوت ؟ لا بد والله من لقاء الله . . » .

ومع ذلك فقد نكل — كصاحب له من قبل — وسقط أعزل على الأديم

يدفع للنية بسواته . . . فعل فعلة ابن العاص . فلقد علم — فأمن — أن الإمام

يأنف لسيفه أن يصيب خصماً أعزل ، بغير عزة ، ولا حياة ، ولا سلاح . . .

واشترى الحياة . . .

ولكنه لم يلق بعدها علياً قط إلا تنحى عنه ناحية يتحاماه . وعلى هديه

جرت بطولة الفوارس من الشام . . .

حق ابن العاص قد بدا له أحيانا كالبقية الآخرين من أصحابه . يملكه همه ، وتشغله نفسه عن الأهداف العليا التي كافح لبلوغها كل هذا الكفاح الدائب المرير ، الذي لطن جبينه بالعرق ، وغمس ضميره في الدم ، وجعله أمثلة لاهتبال الوسائل واعتساف الحلول ليقنص الغاية من أى سبيل .

هو لم يخذله . لم يقعد عنه في أوان اضطراع لم يلق كفاحه بقلة اللبالة التي كانت في الأغلب الأعم شعار تلسم الخلاصة من الرفاق . ولكنه أوشك الليلة — والذهول فيما يلوح قد تولاه — أن يسلمه إلى مخالب مصيره .

كان دائماً عدته . وكان صاحب شوره . وكان عزاءه في كل محنة وكارثة
وحين احتدمت الوقعة — من قبل والآن — كان له درعه الحامية ، يرد عنه عادية عدوه ، ويذود في سواد من فرسانه كشف كسحب الأمطار أية هجمة تطلعت نحوه بقمة التل ومشت تهطع إلى الفسطاط الأبيض .

على سفح التل وقف يرقب حركة الجيوش العلوية التي دبّت في أوصالها الحياة وأقبلت عليه بالموت . راح يتأهب لها وسعه ، ويقدر ويعد ، ويرتب ويحتال في نظام وثبات . على حذر . بلا خور إنه الآن في جمع من للقاتلة راسخ ، عريض كالنهر . . . كالحندق دون الفسطاط . كسور القلعة . ومن ورائه معاوية رخي الببال ، يستشعر انطمأئنة ولا يرهب الخطر . فهو بحمي عمرو وجنده بجنة مانعة ، وفي كنفهم بملاذ آمن

غير أن طبيعة البشر في ابن العاص بدأت الحال . فإن هي إلا جولة في الميدان حتى اضطرب قلبه بين جنبيه ، لا من جبن ، بل من رقة وإشفاق . فلقد هزته عواطف الأبوة فتسى نفسه ، وخفى عنه واجبه ، واستحال كيانه كله كتلة نابضة بالحلب الذي يفتن ، وبالولة الذي يذهل ، وبالملع الذي يضل ، وبات ريشة في يمين إعصار

إذ ذاك كانت تلوح بحدا الأفق ، على الضفة الأخرى من «نهر» جيوشه ، يقع من السواد تهتز ، فتلتئم وتفترق ، وتتباعد وتنتظم ، لحظة لحظة كأنها خطوط الظلال إذ تبعثها فتيلة مصباح عبثت به إصبع الريح . . . من بين يديه أقبلت . من تلكم الناحية التي وضع عليها عينه طوال ساعات النهار والليل ليأمن منها البقعة على نفسه وعلى سيده الذي لاذ بحماه . من عسكر الإمام . . .

وسرح خيال عمرو . . إنها إذن الالتحامة التي تجفف اللداد ، وتطوى الصحائف ، وترفع الأقلام .

أوان المزائم آن . في غد قد تطلع الشمس على أحلام ذابت وأحلام ثبتت وفرعت وطالت سرحة من الحقائق إلى السماء . . . على مغرب مجد ومشرق مجد . . . على دولة محتويها الغابر ودولة يطلعها الحاضر كما تطلع الشجرة باكورة الثمار . . . وحى ابن العاص . . .

ثم تقدمت البقع السوداء . ثم دنت . ثم بدت للميون الرقيبة فوارس أجلادا ورجلا شداداً يعزهم بهيئاتهم وقسماتهم الحماة ، وعمرو ، وساكن القبة الكبيرة البيضاء وهم يمدون نحو التل كأنما ييممون شطره على جناح . . .

وثار النقع من كشب كدخان حريق التهم شقة الأرض الحرام التي تفصل بين فريقين صفيين . ومن ثنايا غيومه الغبرلاح على أدمه يزفر لهباً ، ويرنو يشواظ ويسوق المنايا أمامه كما يسوق الحجيج هديه حين الإحرام . . . فإذا الأرض تميد ، وإذا القبور تنشق ، وإذا الخلق تجحف ، وإذا القلوب تذوب . . .

عندئذ دوت بين جمع الحماة صيحة ثاقبة ، كنفحة الصور يوم الهول الأكبر ، زارت بها حنجرة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد وهو يحذر معاوية وجنوده : « غشيناً ثعبان مثل الطود الأرعن . . . »

فتهانف صحبه من رجال الشام :

« ثعبان ؟ . . . »

« على . . . أثار قسطلا حال بيننا وبين الأفق ، وهو على أدم شائل ،

يضرب بسيفه ضرب غرائب الإبل ، كاشراً عن أنيابه . . . »

وتحركت لهأة العاهل برهة ، ثم حبس كلامه في فيه .
إنه يباب خبائه ذاهل الدهن ، حائر النظرة ، جامد الجسد كوتد
الفسطاط . . لا يزال بصره القلق يتبع الإمام وهو ينقض ، ويلاحق سيفه
وهو يخطف فلا يثبت إنسانه ولا يكف لمح ودورانه . جفنه يرمش . عينه
ترعش . قلبه في جوفه يسيل خشية حق أو عك أن يحسبه بلال الرمال . .
وحين تحرك من بعد لسانه ، رجفت أذنه عندما صكها حديثه كأنما باغته
سواه بالكلام . وانطلقت نبراته خافتة كالممسة ، حزينة كالأنين :
« والله إنه يجالد عن نرة له ، ويقا تل عن نرة عليه . . » .

ثم تعلقت نظراته بالغبار الكثيف كالظلمة ، المنتشر كالغيم ؛ وبالصوارم
اللامعة كالبرق ، الهاوية كالصواعق ؛ وبالصقوف الممتدة حياله كسور القلعة
لتحميه — يبحث بينها عن صاحب سره ونجواه ، رفيق همه وبلواه لعله يغيره
الثقة أو يعمده بالطمأنينة . .

لكن ابن العاص كان إذ ذاك مشغولا عنه ، قد نضا عن نفسه إهاب القائد
ولبس جلد « إنسان » . . نسي العهد ، والحرب ، والمجد ، والمطامع الطويلة
العريضة وذكر فحسب أنه « أب » يوشك الردى أن يسلبه ولديه . .
وزحفت إلى قلب عمرو كف هاصرة ، تقتصر منه هدوءه وأمنه ، فهتف
يتوجس :

« على من هذا الرهج الساطع ؟ . . » .
وإذا الجواب ، الذى تنبأ به من قليل فؤاده ، وهمست به في ضميره حاسة
الأبوة قبل أن يصوغ السؤال ، يأتيه :
« على ابنك : عبد الله ومحمد . . » .

فما عثم أن قفز كالندى به مس ، يدفع الناس من جحفله ، هذا يمنة ، وذاك
يسرة ، وهنا وهناك وهو يجالد ليفتح بينهم طريقا إلى الخطر . إلى الهول
الزاحف . إلى الموت المقبل صوبه كالشلال . . .

كان كالطائر الحبيس يضرب بجناحه ، ويبحث بمخبله ، وينقر لينقب جدار

قفصه الذى حرمه الفضاء . . . كان يناضل ليبلغ فرخيه وإن أُنحِت بدنه الجراح
وإن دُمى طوقه . وإن انثر ريشه فتطايرت قوادمه أو تمزقت خوافيه . . .
وفي عمرة العاطفة المندامة بين جنبيه اندلاع السعير ، نسي الأب الواله أميره ،
ونظام صفوفه ، ودوره اللازم في قيادة قوة الدفاع ، وانطلق جزواً ينادى غلامه :
« يا وردان ! . . . »
فأقبل يأتمر . . .

خبيا لهذا لون صاحب الشام . . . فمن مرقبه يباب فسقاطه شهد صاحبه ،
والفرعة التى تغشت عياه ، والنقطة الجائحة به من الثبات للمرج ، ومن الرسوخ
للتقلقل . . . وهل بقي بعد لماوية إلا أن يرى في الصورة الجديدة لحليفه نذير
شؤم بانتقاض الخطوط التى تحميه وتقوض السور الذى يستره ؟ .

وهتف بأمره :

« يا أبا عبد الله . . . لا تنقض الصف والزم موقعك . . . »

« فما ألقى إليه عينا ولا أذنا . إنما عاد يهيب بفتاه :

« يا وردان ! . . . تقدم . قدم لواءك قدر قيس قوسى ولك منى جارية . . . »

فكرر مماوية نذيره وأمره :

« مكانك ، أبا عبد الله — لا تحملن . . . »

« هيهات ! . . . »

الليث يحمى شبليه ما خيره بعد ابنه . . .

« إنه ليس على ابنك بأس »

وعندئذ صرخ عمرو يزجر الأمير :

« ويحك ! . . . إنك لم تلهما ، وإني أنا ولدتهما ! . . . »

ثم حمل وهو لا يفتأ يعرض غلامه ، ويعاود تهريضه بصوت مجنون :

« قدر قيس قوسى أقدم ! . . . أقدم ! . . . قدم لواءك يا وردان ! . . . »

ولم يدر عينه إلى معاوية إلا ليغمزه بنبرات تقطر منها مرارة نفسه ووجيب قلبه لللهوف :

« أو لو كان يزيد بن معاوية إذن لصبرت . . . »

ومضى يشق الغبار .

على أنه — إلى هذا كله — كان أدنى صحبه منه ، وأكثرهم غيرة عليه ، وأشدهم رغبة في تحقيق أطمائه وإن أبى الأمويون حينذاك إلا غمزه ، وحسده ، ونفس قدره لدى سيدهم الذى خصه — دونهم — بالتقديم . . . فكم بذل العون . وكم ساق النصيح . وكم حاك الحيلة . كانت الكروب تقبل فيشير . وكانت الأمور تضيق فيحتال . وكان القتال يحتمل فيخوض . . . ولم يكن معاوية بغافل عن حقيقة الدوافع التى تعطف عليه الرجل وتشده وإياه إلى طنب واحد . فلا عن مروءة كان بذل ابن العاص ولا عن نجدة قتاله . ولا عن وفاء نصحه أو احتياله . إنما عرفه على ما كان قد عرفه قبله ووصفه الإمام عندما قال :

« . . . يقول فيكذب ، ويعد فيخلف ، ويسأل فيبخل . . . فإذا كان عند الحرب فأى زاجر وأمر هو ما لم تأخذ السيوف مآخذها . . . »

وعلى ما كتبه إليه أيضا الإمام ، ذات مرة ، يكشف أمره . ويفضح سره الذى لبسه بدعوة مؤازرة ابن أبى سفيان فى الثأر لعثمان :

« . . . جعلت دينك تبعاً لدنيا امرئ ظاهر غيه ، مهتوك ستره . . . فاتبعت أثره ، وطلبت فضله اتباع الكلب الضرعام يلوذ إلى محالبه ، وينتظر ما يلقى إني من فضل فريسته . . . »

كان معاوية يعرف ابن العاص على هذه الهيئة المسوخة من المروءة والولاء والبسالة ثم لا يبرم به ، ولا يضيق بخلفاته ما بقيت هذه الصفات مكتومة بذات نفسه لا تطفو من القاع ، ولا تخالط شوائبها تلك الأثرة الفاضحة التى تحرك لسانه وجنانه وسنانه وتدفع به إلى ذات الجادة اللتوية التى شقها عاهل الشام . فهو باذل ولا عن كرم . وهو ناصح ولا عن عقيدة . وهو ناصح ولا عن وفاء . إنما كان بذله ونصحه ونصيحه جميعاً ينبثق وحيها من تأليه الذات دون يقين باستواء الوسائل أو تقاوة الغايات ، وإنه — على أية حال — لإيمان . .

ربطتهما معا غاية — إن تكن لا تتحرى النهج الأمثل ، ولا الطوائف القويمة السليمة أو الوسائل النظيفة الكريمة — فهي مهوى الأنفس التي يستدلها الجلاء وتسترقها زخارف الحياة . النهومة للنشب . للفتونة بالعرض . الحبيسة في نطاق الجسد من دم ولحم ، من شحوم وعظام . فالذات الغاية . للمادة . النفع . . ولو لم تكن في القلوب نزعة تميل بها عن الصراط لقلب طرفه بين القوم . ثم لرده وهو حسير . لكن الناس هم الناس : من تراب ووحل وليسوا من صفاء ونور . والأنفس هي الأنفس : من هوى لا من تجرد . ولقد آمن معاوية الإيمان كله بالجانب المظلم من طبيعة البشر فنفذ إليهم من خلاله كأنه خفاش الليل الذي يعشى بصره الضياء . . . إلى عمرو ونفذ ، وإلى ابن عمر ، وإلى تلكم الطغمة من بني أمية من أهل بيته الذين استعبدتهم الآراب والطامع ومرغت منهم مزاياهم الإنسانية في الطين . وعندما تأزمت عليه الأمور لاين الجشع في جنوده ، ففرض لملك على قتالها فريضة ليتألفهم بالمال . وخايل الناس بالمقتم : حين كانوا له ومن كانوا عليه وما وسعته الخيالة . وأعظم فريقا في عيون أنفسهم من استيقن أن آفتهم الغرور . . . بهذه وتلك من وسائله اللتوية خادع ابن العمر ومناه خرسان . وداعب الكبر في نفس الأشعث وراح دائماً يمحط عنقه عساه يطول المستحيل ليأمن ويظفر وينام . . .

كانت الدنيا هدفه ، والذي يهزه النشب يحسب البشر كلهم على مثاله فيمضى يهودهم بذهبه قيادة السائمة مادام هو بالذهب يقاد . فالمنصب لجام . وللقم لجام . وحتى خلب لاني لجام . وقد طرق من هذه اللجم وصاغ ما لا يحده حصر ، ولا تضيق عنه حيلة مضل ضال ، أو أخدوعة خاتل محتال . . .

تفكر وقال :

« والله لأستميلن بالأموال ثقات على ، ولأقسمن فيهم للسال حتى تغلب دنياي آخرته . . . »

فشخصت إليه على الأثر الأبصار . ولم يبق من أهل العراق رجل في قلبه مرض إلا أطلع نحوه جيدة وهو يود أن يعد إليه كفيه ليأخذ باليمين واليسار ؟ . . . وفشت هاهنا فاشية الطمع كما فشت من قبل هناك . . .

وقال للنذر ، فارس همدان ، للإمام :

« يا أمير المؤمنين ، إن عكا والأشعريين طلبوا إلى معاوية الفرائض والعتاء فأعطاهم ، فباعوا الدين بالدنيا . . . إننا رضينا بالآخرة من الدنيا ، وبك من معاوية . والله لا آخرتنا خير من دنياهم ، ولإمامنا أهـدى من إمامهم . . . فاستفتحنا بالحرب ، وثق منا بالنصر ، واحملنا على اللوت . . . »

أولئك قد عصم الله ، ووقى نفوسهم شر فتنة الناس ، فإذا دنياهم جيفة . وإذا زخرفها حرام ، وإذا هم حينذاك يسعون إلى النصر خفايا يختلبونه بعمد الحديد ومشافر السوارم ، وبكل ضارب فتاك وضرب دراك حتى انكسر أمامهم عدوهم ، وولى العاهل الفتون بما قد ملكت يمينه ، وهو جزوع يبعد عمره عن مزلق الحمام . . .

بماله واحتياله لم يحاول معاوية لحسب أن يخدع العامة من جند على . . . لا ولا الخاصة الذين شام فيهم نزعة من الغرور ترفع من أقدرهم في عيون أنفسهم فلا تزال بهم حتى يروا في دهائه ومناقضته إياهم ما يرضى ذلك الغرور ، ويعلو بقدرهم إلى سمائه ، فإذا ملقه رقية ساحر بعقل مسحور ، وحمية كأس برأس مخجور . . . ولا أيضا هذه الطائفة من نهازي الفرصة الذين يدورون دائما مع الريح وينشدون الغنم أينما ثقفوه — بل لغير هؤلاء كلهم أعد خدعه وأحاييله وإن كانوا بحسن حصين من أساليب فتنته ، وجنة تصد عنهم أفانين حيله . . . وتفكر الرجل كلا لن يخضع لمستحيل . . . فذات مرة لم تغب بعد عن خاله موه وجاز تمويهه فاقتلع من ضفاف النيل أفعوانها الذي كان يندوده عن جنبها الخضراء أجدى مكره حينذاك وخرج قيس بن سعد من مصر فما له اليوم لا يختل كأسه عساء — أو لم يبالغ كل غايته — ينقب ثغرة في سور عدوه تزيد سعة على الأيام ؟ . . .

وابتسم — وقال :

« يا عمرو ا . . . »

فأقبل ابن النابغة يلبيه

« يا عمرو ا . . . إن رأس الناس بعد علي ، هو عبد الله بن عباس . فلو ألقيت إليك كتاباً لعلك ترققه به . . . »

فضحك صاحبه عجباً ، وأجاب :

« ابن عباس ؟ . . . إنه لا يخدع ولو طمعت فيه لطمعت في علي . . . »
ولكن معاوية لم ييأس :

« وإن ا . . . فإنه إن قال شيئاً لم يخرج علي منه . وقد أكلتنا الحرب . . .
فاكتب إليه . . . »

وراح يعلی :

« أما بعد . . . فإن الذي نحن وأنتم فيه ليس بأول أمر قاده البلاء ، وسافته العافية . وأنت رأس هذا الجمع بعد علي ، فانظر فيما بقي ودع ما مضى ، فوالله ما أبقت هذه الحرب لنا ولكم حياة ولا صبرا . . . وما خيرنا بعد هلاك أعدادنا منكم ؟ . . . وما خيركم بعد هلاك أعدادكم منا ؟ . . . »

وفي الحق لقد أصاب عمرو وأخطأ معاوية . فما وقع ابن عباس في الشراك للنصوبة له ، بل هو قد سخر من التفكير الذي دفع صاحب الخطاب إلى تسطير كلماته ، وإن يكن أخذ الكاتب بحريّة عمليه . . .

لذلك غضب ابن العاص وعنف بأمره عندما تاقى الجواب . . .

قال له :

« أنت دعوتني إلى هذا . . . ما كان أغنانى وإياك ا . . . »

ودفع إليه برد ابن عباس ، ليقرأ فيه :

« . . . إني لا أعلم رجلاً من العرب أقل حياءً منك ا . . . مال بك معاوية إلى الهوى ، وبعته دينك بالثمن اليسير ، ثم خبطت بالناس في عشوة طمعا في الملك فلما لم تر شيئاً أعظمت الدنيا إعظام أهل الذنوب ، وأظهرت فيها نزاهة أهل الورع ا . . . »

لكن معاوية لم تقعه طهجة الرد ، ولا غضبة صاحبه ، عما اعتزم من موالاة احتياله ودسه لبلوغ ما يريد ، فإذا هو بعد هذا يعيد الصحيفة إلى صاحبه ، ويقول بهدوء :

« إن قلب ابن عباس وقلب على قلب واحد ، كلاهما ولد عبد المطلب . . وإن كان قد خشن فقد لان . . . »

وإنه ليوم أو بضعة تشتد فيها الحرب على الشام ، حق يناجى صاحبه :

« إن ابن عباس رجل من قریش ، وأنا كاتب إليه . . . »

فيلقى إليه عمرو نظرة فضول وتعجب ليست تدارى إنكاره :

« فیم ؟ . . »

« . . . في عداوة بنى هاشم لنا ، وأخوفة عواقب هذه الحرب لعله يكف عنا . . »

ولا يبالي انحراف زميله عن رأيه هذا بل يكتب الآن ، عن لسانه هو ، الكتاب الجديد :

« . . . إنكم يا معشر بنى هاشم لستم إلى أحد أسرع بالمساءة منكم إلى أنصار عثمان فإن يكن ذلك لسلطان بنى أمية فقد وليها عدى وقيم فلم تنافسوه وأظهرتم لهم الطاعة ، وقد وقع من الأمر ما قد ترى ، وأكلت هذه الحروب بعضها من بعض حتى استوينا فيها . . وقد رجونا غير الذى كان . . ولستم بعلاقينا اليوم بأحد من حد أمس ، ولا غدا بأحد من حد اليوم ، وقد قنعنا بما كان في أيدينا من ملك الشام فاقنعوا بما في أيديكم من ملك العراق ، وأبقوا على قریش . . أنت رأس هذا الجمع اليوم ، ولو بايع لك الناس بعد عثمان كنا إليك أسرع منا إلى على »

« لو بايع الناس لى لاستقامت لى ؟ . . »

وسخط ابن عباس لهذه الدسيسة الرخيصة ، وقال في نفسه :

« حق مقى يخطب ابن هند إلى عقلى ؟ . . . »

ثم كتب ، فيما أجابه به :

« . . قد بايع الناس عليا وهو خير مني فلم يستقيموا له . . . » .
ومع ذلك فلم تكن هذه كل محاولات العاهل الخائل التي حسبها مبلغته
أربه ، فما كان عليه لو أنه واجه عليا بغايته ؟ . . من يدري ؟ . . إن يكن الإمام
قد اعتدى بالأمس فعسى الهنة أن ترقق من شدته ، وعسى الرحم أيضا أن تعطفه
من بعد ميل . . .

وقال العاهل ذات يوم لنجيه :

« قد رأيت أن أكتب إلى علي كتابا أسأله الشام ، والتي في نفسه الشك
والرقة . . . » .

عندئذ ضحك ابن العاص :

« أين أنت يا معاوية من خدعة علي . . . »

فأغضى عن رنة السخرية ، وقال :

« ألسنا بنو عبد مناف ؟ . . »

« بلى . ولكن لهم النبوة دونك ! »

ولكنه كتب :

« . . . إني أظنك أن لو علمت أن الحرب تبلغ بنا وبك ما بلغت وعلمنا ،

لم يحثنا بعضنا على بعض ، وإنا وإن كنا قد غلبنا على عقولنا فقد بقي لنا منها

ما نندم به على ماضى ، ونصلح ما بقى . . . وقد كنت سألتك الشام على ألا يلزمنا

لك طاعة ولا بيع ، فأبيت ذلك على ، فأعطاني الله ما منعت ، وأنا أدعوك اليوم

إلى ما دعوتك إليه أمس ، فإني لا أرجو من البقاء إلا ما أرجو ، ولا أخاف من

الموت إلا ما تخاف . وقد والله رقت الأجناد ، وذهبت الرجال . . . ونحن بنو عبد

مناف ، ليس لبعضنا على بعض فضل إلا فضل لا يستدل به عزيز ، ولا يسترق حر .

تلك الكتب كانت بعض وسائله إلى ما ينبغي ، وكانت حلقة من حلقات

أساليبه أو ألاعيبه التي حرص منذ بدء الخلاف بينه وبين الإمام على ابتداعها

وتجديدها فيالق منظمة تعمل في اللبدان إلى جوار قواته المحاربة . وهي لا مرء

كانت ذات أثر في بعض الأنفس والأفكار تمدها بالشك والتذبذب . وكثيرا

خاب وقليلًا أصاب ، ولكنه — على أية حال — كان دائب العمل ، موصول الحركة لا يهد له نشاط . وكان وفيًا لهدفه وفاء لم يقعد به قط عن الإعداد والمخيلة والمخاتلة ما وسعه طاق الاحتيال . . .

غير أن سعيه الخثيث إلى ظفر سلسى كان أملاً ما لبث حتى أصابته بالطعنة القاتلة كلمات الإمام :

« . . . إني لو قتلت في ذات الله وحيت ، ثم قتلت ثم حيت سبعين مرة ، لم أرجع عن الشدة في ذات الله ، والجهاد لأعداء الله . . . فأما طلبك الشام فإني لم أكن لأعطيك اليوم ما منعتك منها أمس . وأما استواؤنا في الخوف والرجاء فإنك لست أمضى على الشك منى على اليقين . . . والسلام »

٧

حسم اليوم التاسع الموقف بين الفريقين .

لم يعد القتال مبارزة بين رجال من هنا ورجال من هناك . ولا اشتباكاً مضطرباً ، أو تدافعا غير ذى غاية سوى القتل بين طوائف من جنود الشام وأخرى من جنود العراق . إنما أصبح معركة عامة ، اشتركت فيها كل الوحدات للقاتلة ، وأخذت تتكون لها شيئاً شيئاً سمات الوقائع الحاسمة ، ثم تتضح ، ثم تبرز حتى أوشكت أن تسمى علانية إلى حيث النصر . . .

كان الأشر على الميمنة منذ قادها مغرب الأمس بعد مصرع عبد الله بن بديل ابن ورقاء ، وكان ابن عباس على اليسرة . وكان على حينذاك في كل مكان ، ينطلق من القلب إلى هذا الجناح . ثم منه إلى ذاك . ثم ينثنى فيسرع يقدم أو يسرع يعود . . . أينما خطر له أن يلقي عينه على الصراع المشبوب كانت تمضى قدمه أو تنجب مطيته ، ليرى من كثب حركات أوليائه وأعدائه فيقدر ويعد حسباً يجد في الميدان من احتمالات القتال .

ومضت الجيوش على أرض الواقعة تختلط وتتلاحم ، وتلتصق وتتراحم ، كعوج البحر في إبان عاصفة . يركب بعضه بعضاً ، ويلوى بعضه على بعض وإن كانت غاية غايته بعد هذا بلوغ الشاطئ القريب .

وأقبل القادة من رجال الإمام . أولئك الذين شهدوه في القلب ثم افتقدوه
لعبت بقلوبهم المخاوف . وأولئك الذين تركوه منذ قليل بجناح ثم غاب عن عيونهم
بعد لحظات ، ملكهم الجزع والقلق عليه . ومن هذه الناحية ومن تلك في
أرجاء الميدان تواترت الحمسات عن مصيره المجهول تبعها الحشية أن يكون قد
أصابه عدوه . . .

وجاء الأحنف بن قيس يلهث . فلما ملأ ناظريه من الإمام واطمأن قلبه ،
وقف يحدث الناس :

« يا أهل العراق . والله لا تصيرون هذا الأمر أذل عنقا منه اليوم ! ..
فما يقاتلون على دين ، وما يصبرون إلا حياء . . .
ثم التفت إلى على يستأمره :

« إنا إن تقدمنا اليوم فقد تقدمنا أمس . فما تقول يا أمير المؤمنين ؟ . . . »
فألقى إليه أمره :

« تقدموا في موضع التقدم ، وتأخروا في موضع التأخر . . تقدموا من قبل
أن يتقدموا عليكم » .

المبادأة دائماً . الهجوم قبل الدفاع . . .

وانطلق الرجل . ومضى على يرود أرض الواقعة بكلا عينه وسلاحه ، لا تفتر
له حركة ، ولا ينمى جفن ، ولا يغفل جنان . وعندئذ لقيه الأصبع بن نيانة
يبلغه ما يعلم من سير الأحداث :

« إن أهل الشام قد هدم ما أصبنا منهم . ونحن فينا بقية . . فاطلب بنا
أمرك ، وأذن لي في التقدم له » .
« تقدم بسم الله »

ولقد ظل موج القتال يدفعه آنا وينحسر عنه آونة حتى حسبت الكثرة من
صحابه أنه قتل وكاد حسابهم هذا أن يلفهم بالقنوط . من أولئك عدى بن حاتم
الذى راح يخوض الغمرة تحت ظلة الرماح ، ومن بين أسنة السيوف وعلى مزق
الأشلاء غير آبه بما قد يصيبه . إنما ظل خاطره معلقاً بوجهه للوحش الحزين ، وظل

ناظره معلقا بالقتلى على الثرى ، والأحياء على الرواحل والأقدام ، يتفرس الوجوه وهو ساهم ثقيل الفؤاد فإن هو أن وجده حتى انفلتت من شفثيه تكبيرة مهللة تعلن ميلاد فرحته ، ثم اندفع إليه وقد تألق طرفه وغمر البشر بحياه :

« أمير المؤمنين ! . . . أما إذا كنت حيا فالأمر أم . . . » .

فابتسم الإمام وحياء . ومسح الرجل عن وجهه حبات العرق التي تجمعت على جبينه ثم راحت تنزلق على خطوط وجنتيه حتى إذا هدأ قلبه قليلا قال وكلماته تقطعها لمثاته :

« ما مشيت إليك إلا على قتيل . . . وما أبقت هذه الوقعة لنا ولهم عميدا . . . قتال حتى يفتح الله عليك » .

أجل لم تدع الوقعة ، هذا اليوم ، إلا بقية يسيرة من جموع الأبطال . ذهبت الكثرة تلقفهم المضاجع على التراب . . . حتى الذين استهوتهم المنى والشهوات ، وخاضوا الحرب ليحققوا مآربهم ، رحلوا عن مقام المطامع وأمنياتهم تخايل عيونهم ساعة الموت كالسراب . . .

مضى عن الدنيا ابن عمر ، فأية أمنية نال ؟ . . . لقد طالما حلم . وقد طالما جنح مع أحلامه ومال فإذا نصيبه الليلة من المجد قيد ذراع من ثرى صفيق . ومن الشرف ضربة حسام شقت عليه زرده ، ثم جسده ، ثم غاصت بالسنان في حشوة جوفه فإذا هو بعد هذا صريع . . .

وسقط ينوء . . .

وسخر القدر . . .

فلقد فر الرجل ، وأمن في الفرار أعواماً طويلة من يد على ، فإذا الضربة القاتلة ، بعنفها وجبروتها ، تكاد تنفي عن اليد التي ظلت تطارده كل ذلك الزمان في اليقظة والحلم ، وفي الحرب والسلام . وإذا الأنة الخافنة ، ووشوشة جراحه ، والطين الذي ملأت به الحشرة أذنيه لا تنفي عنه ذلك النذير القديم الرهيب :

« لئن فاتني في هذا اليوم ، لا يقوتني في غيره . . . »

واليوم جاء . . .

فأما الأماني فهباء . غارت في الليل كما يغور الشعاع ولم يرتب منها القدر إلا واحدة .
ما كان أغنى الصريع عنها ، وما كان تحقيقها قصاراه . . . تلك نبوءة الشيبانية
إن لم نرها تنتظم في سلك الأمنيات

في ذلك اليوم ، وقد همد الطعين ، وجرى الخبر بمقتله ، بعثت نسوته إلى
معاوية ليرد إليهن بدنه ، فأرسل إلى ربيعة في عسكر العلويين يطلبه منهم
بشرة آلاف .

وقيل لعل ، فأبى وقال لأصحابه :

« قد أجبتهم إلى ذلك ، فاجعلوا جيفته لبنت هاني بن قبيصة الشيباني زوجته . . . »
وأطاعت ربيعة . وتفكرت كيف ترد إلى أهله جثته فرأت شدها إلى ذيل
بغل يضرب حتى يدخل بها معسكر الأمويين . لكن نسوته ، وقد علمن ،
استصرخن معاوية :

« هذا أشد علينا . . . »

عندئذ أشار العاهل بالرأى :

« ائثوا الشيبانية فسلوها أن تكلمهم . . . »

فعلن . . . ومضت المرأة لتوها لتحفظ على قتيلا بعد مظاهر التوقير :

« أنا بنت هاني بن قبيصة . . . وهذا زوجي القاطع الظالم قد حذرتة . . . »

فهبوا إلى جيفته . . . »

نبوءة الصباح التي قالتها له وهو مدل مختال ، طلع بها عليها مساء . . .

ومضى أيضا ذو الكلاع الحميري . ذهب هو الآخر إلى غير مأب ، وخلف
قومه اليمنية في حوزة معاوية ينضحون عنه بثل حمية سيدم اليوم وغدا وعلى
توالي الأيام حتى أقاموا له على كواهلهم ملكا عريضا لا تغيب عنه شمس النهار . . .
فماذا يا ترى كان جزاء هذا القتل ؟ .

لا مبالاة ؟ . . . كلاب شماتة . . . بسمة من معاوية صفراء ، وبسمة من
خدينه عمرو بن العاص كأنها صدى يتردد عن الفرحة التي اهتز بها قلب العاهل

الذى أبى إلا أن ينكر الجليل ... فما إن جاءه الخبر بمصرع الرجل حتى التفت
عينه وقال :

« لآنا أشد فرحا بقتل ذى الكلاع منى بفتح مصر لو فتحها ! ... »
وقال للذين جاءوا من قوم القليل يطلبون إليه أن يعاونهم فى استعادة جيفته :

« وما عسيت أن أصنع ! »
ولم يكن صاحبه ابن العاص خيرا منه نية ، أو أدنى إلى الرثاء والرحمة ، بل
أمن فى الإفصاح عن سروره :

« والله ما أدرى بقتل أيهما أنا أشد فرحا ! ... والله لو بقى ذو الكلاع حتى
يقتل عمار لمال بعامة قومنا إلى على ، ولأفسد علينا جندنا ... »

هكذا التقى الصاحبان كذئبين على جيفة نصير لهما يأكلانها شماتة ! ...
وهكذا تنكرا للرجل الذى ضللاه عن طريق الحق . واتخذاه مطية عمياء ،
وما زال به يركبانه ويدفعانه وفى نفسه بقية من شك حتى اغتاله حينه . فلقد
مضى لا ريب إلى ربه وهو يكاد يؤمن أن ابن العاص لم يكذبه حين ألقى فى روعه
أن عمارا سينقلب آخر الأمر على الإمام وينبئ إلى أهل الشام ، فإذا قتل بعدئذ
فالقشة الباغية ليست إذن فئة معاوية بن أبى سفيان ! ...

لكن عمارا قتل ...

هاجبه الردى وهو فى صفوف على يكافح عن حقه ويذود جحافل الباطل
عنه ... فلو استأخر العمر بذى الكلاع يوما أو بعض يوم ، وسمع بمصرع الشيخ
الجليل ، لفضى الأمر فى حزب الشام ، ولا نسل منه رجاله عودا عودا ، حزمة
حزمة ، وتركوه من بعد وليس فيه من ولى ولا ناصر إلا شزيمة أمية وقطائع
أخرى من الأذئاب ! ...

ولكنه مضى وابن ياسر ما يزال فى الميدان ، لم يفرغ أجله ، ولم تحقق فيه
كذبة ابن العاص . وترك للعاهل الأموى خيرة الأنصار من الجنية الذين أقاموا
له ملكه ، وكان هو سيدهم المطاع ...

وجلس معاوية تلك الليلة يجتر فرحته ، ويستقبل أناسا من جنده جاءوه
فرادى يستأدونه ثمن قتلهم صاحب رسول الله :

« أنا قتلت عمارا . . . »

فيسأل عمرو قاتلهم :

« فما سمعته يقول ؟ . . . »

فيمر الرجل ، أوزيف الجواب .

ويأتى آخر :

« أيها الأمير ، أنا قتلته . . . » .

ثم لا يكون من حظه في الرد على السؤال إلا الخلط والخطب والتزييف . . .

وإذا ابن جون السكوني ، وأبو المادية الفزاري يقبلان وفي قاضهما

الخبر اليقين .

قال ابن جون :

« أنا صاحبه . . . » .

فسأله ابن العاص :

« فما كان آخر منطقه ؟ . . . » .

« سمعته يقول :

اليوم ألقى الأحبة عمدا وحزبه . »

« صدقت . أنت صاحبه . . . »

ثم أطلق عينه تفتح الرجل ، وقال على كره كأنما الله قهر قلبه على كشف

الحقيقة :

« أما والله ما ظفرت يداك ، ولكن أسخطت ربك . . . » .

وعجب الرجل ، وعجب زميله عجيبة ، ومضيا إلى عبد الله بن عمرو بن العاص

يشكوان ، ويحكاه في سلب عمار لأيهما يكون . فإذا عبد الله تبرد طلته ،

ويضطرب نفسه ، ويصيح بهما وهو مغيب :

« وبمحا . . . اخرجنا عنى فإن رسول الله قال : ولدت قريش بعمار ، ما لهم واعمار ، يدعومهم إلى الجنة ويدعونهم إلى النار ، قاتله وسأليه فى النار ! . » .

ولقد صدق عمرو ، وصدق ولده ، وخاض الناس من أهل الشام فى قصة المقتل التى أشقت بهم على سخط الله حتى أخذ الخوف ينعقد أمام عيونهم سحائب غلفت بالسواد والضلال أوطار عاهلهم ، فكادوا يحملون أنفسهم على الليل عنه .

غير أن الداهية المحتال لم يعدم الوسيلة التى تبده عنهم خشيتهم ، وتضمن له نصرتهم ، فقد أضاف خدعة جديدة إلى سلسلة أخاذه ، فقال وأذاع بين العامة من رجاله :

« إنما قتله من أخرجه ! . . . »

ونامت المخاوف ، واطمأن الطعام ! . . .

٨

كان آخر عهد عمار بن ياسر بالدنيا حين فصلته الحرب عن صاحبه هاشم ابن عتبة . دفعت هذا موجة لناحية ، ودفعت الآخر موجة لأخرى . وظل كل منهما من القتال العنيف فى دوامة . . .

وهذا الشيخ قوامه الذى أثقلته السنون . وثبت على جسده درعه البيضاء ، ثم ألقى بعين تجول فى أنحاء الميدان فلا ترى فيها إلا جدران مرصوفة من الناس لا تكاد تنفذ بينهم النظرة . . .

وابتسم . لشد ما يفتقد رفيقه ! . . . بعد الأعور عنه الآن ، ولم يعد ثمة سبيل لمزاح . . . فثما وقد انطلق هاشم قدما فقد علم عمار أنها انطلاقة النهر فى مجراه ، يعرف طريقه ، ويعلم من أين بدأ وإلى أين منتهاه . فهاشم يسير فى تودة ، وعلى بينة ، ولا يستخفه مد القتال إن خايله النصر كما لا يهوله جزره . إذا خايلته الهزيمة لأنه قدر ما يقع فليس يخطو إلا بحساب .

كانت الظمأنينة تملأ صدر عمار ، فثقت به صاحبه غامرة ، لا تنضب ولا تغور . وهو آمل فى النصر ، وهو مؤمن قبل هذا كله بالغاية التى من أجلها يمشق اليوم هذا الحسام ثم يشق به سبيله فى صفين ، إلى الحق ، وإلى الجنة . . .

وألقي نظرة تنفرس الناس حياله :

« إني لأرى وجوه قوم لا يزالون يقاتلون حتى يرتاب للبطالون . . . » .
ثم استضاء وجهه المضمم المروق بإشراقه إيمانه وهو يكمل همسه لنفسه :
« . . . والله لو ضربونا حتى يبلغوا بنا سمفات حجر ، لعلنا أنا على الحق .
وأنهم على الباطل . . . » .

ومضى كالعاصفة في زحمة القتال .

إنه يقدم ولا يحجم . يضرب ما وسع كفه أن تحمل سيفه ، وما دار ذلك
السيف في يمينه . . . كلا ، ليست هذه اليد الهزيلة هي التي تضرب ، ولا هذا
البدن المجهود هو الذي يحمل ، ولا هذه الساق الحشة هي التي تثب ؛ إنما قلبه
القوى يتيقنه ، الركين بإيمانه . . .

وكان الميدان كالأتون . وكان العرق كالسيل ، فأحس شفته تلتهب ، وحلقه
يجف ، فلو كانت الدماء تروى ، أو قطرات العرق للنشال تخفف بعض صداه . . .
لكن امرأة من فرقة الروايا التي تصحب الجيش تقدمت إليه تسقيه من لبن .
فما إن حسا حسوة ، حتى انبعث يكبر وقد تألقت عيناه بالرضا والفرح والحنين :
« الله أكبر . . . » .

وعجبت المرأة ، غير أنه كان من عجيبها في عالم آخر بعيد ، لا يحده زمان
ولا مكان . . .

« الله أكبر . . . صدق الصادق .

اليوم ألقى الأحبة محمدا وحزبه ا » .

فلقد شعر الرجل بقرب ساعته ، وسفرته الأخيرة من هذه الدنيا إلى حبيبه
الرسول في جوار الله . . .

طفر هذا الشعور إلى جنانه وهو يستعيد في ذهنه إجماعة لرسول الله أنبأته
عن آخر زاده في الحياة . . .

ورد الإناء للمرأة ، ولحق شفثيه ، وهو يتمتم في شفث :

« هذا آخر زادي . . . » .

ثم انطلق ، مشوقا إلى المصراع — إلى لحظة اللقاء التي بعدت عليه إذ طال عمره ، وهتف فيمن حوله :

« أيها الناس ... هل من راجع إلى الله تحت العوالي ؟ ... » .

ومضى على رأس عصابة تبعوه ممن يستعذبون للوت فلا يشق عليهم أن يهروه الحياة . وكلاهم وأصاب ، كان صوته الرافع يرن في الأسماع كصليل سلاحه :
« الجنة تحت الأسنة ! ... » .

وكانت نهايته كطرفة هذب .

حمل وأثنى وقتل ، ثم حمل وأثنى وقتل ، سريعا سريعا كأنما كان يمضي على إعصار . وكان محمد دائما أمامه . وكانت الجنة تخايل عينيه . هو في الحق قد ترك سيفه يجول ، أما وعيه فكان سابحا على غمامة من شوقه ، بيضاء رقيقة ، شفافة كروحه ، نقية كقلبه ، تعلو به في فضاء فسيح فوق الدنى والزمان والأحياء ...

واستقبله حين هذه النشوة الروحية عبدان للدنيا ، مالا إلى جانبيه ليتقيا حملته ، ثم عاجله منهما ابن جون بطعنة ، وثني أبو العادية ، ليشارك رفيقه في نصيبه من النار ! ...

وسقط عمار ، ومحمد أمامه ، والجنة تخايل عينيه ، وعلى شفثيه النديتين بتلك الحسوة بسمة وهمسات :

« الرواح الرواح إلى الجنة ! ... »

اليوم ألقى الأحبة محمدا وحزبه ... »

وأطرق الإمام ...

الحزن الذي هز قلبه لمقتل صاحبه كان أبلغ من الألم ، وأقوى من الدمع ...
صلابة السيف في يمينه بدت في ملامحه . ظلال المساء التي أخذت تطوف بالمكان أطلت من بين جفنيه ...

ومشى على مهل . الآن قد خرج عمرو بن العاص كالعاصفة فرقا على مصير
ولديه . الآن يتقدم ابن خالد بن الوليد بلواء معاوية الأعظم وب نفسه اعتداد كأنما
يحمل يوم من أيام أبيه . . . نشطت الشام كلها نشطة واحدة . خيلها ورجلها .
والرماح والسهام . حتى الحجارة كانت بعض السلاح . . .
لكنه لم يأبه إلا لفرقة منها ثبتت أمام هجمات رجاله كالأطواد . لا تهتز .
لا تضطرب بين يمنة أو يسرة . كأنها غرست أقدامها في الرمال . . .
تلك غسان .

وعندئذ قر عزمه .

« إن هؤلاء القوم لن يزولوا عن موقعهم دون طمن دراك يخرج
منه النسيم ، وضرب يفلق الهام ، ويطيح العظام ! . . .
ثم نادى في أصحابه :

« . . . أين أهل الصبر وطلاب الخير ؟ . . . »

ودعا ابنه محمدا :

« امش نحو هذه الراية مشيا رويدا ، على هينتك . . . حتى إذا أشرعت
في صدورهم الرماح فأمسك يدك حتى يأتيك أمرى ورأى . . . »
وجهاز فرقة للأشتر .

وهتف بعد هذا في رجاله :

« أيها الناس . . . من يشر نفسه لله يرج . . . هذا يوم له ما بعده . . . »
حتى إذا اجتمع له منهم قرابة عشرة آلاف ، تعصب بعامة رسول الله
السوداء ، تيمنا وبركة ، ووقف يتها أساعة الفصل . . .
كان محمد حينذاك يسير كما أمره ، رويدا رويدا ، خطوة خطوة ، كأنما على
شوك ، قد أشرعت فرقته في أكلها الرماح ، واتجهت بها صوب غسان .
ليست هذه بهجمة يتقدم فيها الاندفاع . لا مخاطرة ولا سرعة . بل هي حركة
وثيدة ، تمضي بحساب ، وعلى حذر ، ولا يرام من ورائها الاقتحام . إنما كانت
في تدبير الإمام سورا من الأسنة للشرعات بينه ولده ورجاله أمام غسان ،

فيحملها على الثبات والدفاع ، ويشغلها بنفسها وما هي فيه عن الاشتراك في الهجوم الذي أخذت تشنه قوات الشام . .

هذه التؤدة التي التزمها محمد في تقدمه ، قد مكنت قواته المضاغطة من بلوغ هدفها وهي آمنة شر الدفعة . يقطعة لكل حركة قد تأتيها من هناك وتقوم بها بعض الكتائب الأموية التي تعمل دون هدف مقرر ، ووفقا لوصي الموقف ، ومد القتال أو جزره في الميدان . بل لعل غسان قد رأت في ذلك التقدم الوئيد من جانب محمد ورجاله أحبولة نصبوها لها لتندفع نحوهم مهاجمة حين يستخفها ببطء حركتهم ، فتدع بهذا ثباتها الذي أعيا الكتائب الملوية ، وتزاييل موقعها الحصين الذي وقف بها من قبل كالصخرة العاتية في وجه أى هجمة أريد بها إخراجها منه .

ثبتت إذن غسان تربع وهي مطمئنة . ومضت تنضح عن نفسها بالسهم . وثبت محمد على الحطة التي رسمها أبوه ، يتقدم في ثاقل ، ويعشى على هيئة ، ولا تغريه أية فرصة سانحة بالتحول من البطء إلى الاندفاع . فما يحق له أن يفحم أو يهجم إلا حين يأمر الإمام . . .

ثم أناهم أمره :

« شدوا . . . » .

فشد على عدوهم شدة رجل واحد .

وحمل هو . . . وحمل الأشر . وحمل بقية القواد في نفس اللحظة . . ثارت الآن أبالسة الحرب في كافة أرجاء الميدان ، والرماح حينذاك مشرعات في صدور غسان ، تشلها عن الحركة ، وتقف سياجا داميا لا يدع لها إلا الدفع عن نفسها وهي حبيسة في ذلك النطاق المشدود ، إن كان يسمها الدفاع . . .

لا حرارة النهار ، ولا ظلام الأمسية الأغبر عند مسقط الفسق ، ولا أكداس القتلى من الجانبين على أرض الواقعة كانت تمنع المتحاربين عن الحركة أو تعوقهم عن موالاة الاندفاع في القتال ... مضت المعركة والشمس — ذاك اليوم اللافح من يولييه — ثم شيعتها إلى المغرب . ومشت والفسق الباهت . وحلكت الليل حتى ألت بنصفه . وحين حسب بعض الناس أن الفريقين متحاجزان — على مألوف ما جرت به العادة إذ ذاك في الحروب — كان الصراع قد بلغ ذروته ، والحمة قد أذهلت القوم من قادة وجند ، ونشوة الدم أنستهم الحدود الزمنية ... وكانت الرايات لا تزال تختلط ، والفرق تلتصق وتتداخل ، والقوات المعادية تضرب ، أحيانا كثيرة ، وهي لا تكاد تأمن أن تصيب أصحابها الضربات ... ومع ذلك فقد أخذت خطوط المسير المنتظر تبدو للبداية المباحة خيوطا رقيقة ، رفيعة كنسائج العنكبوت .

هزيمة الأمس التي ردت جناح الكوفة يسرع إلى السلامة ذابت الآن في هجمة اليوم ، خيانة ابن للمعر التي أفسحت لمعاوية في البقاء بعد تهاوى صفوف مقله قضت عليها الحطة الجديدة . حراب محمد بن علي مضت تحطم جدار غسان كالمعاول .. في كل قلب في رجال الإمام عزمة ماردة ، وفي كل خط من خطوط معاوية تكسر ...

وأسرع العاهل الأموي بحث أوليائه :

« هذا يوم تمحيص ! .. إن القوم قد أسرع فيهم كما أسرع فيكم . اصبروا يومكم هذا وخلاكم ذم ! .. » .

وفي الحق لم يتهاون رجاله لحظة واحدة عن الصبر والصدق في القتال . أمامه كان سور يقوم دونه من عك والأشمرين الذين فرض لهم الفرائض ومنام العطايا والهبات الجزيلة . وعلى خيله مضى عمرو بن العاص يشد من عزمه دفاعه عن ابنه . وبلوائه الأعظم انطلق عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، لا يني عمرو يشير فيه الحمة ويشمل دماء :

« أقم يا بن سيف الله فإنه الظفر ! . » .

لكن الأشر كان لهم بالمرصاد . ولم يقف ليدفع ، بل قاتل شاقا طريقه إلى أمام . منذ أمره الإمام بالشد أقدم ، وراح يقدم ، لا تعترض سبيله مقاومة إلا حطمها ، ولا تقوم لمن يخالسونه الهجوم أو الدفاع قاعة ، ومن ورائه أصحابه الذين بهرهم بلاؤه بهتفون له :

« يوم من أيامك الأول ! . » .

وكان الإمام حينذاك في القلب . . . هو في الواقع لم يكن بقلب جيشه بقدر ما كان يغوص في قلب الأعداء . . . بعصا به السوداء كالليل كان يندفع في أعدائه أندفاع السهم عن قوسه . وبسيفه كان يشق عليهم صفوفهم فتتناثر منايهم إلى جانبيه كالرشاش . . . ولم يكن له إذ ذاك من هتاف إلا اسم الله ، يهلل به ، ويكبر كلما شطر سيفه ، أو قد ، أو قط من هذه الرقاب والهام والأجسام التي دفعها قضاؤها التعجيل أمام يده الحمراء . . .

كم أشفق صحبه وهو يخلفهم ويمضي عنهم إلى هذه الصفوف المعادية فلا يلبث أن يختفي منها وراء أستار وأستار . . . إنه ليغيب حتى كأنه قد أصيب . ويطول عليهم غيابه بحساب الوقت وحساب الوهم حتى كأنه لن يرجع . ويأكل الجزع عليه من قلوبهم ما يكاد يحمدها فتكف عن الخفوق والوجيب . . . فإذا بلغ منهم اليأس مبلغه ، رأوا تلك الصفوف تنفرج ثائية عنه ، بطوعها ورغبتها ، وهو آمن صحيح جميع إلا لطلحا من دماء ندية تقطر من ثوبه ، وقطرات من العرق تنحدر من جبينه على خديه . . .

ويقبل وسيفه منحني في يمينه من عنف ضرباته ، فيقيم حده على ركبته ، وهو بهتف بصوت خفيض :

« سمدرة إلى الله ! . » .

ويعلم رجاله أنه أسيف ، فقد عاقته الخفاة السيف عن موالاة الضرب والبلاء في الله حق البلاء ! . ولكنه لا يكاد يعلأ عيونهم من عياه حتى يشهر سيفه . ويعود فيخوض ، ويغوص في أحشاء جيش الشام . . .

كان حركة دائمة ، خلال تلك الساعات ، تتأرجح من وراء الإمام ومن أمام لوراء . وكان مشغلة العيون والقلوب والآذان إذا هجم هلع العدو ، وإذا غاب جزع النصير . فما من رجل في المعركة إلا قد غلبه منه الخوف على نفسه أو القلق عليه . حتى أولئك الصحاب الذين حرصوا على البقاء بمقربة منه ، يقيمون سياجا من أبدانهم حواله ، كانت عيونهم تدور لكي تسير في فلك هجماته ، وقلوبهم تنئن كلما غاص وغاب ، وآذانهم تمتد لتلقف على الهواء تكبيراته التي لا ينقطع جرسها للتواتر الرهيب ... كانت حركاته خطفات برق ، أولمعات مرآة تحت ذبذبة شعاع ... وكان غيابه موتا للقلب ، وشجا في الحلق ، وظلمة في العين ... وكان تكبيره بعد هذا كله أغنية ! — نشيداً حبيباً مرحاً تحن إليه أسماع أنصاره . وترقص على ترجيعه قلوبهم رقصة المودة إلى الحياة ... إنه لنعمة أن يتردد صوته ، وإنها لمتعة ومسلاة أن يتابعوا بالإحصاء تكبيراته التي تصاحب ضرباته ، فتعلن لهم ، واحدة واحدة ، أعداد ضحاياه ...

* * *

وحيث غام النهار وكشفه القتام ثم جنه الظلام ورقت النسمة وشف الليل ، كان قواد الإمام جميعاً لا يشيهم شيء عن التقدم وإن نال منهم الجهد ، وأكلت الحرب من رجالهم ، ورويت ، واعقت الجراح ... حتى الصلاة شغلهم عنها السباق للموت ... ومن ذكرها أداها إجماع ... ولكنهم ظلوا الساعات الطويلة صدقا وصبرا ، قائمين على الأقدام ...

جاءه الأشعث بن قيس يلهث ليرفع إليه ما جرت به الأحداث :

« يا أمير المؤمنين ... خيل نخيل ، ورجال كرجال ، ولنا الفضل عليهم إلى ساعتنا هذه ... » .

ولم يستطع سعيد بن قيس أن يقبل ليلفقه ، فبعث إليه من يقول عنه :

« إنا مشغولون بأمرنا مع القوم ، وفينا فضل . فإن أردت أن تعد أحدا

أمددناه ... » .

كان اتصالهم به وثيقا إبان المعركة ، لاتفى رسالهم تأتية ناقلة عنهم سير القتال ،
ورسله تمضى إليهم مؤدية عنه أوامره . . .

لكن هاشم بن عتبة لم يبعث له . انقضى زمن ولم تأت منه أنباء . . . وحق
الجانب الذى كان يعمل فيه من الميدان لاح كأنما خفت ضيعجه واحتواه الفتور . . .
وأرسل الإمام إليه يأمره :
« قدم لواءك . . . » .

فابتسم هاشم للرسول بسمة كائية ، خافتة الضوء زهقتها الظلال . ورمقه
بعينه رمقة أسيانة شف عنها ندى دمة حائرة ، وتحركت شفاته تهمسان فى إعياء :
« انظر . . . » .

ونظر الرجل إلى حيث أشار . . . وشرق . وعض على شفته تخرجاً ليحكم
صيحة أرشكت أن تفيض من قلبه . ثم لوى جيده حزناً ورقة لينأى بعينه عنه . . .
فى هذه اللحظة ، كان هاشم بن عتبة يعصر الألم قلبه ، ويقطر الوجع من
ملامح وجهه وعينه كقطر العرق والدموع ، وقد امتدت يدها تضغطان شقا
غائراً طويلاً فى بطنه ، بينما أخذ دمه يسيل من بين أصابعه ، وأحشاؤه تندلق
منها أطراف . . .

وابتسم ثانية . ولست عينه كما تأتلق زبالة السراج فى نفسها الأخير .
ثم تهاوى على الأديم . . .

رحل المرقال . . . سقط فى هدوء كأنطلاقة من قليل فى جنبات ساحة القتال
بهدوء وإلى جواره رقد سيان اللذان شرفا به ، وأبليا معه فى الله . . .

إنها لسويحات — بضعة قليلة على هذه الأرض ، التى تناثرت عليها الجحاجم ،
ثم لحق بصاحبه عمار . . . فلعله دعاه . . . ولعله هو الآخر أبى الدعوة ، وقد
صاقت بالفراق نفسه وشق عليها ذلك الوداع .

١٠

أخذ مهاوية معرفة فرسه ، وناضل ما أمكنه بدنه الشحيح الثقيل حتى استطاع أن يرفع رجله ، ويضعها في الركاب ...

هي قفزة إلى الظهر ، فاستواءة عليه ، فلكزة بجانب الفرس ثم ينطلق . لا إلى حيث يشاء ، بل إلى حيث تمتشى به قوائم الجواد . ولا إلى المعركة ، بل إلى الناحية الأخرى . . إلى أى مكان . بعيدا بعيدا عن هذه الساحة الدامية بصفين ، حقل الموت ! . .

كانت على ملاحه غيرة ، ليست بعض قتام هذا الغبار الثائر . وكانت بعينه غيمة ، ليست انعكاسة السواد الباهت الذى ما زال ينشره الليل ... الشحوب في وجهه . والوجوم في عينيه ... شفتاه اهترتا ولا كلام . وحلقه اضطرب وما نطق ، ومن ثنايا صفوف المحاربين الذين بدوا في ظلمة السحر كالأشباح ، كانت نظراته تتسلل ، هنا وهناك ، وفي كل منحى ووجهة ، زائغة ملهوفة تلمس المهرب البعيد المنشود ، ثم ترند إليه حسيرة لتذوب في حيرته ! . .

ولم يكن حينذاك بالجبان . كلا . وما كان ... في الصراع الذى اشتعل كل هذه الأيام ، نظم وأقدم وناضل . وطوال الأشهر التى مضت قبله دبرا وأعد واحتال . وعلى مدى السنين التى اقتعد فيها أريكة الحكم في الشام رجا وتعنى وحلم . ثم هاهو الآن — هذه اللحظة بصفين ، ترده إلى الوعى بقطة عنيفة نسخت الحلم ، وأفسدت الاحتيال ، وقضت قضاءها للبرم في نتيجة للمعركة ...

أينما نظر شهد كارثة . بناؤه الضخم تهاوى وانهار . خطوطه تقطعت . صفوفه الممتدة غدت وصائل صغيرة تصل بين ثغرات ! . . حتى أولئك الذين قاموا دونه يدافعون عنه ، قد أعيام الصبر حتى لسكادوا أن يملوا القتال . لا رجاء له إذن في نصر ، ولا في مقاومة ، وهذه قوات على تسرع نحوه لتخرق عليه إهابه ... وتفرس بعين في فرسه . ما من جدوى من البقاء بأرض الوقعة ... وحلق بأخرى في رجاله الذين يتقصفون في الهول الدائم كأنهم أعواد . ما من مصير لهم سوى الرقود على مواطنهم ، ضحايا وفرائس ، تطعم الأرض وتسقى التراب ! . .

فكأنما قابل بين مصيرهم ومصيره . مثاويهم ومنجاء . موتهم حيث هم ،
وفراره حيث الحياة ... وكأنما أثقلت هذه المقابلة قلبه ، وأوقرت ضميره ،
فإذا هو يزم بالعزم شفتيه ، ويخلع رجله من الركاب ، ويتمتم لنفسه وهو خزيان :
« مكانك محمدى أو تستريحى ... » .
وثبت حيث كان .

لكنه كان ثبات سويكات .

ففي الجانب الآخر كان على تصور لأصحابه حالة الحرب والمحاربين ، فيقول :
« ... قد بلغ بكم الأمر وبعدوكم ما قد رأيتم ، ولم يبق منهم إلا آخر نفس ... » .
بل آخر خدعة ...

كأنفاس الليل التي أخذ يلفظها السحر ، كان جند الشام يلفظون عزائمهم .
لا قدرة . لا طاقة لهم باحتمال . القبة الكبيرة البيضاء أصبحت على قيد رمية .
حررها الآن مباح معاوية طلل عاهل ...

فلولا أن أضواء الفجر كانت شهباء ، لوسع الأعين في جيش على أن ترى معالم
الحيا الحائر الكثيب الذي يتخايل حياها هناك . ولولا بعض قمعة السلاح ،
وهرج الأقدام ، ووقع الخوافر لسمعت الأذان اضطراب أنفاسه ...

ومرة أخرى راودته فكرة قديمة : أما من رجل من أهله ، أما من
صاحب له ، أما من فارس من الشام ينهد لغريمه ، هذه اللحظة ، فيرده غيلة ،
أو يلقاه في مبارزة لعلها تقلب الميزان ؟ ...

كان هذا أمله الباقي في الوقعة ولا أمل سواه . ولكنه رجاء بعيد كالنجم ،
موهوم كالسراب . فلم يقدّم للإمام واحد من جيش الشام وإن علموا جميعاً أن
ملاقاته وحده كملاقاته في جمعه كلهم ما خاتمه حمام .

حق ابن العاص لم يكن أرفق به ... لم ينس في هذه المحنة نفس عبثه القديم
بصاحبه ، ونفس سخريته منه ، بل أعادها على سمعه ثانية : « أبرز له ! » فوثبت

الذكورة من جديد... وعندما شاءت الأقدار من بعد أن يشر الأمل في الملك ،
وتقبل الدنيا على معاوية ، ذكر ذلك الموقف وهو على عرشه ، وراح ييكت به
ابن العاص ...

قال له ، بعد سنين :

« يا عمرو ... هل غششتني منذ نصحتني ؟ ... » .

فأسرع يدفع عن نفسه :

« لا والله ! ... » .

« بلى والله ! ... يوم أشرت على بمبارزة على وأنت تعلم ماهو ... » .

وعندئذ لم يعدم ابن النابغة ردا أسعفته به بديته التي تحسن الانسياب من
كل ضائقة ، وبادر بحجب :

« دعاك إلى المبارزة فكنت من مبارزته على إحدى الحسينين : إما أن تقتله
فتكون قد قتلت قاتل الأقران وتزاد شرفا إلى شرفك . وإما أن يقتلك فتكون
قد استعجلت مرافقة الشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ! ... » .
فضحك معاوية وقال :

« الثانية شر من الأولى ! ... » .

وضحك أيضا ، ذلك الفجر بصفين ، وهو يرى كيف لعبت به الحيرة حتى
جملته هذفا لعبت ابن العاص . لكنها ضحكة جوفاء وقعها القلق على أوتار أعصابه ،
لا تنطق بفرحة ، ولا تنبئ عن هم ...
وأغضى مليا ..

وحين رفع ثانية وجهه ، كان الشحوب يقطر من ملامحه ، والسهم ينام
في عينيه ، وعلى شفثيه المرتخيتين ترتجف همساته اليائسة :

« يا عمرو ... اليوم صبر ، وغدا نفر ... » .

فلم يزد صاحبه على أن قال له :

« إنا وما نحن فيه كقول القائل : للوت حق ، والحياة باطل ! ... » .

صدقه ابن النابغة . لم ينشئه هذه المرة ولم يخف عنه وما كان ثمة سبيل لإخفاء
وقد بات جلياً لعينه أن الحياة أصبحت من ضروب المحال ، وأن الموت الآن
هو المصير اللازم ... فهذه جيوش العراق تسرع في جيشه ، وتهمد كل ما يقوم
لها منه ... هاهو على حياله ، ينطلق إليه ولا تفصله إلا شقة تقاس بالميل وبالأذرع ،
وتكل القوائم طيها للأقدام ... هاهو الأشتر قد حى فنزل عن فرسه ،
وراح يسعى بقدميه كأنما يبتغي من الله للثوبة بسعيه .

لا قتال الآن يشبه ما سلف من قتال وما تواضع الناس على تسميته بهذا
الاسم . لا أزيز لسهم . لا انطلاقة لرمح . المسافات بين الجيش ضاقت فلا حاجة
الآن لرمية بنبل أو حربة . الجنود من الطائفتين تتجالد بالسيف ، وتمتق فتدافع
بالكف وبالظفر وبالناب ... وفي أثناء هذا الصراع اليدوى الوحشى كانت تنطلق
من هنا ومن هناك من بقايا صفوف الشام أصوات تهتف ضارعة :

« الله الله في الحرمات ! ... الله الله في النساء والبنات ! ... » .

وجزع معاوية ... إنه ليعلم أن ثمة أملاً له ، بين الصفوف العلوية ، في الأشعث
ابن قيس حسبا جاءت الأخبار . ولكن يزوغه أبطأ عليه :

« يا عمرو ! ... إنما هي الليلة حق يغدو على علينا بالفصل .. فما ترى ؟ ... » .

قال صاحبه إذ ذاك بهدوء ثقيل مريب :

« إن رجالك لا يقومون لرجالهم ، ولست مثله ... أنت تريد البقاء وهو
يريد الفناء . وأهل العراق يخافون منك إن ظفرت بهم ، وأهل الشام لا يخافون
عليها إن ظفر بهم ... » .

فلم يقب العاهل المهموم . كتم بقلبه غمرة خديته ... ووقف وهو حائر
يقتظر قدره للقدور ، تلك الساعة ، والأشتر يسرع ، وعلى يده من لدنه بالرجال
وقد لاح الظفر كبشائر الفجر الجديد . .

وراح الأشتر ينطلق قدما ، ويدنو ، والموت يدنو معه ، إلى القبة الكبيرة
البيضاء ... وسرى المهرج في أهل الشام ... وتواترت صيحاتهم الضارعة تشق
الفضاء وهم يمايئون صواعق الهلاك تنقض عليهم من كل ناحية فتسحقهم وتحيل

عظامهم إلى ذرات غبار . . . واستبد بأمرهم فزعه ، فجذب مشيره يضرع إليه
« قد هلكنا . . . »
فأغنى يفكر . . .
« نعلم مخباتك يا ابن العاص . . . »
فكان سكون . . .
« تذكر مصر . . . »
عندئذ فرغ ابن النابغة من مشاورة شيطان خبثه ، والتفت باسماً إلى صاحبه ،
يقول له :

« ألق إليهم أمرا ، إن قبلوه اختلفوا ، وإن ردوه اختلفوا . . . »
فالتفت عينا العاهل رجاء ، وأرهفت أذناه . . . ومضى رفيقه يبين له :
« ادعهم إلى كتاب الله . . . »
ثم نادى في الناس :
« يا أهل الشام . . . من كان معه مصحف فليرفعه على رجليه . . . »
وكان هذا مولد خدعة جديدة . . .
وكان فجر الجمعة الثانية من صفر يكاد يسفر عن محيا الصباح . . .

١

الفجر ولي ، والبكور أقبل . السواد ذاب في كأس النور . السماء اكتست
في الشرق وشاحا من الزرقة ، أشهب كالبحر الكدر ، أغبر بلون الرماد . . .
ضياء كظل ، وظل كضياء . . . غبشة الصبح تلف كل ما تلقف الأعين .
على الأرض منها ضبابية ، على الأفق غيمة . الشمس أيضا توارت وراء سحب
مضطربة من رهج الوقعة . والسكان ، بين سمائه وأرضه ، كان لوحة مهزوزة ،
اختلفت فيها الألوان والعالم ، وتداخلت الأضواء بالظلال ، ولولا الصليل والصهيل
والصيححات لسكان أدنى إلى صورة بالية خرساء . . .

حقى الأصوات كانت كأصدااء . خفت الجرس . خف الوقع . ثلث الحدة ،
وباتت جميعها كالترجيع الأجوف . . . وعلى مدى الساحة الفسيحة المنبسطة ،
كانت الصيحة أنه ، والحركة إعياء . . .

الظافر والمهزوم كلاهما فى وهن ، قد زلزلهما التعب ، وبوت جهدهما مشقة
القتال . . . رجال على ترميمهم على عدوهم قوة دافعة — هى بقية تقدمهم —
لا تكاد تمدها الإرادة بشيء ، وإنما تجرفهم أمامها اندفاعا الليل جرف التيار .
وجند معاوية تمسك عليهم كفاحهم الباقى غيبوبة نفسية ، هى الحمية ، التى ما زالت
تتحدّر فى عروقهم من الأجيال . ومن بين أولئك وهؤلاء تنبث للحركة علام
من الصياح والمهرج والأصوات ، عن غير وعى ، وبلا تدبير ، كانبعاث الضجيج
من دولاب دائر دفعه للراء ثم تركه يسير . . .
كانت الحركة التى تحن للوقفة . . .

وكان الدولاب يتمايل ، من وهن ، إلى هنا وإلى هناك ، حتى يتهاوى أو يصدمه
ما عسى قد يكفه عن انطلاقه . . .
والنهار ، حين أصبح ، أنى القوم جميعا بتلك الصدمة اللاجئة وبما أشبع
الحنين . . .

* * *

فى اختلاطة النور ساعة للشرق ، بغيشة البكرة ، ورماد الغبار ، تخاللت
لأعين اللندفيعين قدما صوب معسكر معاوية بضع مثين من الأعلام . . .
ولم تكن خفاقة يلعب بها نسيم الصباح . . . لم تكن — فيما بدا للرجال على —
من ديباج ، ولا على شاكلة ما يعرفون من ألوية ترفعها السواعد أمام الصدور وفوق
الأعناق . بل قد شدت إلى رءوس الرماح والحرايب ، ورفعت على ظهور الجياد . . .
وعجبوا مليا . وتفرسوا . ورنوا . إنها تمتد حيال معسكر الشام كأنها أعواد
سياج . متقاربة ، متدانية ، ومن ورائها احتفى الجنود . . .
لا حركة بين الأعداء . لا رنة سلاح . لا وقع قدم . كلهم وقوف ، بلا حراك
كأنهم صفوف من الأعواد تؤلف بقية السياج . والسيوف فى أكتفهم مدلاة ،
والقسي مرتخية الأوتار . . .

وعندما أعي رجال الإمام أن يتبينوا — من بين غيمة النقع — معالم تلك الرايات ، انطلق صوت رافع مجلجل من فوق معسكر معاوية ، يصيح في ضراعة وإبتهاح : « . . . » .

« يا أهل العراق . . . كتاب الله بيننا وبينكم . . . » .

فبهت المندفعون . . .

على الفور امتدت إلى الصائح الآذان ، وتطلعت الأعين ، وتعلقت منه بسن رجه التي رفع عليها مصحف دمشق الأعظم ، ووقف به في شقة الأرض بين الجيشين التي كانت أرجل المشاة ، وقوائم الخيل في الكتاب للنطلقة قدماً تطويها خطوة بقدم وعدوة بذراع . . .

كان النداء مفاجئ بدت تكلم القوات المنتصرة فوقفت بها ، أو كادت ، حيث انطبعت الأقدام . . . فثمة حيالها دعوة إلى الله ، وجند عزل ، سيوفهم مدلاة ، وقسيهم مرغية الأوتار . . .

ورنت الصيحة المجلجلة :

« كتاب الله بيننا وبينكم . . . » .

واهتز مصحف دمشق الأعظم ، كأنه يردد النداء ، ومن ورائه اهتزت مثيل

مثله من الأعلام . . .

ثم ارتفعت في أعقاب هذا أصوات تضرع :

« يا معشر العرب ، الله الله في نسائكم وبناتكم . . . » .

« الله الله في دينكم . . . »

« من لثغور الشام بعد أهل الشام ؟ . ومن لثغور العراق بعد أهل العراق ؟ » .

« من لجهاد الروم ؟ . من لترك ؟ . من للكفار ؟ . » .

في كل نبرة من هذه الألفاظ توسل ، وفي كل حرف من حروفها حزن ،

خفي خجول ، يتسلل إلى الهواء على استحياء . وإلى المقول التي عاينت المحنة .

وإلى القلوب التي خالطها التقى فسالت رقة ومرحمة — لكان الصدى الذي

خلفته هو هذه اللمة الخيرية في العيون الشاحسة إذ تتألق بندي الموع . . .

وتواترت الصيحات . وترددت مراراً ، مراراً راجفة عالية ، ضارعة مبتهلة
تكشف الخشية من الغناء ، وترسم الخوف من غد قريب مجهول تصبح الأمة
فيه — لو مضت المحنة إلى غايتها — طعمة لكل موتور ، وتفصح عن الأمل
في بقيا حبيبة . . .

« هذا كتاب الله بيننا وبينكم . . . »

وغرق رجال على في طوفان .

من كل ناحية ترددت الحمسات . من كل فرقة وكتيبة ، من كل زمرة
وجمع . حتى الذين زهدت شفاههم في ترديد الحمس وجدت عيونهم عن التألق
بنداها ، كان للضراعة في قلوبهم أصدااء . . .

وسخط الأشر . وحمى أنفه لبادرات الضعف التي على ملامح القوم منه رقة
وفي أكنفهم فتور يكاد يثقلها بما حملته من سلاح ، وفي أقدامهم بطء وهينة . . .
أهو التعب أم التخاذل ؟ . . . أعن إجهاد أم الدعوة الضارعة لقيت منهم اللابي
السميع ؟ . . .

وعلا صوته يشغلهم عن خواطر الأذهان المثبطة ، وينتقل بهم إلى الحياة
في حرارة الكفاح !

« اصبروا ! ! ! اصبروا يا معشر المؤمنين . . . »

كان هذا دائماً ندائه ، في كل ساعات الحرب ، وفي كل مرحلة منها قطعها بجنده
من الشقة التي كانت تفصل بينه وبين معسكر معاوية . . . الإقدام دعاؤه ، والصبر
نجواه . كان مشغلة لرجاله بحماسته للمشوبة ، ومذهلة لهم باقتحامه الخطر غير
هياب حتى ليستهوهم اتباعه فتندفع جموعهم وراءه مسحورة ، بغير تحرز
ولا مبالاة . . . يقول واحد من الذين سمعوه وشهدوه وأعجبهم حينذاك سيره :

« أي رجل هذا — لو كانت له نية . . . »

فإذا آخر ينبري بالجواب :

« وأي نية أعظم من هذه ، ثكلتك أمك ! . . . إن رجلاً فيها ترى قد سيح
في الدماء ، وما أضجرت الحرب ، وقد غلت هام السكاة من الحر ، وبلغت القلوب
الخناجر وهو كما نراه جذعا يقول هذه المقالة ! . . . »

ويتبعه الرجال ، مسحورين ، بالقلوب والعيون والأوصال ، وهو منطلق في غمار الحومة الدامية

وفي الحق لم يكن الأشتر بالمتهم في صبره على القتال ولا في وفائه للإمام ونيته للمقودة على بلوغ أوج غايته فكذلك كان . وعلى هذا دأب حتى انتهت به حياته فجأة ، ذات يوم بالصحراء الشرقية ، على حافة حدود النيل . ولم يجر على الصدق من قال فيه من بعد :

« . . . وما أقول في رجل هزمت حياته أهل الشام ، وهزم موته أهل العراق ؟ . . » .

لكنه — على غير ما اشتهى — لون للشهد الأخير من وقعة صفين بلون باهت خايل الأنظار وداخل العقول حتى اقترن حيالها بما يشبه الهزيمة إن لم يكن هو الهزيمة النكراء . ولم يسعفه صبره إذ ذاك ووقفت نيته مشلولة والسويعة الباقية من عمر الحرب ، وقد قررت لنا دوره قبلها ، ستوجه سيره بعدها فاذا هو يجرى في خط بعيد البعد كله عن طريق النصر . . .

ومع هذا فلم يكن سيره ذاك عن خيانة ، ولا عن فتور بعزمه الذي كان يتحرق على موالاته الكفاح إلى الفوز أو إلى الموت . ولا إيمانا منه بصدق الدعوة الخاتلة التي دعا بها عسكر معاوية حين رفعوا القرآن . . . فالضراعة المرتجفة لم تمس قلبه . وصيحاتهم للهوفا مرت دبر أذنيه وهو يندفع قدما صوب القبة البيضاء . . . وتلفت العاهل المنجوع في حيلته ، والأشتر يقدم عليه غير ملق باله للضراعات والمصاحف كأنه قد الأذن والعين ، أو تلبس من اندفاعه بوقر وغشاوة . . . إنه لا يزال ينطلق . قدما ينطلق . بغير تريث . بغير تردد . بغير سمة من سمات المطف والرحمة التي ارتسمت الآن على وجوه بقية رجال الإمام . وها هو للموت يدنو معه . وها هي للسافة تذوب .

غير أن ريحا من الطمانينة كانت تهب على معاوية ، بمأزقه هذا ، يومه هذا ، فتبرد هونا من اضطرابه ، حلقه يندى من بعد جفاف ، فؤاده يقر بعض القرار . عيناه اللتان غشاها الجزع بدأت الغشاوة تنجاب عنهما ، رويدا ،

وهما تسبحان به على لجة خياله عبر الصفوف التي ملكتها الرحمة ... ثمة بارقة أمل .
فرجة لهم . ثغرة بتلك الصفوف المخدوعة لن يلبث حتى يفتحها خداعه فينفذ
من خلالها إلى ما يريد ... ولم تكن هي العاطفة الإنسانية التي ترق لصارع
ملهوف ، ولا نجدة الفروسية التي تعف عن مقاتلة أعزل . وليست أيضا العاطفة
الدينية التي تفيض بقلوب النقا الورعين فتسيل خشية وتلبية لهذه المصاحف
التي احتوت كلام الله . كلا ، لا هذه ولا هاتيك . بل الدسيسة التي تسربت
بالظلمة ، ثم تسلت تسلل الأفاعى السامة في أثناء الرمل ...

٢

الصيحات التي ردها الصبح من ناحية الأمويين لم تكن أولى الصراعات
للمرجفة . سبقتها في الليل أخوات كانت الفاتحة ! ... طليعة الحملة المخاتلة ! ...
باكورة الثمار الحبيشة التي أطلعتها شجرة التآمر للمعونة ! ...

لكنها مضت فرادى حينذاك ، من هنا مرة ، ومن هناك مرة . تنطق بها
أفواه بعض الناس من رجال الشام ، ولا تكاد تلتقطها إلا آذان بعض الناس من
رجال العراق . غير أن أذنين اثنتين كانتا أحفل بها ، أحرص على الامتلاء منها
حتى انصاقتا بغيرها من ضجيج اليدان وأخلط أصواته .

وأرهمف الأشعث بن قيس سمعه ، الليلة الأخيرة في حياة القتال ، ليلة الحرير
وسكن يصبح :

« يا أهل العراق ! ... من لدرارينا إن قتلتمونا ؟ ... ومن لدراريكم إن
قتلناكم ؟ ... الله الله في البقية ، يا أهل العراق ؟ ... »

أفهي العلامة التي تم عليها الاتفاق ؟ ... أم للصادفة وحدها قد دفعت أولئك
القوم في الجيش الآخر إلى هذا الداء الذي تردد مثله منذ قليل على شفثيه ،
فيجدر إذن أن تكون الصدفة التي تزدري بكل اتفاق ؟ ... على أية حال كانت
هذه الدعوات المنطلقة مع الليل صدى لما رده الأشعث بن قيس ، في نفس الليلة

قل أن تضيع عندما وقف بين رجاله من كندة موقف الخطيب ، والرحى حينذاك تطحن ، ونار الحرب تأكل وتطلب المزيد . . .

قام ، في تلك اللحظة الحامية ، بارد القلب هادئ المشاعر بين قومه ، يلجمهم ولا يدفعهم ، ويفل من عزمهم ولا يشحذهم ، كأنما الخير قد غدا في التثبيط — والوغى تستمر — دون التحريض ! . . .

قال ، والسامع يوشك أن يثتم فيه بصره فيحسبه اكتسب الآن مسوح الحكمة والوعظ وخلع عن نفسه شكة القتال :
« يا معشر المسلمين . . .

قد رأيتم ما قد كان في يومكم هذا للماضي ، وما قد فنى من العرب . فوالله لقد بلغت من السن ما شاء الله أن أبلغ فما رأيتم مثل هذا اليوم قط . . . »
وأصغت إليه كندة . . . بغير هذه الكلمات طالع الأشعث أمير المؤمنين منذ قليل . بالحجة ، والرغبة الطاغية في البذل ، وموالاته الحرب إلى غايتها حتى يفتح الله أو تكون الشهادة . . . فكيف تبدلت الحال ؟ . . ما الذي غيره ، وانتقل بنفسه هذه النقلة العجيبة من المغالاة في الهمة إلى المغالاة في التخاذل ، بين سوية وسوية ، ليلة الحرير ؟ . . .

ومضى يقول ، وصوته يتشكل وفق منطقته ، إشفاقا ، ورقة ، أو جزعا لعله يجاوز خشية الجزوع إلى أسفل التائب ، وألم النادم على ما فات :

« . . . ألا فليبلغ الشاهد الغائب إننا إن تواقفنا غدا إنه لفناء العرب ، وضیعة الحرمات ؟ . . . أما والله ما أقول هذه المقالة جزعا من الحنف . ولكني رجل مسن ، أخاف على النساء والذرائع غدا إذا فني . . . »
ويرفع وجهه الحزين للسماء :

« اللهم إنك لتعلم أني قد نظرت لقومي ، ولأهل ديني فلم آل . وما توفيقي إلا بالله . . . »

لم توقع هذه الخطبة ، التي حببت القعود إبان النصر ، عوامل الوهن في قلوب كندة أصحاب الأشعث وحدهم ، بل تجاوزت نطاقها إلى غيرهم من الناس . لاحت بأدى الأمر رأيا خاصا بذله لطائفة خاصة هي قومه من البمانية ، ثم لم يكدر يسير فيها إلا أسطرا قليلة حتى أرادها عامة ، وجعل نشرها بين الكافة من جيش على أمانة معلقة في أعناق أصحابه ، يؤدونها عنه ، شاهدا لغائب ، وسامعا مقبلا لبعيد قد نأت به حركة القتال ... كانت بذرة جرثومة من جرائم دائه رمى بها الجماعة السليمة وقدما انطوت نفس الأشعث على دخل للإسلام حتى خلع نفسه وثاقه وارند طائعا إلى الجهاد العمياء . وبالأمر القريب ، وحرب صفين في مدها وجزرها ، خايله عتبة بن سفيان ، بلسان أخيه معاوية ، وحرك فيه نزعات غروره واستعلائه . واليلة ، وجيش الإمام على حافة النصر ، والحق قد بلغ مقطعه ، يجنح للرتد المفروار إلى دعوة الوهن والتوهين وما زال ضراعة أهل الشام سرا تكتنه الخواطر ، وغيا تسره الظنون

فكيف تبدلت الحال ؟

ما الذي غير الأشعث ، وانتقل به هذه النقلة العجيبة من المغالاة في الحمية والهمة إلى المغالاة في التخاذل والتخذيل ؟

ليست الصدفة على أي وجه ، أو هي الصدفة التي تساوى التدبير المحكم ، وتمدل الاتفاق

وتنطلق العيون من هذا المعسكر إلى ذاك ، تبلغ معاوية الخطبة . فإذا هو ينفى إلى بعض طمأنينته . وإذا قلبه الداهب يشوب . وإذا عيناه تسرحان مع خياله عبر الصفوف الهائلة ، الزاحفة إليه ، الداهمة كالتضاء هذه إذن فرصته . الأمل المرقوب . الثمرة التي انشقت له في عدوه ينفذ منها إذا شاء لما شاء وعندئذ يحمد الرأي الذي دعا به شيخ كندة ، ويشيد به في حماسة واهتمام : « أصاب ورب الكعبة . . . »

ولم لا ؟ . لقد أصاب الوحدة العلوية في الصميم

وبعض المعاهل في ثنائته :

... لئن نحن التقينا غدا لتميلن الروم على ذرارينا ونسائنا ، وتميلن فارس على نساء أهل العراق وذراريهم .. أصاب والله ! ... وإنما يبصر هذا ذوو النهى والأحلام ... » .

ثم يذهب يستهدى رفيقه ابن العاص فينسج له ، ويحك ، ويحك الشراك التي نصيبها عند اشراقة الصباح

وفي الجانب الآخر يقع الاختلاف ... ما يكاد الأشعث يلقى بدعوته للموهبة بالنصح ، المزيفة بالحكمة ، حتى تنتقل من أذن لشفة ومن شفة لأذن ، فتذيع بين القوات العلوية مقرونة باللفظ والمناقشة والجدال . لقيت هوى من لدن الأعضاء للفتنة ، والأبدان المنهوك ، وأوسعت لها في دخيلتها مكانا نفوس قرحها الحزن ذوى قرابة ورحم حطمهم الحرب القاسية هنا أو طحنتهم هناك ... الدولاب الدائر أخذ يتروح ويتمايل دون أن يبلغ غاية انطلاقه

وثار الجدل . مرارا كثيرة ، في الليل والبكور ، تواقف الصحاب يبحثون الأمر ، ويقلبونه أوجهه . من عاد ليباغ الإمام سير القتال . من نهى ليمد . من أفسحت لهم الحرب من لحظاتها ما يشغلونه بمحدث ... يقول عدى بن حاتم :

« يا أمير المؤمنين ... كل مقروح ، ولكننا أمثل بقية منهم . وقد جزعوا وليس بعد الجزع إلا ما تحب . فناجز القوم ! ... » . ويقول عمرو بن الحق :

« .. والله ما نصرناك عصبية على الباطل ، ولا طلبنا إلا الحق ، ولو دعانا غيرك إلى ما دعوت إليه لكان فيه الججاج ... يا أمير المؤمنين ، قد بلغ الحق مقطعه ، وليس لنا معك رأى ... » .

وبهتف الأشتر بلى :

« ... افرع الحديد بالحديد ، واستعن بالله ! ... » .

في مستهل الجدل كان القوم أميل إلى للتأيرة ، أحرص على موالاته النضال في لحظاته الأخيرة حتى يشمر لهم نصرا قاطما تتبعه وحدة وتقفوه سلم . لكن ...

الأشعث وحده هو الذى خالفها ، أو بدا حينذاك المستمسك بدعوة اللوادة التى أطلقها فى الليل . إنه لا يخضع للرأى الغالب . لا ينزل على حكم رفاقه . لا يزال يلحف ويلح حتى يبلغ به إلحافه وإلحاحه حد الغضب والثورة كأنما يريد أن يحملهم حملا على قبول دعوته :

« إنا لك اليوم على ما كنا عليه أمس . وليس آخر أمرنا كأوله . وما من القوم أحد أحق منى على أهل العراق ولا أوتر لأهل الشام منى ... فأجب القوم إلى كتاب الله فإنك أحق بهم منه . وقد أحب الناس البقاء وكرهوا القتال ... »
ويهدىء على تأثيره

« هذا أمر ينظر فيه ... »

لكن الرجل ، فيما بدا ، لا يرضى لرأيه أن يغفل ، أو يغلب ، أو يتناوله العقول بالتمحيص . فمضى ينشره ، ويروج له فى الصفوف ... لم يرض بالسكوت بل كان أعظم الناس قولا فى إطفاء الحرب والركون إلى اللوادة ، والرحى حينذاك تطحن ، ونار الوغى تأكل وتطلب للزيد ...

فى هذه اللحظة كان الأشعث يصيح برجاله ، صيحته التى تبعد عن أذهانهم خيالات التجاذل البادية فى ثياب عرائس السلام .
« اصبروا ! . . اصبرا يا معشر المؤمنين ! . . »

إنه يمضى الحديث الذى زخره الأشعث لم يغفل عزمه ، ولم يخفف ضرباته . الجدل الذى تركه وراءه بين رفاقه من قادة الرأى فى صفوف الإمام كان أدنى فى ظنه من محاوره قد تختلف فيه النظرات ثم لا توقع — آخر الأمر — الاختلاف . الحق بين والنصر بين ، وإن هى إلا خطوات إلى المقبة الكبيرة البيضاء ويسقط آخر معقل للأعداء ، فيسكت المحاور وينفض السامر ...

ومضى قدما بلا تلكؤ بغير صدى يتردد فى خاطره لهذه الضراعات التى بحث بها أصوات جند الشام . بغير ظل للعطف أو للرثاء ترسمه على ملامح وجهه الصارم لحفة الغريم المغلوب . وما هو اللوت يدنو معه ، وماهى للسافة تذوب ...

ورجف معاوية .. ما لأمله لا يبرغ ؟ ما لفرسه لا يشمر ؟ .. ما لهذه الثغرة
التي حسبها في الليل قد انفسحت له بين صفوف الإمام لينفذ منها الخداع والديسة
قد بدت الآن تضيق وتضيق كلما تبلغ النور ؟ ..

ويجزع الرجل . ويجزع معه أصحابه الذين علقوا حياتهم بذلك الحيط من
أمله ، فيصيحون حمية :

« يا معاوية ! .. ما نرى أهل العراق أجابوا إلى ما دعوناهم إليه
فأعدها جذعة ! .. »

فيتفكر برهة ، وهل بقي له ولحم عزم ، أو فرصة لثبات على الأقدام !
وينفثون في روعه :

« .. إنك قد غمرت بدعائك القوم ، وأطمعتهم فيك ! .. »

لكنه لا يصغى . مرة أخرى يمد بصره على أجنحة خياله ما وراء تلك
الصفوف المظفرة ، إلى وكر هناك تعيش فيه الديسة وتفرخ . مرارا أيضا
يماود الأشعث بن قيس دعوة للوادة ، وإطفاء الحرب ، والوهن والتوهين .
والأشعث حينذاك ينطلق ، بغير أذن تسمع الضراعة ، وبغير عين ترى للمصاحف
المرتفعة خياله على الرماح كالأعلام ! ..

٣

ثار الإمام بالذين ما ونوا يلحون عليه في الاستجابة لضراعة أصحاب معاوية ،
وتلبية دعوة الحكم بالقرآن :

« إنها كلمة حق يراد بها باطل ! .. »

ولكنهم ظلوا يلحون ...

الآن وجد توهين الأشعث بن قيس سبيله إلى النفوس ، في صورة حكمة ،
وعطف لرحم ، وبقياء على الداراري والنساء ! . وأخذ ما كان يردده أهل الشام
يتردد على السنة أهل العراق : « من لروم ! . من للترك ! . من للكفار ! »

واستنامت الكترة في جيش على لمظهر الدعوة البراق دون الحذر من لبها الخبيث .
فما يهمهم النوص في قلبها ، أو الكشف عن سرها المستور . إنما يجدى عليهم
أن يقبلوها كما هي — وإن كانت طلاء وقشرة — ففي قبولها الحياة .

كالنعام أغمضوا عيونهم عن شرك الصياد ، وأخفوا ردوسهم في الرمال .
أولئك الذين نهضوا لله ، وهاجروا من ديارهم في الله ، وحاربوا قتلوا وقتلوا
وهم على بينة وإيمان ، فترت الآن منهم العزائم ووهى الجلد والنصر أمامهم
يعاينونه من قريب . . .

وهتف بهم يحذرهم :

« عباد الله . . . إني أحق من أجب إلى كتاب الله . ولكن معاوية ،
وعمر بن العاص ، وابن أبي معيط . . . ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن
إني أعرف بهم منكم . . . صحتهم أطفالا وصحتهم رجالا ، فكانوا شر أطفال
وشر رجال . إنها كلمة حق يراد بها باطل . . . »
ثم مد يده إلى المصاحف لترفوعة كالأعلام :

« ... انهم والله ما رفعوها لأنهم يعرفونها ويعملون بها ، ولكنها الخديعة
والوهن والمكيدة . . . »

فما أجدى تحذيره . وبقوا يرنون إليه بعيون جوفاء . حق إذا استيأس صرخ
فيهم كأنما يستمعين بقية من حميتهم القديمة ، وشرعة الجهاد والتضحية ، على
نفوسهم التي قتلها خوف اللوت ، وقتنها حب الحياة :

« عباد الله . . . أعيروني سواعدكم وجماجمكم ساعة واحدة ، فقد بلغ الحق
مقطعه ، ولم يبق إلا أن يقطع دابر الذين ظلموا . . . »
قليل سمع ووعى ، وكثير عاند وكابر ...

تصايح فريق يليه :

« نقاتل . . . »

« نقاتل القوم على ما قاتلناهم عليه أمس . . . »
فإذا أصواتهم تضيع في هدير معارضيه :

« أكلتنا الحرب ا . ا »

« قتلت الرجال ا . ا . ا »

« أجب القوم إلى ما دعوك إليه فإننا قد فنينا ا . ا . ا »

وماج الناس . وتواترت حشودهم عليه من أرجاء الميدان ، على أجسامهم الزرد ، وعلى وجوههم أقنعة الحديد ، وفي أيديهم السلاح ... جموعا وفرادى جاءوه . فرقا وكتائب من هنا ومن هناك . مختلفين الفراغ في الساحة . لغير تلبيته كان هذا الإقبال ا . لغير التبصر بما أشار ا . لغير نصرته كل هذه العدد والأعداد من الدروع والنصال ، ومن للغاير والأبطال ا . . . وقت الفتنة واضطرب لليزان ...

وضاع صوت الإمام . أغرقه المهرج والجدل والضجيج . فما بقي ثمة من هذه الجموع الحاشدة سوى عيون جوفاء ، وقلوب مغلقة ، لا تراه الآن إلا داعية حرب هم الذين كانوا يتبعونه ، منذ ساعات ، خفافا سراعاً إلى مفاوز الموت ، في سبيل الحياة ا . . . فما أعجب القلب من قلب ا . . . وما أقوى الوهن وأعنى سلطانه حين ينطلق من عقاله فتسرى إلى النفوس عدواه ا

من خمة الليل إلى تألق النهار تبدل الأمر حالا بحال . سرعان ما تغير . انقلب ... الفلة المخدوعة ربت ، ونمت ، وأثمرت فأصبحت كثرة . والكثرة الواعية التي كانت نرى الاستمرار في القتال إلى النصر ، عزت الآن عليها الأعمار وهانت القيم الرفيعة ، فأخذت تتسرب ، رويداً رويداً في أغوار تخاذلها ، تسرب الوابل المطال في الرمل إلا بقية — كقطر الندى — على سفوح كئيبانه ا . . .

الآن قد استمعى الداء . كل ما حاول الإمام أن يحمل به رجاله على الاستمسك بالصبر ، والتذرع بصدق البلاء ساعة — ساعة واحدة تأتيم بعدها العزة ، ووحدرة الأمة ، والسلم الدائم ، لم يجد صدى في قلوبهم التي استعبدتها خدعة معاوية . لكنهم في الحق لم يكونوا جميعهم مخدوعين . فطائفة أضلها تقاها حين حسبت أن في إبانها الاحتكام إلى كتاب الله خروجاً على شرعة الدين . وطائفة

أنهكتها الوغى ، وأكلت من عشائرها للوزعة بين جيش العراق وجيش الشام
فأثرت تعجيل السلامة وطائفة ثالثة خاضت الحرب عن حمية لا عن إيمان
فاكتفت بتلك الضروب للبسالة التي أبدتها خلال ماسلف من أيام القتال ، ففيها
غناء حين تمشى بسيرتها الأحاديث . وبين أولئك وهؤلاء فريق غيرهم خابله
دنيا ابن أبي سفيان ، إن بالملق أو بالمغنم من ثراء وجاء ، في وقت أيقنت فيه
أن عليا صاحب آخرة ليست تطلب عنده أطايب الحياة ...

هذه الصفوف من « الأحزاب » لم تكن كلها في جيش الإمام يوم خرج
مخرجه من ذي قار . ولقد رأينا حينذاك حريصا الحرس كله على أن يوفر
لقواته اللوامة والانسجام بين عناصرها ، فلم يستلحق أحدا كره النهوض معه ،
كما أبي الإباء كله أن يضم إليه كل امرئ ، قالت الشبهات إنه شرك في دم عثمان ...
لكن انتصاره في البصرة على أصحاب الجمل قد أمدده من العناصر التي خالطت
جيشه ولحقت به ، بما لم يكن يرضاه لو وكل بالقلوب يقرأ خباياها ، وبالنيات
الليكنونة يكشفها ، وينقدها خالصة ومدخولة . فلقد جرى القوم حينذاك على
ما يجري عليه الناس ، في كل زمان ومكان ، فلحقوا بذيله إذ هو غالب . وجاءته
منذ ذلك اليوم من جمادى الثانية ، عامه للماضي ، زمر ووفود من أقاليم دولته
لتسانده في كفاحه ...

من هذه الأخطا كان جيش صفين . وللغاية التي مضى إليها الإمام مضت معه
وقد ازدهاها أن تساند ابن عم الرسول ، صاحب الحق الشرعي في ولاية أمر
الناس ، وهي تبغى — إذ تظاهره — إعلاء كلمة الحق ، ورد كيد أيما مبطل
حدثته نفسه بالتمرد على سلطانه . ومع ذلك ، فلم تكن نفوسهم بلا ريب فارغة
الفراغ كله مما يداخل نفوس البشر من نزعات خاصة إلى الشهرة أو المغنم
أو السيادة التي تفيها عليهم الحرب المرقوبة وإن طغت عليها — حين الزحف —
تلك الحماسة الطاغية لله ، والإمام ، والمثل النبيلة الرفيعة التي أذهلتهم عن الدات .
أما الآن ، وقد خف ذلك الطوفان الأمثل الذي جرفهم إذ ذاك في عبابه ،
وصدمتهم محنة الحرب ، وأصبحوا ينظرون بالعيون بعد أن كانوا يرون بالبصيرة ،

ويسمعون بالآذان دون القلوب ، فقد تبدلت بهم الحال ، وهووا من صماء الروح إلى أرض المادة . . .

العيون مفتوحة ، والقلوب مغلقة . النفوس حاضرة والأرواح غائبة . هم شغوص وجسوم ، تسمع وتشخص وقد عدمت الوعي والتبصر . نصب فيها الغداء والإيثار . ذوى الشعور بالقيم . غلا الموت عليها في سوق صفين . . .

وضاق الإمام :

« .. لم يزل أمرى معكم على ما أحب إلى أن أخذت منكم الحرب . وقد والله أخذت منكم وتركتم وأخذت من عدوكم فلم تترك ، وإنها فيهم أنسكى وأنهلك ... »
وكانما هم بعضهم — على مألوف ماجروا عليه خلال السويعات القلائل صبيحة الجمعة الثانية من صفر — أن يقطع عليه حديثه ، إن بالتهوين أو بالمعارضة :

« يا أمير المؤمنين ... »

فلم يتمهل له ، بل أتم ما شرع فيه من كلامه ونبراته تقطر المر :

« ... كنت أمس أمير المؤمنين ، فأصبحت اليوم مأمورا ... » وكنت ناهيا فأصبحت منيها ... قد أحببتكم البقاء ، وليس لي أن أحكمكم على ما تكرهون ... »
وجلس وهو قانط نقض منهم أمره . . .
وتحلقوا حوله ، حلقة وراء حلقة كأنهم في ندى لا في ميدان قتال . . .
وأقبل شيوخهم يتبارون في أحاديث يلوونها ليا ، تلف في الفاظها للتأية تهافتهم الخزي على الحياة . ومن ورائهم عامة الجند ينصتون للدعوة الشبهة ويتنادون جهرة بالموادعة والسلام .

يقف شقيق بن ثور البكرى ، يخطب :

« أيها الناس ، إنا دعونا أهل الشام إلى كتاب الله فردوه علينا ققاتلناهم عليه . وإنهم دعونا إلى كتاب الله فإن رددناه عليهم حل لهم منا ما حل لنا منهم .. »
وقد أكلتنا هذه الحرب ، ولا نرى البقاء إلا في اللوادة ... »

فكانما شاء شقيق في هذا الوطن أن ينسى أن صفين لم يقع بها سلاح في يد علوى إلا بعد أن استنفد الإمام كل حيلة لمنع الحرب أن تنشب ، بالكتب

والرسل بضعة شهور . حتى عندما أخذت الأكف — في بدء الواقعة — تتلون بالدم ، حاول أن يكبح شهوة أعدائه للقتال فدعاهم مخلصا إلى كتاب الله ، ولكنهم ردوه ، وأبوا الاحتكام إلا للسيف . . .

نسى هذا كله شقيق ، بل هو قد حمل نفسه حملا على تناسيه ، في ذلك للوطن ، ليجد حجة لتخاذه ، ويضع حجة في أيدي أخصامه وإنه ليعلم حق العلم أنهم قوم صفرت يدهم من كل حجة ، وفرغ وفاضهم من المعاذير . . . ويمثله يتحدث حريث بن جابر البكرى :

« ... إن عليا لو كان خلفا من هذا الأمر لكان للفرع إليه ، فكيف وهو قائده وسائقه ؟ . وإنه والله ما قبل من القوم اليوم إلا مادعاهم إليه أمس . ولو رده عليهم كنتم له أعنت . . »

أفلم يرده فعلا ؟ . . . ومع ذلك يزعم حريث أن الإمام « رضى » للوادعة فيحمل كلماته اليايسة غير ما تطيق . . .

واحد فحسب من بين هذه الجماعة كان أقدرها على رسم صورة صادقة للموقف ، فيها صراحة آذت زملاءه ، وأفلقت معاوية من ورائهم وكان يتنفس ربح الأخبار التي تأتيه عن سير النقاش .. غلام منهم لم ترتفع به السن وإن ارتفعت الهمة ، هو الحضيض بن المنذر الرقاشي ، صاحب راية ربيعة التي ثبتت بعد انهيار جناح عبدالله بن بديل ، واستطاعت بثباتها المعجز أن تميل بجيش طي من الهزيمة إلى النصر ...

قال الحضيض ، ذلك الغلام يرد على أوائك الأشياخ :

« أيها الناس . . . إنما بنى هذا الدين على التسليم فلا توقروه بالتقياس ولا تهدموه بالشقشة . . . إن لنا داعيا قد حمدنا ورده وصدره ، وهو المصدق على ما قال ، المأمون طي ما فعل ، فإن قال لا قلنا لا ، وإن قال نعم قلنا نعم . . » فأغضب قوله المتنادين بالموادعة من البكريين ، الذين ادعوا أن تناديهم صدى لرغبة الإمام . . . أغضبتهم صراحة الغلام ، وضاقوا بها ، وامتلأت لها نفوسهم بمدواة كادت توقع الشقاق بين قومهم وقومه ، وتدفع بهم إلى مقاتلة إخوة لهم في السلاح في نفس الوقت الذي اختاروه لمسألة الأعداء . . .

« امنن عليا . . . »

فأخذت ابن هبيرة أريحيته كما أخذته يوم استعانته معاوية على ربيعة . فإذا هو يشترين من بيت المال ، ويمنن عليهن باعترق

وهذه لاريب مروءة ، تكشف لنا عن ناحية في خلق الرجل محمود ، وقد تلقى ضروا على موقفه ذاك من استماعة معارية به ، فتبديه كلفاً بالنجدة يبذلها لأيمان ملهوف وإن كان صديقا أو كان عدوا في العدا . ولكنها — كما تلوح — نجدة منشؤها حب الفخر والباهة ، وليست عن إيمان بالملك كرم . . . فما هو أن رأى أن تمن العتيقات قد أبهظه ، وعسر عليه أن يؤديه لبيت المال حتى حزم أمره ، وتخلي عن علي في وقت تراجعت عليه الأزمات ، والتجأ إلى معاوية . فكأنما إذن قد أثر الفرار من الأداء على الوقوف بجانب أمير المؤمنين إبان محنته والوفاء لمهده ، والولاء له وهي لاريب أكرم المروءات .

وقال الإمام فيه لما بلغه نبأه :

« قبح الله مصقلة . . . فعل فعل السيد وفر فرار العبد . . . »

٤

استشرت دعوة المواجهة في جمهور الجيش ، ولم يقد في كبح جماحها تحذير الإمام ، ولا صراحة الحضيض ، ولا استدامة الأشتر الهجوم بفشته القليلة على معسكر معاوية . وخرج الأمر الآن من يد سادة العشائر الذين طالما تناولوها ذلك الصباح بجدل وتقاش ومداورات تظهر طاعة « رقيقة » لملى تشف عن تمرد وعصيان ، وتبدى عزما على تأييده ورائه في الحقيقة تقاعس يداني الحور ، ويهوى إلى درك الانهيار . . .

وقعد الناس ، هنا وهناك . وما لم يقاتلون والهدنة تلوح ؟ . . . وارتخت القسي . وقرت السيوف في الأغمام . . . في ناحية من الميدان خديعة ، ومصاحف كالأعلام ، ودعوة تصيح : « كتاب الله ! » . وفي الناحية الأخرى غفلة ،

وتمررد غير مستور ، ودعوة تصبح : « كتاب الله ! » . . ولا رهج إلا حيث ينطلق الأشر . ولا شجرة حرب إلا على مقربة من القبة البيضاء . . .

وكأنما أبطأت على رقيق الحياة غايتهم ، فأقبلوا يهرعون صوب الإمام ، على القدم والخطى ، يتمجلون السلامة . . . كانوا جميعا من رجاله ، الغالين من قبل في نصرته . كانوا المشوقين لإحدى الحسينين : النصر أو الشهادة فإذا هم الآن يرون الحياة غاية الغايات . . .

في شكة القتال أقبلوا عليه السيوف على العواتق والرماح في الأيدي . والدروع والأقنعة على الصدور والوجوه . ومن وراء الحديد الذي أخفى ملامحهم كانت الحدق تأتلق غضبا وموجدة . . .

لو أنك لقيتهم قبل يومهم هذا لحسبتهم ممن قال الإمام فيهم حين تحدث عن خيار العباد :

« .. لولا الأجل الذي كتب لهم لم تستقر أرواحهم في أجسادهم طرفة عين شوقا إلى الثواب ، وخوفا من العقاب . عظم الخالق في أنفسهم فصغر ما دونه في أعينهم . فهم والجنة كمن قد رآها فهم فيها منعمون . وهم والنار كمن قد رآها فهم فيها معذبون . . قلوبهم محزونة ، وشروهم مأمونة ، وأجسادهم نحيفة ، وحاجاتهم خفيفة . أرادتهم الدنيا فلم يريدوها ، وأسرتهم فقدوا أنفسهم منها . . . أما الليل فصافون أقدامهم ، تالين لأجزاء القرآن يرتلونه ترتيلا . . .

فمن علامة أحدهم أنك ترى له قوة في دين وحزما في لين . وإيمانا في يقين . وخشوعا في عبادة . وتحملا في فاقة . وصبرا في شدة . . . يعسى وهمه الشكر . ويصبح وهمه الذكر . . . لا يدخل في الباطل . ولا يخرج من الحق »

وقد كانوا حقا يتلون القرآن ، فهم حفظته وقراؤه . وتهزهم معانيه هذا عنيها فتخشع الجوارح وتدمع العيون . وصلوا نهارهم بليهم ، تقربا إلى الله ، بالصلاة والقيام . وصرفوا وقتهم خشية من الله ، في الدماء والبكاء والسجود ، حتى يمت الأصوات ، وتفرحت الجفون ، واسودت الجباه . .

الكنهم اليوم غيرهم بالأمس — أولئك الذين أقبلوا منهم على على عليهم الدروع

والأفئدة . فإن يكونوا قد بقيت بهم تلك الملائم الجسدية ، فقد غدت دخالهم كأنما هم فرقة من أهل النفاق الذين وصفهم فقال :

« ... الضالون للضالون ! ... يتلونون ألوانا ، ويفتنون افتنانا ... يمشون الخفاء ، ويدبون الضراء ... قولهم شفاء ، وفعلهم الداء العياء ... إن سألوا الخفوا ، وإن عدلوا كشفوا ، وإن حكموا أسرفوا . قد أعدوا لكل حق باطلا ، ولكل قائم مائلا ... يقولون فيشبهون ، ويصفون فيموهون ... » .

آلاف عديدة أتته منهم ، لم تغن عنهم قراءتهم ، ولا عبادتهم ، ولا شوقهم القديم للموت ابتغاء الثواب وخوف العقاب . وكانت الآفة التي نخرت في قلوبهم فأوهنتها هي نفس تقام — ذلك التعصب الديني الذي يضيق معه الأفق ، وتنحسر النظرة فلا تنفذ من الأمور إلى ما وراء سطحها المغلف بقشرة رقيقة من الدين ، فحقت عندئذ عليهم قوله : « رب عالم قد قتله جهله وعلمه معه لا ينفعه ! ... »

آلاف عديدة من أولئك القراء أضلهم النظرة الكلية ، وآلاف أخرى من اليمانية رجال الأشعث للصدرين عن رأيه إذ هو شيخهم الأمر للطاع ، وآلاف نائلة من أعراض الجيش الذين شاموا البقاء في دعوة معاوية ، قد أقبلوا جميعا على الإمام ، ليفرضوا مشيئتهم ، وينفذوا الرغبة التي أملاها عليهم الجسد المنهوك ، والجنان الخليع ، والقلب الواهن الذي لا يثبت على لأواء ...

وتقدم هذه الطائفة المتمردة جمهور من أصحاب الجباه السود — قوام الليل ، عباد النهار ! — على رأسهم مسعر بن فدكي ، وزيد بن حصين وعصاة غيرهم ممن غدوا بعد رؤس الخوارج وعلى وجوههم قنق الحديد ، وفي أيديهم السلاح ، وفي أحداقهم للتسعة بفضهم تتوالب أبالسة الفتنة ، يصيحون :

« يا علي ! ... » .

حتى إمرة المؤمنين أبوها عليه ! ... وكيف يدعوها بها وقد صورت لهم أخيلتهم السقيمة أنه لا يستجيب لدعوة القرآن ؟ ... وأنى لنظرهم الحسيرة أن تنفذ إلى غور الحقيقة بعلمهم وإنه لاطلاء غطى منهم اللحي والجباه ولم يخالط القلوب ؟ ...

« .. أجب القوم إلى ما دعوك إليه ... »

فرمقهم بعين حزنونة . فجعته فيهم الأيام .. وهذا الأسى الذى يترقق كالدمعة فى مآقيه كان لهم ، وعليهم ، فما نفعهم علمهم ، وما أغنت عنهم كثرة السجود ..

ونادوا يزجرون :

« أجب القوم إلى كتاب الله ، إذ دعيت إليه ، وإلا قتلناك .. »

فصاح بهم :

« ويحكم .. أنا أول من دعا إلى كتاب الله ، وأول من أجاب إليه ،

وليس يحل لى ولا يسعنى فى دينى أن ادعى إلى كتاب الله فلا أقبله — »

فقطعوا قوله :

« فأجبههم .. »

« .. إني إنما أقاتلهم ليدينوا بحكم القرآن ، فإنهم قد عصوا الله فيما أمرهم

وتقصوا عهده ، وينذوا كتابه ... »

هنا تردد صوت صائح الشام ، بين الصفيين يتلو :

« ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم

بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون ... »

فكأنما الأشعث كان المعنى بالتلاوة ، فهتف بقومه :

« والله لا نأني هذه أبداً .. »

وقال الإمام :

« لن نرضى أن نقاتل معك .. »

ودوى وعيد القراء ، من كل ناحية :

« يا على ... أجب .. أجب .. »

عندئذ ألقى بآخر ما فى جعبته :

« .. قد أعلمتكم .. إنهم قد كادوكم . وإنهم ليسوا بالعمل بالقرآن

يريدون . فامضوا على حكمكم ، وخذوا فى قتال عدوكم .. »

فتصاح الجمع :

« أندعى إلى كتاب الله فنأبى أن تقبله ؟ . . »

وتحلقوا حلقة حوله ، يهزون في وجهه سلاحهم ، ويتوعدونه بالقتل إن هو لم ينزل عن رأيه ، ويستجيب لمشيئهم المجنونة ولم يرضوا منه بأقل من أن يطغى بنفسه بقية النار التي بقيت بعد مندلة في جانب من الساحة ، عند القبة الكبيرة البيضاء :

« ابث إلى الأشر ليأتيك . . »

كان الأشر حينذاك قد أشرف على معسكر معاوية ليدخله ، لا تثبت أمامه قدم ، ولا تلقاه مقاومة تمرقل اندفاعه . . . النصر معه والخذلان حياله في فلول أحراس أهل الشام . وإن هي إلا شفة ضيقة يقطعها ثم يفتح الله . . .

لكن رسول على جاءه :

« انت أمير المؤمنين . . . »

فعجب الأشر :

« آتية ؟ . . قل له ، ليس هذه بالساعة التي ينبغي لك أن تزياني فيها عن

موقفي . . . إني قد رجوت الله أن يفتح لي ، فلا تعجلني . . »

غير أن هذا الرد الذي عاد به الرسول ، ودلائل النصر التي بدت لهم واضحة والرهج يعلو وصيحات الهزيمة تنفلت جزعة من أفواه أهل الشام ، لم ترد أولئك القراء اللعنتين عن غلوائهم ، ولا خففت من عصبيتهم لرأيهم للتهافت . إنما تركتهم أنسكى عى ، وأشد ضلالة . فإذا بهم يعدون طوقهم فيصفون بالإمام في تجير وإعنات :

« ما نراك إلا أمرته بقتال القوم . . . »

« أرايتموني ساررت رسولى إليه ؟ أليس إنما كلمته على رءوسكم علانية ؟ . »

« فابث إليه فليأتينك ، أو لنقتلك بأسيا فذا كما قتلنا عثمان ، أو لنسلنك

إلى عدوك . . »

ونظر الأشر إلى الرسول وقد أتاه ثانية :

« أرفع هذه المصاحف ؟ »

« نعم » .

« أما والله لقد ظننت أنها حين رفعت ستوقع اختلافا وفرقة ... »

ولكنه لم يعد تمهل مليا كأنما نازعته نفسه إلى النصر الذي يفتح له ذراعيه .
إنها لحظة العمر . فرصة الدهر كله قد أتته صاغرة بعد طول كفاح وجهد
ومشقة . فما يدفعه الآن إلى إفلاتها من بين يديه ؟ ..

أحسبه حينذاك قد تفكر برهة يقلب الأمر . ثم يتفكر برهة فيؤثر البقاء
بمكانه من الليدان . ثم يتفكر برهة فلا تخطئ النصر عينه وهو يشهد تصدع
آخر الخطوط الشامية ، وتفرق الحماة عن قبة معاوية تفرق الصيد بعد رمية
صياد . . . لم يعد هناك شك في الظفر . والوقت القصير الذي يقطعه في المودة
إلى طي كفيل — لو ثبت بمكانه — أن يحسم الوقعة . . .

وسمع الرسول يلح :

« يا مالك . . . إن الفتنة قد وقعت ! . . . »

« ويحك ! .. ألا ترى إلى الفتح ؟ .. ألا ترى إلى ما يلقون ؟ .. ألا ترى

إلى الذي يصنع الله لنا ؟ .. أينبغى أن ندع هذا ونصرف عنه ؟ »

قال الرسول :

« أحب أنك ظفرت ها هنا وأن أمير المؤمنين بمكانه الذي هو فيه يفرج

عنه ، ويسلم إلى عدوه ؟ .. »

فارتج كيانه ، وهتف وكأنه يئن حسرة :

« سبحان الله ! .. »

وثقل قلبه . . . ودار على عقبيه ، ناكس الرأس ، غائم العين ، خافت النفس

وهو يقتلع قدميه من الأرض ليعود . . .

لم يكد الأشر يقارب القوم حتى اندلعت في كيانه نار غضبه فعاد للحياة بعد أن كان كالخطام .. ولم تسكد عينه تقع منهم على اللحي المرسلة والجباء الحشنة حتى تقبضت كفه على سيفه ، وصرت أسنانه وهو يصيح :

« يا أهل القل والوهن ! .. »

فلم يباليه أحد منهم ، فحسبهم أن قد عاد ..
وراح يرميهم بما يسعفه به لسانه ، مرة ضراعة ، ومرة جدالا ، ومرة لعنة ! . كالغرق بين اصطرار الأمواج يستسلم آونة ، ويضرب أخرى يمين وشمال ، ويتملق ثالثة بأى طافية على سطح اللجة ...
قال كأنه يتوسل منهم بأفهام تدرك ، وتستطيع أن تستكنه عواقب الأمور :

« أحيى علوتم القوم ، فظنوا أنكم لهم قاهرون ورفعوا للمصاحف يدعونكم إلى ما فيها ؟ .. قد والله تركوا ما أمر الله به فيها ، وسنة من أنزات عليه ...
لا تحييوم ! .. »

ولكنهم قالوا :

« لا ! .. »

« أمهلوني فواقا — »

« لا ! .. »

« أمهلوني عدوة الفرس ، فإنى قد طمعت في النصر »

« إذن ندخل معك في خطيئتك ! .. »

كان في رأيهم خطيئة أن يظلوا يقاتلون وفق ما تملى شريعة الحرب وقواعدها حتى ينتهى ذلك الكفاح نهايته الطبيعية بنصر فريق وتسليم فريق — كان خطيئة دينية ! .. فكأنما قد وكلوا وحدهم بما سنه الله في كتابه عن هذا النزاع وأمثاله يتأولون عليه التأويل الذى تشتهيه أنفسهم ، ويخرجون به عما أراد له الله أن يسير فيه .

لقد أوشك أراهم تشبثوا بقوله تعالى : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله ، فإن جاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ، إن الله يحب المقسطين » ... أوشك أراهم تمسكوا بظاهر القول الإلهي دون لبه فتظاهروا بأن في رفع أهل الشام الصالح فيثا إلى الحق ، وعدولا عن البغي .

إنهم لازب ضلوا السبيل ، واعتسفوا التأويل .. فالقء رجوع . والرجوع يقضى إعادة الأمر إلى بدئه . والبدء في هذه القضية الذي وقع بسببه النزاع للمسلح بين الطائفتين هو إمامة علي التي بغى عليها معاوية واستقبلها بعصيانه . فكان إذن حتما ، وفاقا لآيات الله ، أن يرجع العصاة عن عصيانهم ، ويقرروا بخطئهم حين اقترفوه ، ثم ينظر من بعد في الإصلاح بينهما وبين البغي عليه .

لكنهم مع هذا أمعنوا في البغي وأسرفوا في التأويل وقفز بهم انهيار الروح المعنوية إلى نتيجة لا يقتضيها منطق الحرب ولا منطق السياسة ولا منطق الدين . وقد وضع من البدء هذا الخطأ الذي وقعوا فيه للإمام فجهد غاية الجهد ليجنبهم زلله ، مؤكدا لهم أن تنادى أهل الشام بالقرآن إن هو إلا تنفع بكتاب الله يحميهم السيوف والحتوف . ووضع لهم هم من بعد فقاموا ينقضونه ويدعون لنقضه ، ثم يغالون الغلو كله فيقرون على أنفسهم بالكفر يوم قبلوه . ووضع أيضا للأشتر وهو يحدثهم فشاء لو أمالم عنه . . . قال يجادلهم وقد كاد الغيظ يخرج به عن طوقه :

« ... فخذثوني عنكم — وقد قتل أمائلكم وبقي أراذلكم ا — متى كنتم محقين ! . أحين كنتم تقاتلون أهل الشام فأتمم الآن حين أمسكنم عن القتال مبطلون ، أم أتمم الآن مبطلون ؟ » .
« الآن محقون » .

« فقتلاكم إذن ، الذين لا تنكرون فضلهم وكانوا خيرا منكم ، في النار ؟ »
فأمعنوا في المكابرة :
« دعنا منك ا . . . قاتلناهم في الله ، وندع قتالهم في الله ا . . . » .

ولم تعد هناك جدوى وراء مناقشتهم وقد أصروا واستكبروا . ووقع بينهم وبينه تلاوم عنيف ، ثم ثار بهم يسبهم :

« خدعتم والله فأنخدعتم ، يا أصحاب الجباه السود ! . . كنا نظن أن صلاتكم زهادة في الدنيا وشوق إلى لقاء الله ، فلا أرى فراركم إلا إلى الدنيا من الموت ! . .
ألا فقيحا ! . ما أنتم برائين بعدها عزا أبدا ! . » .

ونزا عليهم بسوطه ، ونزوا عليه بالسياط . وساد المهرج . وهمت فتنة جديدة أن تنشب لولا أن صاح بهم على :

« كفوا ! . . »

وعندئذ اتجه الأشر إلىه :

« يا أمير المؤمنين . . . احمل الصف على الصف يصرع القوم . . . » .

فتصايحوا بأصوات محرومة ، اهتزت لها الأرض :

« قبل أمير المؤمنين الحكومة ! . . »

« لسنا نطيعك فاجتنبنا . . . »

« رضى أمير المؤمنين بحكم القرآن ! . . »

وانفلت الأشعث مخاطب الإمام بهدوء :

« . . ما أرى الناس إلا قد رضوا وسرهم أن يجيئوا القوم إلى ما دعوهم

إليه من حكم القرآن . . . »

قلب عينا ساهمة ، من الأشر ، إلى الأشعث ، إلى هذه الحلقات حوله من الحشود المتراكبة ككسف الظلة ، الهادرة كموج الشلال . . .

قال له مرة بعض اليهود :

« ما دفنتم نبيكم حتى اختلفتم فيه . . . »

فرد يجيبهم :

« إنما اختلفنا عنه لا فيه . ولكنكم ما جفت أرجلكم من البحر حتى قلتم

لنبيكم : اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ، قال : إنكم قوم تجهلون . . . »

وقد وقع فعلا هذا الخلاف الذي فرق المسلمين أحزابا حول أمور لا تتصل بلب الدين ، ولا تمت إلى أصول العقيدة . ولكنه خلاف أوقع الفرتة في الصفوف ، ورمى بينها بالبأس والشدة والتناحر وفي ذات يوم من صيفين ، كشف الإمام لأصحابه عن هذه اللعة المؤسفة ، حين قال :

« ... ما اختلفت أمة قط بعد نبيا إلا ظهر أهل باطلها على أهل حقها ... »

ويومها حزن عمار . فقد رقت له هذه الكلمات عن العقي الخبوءة ، وقال وهو أسيان :

« . . قد أعلمكم أن هذه الأمة لن تستقيم عليه أولا ، ولن تستقيم عليه

آخرها . . . »

واليوم يكشف الزمن عن خبيثته فالأمة لا تستقيم وقع بينها بأسها . مضى الباطل لغايته ، ووقف الحق حيران . حدث ما نم عنه قول على وما استشفه عمار . . .

قضى الأمر . . .

الآن حلت العقي التي لعلها عصفت حيناً في خيال الإمام وصحبه حينذاك ملتدين حوله التفاف الكتبية بالعلم ، لا تدين به لياذ للستامن بالحرم . الآن كأنما يرجع التاريخ أدراجه إلى صحرة الخلافة ، حين منعه قومه حقه ونازعوه لل مقام الذي كان أولاهم به إبعاد الرسول . الآن يفقد بين جمعه اللجب نصرة الولي وولاء الناصر ، حتى لكأنه يعيد — هذه اللحظة — على الأسماع ما صكها من كلامه القديم :

« . . . فنظرت ، فإذا ليس لي رافد ولا زاب ولا مساعد إلا أهل بيتي . . . »

فأغضيت على القذى ، وجرعت ربيق على الشجى ، وصبرت من كظم الفيظ على أمر من العلقم . . . »

فماذا أبقت الدنيا ، وماذا لعلها ستبقى له ؟ . . .

أن يصبر مغموما ، أو يموت متأسفا كما قال . . . حتى أولئك الذين استصفاهم

لنفسه من ذويه لم يعدم فيهم على دورة الزمن من تفرقوا عنه : بعضهم لحوف ،
وبعضهم من يأس ، وبعضهم إلى مال ...

لقد خدا كما بدأ ، يدور في محن البلوى . أسبابه مفولة ، فيمن ؟ . . . وسبله
مقطوعة ، فإلى أين ؟ . . . الناس حوله يدنون من منزلة الفتنة التي أنبأ نبأها
رسول الله ذات يوم .

« سيغتنون بأموالهم ، ويمنون بدينهم على ربهم ، ويتمنون رحمته ، ويأمنون
سوطه ، ويستحلون حرامه بالشبهات الكاذبة والأهواء الساهية »

وهو بينهم قائم على ما يمليه مقامه : يشير ويصبر ويحل على الجادة ما أمكنه
سلطانه . ولئن كان رجاله قد رضوا لأنفسهم الخروج عن حدود الرعية ، فقد
بقي هو يلتزم حدود عمله ، ويعمل على نسق للبادي التي رسمها للإمامة ، فإنما
« ليس على الإمام إلا ما حمل من أمر ربه : الإبلاغ في الوعظة ، والاجتهاد في
النصيحة ، والإحياء لسنة ، وإقامة الحدود على مستحقها ، وإصدار السهمان
على أهلها . »

صدق فيهم الآن حديثه :

« . . أصبحت الأم تخاف ظلم رعاتها ، وأصبحت أخاف ظلم رعيي . »
وحق عليهم عجبه وإنكاره :
« أشهود كغياب ، وعبيد كأرباب . . . »

* * *

ويمود الأشعث بن قيس مخاطبه ، ملاينا مداورا ، ليستل منه إقراره :
« يا أمير المؤمنين ... إن شئت أتيت معاوية فسألته ما يريد ، ونظرت
ما الذي يسأل ... »

فهل لم يعلم السائل حقيقة الأمر قبل مشيه لقاء العاهل ؟ ... وفيه إذن
سعيه ؟ . . وما هي جدوى استئذانه علماً في هذا اللقاء والناس جميعا يرددون :
لن المشيئة الآن ؟

يعلم الأشعث الجواب . . . ويعلم أيضاً لمن الكلمة . . . يعلمه لأنه احتضن مادته بذرة صغيرة غرسها في نفسه منذ استهواه إبّان الواقعة حديث عتبة بن أبي سفيان عن السلام . ولأنه صاغ من بعد هيكله ، فتنة عمياء أضلت العقول وانقلوب بالأهواء الساهية والشبهات الكاذبة . . . ويعلم كذلك لمن غدت الكلمة ، فما كان مستظيماً أن ينسى ما لفظه على لفظ الثمرة للمرة عندما قال : « كنت أميراً ؛ فأصبحت مأموراً . . . » ولكنه ، مع ذلك ، يسأل ويستأذن ليبدو في هيئة مأمور .

ويجيبه على ، على مضض ، وبغير مبالاة :

« ائنه . . . إن شئت » .

٦

وهذه نهاية الأمر كله . . .

هذه اللحظة التي أطلعتها صفين ، يوم الجمعة الثانية من صفر ، والجموع تتحلق حلقات ، والأسلحة تهتز متوعدة ، والأموات تهدر عملية مشيئتها ، هي الخاتمة لإمرة الإمام .

ولم يكن يملك إلا أن ينزل على حكم القوم وهو كاره له ، برم به ، يراه يقودهم وإياه إلى فاجعة ، ولا يستطيع أن يصدّم عنه . كانوا شلالاً يحرف الحصى والصخر لا طاقة لقدرة بمنع انحداره . وكان الأسى والأسف والتم هي كل ما نحس نفسه ويعتمل بباطنها ، ويفعل فيها فعل الشفار . . . ولو وسعه ثبت ، ولقاوم تمردهم ، ولكنهم حفروا الأرض تحت قدميه ، ثم دفعوه للهاوية .

لكم كان يود إذ ذاك أن يكرههم على الحق ، ويحملهم على الجدل الذي تنكبوه ، لكنها أمنية كالحلم تفسخه اليقظة . . . ولقد تبدت رغبته تلك في صورة من لفظه ، رسمها من بعد منطقته ، ونقل لنا فيها ما كان إذ ذاك يعانيه :

« . . أما والله لو أتى حين أمرتكم بما أمرتكم به ، حملتكم على المكروه الذى يجعل الله فيه خيراً ، فإن استقمتم هديتكم ، وإن اعوججتم قومتكم ، وإن أبيتكم تداركتكم ، لكنت الوثقى . . . ولكن بمن ، وإلى أين ؟ . . » .

أجل ، بمن ، وإلى أين ؟ . . ما تداويه بهم وهم داؤه ؟ أين عتاده ، ما أعداده ، من أولياؤه وهم بلاؤه ؟ . .

ليوشك الأخر أن يبرز لنا من خلال هذا التساؤل كأنه وحده الرجل الذى كان يملك تغيير هذه الخاتمة الحزينة . . . حين تأزمت الأمور ، يوم الخميس ، وكادت الدحرة تقع فى الجيوش العلوية ، وسعه أن ينهد ، فيجمع القلول ، فيقاوم ، فيهاجم حتى يبلغ « شاطئ » الظفر . وحين شاعت دعوة التخاذل يوم الجمعة ووقعت الفتنة ، كان قد أخذ يمد دلوه إلى « النهر » . . فقيم صدره عن النصر إذ ذاك وهو عطشان ؟ . .

من المسير أن نؤاخذه ، ومن المسير أيضاً الاعتذار عنه . فلقد كان واحداً من بين قواده وجبت عليهم طاعة القائد العام ، الاثثار بأوامره ، والانهاء عند نواهيهِ . وهو بهذا مشدود إلى الجيش كله ، ليس له أن يتحرك حسباً تمكنه قدرة كتيبته وهو مغفل طاقة غيرها من الكتائب والألوية والصفوف . وهو كذلك حلقة فى سلسلة الخطة العامة للوقعة قد يسبب انفصالها عن بقية الحلقات كارثة كنتك التى أصابت جيوش الإمام حين بدا لابن بديل أن ينحرف بجناحه إلى قلب العدو ويدع مركزه للرسوم .

ومع ذلك فقد رأينا الأخر يتردد فى الاستجابة لعل عندما دعاه إليه بإملاء مشرى الفتنة . يتردد ، ولا يلبث أن يأبى ترك مكانه والنصر بادی الإشراف ويقول للرسول : « ليس الساعة ! . . » ، ثم يتردد ثانية ، ويرد الدعوى مرة أخرى ، أو يحاول أن يردها وهو يصيح بوافد على عليه : « ويحك ! . . ألا ترى إلى الفتح ؟ . . » ، ثم لا يدع ما كان من تردده فى قبول هذه المسألة الخداعة التى أرادها القوم عليها كما أكرهوا عليها الإمام ، ويظل مؤمناً بأن نصره رهن

دقائق لا تزال يضرع لهم أن يبيحوه إياها « أمهلوني فواقا . . . أمهلوني عدوة
الفرس . . . »

في تقديره — الذي لا نراه جانب حقيقة الحال — كانت بينه وبين الظفر
خطوات . عدوة جواده . ما دون سويمة من زمان . . . كانت قدمه على
« الشاطئ » . وكانت يده بدلوه تتدلى في « النهر » .

لكنه صدر وهو عطشان . . . ترك الدلو فارغا على الشاطئ وعاد . . .
لقد كان خوفه أن يقتال « دعاة السلام » عليا ، أو أن يسلموه ،
لو لم يأتمر بأمره فيرجع عن القتال ، هو كل ما قد دفعه إلى الرجوع . تهمست
في وهمه فاجعة تطلع الإمام راسفا في القيد وهو يساق إلى عدوه أو غارقا في دمه
وهو صريع بأسلحة تلكم الطائفة الماسية المخدوعة من رجاله : أصحاب الجباه
السود . . . الخوف وحده من هذه العقبي هو الذي رده من النصر ، وقضى عليه
أن يكتب بعودته آخر كلمة في تاريخ الإمرة الفعلية لابن عم الرسول . . . أفلم
يجمع به خياله وهو يطلع عليه بهذه الحفاعة في مثل صورتها السوداء ؟ . . .

بل قد جمع لا ريب ، وساطته من وفاء الرجل لعل ، ومن حبه إياه
سياطا . . . فما أحسب أمرا في الجيش تنادى بالموادعة ؟ وغضب للسلام ، كان
يجرؤ في تلك اللحظة على لمس أمير المؤمنين بسن حربته لو أبى الأشتر العودة
وبقى حيث كان يواصل القتال . كانت نفوسهم — وإن تمردوا — لا تزال
تأرجح بهم بين إيمان مطلق تتأكد به « شرعية » الدعوة الأموية للاحتكام
إلى القرآن ، وبين إيمان مقلقل بها ، سطحي لم يتمق الشفاف ، وكانوا أيضا
قريبى عهد بفتنتهم ، اتق لم يعض على مولدها سوى سويحات ، فليس من طبيعة
البشر بحال أن تذهابهم عن مواضعهم الطويلة ، وتنسخ — بهذه السرعة وهذا
اليسر — عواطفهم للولاية ، الراسية في الأعماق ، وإن منهم لكثرة تعرف
للإمام قدره ، وقدمه في الإسلام ، ومكانه من الرسول ، وجهاده القديم ،
وتسكن له من مودتها وإكبارها ما لا يجتثه انحرافها عن أمره ، وميلها عن رأيه
في دعوة التحكيم .

هذه عوامل أحسبها كفيلا بأن تمنع من القراء دماءهم وهم بعد في مستهل اختلافهم عليه ، وفي أول شوطهم من طريق الفتنة . وهي أيضا كفل بدعوى تسليمه إلى يدي عدوه حتى لتجعلها أدنى إلى التشديق باللفظ الأجوف الطنان منها إلى العزم الراسخ الذي يتبعه التحقيق . فما معاوية في رأيهم ؟ . وما قدره ومزايده ؟ . وما جريرة الإمام — بعد هذا وذاك — إن دعا إليه الأشر — وشاء الأشر أن يعصاه ويستمر في القتال ؟ . . .

إنما كان قولهم وعيدا تلفظه ألسنتهم ولا ترجمه ألسنتهم . . . فطالما توعدوه . . . مرة وهم يدعونه إلى قبول للوادعة . وثانية وهم يطلبون إليه رد الأشر لتسكن نائرة الحرب . وثالثة وهم يماودون طابهم وقد رأوا الأشر يؤثر البقاء والقتال على المدول والرجوع . ولقد أبى هو أن يخضع لخدعة السلم فلم ينالوه بمضرة . وأبى الأشر أن يلبي أولى دعوتيه له فلم ينفذوا ما رددوه من وعيد . فهلاك أولى بالأشر إذن — حين بلغت الدعوة الثانية — أن يصم عن الدعوة أذنه ، ويصبر ، ثم يسدد فرسه إلى النصر فتكون عدوة إلى أمام لا إلى وراء . . .

كان هذا أولى به . وكان أيضا يسمعه ولا يعضله ... لكنه حين قدر النصر أصاب ، وحين قدر « الفاجعة » خاب ؟ .

فات الأشر التوفيق . غلته عاطفته على حسابه ، فطنا خوفه ، وغاص إدراكه في القاع . . . وليس يشفع له أنه كان قائدا من قواد يجب اثباره للقائد العام . ولا أن كتيبته قطعة من الجيش لا تملك العمل وفق قدرتها وحدها . ولا أن سيره في القتال حلقة من سلسلة خطة عامة .. لا يشفع له هذا كله . لا يبرر تراجمه . لا يكاد يعدل الاعتذار عنه . . . فما كان ثمة تلك اللحظة ، وهو يبرح موقفه ليعود ، « قائد عام » . ولا « جيش » . ولا « خطة حربية عامة » . . . إنما مضى الأمر ، بعد ذبوع دعوة للوادعة . فوضى . . . هنا فرقة محارب ، وهنا أيضا فرق ألقت السلاح . في هذه الكتيبة رجل يقاتل وفيها أيضا آخر بهادن . . . ولم يعد الحكم للقواعد والنظم التي تسود الجيوش في الأحوال

العادية ، وتسوس أجنادها ، بل غدا الحكم للطبايع للهمة ، والبداية للساحة التي يسعها أن ترى وتزن وتقيس — في مثل طريقة العين — دقائق للوقف ، ثم تنفذ من خلال عتمتها إلى العقبي المأمولة ، ثم تعمل على إدراك غابتها وهي تستعين القوى الموالية ، وتستغل الظروف المحيطة ، وفق وحيها وحده لا بخطة سالفة ، ولا بأمر مفصوب . .

وكانت ظروف الأشر موالية .

وكانت القوات الزاحفة معه موالية له

ولكن بديته لم تسعفه إبان المحنة ، ولم تقفز به إلى ما كان ينتظر من محارب جرى مثله أن يبلغه لو أنه أحسن التقدير . فما عدا ذلك الوعيد الذي اندلع في صفوف على من بين جحفل القراء أن كان ضجة تلقفتها طبيعة الجماعات فأعدت السنة القوم بعدواها حتى راحت ترددها كالبيغاوات . . وما كان تمردهم — في ساعاته الأولى — هيكلا راسخ الأسس ثابت القواعد بقدر ما كان مثل قلعة من ورق وطلاء . الهيئة تهول والقلب خواء . . ولو قد كان ابن بديل ، في بدء الوقعة ، أوتي « تربث » الأشر والتزامه الخطط والأوامر لذهب معاوية وجنوده منذ يومين في الغابرين ، ولو قد كانت للأشر اليوم « روح المغامرة » التي كانت لابن بديل لنال من عدوه الوطر فنزل « الشاطئ » وبلغ « النهر » وأدلى دلوه ثم عاد وهو ريان . .

كانت الأمور فوضى — كالجواد الجوح — تنتظر صاحب حاسة ملهمة مبصرة ، ونفس مغامرة ، ليقفز فيأخذ الأجرام . . كان القائد العام « مقودا » . . والخطة الحربية « هرجا » . . والجيش « زحاما » بغير نظام . . وللوقف ينتظر الحسم . فماذا على الأشر — ومعه فرقة طائفة ، وأمامه الفرصة التي لا تتكرر — لو أنه أسرع فغامر ؟ . . إنها عندئذ للمغامرة التي تضع العجام يمينه ، وتستوى به على الجواد الجوح . . . وإنها إذن لاندفاع في القتال — في عمر فواق كما قد قال — تبلغه الفسطاط الأبيض . . . وإنه من بعد لنصر الحاسم القاطع الذي يجنيه قبل أن يأتيه الرسول « ثالثة » والقراء لا يزالون — على رأيهم — يتشدقون بالوعيد !

هذا النصر الذي كان يمكن قطعه ، كان حريا بأن يشغل الأذهان عن كل ما عداه ، ويحرك الألسنة بذكره ، ويأتي على تلك القلمة من الورق والطلاء التي تهول وهي خواء . . . فما أن يذيع حتى يتلقفه الناس — طائعهم وعاصيهم من جند على — باليون والآذان ، ثم يسرى على شفاههم نشيدا وأهزوجة . وكأني بهم إذ يكون ، قد راحة الفرحة في قلوبهم تهتف : « النصر ا » بعد أن كان يأسهم يهتف : « السلام ا » فالنصر عندئذ كيان « يقيني » يشهدونه والسلام كيان « ظني » كانوا يأملون أن يشهدوه وراء أستار دعوة التحكيم . . . وكأني من بعد بالقراء : أصحاب الجباه السود قد انتكسوا — كاتكاسهم بعد سوبعات — وعاد إليهم صوابهم الذي أذهبتة خدعة ابن العاص . وكيف لا والسلام الذي تمردوا له ، ودعوه إليه ، يقبل عليهم من أوسع السبل ومعه الظفر ؟ . . . غير أنه تقدير . . .

تقدر . . . ويقدر الأشتر . . . والله قدر ا فما كان آلم للنفس أن يكون من قدر هذا الرجل الذي أحب عليا كما لم يحبه أحد من صحبه ، ووقف دائما إلى جواره يشد أزره على المحن وأفنى عمره كله في الولاء له ، أن يكتب بعودته تلك — يوم الجمعة الثانية من صفر ، بناحية بصفين — آخر سطر في سفر الإمرة الحقيقية للإمام ، وما انتضى على لائحته سوى عام ، وشهر ، وأيام . . .

V

ما كان أسرع انتقال الأمر من يد إلى أخرى ذلك النهار ا . من يد على وقد تمرد عليه رجاله وخالفوه . ومن يد الأشتر وقد ترك موقفه في الميدان وعاد . . . أفلت من الصاحبين ، فلما تلقفه الثالث : الأشعث بن قيس تشبث به ، وعض عليه بالسن والبنان .

وأصبح الأشعث سيد الموقف . برأيه تهافت الحارجون على النظام العام تحت ستر السلام وبدعوته للثبته لهجت السقتم ، ثم اهتزت السقتم لترجم حديثهم إلى أفعال ، وعندما غدا « التحكيم » رهنا بكلمة ينطقها على إذ هو

— في حساب المظاهر ١ — أمير المؤمنين وصاحب الرأي الأخير الذي تبرم به الأمور ، نطقوها هم بغير تردد كأنما أباحهم الكلام عنه ، ونحلهم لسانه ومكانه :
« قد رضى أمير المؤمنين . . . » .

وبهذا استقر للأشعث الأمر ، وسيطر وحده على مصير الأحداث .
ومضى الرجل الزهو إلى ابن أبي سفيان ، على وجهه هيئة نائب عن الأعداء وفي جوفه ضمير حليف ١ .

وقال يسأل حيث لا موجب لسؤال :
« يا معاوية . . . لأى شيء رفعتم هذه المصاحف ؟ . . . »
« انرجع نحن وأنتم إلى ما أمر الله به في كتابه . . . » .
« هذا هو الحق ١ . . . »

فأى حق إلا أن يكون ذلك الذى أراد هو أن يكون ؟ . . . ذلك الذى غرسه ذات يوم بقلبه للدخول بذرة خبيثة عتبة بن سفيان حين دعاه أثناء القتال بصفين وقال له : « لو كان معاوية لاقيا رجلا غير على لفيك إنك رأس أهل العراق وسيد أهل اليمن . . . » .

الآن قد طابت نفسه المنهومة إلى الاستعلاء . ارتوى غروره وشبع حق التخمرة . . . فلم يعد فرضا ما حدثه به عتبة ، بل حقيقة واقعة تلمسها الأصابع وتراها الأعين وتسمعها الآذان . صار وحده الرأس في حزب على ، وصاحب رأى النافذ المطاع من دون الخاصة والسكافة . يعلى فيستجيب الناس . ويشير فيحرك عواطفهم في جنوبهم ، وأفكارهم في عقولهم ، وأسلحتهم في أيديهم فإذا هو يسوقهم أمامه كالقطيع ؟ . . . آن أن يتأخر على ليتقدم هو — الأشعث بن قيس عرف النار ١ — وعلى على بعد هذا ، الرضوخ له ، ياتمر حين يأمره ، وينتهى حيث ينهاء ١ . . .

وقال له معاوية يشرح خطته :
« فابشوا منكم رجلا ترضون به ، ونبعث رجلا . ثم نأخذ عليهما أن يعملا بما في كتاب الله لا يعدوانه . ثم نتبع ما اتفقا عليه . . . »

ويعمل هذا المعنى جرت رسالة من العاهل إلى الإمام :

« . . . قد قتل فيما بيننا بشر كثير وأنا أتخوف أن يكون ما بقى أشد ممسا مضى . . . إنا سوف نسأل عن ذلك الموطن ولا يحاسب به غيرى وغيرك ، فهل لك فى أمر لنا ولك فيه حياة وعذر وبراءة ، وصلاح الأمة ، وحقن للدماء ، وألفة للدين ، وذهاب للضغائن والفتن ؟ — أن يحكم بيننا وبينك حكام رضيان ، أحدهما من أصحابى ، والآخر من أصحابك ، فيحكمان بما فى كتاب الله بيننا ، فإنه خير لى ولك . . . » .

وانطلقت الفتنة بعض شوطها فرضى الناس بما جاء به الأشعث ، وما أجمله كتاب معاوية . وتلاقى فريق من قراء الشام وقراء العراق يهدون بحديثهم لتحكيم وينظرون فى الغاية التى هدفت إليها دعوته ، وفى الوسيلة التى تبلغهم نهاية الشوط . رضوا والإمام ساكت ، وقضوا والإمام مغلوب . فما عاد قيادهم فى يمينه ، بل قياده هو فى أيمانهم يتجاوزونه كيفما حركتهم الأهواء . لكن اجتماعهم على الدعوة الخداعة ، وإصرارهم على الاستجابة لها ، وإنفاذ كل ما يحقق لهم السلم وإن على حساب نصرهم ، قهره على الكتابة لمعاوية : يحذر ويبصر ويوافق فى آن :

« . . إن البغى والزور يذيعان بالمرء فى دينه ودنياه . . فاحذر الدنيا فإنه لا فرح فى شيء وصلت إليه منها . ولقد علمت أنك غير مدرك ما قضى فواته وقد رام أقوام أمراً بغير الحق فتأولوا على الله فأكذبهم ، ومتعهم قليلاً ثم اضطرمهم إلى عذاب غليظ . . . »

إنك قد دعوتنى إلى حكم القرآن ، واست من أهله ، واست حكمه تريد . وقد أجبنا القرآن إلى حكمه . . . »

كان التحذير هو كل ما بقى له ، فلمله أن يرشد القوى ويهذى الضال . وكان موقنا بأن معاوية غير مختار حكماً عن أهل الشام إلا عمرو بن العاص فلم يرد أن يدع هذه الفرصة دون أن يحاول استمالة هذا الداهية إلى الحق وليه عن مزالق الباطل وحمأة الهوى وإن علم أن محاولاته هذه هباء وقبض الريح . . . ولكنه مع ذلك كتب يعظه ، ويحذره الرغب والدنيا وسطوات الله .

« . . . إن الدنيا مشغلة عن غيرها ، ولم يصب صاحبها منها شيئاً إلا فتحت له حرصاً يزيد فيها رغبة . ولن يستغنى صاحبها بما نال مما لم يبلغه . . . فلا تحبط أجرك أبا عبد الله . . . »

وكتب أيضاً :

« . . . إن الذي أعجبك من الدنيا مما نازعتك إليه نفسك ووثقت به منها منقلب عندك ، ومفارق لك ، فلا تطمئن إلى الدنيا فإنها غرارة . ولو اعتبرت بما مضى لحفظت ما بقي ، وانتفعت بما وعظت به . . . »

لكن عمراً كان صاحب دنيا ، وثق بها ، وسمى إليها ، ولم يزل يسير في ركابها حتى أوهنه السير وقد فرغ عمره ردنا قبره . وعندئذ تبين أن نصيبه من دنياه غير مغنيه عن آخرته . فاستصغر جناها واستعظم جنايته . . .
كان ينظر . أخريات أيامه إلى ماله ويقول :

« من يأخذ هذه بأوزارها . . . »

وكان يحس الندم فينزع إلى التوبة التي عساها تخفف عنه عند ربه ، فيدعو :
« اللهم إنك آتيت عمراً مالا فإن كان أحب إليك أن تسلب عمراً ماله ولا تعذبه بالنار فاسلبه ماله . وإنك آتيت عمراً ولداً فإن كان أحب إليك أن تشكّل عمراً ولده ولا تعذبه بالنار فأثكله ولده . وإنك آتيت عمراً سلطاناً فإن كان أحب إليك أن تنزع منه سلطانه ولا تعذبه بالنار فانزع منه سلطانه . . . »
وحين دنا أجله بعد أعوام ، وحرم اللوت عليه ، وعاده ابن عباس يسأله حاله :

« كيف أصبحت ، أبا عبد الله ؟ .. »

قال :

« أصبحت وقد أصابحت من دنياي قليلاً ، وأفسدت كثيراً . فلو كان ما أصابحت هو ما أفسدت لفزت . ولو كان ينفعني أن أطلب طلبت . ولو كان ينجيني أن أهرب لهربت . . . فعظمي بموعظة أتنفع بها يا ابن أخي . . . »
فرد زائراً :

« هيهات ، أبا عبد الله ! . . . »

وعندئذ رفع إلى السماء وجهها غشاء يأسه ، ودعا الله :

« اللهم إن ابن عباس يقنطني من رحمتك ، فخذ مني حق ترضى . . . »

غير أنها دعوات من ضاق جهده ، وفتر أيده ، وأعجزته الحيلة ، وتقطعت به كل وسيلة عن طلب دنياه وتلمس للزيد في الحياة . . . ولو قد كان يحسب في هذه الآونة أن العمر موصول ، والبقاء مأمول ، لرجا أن ينال من الدنيا فوق الذي نال ، ولأبطره الرجا عن الدماء . . . فأما وقد بلغ حافة اليأس من العاجلة الزائلة فلا يأس إذن من رحمة الله . . .

وكذلك أفلحت حيلة معاوية في خدع الناس . واستغلقت نفس عمرو عن الرشاد . وبلغ الأشعث بن قيس بعض ما راودته عليه نفسه من سنين حين ارتد عن الإسلام ليشتري بالردة ملك كندة ، ويعلو بعرشه المرتقب على البلاد والعباد علوا يغذى صلفه ويشبع غروره . فما هو أن اتى الرجل معاوية ، وأحس من نفسه أنها أصبحت محور الرحى للحوادث الجارية ، حتى يروج لقضية الحكيم وهو يحرس الحرس كله على أن يظل الأمر دائماً في يمينه ، لا يفلته . وأن يبقى الرأي لسانه لا يبرم بمنطق سواء . وهل نعمة امرؤ في أصحاب الإمام يستطيع الآن أن يرد على الرجل رأياً يراه وإنه في عيون العامة لصاحبها ، والبطل الشعبي الذي دعا وروج حتى نجحت دعواه .

لقد كان واضحاً من بدء الفتنة أن معاوية لن يعدل بعمر بن العاص حكماً له ، وأن أهل الشام لن يخالفوا عن اختياره ، فهم دائماً أسرع إلى طاعته وأسبق إلى الاستجابة إليه من نفسه وإن دعاهم لباطل . وهم كما قال فيهم عمرو الذي ذاق حلهم ومرهم : « أطوع الناس لمخلوق ، وأعصاهم لخالق ! » . . . وكان واضحاً أيضاً أن أهل العراق سيمضون على مزلتهم فلاخيرة لهم غير الأشعث إذا شاء ، أو من يرى لهم ترشيحه ، إن أبي هو أن يكون حكمهم المختار . فهم قد ساندوا رأيه ، واجتمعوا على إنفاذه ، وغرهم منه أن أتاهم من مأمونهم فكانت دعوته « كتاب الله » وإنهم لقوم تدارسوا الدين وقرأوا القرآن . وهم على قولة

ابن العاص أيضا — الذي خبر أمرهم ، وتكشف له بالنظرة العصيبة باطنهم من خلال ظاهرهم ، وعرف ما سيكون منهم بما قد كان : « أطلب الناس للعالم وأبعدم عنه ! » . .

واختار معاوية ، فأمن رجاله على اختياره ..

وحاول على أن يختار خيل بينه وبين الاختيار . . وهل كان هناك من جدوى لمحاولته وقد ابتزه القوم أمره ، وغدا كل ما يربطهم به خيط كالشعرة هو لفظة « الإمرة » — إن هاءوا مدوه ، أو شاءوا قطعوه ؟ . .

٨

قالت عصابة من قراء أهل العراق :

« قد اخترنا أبا موسى الأشعري ... »

الأشعري ؟ ...

وعجب على ، وهل نسي القوم موقف أبي موسى منه قبيل الجمل ، وتثييطه الناس عنه في الكوفة كأنه عدو وليس بولي ؟ . . كيف يستطيع امرؤ له قلب هذا الرجل أن يمثل الإمام ، وينقل إلى منافسيه وجهة نظره في الخلاف بأمانة ، ويقوم بالدفاع عنها وما نراه كان مؤمنا بها في يوم من الأيام ؟ . . لو تعقل القوم لحضرتهم لحظتهم هذه كلمات الإمام التي أرسلها للأشعري وهو عامل من قبله على الكوفة ، يحذره تمرد عليه ، وينذره مغبة تخذيل أنصاره عنه :

« بلغني عنك قول هو لك وعليك . فإذا قدم رسولي عليك فارفع ذيلك

واشدد مؤزرك ، واخرج من جحرِكَ ، واندب من معك فإن حققت فانفذ ،

وإن تفشلت فابعد ... وإيم الله لتؤتين حيث أنت ، ولا تترك حق يغلط زبدك

بخائرك ، وذائبك بجامدك ، وحق تعجل عن قعدتك ، وتحذر من أمامك

كحذرِكَ من خلفك ... » .

لكن العامل المتمرد لم يرفع حينذاك ذيله ، ولم يشدد مثزره ، ولم يخرج ملبيا دعوة أميره للجهاد حق أعجل عن قعدته تلك ، ودخل الأشر السكوفة وافداً من لدن على فائز أهلها عاملهم الذي حرب ، ثم اعتزل لا يدلى فى نصره أمير المؤمنين ولو بكلمة . . .

فكيف اليوم يختاره الناس حكما يمثل الإمام ؟ .

من وراء هذا الاختيار الأشعث بن قيس — لا ريب . فهذه إحدى الحلقات من سلسلة مؤامراته الطويلة التى بدأت يوم استماله عتبة بن أبى سفيان إلى اعتناق فكرة السلم بالملق واللداهنة والتعظيم . ثم امتدت حين وقف ليلة الحرير يحذر جنود العراق الفناء إن هم استمروا فى الحرب . ثم اتصلت بتهاقته على دعوة القرآن التى ختل بها معاوية أعداءه عن النصر . ثم ارتبطت بحاقة جديدة وهو يبتز عليا سلطانه الفعلى وقد روج بين أنصاره للدعوة المخذلة ثم وقف بعدها يظاهرم حتى هزوا سيوفهم توعداً فى وجه إمامهم ليرضخ أو يقتلوه . وها هو الآن وقد بلغ أوج نفوذه الذى ترتضيه نفسه الكلفة بالاستعلاء ، وباتت كلمته العليا ، ييخل أيضاً على أمير المؤمنين بالحق الطبيعى الذى يستطيع أصغر أجناده ممارسته ، ألا وهو حقه فى اختيار من يمثله . . .

وقال على وعجبه لا يبيض :

« إني لا أرضى بأبى موسى ، ولا أرى أن أوليه . . . » .

فإذا العصابة تنبرى له معارضة ، على رأسها الأشعث بن قيس ، وزيد ابن حصين ، وفريق من أشياخ القراء الذين أمعنوا من بعد فى عدا، الإمام حتى تقدموا يقاتلونه :

« إنا لا نرضى إلا به . . . » .

فما أقرب قاع الأنفس البشرية لا تكاد المحن تحرك ماءها الضحل حتى ينكشف ما جهدت لتخفيه فى الأغوار . . . وما كان أشد عبث الأهواء بضائر الناس إلا بالأمس القريب ، وقد دعاه على لياحق به ليطفىء معه فتنة البصرة التى شها عليه أصحاب الجمل ، تردد الأشعث ، وخشى وهو الكلف بالسلطان والنفوذ ،

ألا يجد لنفسه مكانا حرموقا في دولة الإمام ، وأن يقصيه عن عمله بأذربيجان كما أقصى غيره من ولاية عثمان ، فراودته نفسه على التماس دنيا معاوية ، وقال لخاصته :

« إن كتاب علي قد أوحشني . وهو آخذ بمال أذربيجان . وأنا لاحق بمعاوية . . . »

فلولا أن ثبتته محبة ، وخوفه أن يصبح « ذبلا » لأهل الشام هو الذي يطمح إلى مكانة « الرؤوس » لفر إذ ذاك إلى مغانم ابن أبي سفيان . .
ثما الذي يربطه اليوم بالإمام وقد غدا وحده « الرأس » الذي تنهى إليه طاعة بقية الرؤوس ؟ . .

وبالأمس القريب أيضا كان زيد بن حصين يشتمل حمية ، ويتحرق حماسة إلى مقاتلة معاوية دون أن يسمع منه أو يصل جوابه على دعوة الإمام بالالتزام بالجماعة فوقف يصفى إلى مقالة عدى بن حاتم بالترث وهو برم ، ضيق النفس ، مغيظ . . . يقول عدى :

« يا أمير المؤمنين . . . إن رأيت أن تستأني هؤلاء القوم وتستدعيهم حتى تأتيهم كتبك ، ويقدم عليهم رسلك فعلت . فإن يقبلوا يصيبوا ويرشدوا ، والعافية أوسع لنا ولهم . وإن يتبادوا في الشقاق ولا ينزعوا عن الفى فسر إليهم وقد قدمنا لهم العذر . . . »

فيندفع زيد يسفه الراى :

« . . . أما والله أن كنا في شك من قتال من خالفنا لا يصلح لنا النية في قتالهم حتى نستدعيهم ونستأنيهم . ما الأعمال إلا في تباب . . . ولا السعى إلا في ضلال . . . إنا والله ما أريتنا طرفة عين فيمن يبتغون دمه ، فكيف بأتباعه القاسية قلوبهم ، القليل في الإسلام حظهم ، أعوان الظلم ، ومسددى أساس الجور والعدوان ؟ . . . »

وعندما يحاول بعض أصحابه أن يجد من غلوائه :

« أكلام سيدنا عدى بن حاتم تهجن ؟ » .

يسارع بالرد عليه :

« ما أتم بأعرف بحق عدى منى ، ولكنى لا أدع القول بالحق وإن سخط

الناس . . . » .

أما اليوم فهو غيره بالأمس ، وما كان حقاً أبليج لا يدهن الناس فيه ،
ويحبهم به وإن أسخطهم ، تنحرف نفسه فيراه الباطل الذى لا باطل سواء . . .
ويحاول على ، بكل حجة ممكنة . حمل هذه العصاة الغالية فى معارضته ،
على الترحيح عن رأيها ، الذى لا يستند إلى منطق ، ولا إلى دعامة من ماضى
مرشحها الأشعري ، ولا إلى ضرورة تقضيها طبيعة الحوادث الجارية :

« إنه ليس لى برضا ... قد فارقتى ، وخذل الناس عني ، ثم هرب حق
أمنته ... ولكن هذا ابن عباس أوليه ذلك . . . » .

فكأنما قد ختم على قلوبهم الشيطان فآثروا العنف وإن أودى بهم إلى
خسران كل ما قاموا فيه . وما جاهدوا من أجله . وإن قضى أيضا القضاء للبرم
على أميرهم الذى كانوا يرونه إلى الأمس فقط ، المأمون على الدنيا والدين ...
يشورون به وقد عدموا مجرد القدرة على تخير اللفظ الذى يؤدى ولا يسوء :
« والله ما نبألى أ كنت أنت أو ابن عباس . . . لا نريد إلا رجلا هو منك
ومن معاوية سواء ، ليس إلى واحد منكنا بأدنى من الآخر . . . » .

بهذه الخشونة وهذه الجلافة واجهوه . ومعهما أيضا بالرأى المنكفى* المفلوب
الذى يصيب قضيتهم فى مقتل يستعصى على وسائل العلاج والمداواة ، ويهدمها
من قواعدها هدمًا ينقض فيها كل جدار ، وكل حجر ، وكل حصاة . . .
فهل كان عمرو بن العاص رجلا هو من معاوية ومن على سواء . . .
أم هو العناد والعنت وعمى القلوب والعقول ...

لمن شاء أن يعجب فليعجب لهذه الطائفة كيف تحرم على أميرها ما تحله
لعدوه ، فتأخذ عليها بوجوب اختيار حكم له « محايد » ثم لا تدع له حرية الاختيار ،
بل تملى عليه رجلا هو أدنى إلى عدائه ، أو هو أدنى إلى خذلانه وفى ماضيه

ما ينضح بهذا الخذلان ، بينما قد أباحت معاوية اختيار حكم أحرص منه على مطاعه ، وأكثر الناس انغماسا في شأنه إلى أذنيه . . .

ولمن شاء أن يعجب فليعجب أيضا لهذا الأشعث بن قيس — الذي دس وتآمر وأمر بالرأى السفیه الخبيط يضعه له الشغب والسلاح موضع النفاذ — كيف لا تبقى له بقية من حياء تمنعه أن يلحق جريرة تديره بالإمام فلاقه وقف على ذات يوم ، بعد هذه للؤامرة وعقب ارتداده عن صفين ، يخطب الناس في شأن التحكيم ، فاذا رجل من القوم يسأله :

« نهيتنا عن الحكومة ثم أمرتنا بها ، فلم ندر أى الأمرين أرشد . . . »
فأرسل الإمام عينا ترمق سائله ، وأرسل أخرى اخترقت الأشعث ، وصفق بإحدى يديه على الأخرى تأسفا وهو يقول :

« هذا جزاء من ترك العقدة . . . »

فاذا الأشعث قد وجد في نفسه الجرأة على وأد الحياء وادعاء الغباء ، وآثر أن يبدو أمام الناس كأنما الإمام لا يعنيه بقوله ، ولا يلقي عليه وعلى حزبه المتمرد تبعة هذه النكسة ، فقال في خيلاء :

« يا أمير المؤمنين . . هذه عليك لالك . . . »

وعندئذ هاجت غضبة الحليم في صدره على ، فثار به :

« ما يدريك ما على ما إلى ١٢ — عليك لعنة الله ولعنة اللاعنين . . . »

حائك ابن حائك ، منافق ابن كافر . . والله لقد أسرك الكفر مرة والإسلام أخرى ، فما فداك من واحدة منهما مالك ولا حسبك . وإن امرأ دل على قومه السيف ، وهاق إليهم الحنف لحرى أن يعقته الأقرب ولا يأمنه الأبعد . . . »
ولم يكن الإمام ليعنف كل هذا العنف بالرجل إلا وقد أياسه أمره ، وأعضلت به مشاقته ومشاقة قومه البجائية الذين تابعوه فأفسدوا النصر في الحرب ، والأمان في السلم سواء بسواء . وبهم قامت من بعد عمه للملك الأموى حتى ثله العجم بعد سنين طويلة وأقاموا على أنقاضه خلافة العباسيين . فليس إذن بمستغرب أن تخلى صماحة الإمام المكان لمثل هذه الغضبة الفائرة وهو يبلطخ الرجل وقومه بأسود (٧ — الإمام خاس)

ما نضح عنه تاريخه ، وبأقذع ما جرت عنهم الأحاديث . وقديما وصف خالد ابن صفوان — حكيم العرب الذى ذكرته فى أنبيائها — أهل اليمن فقال عنهم : « ليس فيهم إلا حائك برد ، أو دابغ جلد ، أو سائس قرد . . . ملكتهم امرأة ، وأغرقتهم قارة ، ودل عليهم هدهد . . . »

وأحدث من هذا فى حساب التاريخ ردة الأشعث بعد إسلامه طمعا فى الملك الذى عدمته كندة . فقد ارتد بنو وليعة بعد وفاة الرسول ، فلما قاتلهم زياد بن ليلى الأنصارى وعضتهم سيوفه ذهبوا إلى الأشعث يستنصرون به . . . وقال لهم وقد وجدها فرصة سانحة لتحقيق حلمه فى عرش باذخ يعيد عرش كندة القديم إلى الحياة .

« لا أنصركم حتى تملكونى . . . »

فارتضوا شرطه . وصبا عن الإسلام . وتوجوه كما يتوج الملك من قحطان . فلما أن حسب سلطانه الجديد مانعه ، وخرج فيهم يقاتل المسلمين ، لم يلبث سوى قليل ثم تبدد غروره ، وتهاوى كبره وهو يرى قوات زياد تضيق عليه الخناق حتى تحصره فى حصن لجأ ورجاله إليه . . . وعندئذ تدبر أمرة فآثر أن يشتري حياته بالقدر وإذا هو يستأمن للمسلمين فى غفلة من قومه ، على نفسه وعلى عشرة من أهل بيته ، ثم يفتح الحصن ، ويبيع « أعداءه » دماء رعاياه !

كبا به مرة طموحه إلى السلطان على حساب الدين ، فما له اليوم لا يحاول ممارسة نوع شبيهه على حساب على ؟ . . لا تلوم ولا حريجة ، قطبعه الغادر بهذا كفيل . . .

وقف الإمام في وجه السيل . . . ليست هذه بوقفته الأخيرة فلسوف يقف لسيول وسيول . إن محنة صفين قد فتحت ثغرة في هيئته التي كانت تؤلف سدا هائلا يقوم بينه وبين الناس ، أخذت تتدفق من خلالها المشاقة والاجترار والعصيان ، يوما يوما ، إلى آخر خلافته . . .

ولكنه لم ين عن بذل النصيح ، ومحاولة إعادة العقول إلى الرءوس التي ملأها الأوهام فلم تعد تدرك ولا تعقل . وهو الآن يحاول أن يخرج بالخلاف بينه وبين الداعين إلى تحكيم الأشعرى إلى ميدان أوسع ، يطل عليه ملأ الناس من رجاله ، قادة وجنودا ، أشرافا وحشالة ، ليغدو قضية عامة ، وليؤدى ما عليه من إعداء أمام الجميع . . .

وقال مخاطب الجمع وهو يبسط القضية التي بينه وبين مخالفيه الذين أبوا إلا أن يفرضوا عليه حكما بعينه يتحدث بلسانه ، وحرره بهذا أحد حقوقه الأولية كفرد عادى ، فضلا عنه إماما له نفوذ وسلطان :

« . . . إن القوم اختاروا لأنفسهم أقرب القوم مما تكرهون وإنما عهدكم بعبد الله بن قيس بالأمس يقول : (إنها فتنة ، فقطعوا أوتاركم ، وشيعوا سيوفكم) . . . فإن كان صادقا فقد أخطأ بمسيره غير مستكره . وإن كان كاذبا فقد لزمته التهمة » . . .

وقد علم السامعون لا ريب هذا التصرف الذي أتاه الأشعرى وهو عامل له على البصرة ، وما انطوى عليه من اجترار على الأمير الشرعى للدولة لم يبلغ خسب حد التقاعد عن نصرته بل مبلغ تخذيل الناس عنه وإنه لجريرة تقارب الخيانة . . . ومع ذلك ، فماذا كان رأيهم في اختياره ليكون نائباً عن إمامهم عند الأعداء ؟ . . .

لكننى بتذكرة على إذ ذاك ذهبت صيحة في مقبرة ، لا تملأ أذنا ولا تحرك جارحة . . . فقد وقف الجمع يشهد ولا يرشد ، ويبصر ولا يتبصر ، وحق أولئك القادة الذين كانوا من قبل يملأون العيون والخواطر ، ويكتبون مع على سطور التاريخ ،

قد ألقوا الآن — فيما يبدو — الأفلام ، وسكبوا مدادهم ، ثم انتظروا ما قد تسفر عنه الأمور . . . فلا الأشر ، ولا ابن عباس ، ولا الأحنف بن قيس ، ولا غيرهم من الخاصة قاموا بدور إيجابى أمام الجماهير لتنجية الأشعرى عما اختاره له الأشعث وعصابات القراء . . . وما فعلوا ، على ما يظهر ، أكثر من لقاء على فرادى ، وفى خفية من العيون ، محاولين أن ينقض اختيار الرجل بعد أن أجبره للتمردون على التسليم لهم بما أرادوه ، وما أحسب تصرفهم هذا ، فى مثل هذه المحنة الحازبة التى قوضت خلافة الإمام ، إلا دليلا واضحا على انفراد الأشعث بن قيس — فى ذلك الوقت — بالسلطة انفرادا لا تؤمن معه مغبة معارضته والاختلاف عنه . . . وأكمل الإمام ما بدأه من حديثه :

« . . . ادفعوا فى صدر عمرو بن العاص بعبد الله بن عباس . وخذوا مهل الأيام ، وحوطوا قواصى الإسلام . . . ألا ترون إلى بلادكم تغزى ، وإلى صفانكم ترى ؟ . . . » .

هكذا ود لو يفيدوا — ماوسعهم ، وما أمكنتهم الظروف — من خدعة الهدنة التى جازت عليهم ، وسلبتهم وهم غافلون ثمار النصر ، فابن عباس أعرف الناس بالأعيب ابن العاص ، وأقدرهم على مناوخته . وهذه الهدنة التى فرضت عليه فرضا هى على أية حال فسحة من زمن لا يجدر أن تتسرب وتنقض دون أن يعملوا على استغلالها لتقوية جيوشهم ، وتنظيم صفوفهم من جديد تأهبا للقاء عدوهم ثانية إن فشل التحكيم . . .

لكنهم عموا عن رأيه ، وفشا بينهم اللفظ الذى ينبىء بما اعتادوه من معارضته . مرارا عموا عنه ورفضوه ، ولم يشفع لديهم منطقته الذى لم تثبت أمامه لهم حجة ولم يستقم بردان . وكم من مرة بعد مرة حاول أن يحملهم على الاقتناع فما زادتهم محاولاته إلا لجاجا فى العنت وإصرارا على الإصرار . . .

ثم يأتى الأشعث فيجهز بعنفه وعنفوانه على كل أمسل فى العدول عن ذلك العناد المرذول وهو لا يخفى ما تنضج به طبيعته التى شاءت أن تخرج بالأمر من قضية عامة يهم مجموعة المسلمين علاجها بما تتفق وصالحهم العام ، إلى قضية خاصة ينال

من كبريائه حلها بوسيلة لا توافق هواه ولا تفسح أمامه ساعة التعالي والاغترار ...
يقول الإمام في بعض محاولاته :

« . . إن معاوية لم يكن ليضع لهذا الأمر أحدا هو أوثق برأيه ونظره من عمرو بن العاص ، وإنه لا يصالح لأقرشي إلا مثله . فمليكم بعبد الله بن عباس فارموه به ، فإن عمار لا يعقد عقدة إلا حلها عبد الله ، ويحل عقدة إلا عقدها ، ولا يبرم أمرا إلا نقضه ، ولا ينتقض أمرا إلا أبرمه . . . »

لماذا يكون رد الرجل على هذه الحجة التي تستلهم طاقات الأنفس البشرية فتعد للخصم كفوه ، المنحدر من نفس أصله ، النابت في نفس بيئته ، الناهل وإياه من نبع كما تعد الحديد لتطرق الحديد . . .

إنه يشور . . لا يبالي تعرف المنطق السليم في حديث الإمام أو تبين النتائج الناجمة عن إنفاذه . فلا كانت قضية . . . ولا كانت نتيجة مرجوة ما نهض بالمفاوضة غير من شاء ، خصوصا إذا كان هذا الناهض رجلا من « قريش » يكاد هذا الغادر المريب أن يرى في نهوضه دلالة قاطعة تدمغ « اليمن » بالقصور والموانع عن أن يسند إليها التحكيم . . .

يمثل هذه النظرة الكليّة — يمثل هذا العمى يستقبل الأشعث بن قيس رأى الإمام فيدفعه صلفه إلى الوراء بضع عشرات من السنين إلى عصبية الجاهلية الأولى التي وأدها الإسلام . فهل حقا ثار . . أم هي الحجة المعجزة تلجته إلى الفرار منسترا بالثورة حتى لا يحق عليه التسليم والإقرار . . ؟

على أية حال لم تعجزه الوسيلة التي تحقق له غرضه ، وكل مكابر يفضض العيني عن نور الحق حين ينبلج ، ويصم أذنه عن هتافه حين تدعوه دواعيه ، تظاهر الأشعث بالثورة ، أو زار حقيقة وثار . فاعله غضب لنفسه وقد جرح غروره ، ولقومه وقد هانوا ، ولسلطانه الغض وقد رآه وشيك الانقصاص والقبول لو استجاب لرأى على ، وسلم لمنطقه ، وما كان قد نم بعد بهذا السلطان لإساعات . . .
ويصبح كخبول :

« لا والله ! — لا يحكم فيها مضرين إلى قيام الساعة . . . »

فأى حجة هذه وأى برهان . . .

ثم يندفع مردداً نفس رأيه القديم :

« اجعله رجلاً من أهل اليمن إذ جعلوا رجلاً من مضر . . . »

فيجيبه على بهدوء :

« إنى أخاف أن يخدع بمنيكم ، فإن عمراً ليس من الله في شيء إذا كان له

في أمر هوى . . . »

لكن هذا التحذير الهادئ يزيده ضللاً ، فيقول :

« والله لأن يحكما ببعض ما نكره ، وأحدهما من أهل اليمن ، أحب إلينا

من أن يكون ما نحب في حكمهما وما مضريان »

* * *

وهكذا يكشف الأضواء خافيته فلا يخطئ امرؤ في تبينه على حقيقته : رجلاً

يمكن لسلطان ما وسعه التحكمين . يستهوى الأنفس أولاً ويريق دعوته المضللة للسلام .

ثم ينشر هذه الدعوة حق يغدو نديها في عيون الجماهير . ثم يفرض إرادته . حق

إذا غدا مؤزراً بالنزعات النفسية لم ينس أن يوفر أيضاً لنفسه القوى للمادية التي

تضمن بقاء تحكمه في مصائر الناس والأمور فيختار حكماً من قومه ويتحصن

وإياه بالعصية اليمنية وإن أفرادها إذ ذاك لحزب لا يستهان به في جيش ملي

وقوة غالبية في جيش الشام . . .

هنا يحق أن نتساءل : أكان لرجل مطمع وراء التحكم . . . ما هي غايته ؟ .

وما قصاره من هذا التحكم الذي قد مهد له ، ورسم خطوطه ، وابتدع له حكماً

من قومه صنعه بيديه هو ذلك الأشعري اليمنى الظنين ؟

أخبال ، أم شرود مع الخيال ، أن يطمع الرجل في إمرة المؤمنين لنفسه بعد

كل هذا التدبير والتحكمين ؟ . . . قدما اشترى عرشاً بدينه . وأمس فقط اشترى

السلطة بهيبة على — بل بدولته . فلم اليوم — وقد اجتمعت له عوامل النجاح

والقوة ، نفسية ومادية ، من نفوذ ، وسيطرة على عواطف الجماهير ، وأعوان

غفيرة هنا في هذا الفريق وأعوان تفوقها هناك في ذاك — لا تنوع عينه إلى

الخلافه وإن أحد الحكامين الثلذين يملك أن يلبسه طيلسانها لصنيعة يده ؟ . . .

إنه أعلم باتجاه الأشعري . . . يعلم أنه لن ينصر معاوية لأنه يرى فيه أحد طرفي الفتنة التي اکتواها المسلمون كل هذه الثهور . . . ويعلم أنه ينصر علياً في غد وقد سلف منه أمس ما سلف من خذلانه . . . ولم يكن علمه هذا سرّاً خافياً ظل مستغلقاً على سواء ، ولا كان مما جرى في الأفهام مجرى الظنون ، بل كان من قبيل الخبر الشائع على الألسنة ، المستقر في الأخلاق استقرار اليقين . . . نسمعه في معسكر معاوية كما نسمعه في معسكر علي ، ونسمعه قبل أن يكتب الحكان صحيفة التحكيم كما نسمعه بعد كتابتها . . .

يقول الأحنف بن قيس على يحدّثه في شأن أبي موسى :
« . . . قد حلبت أشطره ، فوجدته قريب القعر ، كليل المدينة ، وهو رجل بمان وقومه مع معاوية . . . »

وينشد شاعر من الشام ، هو أيمن بن خريم ، يثنى على أصحاب علي سوء اختيارهم حكمهم :

« لو كان لا قوم رأى يعصمون به من الضلال رموكم بأبن عباس
لكن رموكم بشيخ من ذوى يمن لم يدر ما ضرب أخماس لأسداس
أبلغ لديك علياً غير عاتبه قول امرئ لا يرى بالحق من باس
عا الأشعري بمأمون »

ويلتقى عمر بن سعد بأبيه سعد بن أبي وقاص ، إبان اجتماع الحكّمين بدومة الجندل ، فيقول له وهو يمنيّه الخلافة :
« . . . إنك لم تدخل في شيء مما تكره هذه الأمة ، فاحضر دومة الجندل ، فإنك صاحبها غداً . . . »

ولا يكاد الأحنف بن قيس يودع أبا موسى الأشعري إلى مقر الاجتماع ،
حتى يسرع إلى الإمام يقول له :
« لا أرانا إلا بعثنا رجلا لا ينكر خلمك . . . » .

فهل هو خيال ، أم شرود مع الخيال أن يطمع الأشعث بن قيس في إمرة
للمؤمنين وقد مكن لنفسه كما مكن ، وأعد كما أعد ، وأمامه من قرأتين الحال
ما قد يغنى عن جواب سؤال ؟ . .
الصحيح أنه تأمر ، وأنه دبر ، وأنه احتال . ولا عبرة بعد هذا بفشله .
فقد رتب المقدمات ثم خائنه الخواتيم . ولو كان تديره كله لغير غاية رمقها من
البداية فهو إذن عايب خامل ، يلهو بالسلطة ، ولا يهزه الطموح ، ولا يخيل
عينه عرش كندة القديم

١٠

ليوشك امرؤ أن يستبعد طمع الأشعث بن قيس في خلافة كانت الناس ،
إلى قريب ، تراها حقا لقريش دون غيرها من العرب . . . يوشك أن يكون
هذا ، لولا أنه ، فيما أحسب ، استبعاد قد يسير النظرة الحديثة التي تنظر إلى
للشكل الآن وهو غارق في عشرات من الحجج والجدليات ابتدعتها مئات من
السنين ثم لا يسير نظرة القوم الذين كابدوه حين نشوئه وعاشوا فيه . فالخلافة
الإسلامية — كنظام من نظم الحكم — هي في حقيقتها وليدة رأى وليست
وليدة نص ديني ثابت لا يحتمل التأويل . ورسول الله وهو يستقبل ربه ، بعد
أن فرغ من أداء رسالته ، لم يوص لأحد بعده بالحكم وصية صريحة وإن بدرت
منه في أوقات شتى إشارات وتلميحات تاه أصحابه في تفسيرها عقب وفاته بين
الاحتمال والترجيح . وثمة أحاديث فيها من الصراحة ما قد يرسم لنا صورة
للمستخلف يوضح — كحديث « الغدير » وحديث « خالص العمل » —
ولكنها أحاديث « توجيهية » تهدي إلى الحقيق بالإمرة ولا تلزم الناس باستخلافه .

وحق على نفسه لم يدع الحق في الخلافة بعد من محمد قاطع بحبسها عليه ومحصرها فيه . بل كان يقول في ذلك : « لو عهد رسول الله إلينا عهدا لأنفذناه . . . » .

كانت هذه نظرة القوم عامة إلى مشكل الخلافة والاستخلاف والنبي حينذاك لم يتوسد مستقره الأخير وبين هذه الحدود اضطربت الآراء من بعد ، وتشعبت شعبا ، وراح كل فريق من المختلفين يحاول أن يلتقط من أقوال رسول الله ، ومن أفعاله ، ومن تلميحه ، ومن الأحداث التي لازمت مولد الإسلام ونموه ما له يسند دعواه . وفي بدء الأمر كان ثمة معسكران للرأى : أولهما معسكر الأنصار ، وثانيهما معسكر المهاجرين الذي ما لبث أن انقسم على نفسه حتى فتت الخلاف كتلته القرشية ، فإذا به يغدو « بيوتا » كبيرة مستقلة إن يكن نماها أصل واحد فقد تفرقت بها فروعه . وإذا بكل بيت منها يرى الخلافة الإسلامية حقا له وحده ، ثم إذا بالبيت الواحد الكبير قد انقسم أيضا إلى « أسر » كل منها تنفرد بالعمل لحسابها الخاص .

وليس يعنينا هنا تتبع هذه الانقسامات في الأعصر وما تفتقت عنه من الفتن والدول والدويلات . ولكننا نعود بها إلى نواتها الأولية يوم خرجت إلى الوجود ورسول الله مسجى على فراشه . حينذاك لم ير الأنصار ضيرا في التطلع إلى تقلد السلطان الزمني الذي بات لزاما على المسلمين إقامة بنيانه بعد أن رسم لهم محمد خطوطه وأرسى قواعده . ولقد شجعهم لا ريب على هذا التطلع أن الإسلام وضع أهله جميعا في مكانة سواء ، ولم ينص على حصر الحكم في طبقة معينة أو أسرة بذاتها دون سائر الأسر والطبقات . وشجعهم أيضا دورهم الفعال في نصرة الرسول مستهل الدعوة حين عز النصير من قومه ، وما كان من فضل هذا الدور في استفحال شأن الدين واشتداد ساعده حتى بطش بالشرك في الجزيرة العربية ودان له الناس . فالأنصار إذن وقد تقدموا يرثون إلى قيادة الدولة الجديدة الناشئة إنما يتقدمون ولهم صحيفة تزكيتهم ، فيها « العمل » الذي أسلفوه ، الكاشف عن اقتدارهم على القيادة الزمنية ، الجير بالثناء والجزاء ، وفيها « للبدا الديني »

الذى لا يميز بين المسلمين ولا يفرق بين طبقاتهم وأجناسهم وإنما يجعلهم جميعا سواء

لكن هذه النظرة التي تدنو نوعا من التحرر اصطدمت فورا بأخرى تقابلها قد غلب عليها الخضوع للأحياء وكان من مبادئها تقييد « الأهلية للحكم » وحصرها في حدود وشروط . فما اجتمع الأنصار في سقيفة بني ساعدة وهم رأيهم يجتمع على البيعة لسعد بن عباد رئيسا سياسيا للدولة حتى انطلق رجال من المهاجرين إليهم يحاولون ثنيهم عما اعتزموه . وكان الناطق بلسان هؤلاء أبابكر ، ومن ورائه وقف أصحابه أبو عبيدة وعمر بسندانه . وكان الرأي المناوئ الذي جاءوا به هو تضيق نطاق تلك الأهلية للحكم بالعدول عن التعميم إلى التخصيص ، وعن العرب إلى المهاجرين ، وعن المهاجرين إلى قريش ، وعن قريش إلى أديانها من الرسول .

واضطرب الناس ذلك اليوم بالسقيفة حتى لكادت الفرقة توقع بينهم فتنة لا تحمد مغبتها لولا تيقظ الخلاف التاريخي القديم بين الأوس والخزرج وانبعائه من رقده ، وعندئذ تفتت وحدة الأنصار ، وتراخت قبضتهم على الخلافة فافلتوها وهم يرون السلامة — من انقسامهم ، ومن فتنة قد تصيب الأمة عامة — في البيعة لقريش بالزعامة السياسية على العرب في شخص أبي بكر الصديق .

حق على في هذه الآونة كان يرى رأى أصحابه أولئك من المهاجرين ولا ينكر منهم إلا خروجهم على ما دعوا له وألزموا به الأنصار من شروط . فلقد جاءته الأنباء بالحادث ، وما أدى إليه من استخلاف أبي بكر ، فسأل من أنبأوه :

« ما قالت الأنصار ؟ . . . »

« قالت : منا أمير ومنكم أمير . . . »

« فهلا احتججتم عليهم بأن رسول الله صلى بأن يحسن إلى محسنهم ، ويتجاوز

عن سيئهم ؟ . . . »

« وما في هذا من الحجة عليهم ؟ . . . »

« لو كانت الإمارة فيهم لم تكن الوصية بهم . . . »

م س د .

« فماذا قالت قريش ؟ . . »

« احتجت بأنها شجرة الرسول . »

وعندئذ قال :

« احتجوا بالشجرة ، وأضاعوا الثمرة . . . »

ولقد أضاعت قريش « الثمرة » حين فوتت على ما يراه حقه في الخلافة إذ هو أدنى من أجرى قريش حسبا ونسبا وقلبا من الرسول . ولكنها لم تر في هذا ما قد يحسب عليها جريرة إذا ما قيست الجرائر بمقاييس النصوص الصريحة ولم تقس باجتهاد الرأى في التأويل والمفاضلة والترجيح . فإن هو إلا رأى ارتثاته إبان داهية ، وما ثمة سند « رسمى » كان يلزمها البيعة لعل وإن وضعته شروطها على رأس قائمة الحقيقين بالخلافة . . .

والذى لا شبهة فيه أن نظرة أبى بكر كانت دعوة صريحة إلى « أرستقراطية » الحكم لا ينكرها الدين وإن نجد اليوم من عساه ينكرها بين مروجى المبادئ الشعبية التى لا ترى قط افتراض حصر الرئاسة فى أسرة من الأسر أو فى طبقة من الطبقات . وهى فضلا عن أرستقراطية مظهرها قد توصلت أيضا بوسيلة مثلها أرستقراطية لتبلغ حظها من التحقيق . فما كان لعامة الناس رأى فى اختبار الخليفة ، ولا هم دعوا للمشاركة فيه ، بل قد دعوا بعد الاختيار للموافقة والإقرار . وحين نعرض لاختيار أبى بكر ، ومن بعده لاختيار عمر وعثمان ، ترى « الخاصة » من المهاجرين والأنصار ، فى مجتمع المدينة دون غيرها من البلاد الإسلامية ، هم وحدهم الذين يبدأون البيعة فتبرم برأيهم إمرة المؤمنين ولا يبقى بعدهم لأهل بقية المدن والأمصار إلا قبول الاختيار . . .

فلتكن إذن هذه الخاصة التى نصبت نفسها لاختيار الخليفة نوعا من « المجالس النيابية » أسفر عنه « الانتخاب الطبيعى » فى مجتمع قبلى ، يتبع العرف والتقاليد ولا يعرف من أساليب الانتخاب الوضعية ما نعرف الآن . . . وليكن رأيها ممثلا للرأى العام ، محققا لرغبة الشعب إذ هى قادة الرأى فيه ، ومناطق رجائه فى أمور الدنيا والدين — ليكون هذا ، ولتكن هذه . ومع ذلك فإن « المظهر الشمى »

لا انتخاب الخلفاء لم تتضح ملامحه إلا عندما « انتخب » على أميراً للمؤمنين بعد مضرع سلفه . فهذا الرجل الذي اجتمعت الآن الأهواء على حربه ، وتنكر له رجاله ، لم تنفرد باختياره الخاصة في مجتمع محدود ، بل انتخبه أقوام من المدينة ، والبصرة ، والسكوفة ، ومصر — أمهات بلاد الإسلام وأفطاره — كانوا يمثلون إلى حد كبير التيارات السياسية الشعبية .

هذا المظهر الشعبي الذي اصطبغ به انتخاب على هو في الواقع نكسة شعبية أصابت الاتجاه الأرستقراطي الذي استن يوم السقيفة وأدى إلى اختيار الصديق . وهو تحرر جزئي وخطوة نحو الانطلاق . وإذا كانت هذه النكسة لم تمس مبدأ الاختيار ، ولم تهدم الحدود والقيود التي تعميده ، فإنها غيرت أسلوب التطبيق . وإذا كان الزمن لم يمتد بهذا التحرر ليسير في طريق التطور الطبيعي ، وينمو ، ويبلغ اكتماله ، فمرد الأمر إلى نكسة أرستقراطية مفاجئة ، عصفت به وهو وليد ، وأقامت على أشلائه الطرية الغضة ملكعاتها متوارثا لا مجال فيه لا انتخاب ولا اختيار... كان انتخاب على إذن وسطا بين النظرة الأرستقراطية التي دعا لها أبو بكر وبين النظرة الشعبية التي دعت لها الأنصار فالأمة « عامة » — ممثلة في أقوام من أقطار دولتها — قد انتخبته من « طبقة » محددة ، لها ما يرجع كفتها على بقية الطبقات حين لا تحسب للزايا بحساب التقاليد المرعية ، والنفوذ الأدبي ، والصلة بالرسول . والشعب الذي شارك في انتخابه قد وجد في هذه المشاركة متنفسا لرغباته ، واكتسب لنفسه حقا طبيعيا ، لم يكن له من قبل ، هو حق الانتخاب... ومع ذلك ، وحق تلك اللحظة ، فإن الخاصة لم تكن لتقر هذه النزعة السياسية الجديدة ، وظلت ترى أن حق اختيار الخليفة وقف على طليعة المؤمنين وحدهم بالمدينة ، وتجعل تبعاً لرأيهم بقية الآراء .

وما من شك في أن رأي الخاصة ، وإن خالف الاتجاه الشعبي في مظهره ، إنما كان يهدف مخلصا إلى الصالح العام للدولة الإسلامية الناشئة ، التي لم يمض على بنائها سياسيا إلا سنوات قليلة ، توفرت لها خلالها بعض مقومات الدول منذ حمل رسول الله من عناصر المجتمع المدني المضطربة وحدة متسقة ، يحكمها قانون

مرسوم ، وتركز آملها جميعاً في غاية واحدة لا تنهون في الدفاع عنها ولو بقوة السلاح . ويوم دعا أبو بكر لنظراته لم يكن فيما نهى داعية يؤيد الأرستقراطية لذاتها ، ويوم تابعه أصحابه على هذا الرأي ، إبان عهده ومن بعده ، لم تكن متابعتهم في حقيقتها الظاهرة والخفية تنكراً للشعب ، ولا انتصاراً للخاصة فيه على حساب عامة ، وإنما كانت الدعوة والمتابعة كلاهما امتثالاً لحكم الظروف المحيطة بدولتهم الجديدة . فالبناء حينذاك لم ترتفع منه إلا قوائمه . والدين الغض جب كثيراً مما خامر العقول والنفوس من العرف والعادات والتقاليد . والبادئ الإسلامية قد تترنم بها الألسنة ولكنها لم تتعمق غالبية القلوب . . . لذلك كان أدنى إلى المنطق ، وألحق بمقتضيات الحال ، وأقرب إلى تحقيق الصالح العام للأمم أن يكمل البناء من شاركوا في وضع قواعده ، وأن يحمي الدين من ثورة التقاليد المكبوتة من ناهضوا من البدء هذه التقاليد ، وأن يرسى مبادئ الإسلام في القلوب من أشربوها ولم تنل منهم الحن والخطوب . .

فهل كان عجبا إذن — وقد اجتمعت كل هذه المزايا لقريش — أن ينادى لها بالزعامة السياسية في وقت كانت العرب فيه لا تنكر عليها صدارة الناس ؟ . . أو أن يلقى النداء صدى في النفوس التي عاشت طويلاً تؤمن بالنفوذ الروحي لقريش منذ كانت لها ولاية البيت الحرام في الجاهلية ثم من بعد إذ غدت موئل النبوة في الإسلام ؟ . إنما العجب أن تفشل الدعوة وأن يتبدد النداء ولا متقبل في الجزيرة العربية ولا مستجيب . . وإنما الأعجب بعد هذا أن يظل النداء يتردد وأن تظل النفوس تتقبل ، والعالم منذ مولد الدعوة تتكشف للعرب مجاهيل بقاعه ، وتتداني أباعد رقاعه فتمد النظرة وينفصح الأفق أمام المفكرين والأفكار . . . جيل جديد من الناس يبرز الآن من الأغمار . عنصر جديد . أخلاط من الشعوب التي احتواها الإسلام في ذراعيه من بحر الهند إلى البحر المحيط ، ومن جبال القوقاز وسهول التركستان إلى هضبة النوبة بجانب النيل . . . إن ثلث قرن من الزمان قد آتى بأحداث غيرت الأرض والبشر . فالدولة الناشئة لم تعد محصورة — كبديتها — بين أسوار بلدة صغيرة ، بل انسابت أماما وخلفا ، ويمنة

ويسرة ، تأكل العالم ، وتهدم الحدود كأنها طوفان . انتشرت تسرح كالنار وتفيض كالنور . استطاعت بين قرني الشمس ... والشعب الإسلامى لم يعد خصب عربا أطلعتهم الرمال ، وروتهم العيون والآبار ، ولا بدوا تحبطهم المحل فمرة جيرة الفرس ومرة جيرة الروم ، بل غدا أمة جمة ، تتناثر في المشرق والمغرب ، وفي الشمال والجنوب على وجه ذلك العالم القديم المروف ، وتختلف بها الأصول والعناصر والألوان ، فتباين فهما وفكرا وعاطفة ... وبعد أن كانت « المدينة » خلال عهود الخلفاء الثلاثة الأولى حاضرة الدين والسياسة ، ومهوى القلوب والعقول والأنظار من أنحاء الدولة ، خبا ضياؤها لا يخطف ، وخفت صوتهما لا يطاع ، وأشرفت على جيلها الثانى وهى بلدة في عمر البلدان ..

تلك الثورة على عثمان أنزلتها من علياء عزها المؤئل . فقد هانت حتى اقتحمها أهل الأمصار ، ومن لاذ بهم حينذاك من عبدان ، وحكموا فيها بسرعة الثورة لا بشرعه التقاليد . الهيبة التي كانت تصدم عنها غدت خيال غابر ، كشف الظلال ، خفيف الأضواء ، والنفوذ الأدبي الذي تسربلته منذ عهد الرسول رث كأسمال . فالدين أسهموا في بناء مجدها أكلت منهم الفتوح فغابوا عنها في ثرى غريب ، أو استهوتهم العوالم الجديدة التي غزاها الإسلام فهاجروا إلى الخير والدعة والثروة . والدين مكثوا على أديمها تربطهم بها بقية من وفاء للغابر ظلوا قعودا شهودا لا يمنعونها عن مقتحميها ولو بإشارة بناف . بل إن منهم لمن أعان عليهم فخرض ونفخ في النار يؤازر الثوار ...

وحين تذكر الثورة تذكر المساواة . فما هي إلا نتاج هذه التعاليم الجديدة التي طلع بها ذلك الدين الجديد على عالم من العبيد تملكه حفنة من الطغاة . فيها وجد الدليل عزه ، والخائف أمانه ، والضعيف قوته . وبها تحرر الأسود والمهجين والأصفر من معرة الجلود والأبشار . وحيالها أصبح الناس سواسية ، لا فضل لأحدهم بعنصر ولون ، ولا بأصل وقبيل وحين تذكر المساواة فقريش إذن على مكانة سواء ومن داناها ومن باعدها من رحل الصحارى ، وبدو العراق ، وبربر إفريقيا ، وأهل الجبال في هضاب آسيا ، وفالحى الأرض بشاطئ النيل . . .

كانت المساواة هي القبس الذي استضاءت به أذهان الناس في البلاد الإسلامية . ثم استوى شعلة ، ثم توهج وتأجج نارا غصبي راحت تأكل الفروق الطبقيّة التي استطاعت لدروتها في أخريات أيام عثمان . ولم تذق قريش حينذاك عن تراثها — عن تلك النظرة التي ارتآها لها أبو بكر يوم السقيفة وبوانها سلطانها السياسي على الدولة الناشئة إلى جوار ذلك السلطان الروحي الذي استمدته قبله من أولاية البيت الحرام في الجاهلية ، ومن ولاية النبي في الإسلام . كان منها ، حقا ، من تقدم إلى اللهيب يحاول أن يطفىء نأثرته ، ويهدىء نأثرته . ولكن أكثرها كان يشهده وهو ساكن أو صاغر ، وبعضهم كان يذكيه بالتحريض أو بالتآمر . فلما أن طعن عثمان وقضى نحبه ، لم تكن الطعنة التي أصابت خاصرته بأنكى من تلك التي أصابت قريشا قبيلته وذهبت بهيبتها مع الدم المراق .

إنه لأدنى إذن إلى مطابقة منطق الأمور — بعد هذا كله — أن يرنو إلى الخلافة كل ذي عين تستطيع أن ترنو ، وقلب يعرف كيف يطمح ، وذهن قد ير على المكايدة والتدبير . أيما امرئ وسعه أن يفعل فلا حريجة ولا جناح ما اجتمعت له مقومات الطموح وأسناده ، يستوى في هذا من شبه الرمل ومن أنبتته الظلال ، من انحدر من خاصة ومن كان من عرض الناس فسلطان المدينة تقوض ، وهيبة قريش تهاوت ، وتلك الهالة حول أرسقراطية الحكم قد عفاها التطور الفكري وذهبت بها الاتفاعلات الشعبية القوة الآن حيثما تكون القوة لا حيثما كانت التقاليد . وميزان التفوق هو الأسناد للمادية وليس العاطفة الدينية

جرى حديث الصحيفة الصفراء :

« بسم الله الرحمن الرحيم . . . »

هذا ما تقاضى عليه علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان ، وشيعتهما ، فيما تراضيا به من الحكم بكتاب الله وسنة نبيه . قضية عليّ على أهل العراق ومن كان من شيعته من شاهد أو غائب ، وقضية معاوية على أهل الشام ومن كان من شيعته من شاهد أو غائب »

وبمثل هذه الفاتحة يبدأ التحكيم . . .

فلولا أن استهلوا الوثيقة باسم الله لحسب المسلمون أنهم طووا زمانهم إلى الخلف جيلًا حتى وقف بهم عند « الحديبية » يطالهم فيها عنت قريش بلسان صاحبها « سهيل بن عمرو » وهو على عليهم مشيئة الجاهلية التي استسفرته لعقد الهدنة وكتابة عهدها حينذاك . . . فما عدا عما بدا . . . وما خالف الخلف عن سلفه كأنهم شخوص وظلال . . .

كما أبو أمس أن يلحقوا النبوة باسم محمد أبوا اليوم أن يلحقوا الإمرة باسم علي وإن علموا أنما قد بايعه بها الذين بايعوا قبله أبا بكر وعمر وعثمان . وهل يضيرهم وقد تأثروا خطأ الآباء ؟ . . . وهل يعضل بهم أن ينكروا عليه ما قلده الناس وسلفهم قبلهم أنكروا على ابن عمه الكريم ما قلده الله ؟ . . .

يهول معاوية أن رآهم يلحقون الإمرة باسم خصمه في وثيقة التحكيم ، فيقول :

« بشئ الرجل أنا إن أقررت أنه أمير المؤمنين . . . »

ويعقب صاحبه عمرو ، مخاطبًا من كتب :

« اكتب اسمه واسم أبيه . . . إنما هو أميركم ؛ وأما أميرنا فلا . . . »

ويتلبث على مليا يفكر ، حين جاءوه بالصحيفة الصفراء ليحووا اللفظة التي هالت ابن أبي سفيان - يتفكر هادئًا في غير ضيق ، وفي سخرية وترفع . وهل ينقص

المؤمنه ؟ . . . وهل يزيد الإثبات فيه ؟ . . . إنما كان ذهنه يكره به إلى أطراف
الماضي ، من جيل ، إذ راح يكتب لرسول الله ، بجانب ماء الحديبية ، عهد الهدنة ،
فيعنت سهيل ، ويعلم محمد ، ويعجو هو وإنه لسكره حتى تجيء الصحيفة على الهيئة
التي يرضاها هوى سهيل ومن بعثوه . . . راح يكتب والنبي على عليه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . . . »

لكن سفير الجاهلية أبي :

« لا أرضى ! . . . اكتب : باسمك اللهم . »

فأمره الرسول :

« اكتب : باسمك اللهم . »

فعمل . محاً وأثبت .

ثم كتب :

« هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو . . . »

فاعترض سهيل : « لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ! . . . اكتب اسمك

واسم أبيك . . . »

وعندئذ غضب على :

« بلى والله ! . . . إنه لرسول الله وإن رغم أفتك ! . . . »

غير أن محمداً يأمره :

« اكتب : هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله . . . »

وكأنما يتبين النبي في وجه ابن عمه التردد ، فيهدى من روعه ، ويعيدها عليه :

« اكتب ما يأمرك . . . إن لك مثلها . ستعطيا وأنت مضطهد ! . . . »

وهو يوشك أن يعطيها الآن ! . . .

ويقبل عليه الأحنف بن قيس في لفحة . . . الجزع في قلبه ، والنصة في حلقه ،

والحزن يتواتر على وجهه ظللاً كثيفة دكناء :

« يا أمير المؤمنين ! . . . لا تمح اسم إمرة المؤمنين عنك ! . . . لا تمحها . . . »

فبيتسم له .

ويماود الرجل الجزع الرجاء والتحذير :

« لا تعجها وإن قتل الناس بعضهم بعضا ... إني أخوف إن محوتها ألا ترجع إليك أبدا ... »

ثم يقبل عليه الأشعث . في خطوة اختيال ، وفي قلبه خيانة ، وفي عينه تجبر ... يقول باستعلاء :

« امح هذا الاسم ! ... »

فيبتسم أيضا له .

« امح هذا الاسم ! ... »

وفي سخرية وترفع يرمقه الإمام بعين لا تكاد تستقر هنية على شعثه حتى تنفلت تفرزا ، إلى وثيقة التحكيم الصفراء فننفذ منها إلى صحيفة الحديدية وعنت سهيل ، وحلم الرسول ... ما عدا بما بدا ... الأمس واليوم في لحظة ... السلف والخلف في فردا ...

ويهتف على في إيمان وتسليم :

« لا إله إلا الله والله أكبر ! ... سنة بسنة ... »

ثم لا يأبى على اللعنات ما شاء ، فيمحو ويثبت ... ويقول :

« أما والله لعلى يدي دار هذا الأمر يوم الحديدية حين كتبت الكتاب عن رسول الله ... فالיום أكتبها إلى أبنائهم كما كتبها رسول الله إلى آبائهم سنة ومثلا ... »

٢

الأشعث ليس يسهه ثوبه . . . انتفخ من فرح . وبدت على وجهه صولة الظافر وهو يلوح في يده بالصحيفة الصفراء كأنما قد ملك مفاتيح المجد . . .

وحق له . . . فالقوة الآن في يمينه : اليمين في ظهره . ودعاة الهدنة . والمخدوعون . وكل منافق . وأصحاب الدنيا الذين تخاييلهم مطامع السلام . ومن نهكتهم الحرب وأفزعتهم الدماء . . . وأمام عينيه ، إلى هذا كله ، دنيا فسيحة من أحلامه .

غدا الرجل سيد للوقف . الأمر له . والنهي له . لا راد لما أراد ، ولا معقب عليه . . . أكره عليا فقر السلاح . وأكرهه فكان حكمه من ذى يمن . وأكرهه فامحت إمرته من الصحيفة . والناس من وراء هذا شهود قعود ، من رضى فأقر ، ومن أكره فصبر سواء بسواء . . .

حتى الصفوة المختارة من رفاق الإمام وذويه اتسعت رقعة كتاب التحكيم لأسمائهم ، يتداولونه بها ، ويشهدون على أميرهم وشيعتهم وأنفسهم بما فيه . . . ليس عن تخاذل كان توقيعهم ، ولا عن فتور إيمان ، ولكنهم انحنوا للمصافة ، وانساقوا مع التيار . . . وعند ما دار الأشعث بن قيس ، يضع الوثيقة تحت أقدامهم ، كانت في قلوبهم حسرة ، وفي حلوقهم مرارة ، وخلف أجفانهم للرغبة قطرات دموع تهم أن تسيل مع الحبر . . .

ومد الأشعث بالصحيفة يده إلى الأشر ، ليشهد كرفاقه . فإذا هو ينكش ، وينأى كأنما مدت إليه حية . . . ثم يصيح في إنكار :

« لا صحبتني يعني ، ولا نفعتني بعدها شمالي إن كتب لي في هذه الصحيفة اسم على صلح ولا موادة . . . »

وبدت السخرية في عين الأشعث ، ثم رد في صلف واستعلاء كأنما بأمر :
« هلم فاشهد . . . »

« أشهد ! . . . أو لست على بينة من ربي ، وبقين من ضلالة عدوى ؟ . . .
أو لستم قد رأيتم الظفر إن لم تجمعوا على الجور ؟ . . . »
جاء الرد ثانية ، قد أتخمه الغرور ، وقطرت من حروفه خيلاء صاحبه ،
وكبره ، وعجبه بمقداره :

« هلم فاشهد على نفسك ، وأقرر بما كتب في الصحيفة ، فإنه لا رغبة بك
عن الناس . »

وعندئذ ثار الأشت ، واندفع جوابه كالحمم اللاتبة :

« بلى والله إن بي لرغبة عنك في الدنيا للدنيا ، وفي الآخرة للآخرة ! . . .
واقعد نفسك الله بسيفي هذا دماء رجال ما أنت بخير منهم عندي ولا أحرم دماء . . .
وتقبضت يده على مقبض سيفه ، واندفع من عينيه مثل الشرر . . . وما يمنع
وبال غضبه عن هذا للشاء بالخور ، للدل بضلالة ؟ . . . لولا أن يعصى إمامه —
ولولا أن تكون فتنة جديدة لا يحتملها هذا الجيش الذي مزقته الفتنة ، لسل
وقتل ، وألحق الغاوى للغرور بالغارين . . . »

وانكش الأشعث في جلده ! . . . واستخزي . وتغير وجهه بمثل الرماد . . .
وقيل للإمام :

« إن الأشت لم يرض بما في هذه الصحيفة ، ولا يرى إلا قتال القوم . . .
فلم يغيره القول على صفيه الوفي . بل قد بدا كمن استشف من الحبر وقيعة
نسجوا خيطها لتفصل بينه وبين صاحبه ، فرد يلومهم ويثني عليه في آن :
« وأنا والله ما رضيت ، ولا أحببت أن ترضوا ! . فإذا أبيتم إلا أن ترضوا
فقد رضيت . . . »

ثم انثنى يبين لهم وفاء لعهده وإن أكره عليه ، وثقته في رفيقه وإن دسوا له :
« . . . لا يصلح الرجوع بعد الرضا ، ولا التبديل بعد الإقرار إلا أن يعصى
الله ويتعدى ما في كتابه . . . بلى ! . . . إن الأشت ليرضى إذ رضيت . وأما الذي
ذكرتم من تركه أمرى وما أنا عليه فليس من أولئك ! . ياليت فيكم مثله اثنين ! . . .
ياليت فيكم مثله واحدا يرى في عدوى ما أرى ! . . . إذن لحفت على مؤوتكم ،
واستقام لي بعض أودكم ، لكن — نهيتكم عما أتيتكم ، فعصيتوني . . . »

على أن هذا كله لم يوقع الندم في قلب الأشعث ، ولم يكفه عن اختياله ...
 إنما نضح بما فيه ، وفضح خافيته . فلقد مضى على عجل ، الصحيفة يمينه ، والبشر
 على ثغره ، والزهو في لمح عينيه ، يدور على الجيشين فيقرأ عهد التحكيم الذي أنجبه
 اليوم تزواج حرام بين النفاق والخديعة ! .. مضى تياها بمولوده ، يكشف للناس
 عنه ، ويعرضه عليهم وهو يود لو حملهم أجمعين على الإشادة بحسنه وإن رأوا فيه
 قسماً أيه ! .. فأما ذوو الأم : أصحاب الشام ، فقرروا خاطراً وعينا ، ولعبت
 الفرحه بهم إذ جنهم الفضيحة اعتراف الأب الأثيم بالوليد ! وأما ذوو الأب :
 أجناد على ، فمنهم راض ، ومنهم كاره مستكره ، ومنهم منكر أشد الإنكار ...
 وما أكثر الآن من أنكر ! .. من سويغات ، حلت الحياة في عيونهم قران
 على قلوبهم حب البقاء حتى آثروا الحذر واشتروا السلام بالتسليم ... ثم ، هام
 الآن : ذهبت السكره . فترت النشوة . خفت عنهم حميا الدعة ، وحمى
 الخادعة والتضليل ..

ويعجب الأشعث للناس ، يطوف بصفوفهم ويعرض بضاعته ، كيف
 تبدلت بهم هكذا سريعاً الحال حتى توشك أن تفسد ما دبر ، وتجيء بغير ما قدر ...
 لكنه يطوى عجيبه ، ويكتم قلقه ، ويمضى شوطه مكافحاً مناخاً عن غرضه يلقي
 في آذانهم شجاج دعوته : ما ضمته الصحيفة الصفراء ...

كان رأسها : فصل الإمرة عن الإمام . فهو على ، وليس له من أمر المسلمين
 شيء تنص عليه الوثيقة إلا مثل ما لحصه وإن كرهت الحقيقة الواقعة وكرهت
 البيعة التي أدتها له الأمصار ...

وكان هيكلها كما رسموه :

« وحسبنا أن نزل عند حكم القرآن فيما حكم ، وإن تقف عند أمره
 فيما أمر وإنا جعلنا كتاب الله فيما بيننا حكماً فيما اختلفنا فيه ، من قاتلته
 إلى خاتمته ، نهي ما أحياء ، ونميت ما أمات »

وكان المحور الذي تدور حوله :

« . . . إن عليا وشيعته رضوا أن يبعثوا عبد الله بن قيس ناظرا وحاكما ، ورضى معاوية وشيعته أن يبشوا عمرو بن العاص ناظرا وحاكما ، وإنهم أخذوا عليهما عهد الله وميثاقه وأعظم ما أخذ الله على أحد من خلقه ، ليتخذان الكتاب إماما فيما بعث له لا يعدوانه إلى غيره في الحكم بما وجداه فيه مسطورا . وما لم يجداه مسمى في الكتاب رداه إلى سنة رسول الله الجامعة فإن لم يفعلا ، برئت الأمة من حكمهما ، ولا عهد لهما ولا ذمة . . »

وكان من ختامها :

« والناس آمنون على أنفسهم وأهلهم وأموالهم إلى انقضاء مدة الأجل . والسلاح موضوع . والسبل مخلاة . والغائب والشاهد من الفريقين سواء في الأمن وعلى الأمة عهد الله وميثاقه على التمام والوفاء بما في هذا الكتاب ، وهم يد على من أراد فيه إلحادا وظلما ، أو حاول له نقضا . . »

وإلى جوار هذا ، وفي ثناياه ، مشيت نصوص بموعد الحكم ومكانه . فأما للكان فموقع عدل بين أهل المراق وأهل الشام يتفق عليه الحـكـان . وأما للوعد فإلى انسلاخ رمضان إلا أن يرى الحـكـان تمجيـله أو تأجيله . فإن عجلاه فلهما ذلك ، وإن أجلاه فنهاية الأجل انقضاء للموسم ، يجب عليهما الحكم خلاله وإلا كان للمسلمين أن يعودوا إلى أمرهم الأول من الحرب دون شروط لفريق على فريق . . . »

هذه هي الوثيقة التي وضعوها للتحكيم بين الإمام ومعاوية . وهذه هي شروطها نصوصها التي مضى الأشعث بن قيس ، في غبطة الوالد بوليده ، يدور بها على جند على — بعد جند الشام — يقرؤها ، ويتحمس لها ، ويود لو آمن القوم مثله بمزاياها التي ابتدعها تفاقه ، وقرت لها عين هواه . . . إنه ليمجب : فيم همسهم ، وما إنكارهم الآن ؟ . . . ولكنه يعضى شأوه ، وهو يكتم عجيبه ، ويطوى قلبه . فحسبه اليوم أن قد أتجب ولو من سفايح . . .

٣

صفا صفا ، وقوما قوما ، وراية راية من الأشعث بالجيش يعرض وليده :
الصحيفة الصفراء : وثيقة التحكيم . . . ما أراه عرضها عليهم ايعلمن شروطها
وانصوصها ، وإنما ليروج لها ، ويغاييل الظنون والأوهام بما احتوته من الفاظ
السلام ، والدعة ، والأمن على النفس والأهل والمال ، ومثيلاتها مما يغرى كل
من قاسى من ويل الحرب .

وكان موقنا من رواج سلعته ، واثقا أنها ستلقى القبول . فمذ قليل ، من
سويحات لم تنسدل عليها بعد غبرة الغروب ، كانت الحشود الغفيرة إلى جانبه ،
تعيّنه ، وتظاهره ، وتمتف به في إلحاح أن يبادر بالإنتاج ! . . . فما لها الآن ،
والسلعة في يمينه ، تعرض إعراضا يكاد يهدد بضاعته بالبورار ؟ . . .

وعجب . وقلق . وأحس خوفا مخالسا يزحف على صدره . . . هذا اللفظ
الذى استقبلوا به الوثيقة حرى أن يفسد أمره ويقلب عليه ميزان تدبيره . وهذه
الحشود التى أيدته من قليل حرية أن تنفض يديها من شأنه الآن . فعهد بهما
ببغاوات ، تنشرها لفظة وتطويها لفظة كما فعل بها نداؤه المضلل إلى التحكيم . . .

أينا خطأ كانت مهمة ، وأينا قرأ وتلا كان إنكار . . . اللحظة لا يقابلونه
باحتراف . إن أصغوا فإصغاؤهم وجوم وإنصاتهم إليه عن تشكك أو من تسليم .
لا مؤمن الآن بعهد . لا متحمس له يلقاه بالثناء بل الناس من هذه الوثيقة
اثنان : كاره صامت ، وكاره مجاهر . . .

« لا حكم إلا الله » كانت النداء الجديد . . . فى بدئها كانت حديث السرائر .
خلجة قلب ، وهمسة ضمير . ولكنها استوت بعد هذا فكرة تنمو وتكبر فتتخم
الذهن وتفيض عنه على طرف اللسان . . . كل من امتحن بعقله دعوة التحكيم
بعد أن غدت صكا مكتوبا حار فيها لم كانت ، وفي جدواها كيف تكون ؟ . . .
وفي وكر هذه الحيرة للقلقة أخرج الفكر فتنة جديدة . . .

في صفوف « عنزة » سمعها الأشعث . وفي ألوية « مراد » ، وفي معسكر « بني راسب » ، وفي رايات (تميم) . . . كلما مضى بسلمته من ناحية إلى ناحية انطلقت نحوه تدق سمعه ، وتهز قلبه وأطرافه . وكانت آنا عاتبة عاتبة ، وآنا آخر نائرة غاضبة أوشك أن ينبثق لصبحتها الدم . . .
هذان فتيان من عنزة يجابهان الأشعث بها :
« لا حكم إلا الله . . . »

ثم لا يكاد يسترد دهشته حتى يراها انطلقا انطلاق إعصار إلى جند معاوية ، يشخان فيه ، حتى يقتلا على باب رواقه . . .
وهذا عروة بن أدية التميمي ، يزار به :
« لا حكم إلا الله . . . أتحكمون الرجال في دين الله ؟ . . . فأين قتلاتنا يا أشعث ؟ . . . »

ثم يتبع إنكاره ضربة سيف تمزق كالشهاب الثاقب . فلولا بقية من أجل لطالت الأشعث دون دابته ، وجعلت منه أحدى غابر . . .
وكم من صور بعد هذا توالى . وكم من أفراد ومن جموع شاع فيهم هذا الإنكار كالوباء والصحيفة لم يحف على رقعتها الخبر . . . وكان الأشعث يشهد فيعجب ، ويشهد فيقلق ، ويشهد فيوجس الخيفة كل الخيفة على وليده الذي لم يهنأ به غير طرف نهار ، . . . لكنه يصطنع لنفسه الثبات والطمأنينة ، ويأخذ سبيله إلى الإمام ليلفقه رضا الناس . . .
يقول له :

« يا أمير المؤمنين . . . قد عرضت الحكومة على صفوف أهل الشام وأهل العراق ، فقالوا جميعاً : قد رضينا . حتى مررت برايات بني راسب ونبتذ من الناس سوامهم ، فقالوا لا نرضى ، لا حكم إلا الله —)
ثم لا يكاد يضع الأمر أمامه على هذه الهيئة الهينة حتى يردف تهوينه بما ينقضه ، ويكشف عن تمويهه :
« . . . فلنحمل أهل العراق وأهل الشام عليهم فنقتلهم . . . »

نبت من الناس ؟ .. قلة ! .. ففيم إذن دعوة الأشعث إلى الحل عليهم ؟ .
وكأنما يستشف الإمام خطرا خافيا وراء هذا التكوين ، فيسأل الرجل
مستوثقا منه :

« هل هي غير راية أو رايتين ونبت من الناس ؟ .. »
فإذا هو يؤكد له :

« بلى ! .. »

« دعهم ... »

بل الصفوة أيضا من صحب على بدوا كأنما لا تسبخ حلوهم مر الحسرة التي
خلفتها دعوة المهادنة . ركبهم الهم ، وغمرهم الندم ، وجاءوا له يودون لو وسعهم
أن يرجعوه عما أكره عليه ، وقد أنبأهم الحزن أنه لا ينقض العهد ،
ولا يخفر الذمة ...

يأتيه سعيد بن قيس في مقاتلة من همدان كشيعة عليهم السلاح كأنهم قلعة ...
ويهتف به :

« يا أمير المؤمنين . . . هاأذا وقوى ! . . لا ترادك ، ولا نرد عليك .
فرنا بما شئت . . »

فيجيبه الإمام بهدوء وهو يرمى بعينه إلى جند الشام :

« أما لو كان هذا قبل سطر الصحيفة لأزلتهم عن عسكرهم أو تنفرد سالفتي
قبل ذلك ! . . ولكن ، انصرفوا راشدين . فلعنري ما كنت لأعرض قبيلة
واحدة للناس . . . »

ويأتيه أيضا سليمان بن صرد ، وهو يمسح عن وجهه دم جرح غائر كان
لا يزال يشخب منذ أصابه سيف عدوه ذات ساعة من الصباح . . . يقبل سليمان
محسورا يقول :

« أما لو وجدت أعوانا ما كتبت هذه الصحيفة أبدا ! . . »
وينبرى عند ذلك عوز بن جريش ، يضرع في تلهف وإشفاق :

« يا أمير المؤمنين . . . أما إلى الرجوع عن هذا الكتاب سبيل ؟ . . .
فوالله إني لأخاف أن يورث ذلًا . . . »
فيكون الجواب الحزين الذي يسمعه :
« أبعد أن كتبناه ننقضه ؟ . . . »

ومع ذلك لم يكونوا نبذا — أولئك الذين استشعروا بعد سطر الصحيفة
الندم ، وأسفوا على ما فرط من الاستجابة لدعوة المواجهة . . . ولم يكونوا
أيضا أنبا ذا شق مفرقة ، هنا وهناك بين الأجناد كتفرق السحب البيض على
وجه الأفق في ليل صائف . بل قد كانوا جموعا غفيرة ، وحشودا حمة
ذات قوة وخطر ، سواء أقبست القوى بالثبات والعناد أم بالسلاح والأعداد .
وليس يدفعنا عن هذا الإيمان بكثرتهم أن قد شاء الأشعث بن قيس أن يراهم
قلة ، وأن قد خدع الإمام بتقديره ذاك ، وأن قد خاب ابن صرد أو غيره في
تمس أعوان يناصرونه بالحرب — قبل سطر الصحيفة — على أهل الشام
ويتابعون معه القتال . . .

كانوا كثرة قبل كتابة العهد ، حين راح الأشعث يلفظ ورجاله بوقف
الحرب والاحتكام إلى القرآن — كما كانوا كثرة بعد كتابته وإبرامه بالشهود
والمواثيق . . . لكنها كثرة توهم بالقلة ، إن جمعهم كلهم كراهة التحكيم
فأقلهم جاهر بهذه الكراهة وأغلبهم كتمها في ذات نفسه حتى بدا التفوق العددي
في جانب أنصار السلم . . . وكانت العلة وراء موقفهم هي الملل من الحرب —
الملل الذي طمس البصائر وشل الأذهان .

ولقد عرف الأشعث حينذاك بدهائه كيف ينقب لدعوته المشبوبة أكثر من
ثغرة في صفوفهم تنفذ منها إلى ما اشتهاه . . . عرف كيف يستغل فيهم الوهن
النفسى والإعياء البدني اللذين جرهما عليهما طول القتال . وعرف أيضا كيف
يخاطب في نفوسهم المهطعة إلى الموت حب البقاء . وعرف ثلاثة كيف يلعب بعصبيته
القبلية فيتهافت عليه قومه ، من يمن الشام ويمن العراق . ثم عرف إلى جوار هذه
العوامل كلها كيف يحشد أنصاره ، ويضخم نداءه فلا يرى الناس سواهم
ولا يسمعون سواه . . .

هذه كانت حقيقة الحال ... ما عن إيمان هتف من هتف من جند على لدعوة
التحكيم ، أو سكت عليها سكوتا لاح كالقبول ، ولا عن روية وتدبر في دوافعها
وجدواها ... إنما كان الهتاف — كما كان السكوت — انفعالا انبثق في النفوس
من كراهة الحرب فتداعت له الأبدان المنهكة ، وصاحت به السن البغاوات ...
كانوا مسلوبى الإرادة ، لا نظر ولا فكر ، كمن يسير وهو نائم إلى هاوية ...
ثم هزتهم الوثيقة فصحا النوم . انتبه الغافل والذاهل ، سرت فيهم الآن
حميا اليقظة لجاشت القلوب والصدور ... فيم كان هذا الصك المكتوب ؟ .
كيف ؟ . . . بمن ؟ . . . ما جدوا عليهم ؟ . . . ما غاية القوم من ورائه ؟ . . .
ما قصارى الحكيم فيه ؟ . . . ثم ، قبل هذا كله ما هي القضية ؟ — ما هي ،
إن لزم قضاء ووجب تحكيم ؟ . . .

عشرات من الأسئلة راودتهم والأشعث يقرأ عليهم العهد والشروط .
وعشرات غيرها خطرت لهم وقد خلفهم وهم منظون على عقولهم كلقواقع ،
يديرون فيها قصة هذا الوليد الأشوه الظني . . . عشرات وعشرات . عجب
وتساؤل والعقول حيرى ، تلف وتدور كالدوامه ، والأكف مضطربة تنقبض
على السيوف ، والنفوس ولهى تتلهف على معاودة الحرب . . . فما من جواب
معقول . وما من رد حاسم مقنع ، يسكن القلق ، ويكف التلهف ، ويرخى
الأكف ، ويشبع الفضول . . .

حق قادة الراى من صحابة الإمام قد أعياهم أن يزدوا هذه الحيرة الفائرة عن
الناس . وأنى لهم وما ردوها عن أنفسهم ؟ . . . وكيف وهم كغيرهم في غمرة ؟ . . .
هذا سهل بن حنيف ، رفيق صبا على منذ مولد الإسلام ، يعضل به أن يعالجهم
إلا بقوله :

« أيها الناس . . . اتهموا رأيكم . . . فوالله لقد كنا مع رسول الله يوم
الحديبية ، ولو نرى قتالا لقاتلنا . . . »

وهذا الأشتر النخعي — ولى على في الحلو والر ، وحين الرخاء وحين الشدة ..

الرجل الذي ثار كالعاصفة لحظة انبثاق نداء الهدنة — قد هدا الآن . . . ركد كالبركة الآسنة . . . مسه من اليأس ما جمد عاطفته ، وفكره ، ولح عينيه فلاح كتمثال . . . حق عندما عنف بالأشعث وهو يقدم له الصحيفة ، وزار في وجهه فأخزاه ، وحرك سيفه فشل كبريائه ، كان عنفه عفو لحظة عاد بعدها إلى ركوده ، وقال في تهافت واستسلام :

« قد رضيت بما صنع أمير المؤمنين ، ودخلت فيما دخل فيه ، وخرجت مما خرج منه . . . فإنه لا يدخل إلا في هدى وصواب . . . »
وهذا أيضا على — على نفسه لا يجد لهم عنده غير الملامة على ما فرط . ملامة لا تشفى حيرة ، ولا تكف قلقا ، ولا ترد مصيرا قائما أصبحوا يماينونه من ثنايا الغد المجهول :

« إنما فعلت ما فعلت لما بدا فيكم الخور والفشل . . »

واقعد قال وأسرف في المقال . . كم قال فأطال ، وقال فأقصر . . . كم حذر وكم بصر فما سمعوا منه . ولا وعوا عنه . . . وها هو الآن ، كمن قبل ومن بعد ، يضرب لهم الأمثال :

« ولقد كنا مع رسول الله ، نقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وأعمامنا ، ما يزيدنا ذلك إلا إيمانا وتسليما ، وهضيا على أمض الأثم ، وجدا على جهاد العدو . . . ولقد كان الرجل منا والآخر من عدونا . . يتخالسان أنفسهما أيهما يبقى صاحبه كأس المنون ، فمرة لنا من عدونا ، ومرة لعدونا منا . فلما رأنا الله صبرا صدقا ، أنزل بعدونا الكبت ، وأنزل علينا النصر . ولعمري لو كنا نأق مثل الذي أتيتم ما قام الدين ، ولا عز الإسلام »

ومع ذلك فمنطقة اللأثم يرهف فيهم الشعور بالآثم ، ويؤثر الحسرة ثم لا يكف الحيرة . . . وكيف له . . كيف للإمام الآن أن يشفى داءهم ، هم الذين لم يكفهم أن رموه بالداء بل أراقوا الدواء . . .

ولكنه يصبر : وهل يحصى عن الصبر على النعمة ؟ . . وهل سبيل

إلى الرجوع ؟ . .

ويتلو عليهم :

« وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً . . . »

لقد جعلوا ! — غير أنهم حينذاك كانوا مسلوبى الإرادة من وهن الدهن والبدن ، لا نظر ولا فكر ، كمن يسير وهو نائم . . .

٤

ما هي القضية . . .

هذا هو السؤال ١ — السؤال الذى لعله دار بكل خاطر ، وحرار على كل شفة منذ كان ذلك العهد الذى كتبوه ، وما زال يدور ويختار إلى الآن . . . فالذين تهااتفوا بالرغبة فى الاحتكام إلى كتاب الله ، من الفريقين ، لم يفصحوا عن مداره . . .

والذين ترجعوا هذه الرغبة إلى ألفاظ مكتوبة . فيها شروط وعليها شهود ، لم يبينوه . . .

وتلك الصحف ، التى طالعنا مع الماضى الغابر بصور شتى من وثيقة التحكيم ، لا تدلنا عليه . . .

وفى عمية هذا الغموض كله ، قد يعسر تلخيص الجواب الحاسم ، فيبقى السؤال ليفرخ لنا مائة سؤال وسؤال . . .

عشرات وعشرات من الأسئلة تحيط بموضوع القضية كالمالة ، وتدور فى فلكه بلا استقرار ثم لا تبرح تلف وتدور . . .

فما الذى دعا لهذا الإيهام ؟ . . .

هل كان القوم إذ ذاك فى غير حاجة تلجئ إلى الإفصاح والبيان ؟ . . .

هل كانت القضية ، فى رأيهم ، بديهية من البدييات التى تقابل دائماً بتسليم ينتفى معه نشوء السؤال ولزوم الجواب ، فلا غناء إذن فى النص على موضوعها كما لا تقصير إن أغفلوه ؟ . . .

كأنهم بهم وهذه نظرتهم ! — أم لا فكيف تبرم على شاكلتها وثيقة خطيرة
إلا أن يكون المتحاكون جميعاً ، هنا وهناك ، يعلمون فيم التقاضى علما يرقى بهم
إلى درجة الثبوت اليقيني ، ويرقى بالقضية إلى ذروة البديهيات ؟ . . .

أجل ، ما هي القضية ؟ . . .

ما هي حين نشأت ، وهي إذ ذاك — في حسابنا — ماطمة لا تشوبها
ظلال ، واضحة لا تحتمل التأويل ؟ . . .

ما هي في حساب هذا الفريق وإنه ، بغير شك ، حساب ذاك ؟ . . .

ثم . . . ما هي بعد أيها وتأويلها ؟ — ما هي من ثنايا خدعة الخادع ومن
وراء وهم الموهوم ؟

وما هي — فوق هذا كله — أمس ، وما هي اليوم ، وما هي أبداً في كل
جيل تنفي فيه الحقائق عن الوثائق ، وتهتك الوقائع عماية الأباطيل ؟ . . .
يضرع أهل الشام ، عندما نهكتهم الحرب ، وأكلت عظمهم ودمهم ، وهم
يرفعون للصاحف :

« يا أهل العراق . . . كتاب الله بيننا وبينكم . . . »

ويستجيب للضراعة من استجاب ، في البدء ، من رجال العراق ، فيكون
المتناف الذي يلحون به على الإمام :

« أجب القوم إلى ما دعوك إليه . . . »

كانوا يعلمون أنهم أسرفوا على أنفسهم ، كما أسرفوا على عدوهم ، بهذا
القتال ، فإن تكن نجاة بما وقعوا فيه ، فبكتاب الله . . . كانوا يحسون هذا من
قبل أن ترتفع لهم مصاحف الشام ، سواء منهم المنافق ، وعبد عمره ، وسواء
للمؤمن والمخدوع . . .

ويزيد الإلحاح . . .

وتبتدر الأقوال في صور شتى من للشورة والمناجحة . ومن الإكراه والإملاء . . .
فشقيق بن ثور يقول :

« إنا دعونا أهل الشام إلى كتاب الله فردوه علينا فقاتلناهم عليه . وإنهم

دعونا إلى كتاب الله فإن رددناه عليهم حل لهم منا ما حل لنا منهم . . . »

ومعبد بن قيس يقول :

« ... لم يكن ليرجع أهل العراق إلى عراقهم ، ولا أهل الشام إلى شامهم بأمر أجل من أن يحكم بما أنزل الله ... »
والأشعث يقول :

« ... أجب القوم إلى كتاب الله ، فإنك أحق به منهم ... »
وكثرة غيرهم ، قبلهم وبعدهم ، على اختلاف في اللفظ ، واتفاق في الدعوة ...
ومن خلال لفظهم وتناديهم لم يمل واحد منهم إلى موضوع الاحتكام فيفصح عنه بكلمة واحدة تجلوه ، وتهتك غموضه إن كان فيه ما يستحق منهم الجلاء والتبيين .
بل الشام أيضا جرت على هذه الجادة التي ينحرفها المرء لأول وهلة فضاء فارغا بلا معالم كتيه الصحراء وما هي كذاك ... إن سيدها يملن عن القضية فلا يجيء في إعلانه بجديد ... وإن مشيره يتناولها فإذا حديثه عنها نفس ذلك الحديث الذي تلوح به غموضا من الغموض ...
يكتب معاوية إلى علي :

« ... فهل لك في أمر لنا ولك فيه حياة وعذر وبراءة ، وصالح للأمة ، وحقن للدماء ، وألفة للدين ، وذهاب للضغائن والفتن ؟ — أن يحكم بيننا حكمان رضيان ، أحدهما من أصحابي ، والآخر من أصحابك . فيحكمان بما في كتاب الله بيننا ... »

ويكتب كذلك إليه عمرو :

« ... إن ما فيه صلاحنا والفتنا : الإجابة إلى الحق . وقد جعلنا القرآن حكما بيننا ، فأجبنا ... »

وحق الإمام ، رب البيان والتبيين ، لا يفصح أيضا عن القضية ذلك الإفصاح الذي يحسبه بعض الباحثين لازما كل اللزوم لإبراز موضوعها مكشوفاً مجلواً يقطع الخدس والتساؤل ... فهو يكتفي حين يلج عليه رجاله ليقبل التقاضي بأن يقول :

« ... أنا أول من دعا إلى كتاب الله ، وأول من أجاب إليه . وليس يحل لي ،

ولا يسمنى في ديني أن أدعى إلى كتاب الله فلا أقبله . . . إني إنما أقاتلهم ليدينوا بحكم القرآن . . . »

وهو يكتبني حين يجب معاوية بأن يكتب إليه :

« ... إنك قد دعوتني إلى حكم القرآن - ولقد علمت أنك لست من أهل القرآن ، ولست حكمه تريد - وقد أجبتنا القرآن إلى حكمه ا ... »

كلهم إذن أبهموا - كلهم ، من هذا الفريق ومن ذاك ، كما قد يبدو للنظرة العابرة التي لا تتعمق الأمور فلا تنفذ إلى الأصول والجذور ... وبمثل إبهامهم «الجماعي» جرى ذلك العهد الذي كتبوه ، وشرطوا فيه ، وأشهدوا عليه الشهود ليكون موثقاً وحجة ...

تقول وثيقة التحكيم :

« ... إنا راضينا أن نزل عند حكم القرآن فيما حكم ، وأن نقف عند أمره فيما أمر ، وأنه لا يجمع بيننا إلا ذلك ، وإنا جعلنا كتاب الله فيما بيننا حكماً فيما اختلفنا فيه ، من فاتحته إلى خاتمته ... »

كتاب الله هو الحكم ...

والقضية هي الخلاف ...

أما ، « ما هو الخلاف ؟ » فلا تفصيل ...

لا إفصاح ا ...

بل إجماع على الإبهام أيما إجماع ا ...

أجل ، فكلهم أبهموا ا - كلهم : الوثيقة ، وأولئك ، وهؤلاء ...

لقد يعسر ، في عماية هذا الإبهام كله ، تلمس الجواب الحاسم الذي يبين لنا جليلة القضية ، فيبقى السؤال عنها معلقاً بلا جواب ، أو يفرخ عشرات من الأسئلة وعشرات ، أو تتنوع الأجوبة عليه بتنوع الظنون والأخلاق ...

قد يحدث هذا مع النظرة العابرة التي ترى الحاتمة وتغفل المقدمة ، ومع الرأي العجول الذي يلتقف ما يحمل الزبد ولا يتقصى ما تضم الأصول ، ومع الهوى حيث سرح وانساب ا ...

إنه حقاً إبهام - إن جاز لنا أن نسمى الأمور بظواهرها دون ألبابها ...

وهو حقا إيهام — إن جاز أن نتساق وراء رأى يرى الغناء كل الغناء
في استخلاص المعانى من منطق الأشخاص دون منطق الحوادث ...
وهو حقا إيهام — إن جاز أن نقمض العين عن هذا « الإجماع على
الإيهام » ولا نحاول أن نتبين دلالة هذا الإجماع ...
أجل ، لا إفصاح ..
ولكننا نقول : لا إفصاح لأنه لا إفصاح عن معلوم ! ...

٥

« لا إفصاح عن معلوم ! ... »

هذه هي الحقيقة الثابتة التى ينبغى عنها ذلك الإجماع على الإيهام ، وتنبثق لنا
من منابع الحوادث ، وتتكشف أمام الاستقراء السليم ...
هذه هي ! ... بها تنتهك عماية الغموض ، وبدونها يترشح كل رأى ، وعلى
غير هديها يبطل أى تمليل قد يجرى به مرة منطق هذا الفريق ، ومرة ثانية
حديث ذاك في معرض المجادلة والتدليل ...
إنها مفتاح سر التحكيم ! ...
فالقضية جلية ، بديهية من البديهيات التى تقابل دائما بالتسليم دون حاجة
إلى سؤال وموجب إلى جواب ، لأنها من الواضوح بحيث تغنى عن النص عنها
ولو بالإشارة المختصرة مع المبالغة في الإسهاب ...
جلية في ذهن على ، وفي خاطر معاوية ، وفي أخلاق أولئك وهؤلاء من
الأنصار والأعداء على السواء ، وإن شابتها على الأيام أدران شق من التعليل
أو التأويل ، ومن التأويل والأباطيل ...
جلية بغير خلاف ، لأنه خلاف قط على « موضوع الخلاف » ! ...

من اليوم الأول الذى آلت الإمرة فيه لعل ، نشب ذلك الخلاف بين الرجلين

ولأنه لمفترض قبل أن تبدو بواكيره ، ذائع شائع بعد أن فرع واستطال ، يعرفه الناس هنا وهناك ويعرفون دواعيه . . .

ما من مسلم عاصر هذه الحقبة من التاريخ ، عربيا كان أو غير عربي ، وما من فرد ألم بأمر الأبناء وسير الآباء ، وما من باحث رد للظهور إلى العلّة والتأجج إلى الأسباب إلا قد تبين عن يقين : لم ، وعلام ، وكيف دب الخلاف بين الرجلين اللذين نماهما أصل واحد ، وشاءت القادير أن يتجاوزا سيادة الدولة الناشئة ومسير الإسلام .

أما ما هو الخلاف ، وما هي دواعيه فليس أبلغ في تعريفها جيمًا من إجمالها في عبارة : « التنافس على السيادة » . . . ذلك للتنافس الذي ولد مع الآباء ثم انهدر — جيلا جيلا — في أصلاب الأبناء . . . وحين نكر إلى الماضي نجد عنة نفسية امتحن بها بنو عبد مناف فشطرتهم شطرين ، وأوقعت بأسهم بينهم ، مرة منافرة يسوقها التفاخر ، وأخرى خصومة — انحداد ، وثالثة حقدًا عن ترة ، ثم لا تزال الهمة تفتنخ وتفتنخ حتى تنفجر حربا مدمرة تكاد تأكل الخصوم والأولياء . . .

وندع جانبًا ما وقع بين الآباء من فرعي هاشم وأمّية من الخصومة فأمره غير منكور ، ونعرض في إيجاز لخصومة الجديدة بين السليين : طي ، وابن أبي سفيان . . .

لم كانت ؟ . . . وعلام ؟ . . . وكيف والإسلام قد جب تراث الجاهلية وأمر أن تذاب في سماحة تعاليمه ؟ . . .

وراء هذه الأسئلة كلها : « النفس البشرية » بما جبلت عليه من نوازع منحرفة قد يشذب الدين من أطرافها ، أو يلطف حديثها ، أو يداريها جملة إلى حين ، ولكنها — إلى هذا — تظل منطقية على ضعفها ، أو على بقاياها ، وهي تستمهل الزمن حتى تسنح لها فرصة موأية ؛ وعندئذ ترفع رأسها ، وتنفض غفوتها ، وتسعى سعيها الوخيم الوبيء . . .

وكانت فرصة معاوية مصرع عثمان .

كانت هي الثغرة التي يستطيع أن ينفذ من خلالها إلى دنيا النفوذ والسيادة ، ومن أمامه حلم آباءه يخايله ، ومن ورائه رواسبه النفسية تدفعه وتحث خطاه . ولقد ساعده على اعتبارها أنه كان تواقا للمجد لم يقعد يوما عن طلبه ، ولم يقنع بما بلغ في الدولة الناشئة من شأن فنوع غيره من الولاة والعمال بل كان يعمل ما وسعه وما أمكنته الظروف على توفير عوامل القوة لنفسه حتى قبل أن يصرع عثمان وقبل أن تمتلئ القلوب والأذهان بالسخط على سياسته . . . وساعده أيضا على توفير هذه القوة للرجوة أنه تفرد بحكم الشام عشرين عاما طويلة لا يكاد يرجع عليه في أمرها بشيء ، وأن أخاه يزيد عمل عليها عامين قبله فكانت بهما تحت حكم أموي خالص منذ دخلها الإسلام .

أجل كانت الشام في حساب الواقع دويلة مستقلة منقطعة من الدولة الجديدة ، وفي حساب معاوية ، وكثرة غيره ، والظروف السياسية التي لازمتها ، أرضا أموية ، مع تفاوت صغير أو كبير في درجات التقدير . فهو الذي كان يقيم من قبله على أقسامها العمال ، وهو الذي كان يكتز من مالها ما جمع لديه ثروة ضخمة يمسك منها أو ينفق إذا شاء ، وفي الأوجه التي يختار ، مخالفا بهذا السياسة العامة التي كانت إلى ذلك الحين تجري على سنة تقسيم المال في الناس . هو الذي شهدناه يتخذ الجند والأحراس على نحو يقارب ما نعرفه الآن في الجيوش النظامية الحديثة بينما بقية الأمصار ، وعاصمة الدولة نفسها ، لم تكن تعرف هذا النظام .

جاءت إذن الأيام لمعاوية بفرسته ، وأعد الرجل لهذه الفرصة للنتظرة فأحسن الإعداد ، فما له لا يقدم ولا يقتحم وكل الدلالات تكاد تهديه إلى نجاح مضمون . . . في الحق أعد ، وعمل ، وثابر . . . لم يكن الحامل القاعد الذي يحلم . ولم يكن النواز الذي يغامر بغير أسناد ولا إعداد . فلقد رنا كما برنو كل متطلع لهدف ، وعمل كما يعمل بناء الدول وليس يبخره قدرته في هذا السبيل التواء الوسائل أو اعتساف الأعاليل . ومع ذلك فقد كان « حاذقا » وهو يروض أساليبه على الالتواء نحو غايته ، « كيساً » وهو يسوق التعلات والأسباب التي كانت ذرائعه

حق بدا — في أعين الكثيرين — كالحق المنصف ، وبدا خصمه كالبطل للتحيف .
ومن ثانيا هذا الخدق وهذه الكياسة نستطيع أن نستشف الصورة الحقيقية
للخلاف بينه وبين علي وهو موضوع القضية الذي لم تنص عليه وثيقة التحكيم .
على نحو ما كتب الإمام — عند استخلافه — إلى عمال الأقاليم ، كتب
أيضا إلى معاوية يطلب بيعته :

« . . . قد علمت إعداري فيكم ، وإعراضي عنكم حتى كان ما لا بد منه ،
ولا دفع له . والحديث طويل ، والكلام كثير ، وقد أدبر ما أدبر . وأقبل
ما أقبل . فبايع من قبلك ، وأقبل إلى في وفد من أصحابك . . . »

البيعة — الطاعة للرئيس الشرعي للدولة هي كل ما كان يطلبه علي ، بكتبه
ورسله ، من معاوية . ورد البيعة ، أو العصيان في كتابان أو إعلان ، هو جواب
معاوية ، في صمته ، وبكتبه ، وعلى ألسن وفوده ، إلى علي . ولم يعدم أبدا في أية
مرة ذريعة تسند عصيانه أو تلفه في علة مقبولة . . . تظهره أمام أنصاره غير
جانح إلى العصيان ، وتدفعه خطوة إلى الأمام نحو غايته وهو آمن كل الأمان أن
تزل به قدمه أو يفشل تدبيره . . .

كذلك أعد معاوية في تودة ، وخطا على مهل . لم تغره قط مقومات القوة
التي توفرت لديه كما لم تتوفر مثيلاتها لعامل آخر . لم تغش عينيه الرواسب النفسية
التي راكمها الزمن والوراثة بعقله الباطن فيندفع في تيارها يتخبط على غير هدى
تخبط الخفاش في وهج النور . لم يقفز — مسرفا في التفاؤل والاعتداد — إلى
غايته . . إنما راح يتحسس طريقه فترا فترا ، وشبرا شبرا ، وهو يزيل ما يعترضه
من العقبات — صابرا مثابرا — حجرا حجرا ، بل حصاة حصاة ! . . . وعندما
تتعقب « العلة الكبرى » التي أصبحت مجازة إلى الإمرة للرجوة ، اسوف يدهشنا
كل الدهشة ألا نجد لها بين تملاته منذ البيعة لعل وحق بدء صفين ! . . .

كانت علته الكبرى ذلك الادعاء الصارخ الذي رمى به الإمام ليبيده للناس
والتاريخ قاتلا لثمان تلطخت يدها بدمائه . كانت هذه التهمة الشنعاء المختلفة هي
العلة التي توارى خلفها حينما ليتحلى بها من الطاعة المفروضة عليه نحو الرئيس

الشرعى للدولة . ومن التزام جماعة المسلمين إبقاء على وحدتهم . فمضى ابتدعها؟ ..
وأن من ذرائعه الشق التى اتخذها مرة بعد مرة لتنفى عنه معرة السعى على
أشلاء وحدة الأمة كلما بتحقيق أحلامه وبلوغ مأربه الخاص ؟ ..

الواقع أن معاوية لم يحاول قط فى مستهل خلافة الإمام الخروج على الأئمة
بإتهامه البطل الجرىء ، لا عن تخرج وتلوم ، بل لأنه لم تكن ثمة تهمة فلم يكن
إذن موجب للتهام . فهو عليم بسير الحوادث وتطور الفتنة التى أدت لمصرع عثمان
علما بضع عليا على رأس الدين دافعوا عن الشيخ إبان محنته وكفوا عنه أذى
التوار . ولـكنه حين رأى عائشة والزبير وطلحة ينهضون بحجة الطلب بدم
الخليفة القاتل شام فى دعوتهم عاملا جديدا من عوامل القوة التى يستطيع بها
تحقيق سيادته . فالخلاف بينهم وبين على حقيق بأن يلقى بينهم الدماء والترات ،
ويضعف حزمهم جميعاً . ويوهى تلك السيادة التقليدية التى للحجاز على أقطار
الإسلام . ثم هو بعد هذا كله كفيل بأن ينال بالشبهات من سمعة الإمام : خصمه
الذى لا منافس سواه يؤبه لخطره أو بحسب له حساب .

لهذا سكن الرجل إلى شامه ، فى بدء تمرد عائشة وصاحبها ، يشهد ويتربص
دون أن يؤيد جانبهم تاييدا فعليا بقوة الجند والسلاح . لم ينغمس فى الصراع
الجديد انغماسا جديدا كما كان ينتظر منه أن يفعل ، بل أثر انتهاج خطة مائعة
أوشكت أن تكون سلمية ، وأوشك بها أن يكرر نفس خطته عند اضطراب
الأمر واشتدادها على عثمان . فما زاد عن التجمع على القاتل ، والتحدث عن
فداحة الخطب فيه ، والقول للمرسل بأنه مظلوم . وإذا كان قد كتب إلى الزبير
باليعة وإلى طلحة بولاية العهد بعده ، فلقد فعل وهو يعلم أنما بيعته للرجلين
ليست سوى الوقود الذى يشغل حماسهما ، ويدفعهما إلى الخروج بالدعوة من
نطاق الكلام إلى نطاق التنفيذ فتقع الحرب ، ويضعف الفريقان وهو وحده ،
من بعد ، القوى المكين الذى يسمه — فى سر — السيطرة على مصائر الأمور .
معاوية إذن لم يتهم عليا — فى الأشهر الأولى من خلافته — اتهاما صريحا
بقتل عثمان . ولا هو أيضاً اتهم أحداً بعينه من الناس . إنما كل ما جرى به قلبه
أو لسانه فى تلك الفترة كان قولا مرسلا بغير تهديد ، مبهما بغير تصريح . . .

هو حقا — كما شهدناه — بعث إلى طي ، بعيد استخلافه بشهرين أو ثلاثة ، برسالة مع رسول ، فارغة إلا من « بسم الله الرحمن الرحيم » ولا عبارة سواها تضيء خافية صدره وتكشف حقيقة نواياه . وهو ربما أباح رسوله الإفاضة في الحديث عن سخط أهل الشام ، وقوتهم ، وتحفزهم الظاهر للأخذ بثأر عثمان ممن خلفه على إمرة المؤمنين ... ومع ذلك فلسنا نملك ، عندما نستشف الظروف الملائمة إذ ذاك ، إلا أن نرى ابن أبي سفيان قد أراد أن يساوم ويشغب في آن . . .

أما الرسالة الفارغة فالإمام منه — فيما نحسب — إلى انتباهه مؤقتا خطة سلبية مع الخليفة الجديد ، لا إلى موالاته ولا إلى معاداته ، حتى يندوق أمره ، ويستيقن سياسته ، ويستوثق لنفسه منه . ولعل اتخاذه جانب الحياد ، أو ما يشبه الحياد ، من بعد في حرب الجمل ، فيه ما يوصي إلى هذا الإلماح . . . والرسالة الفارغة أيضا إن حملت معنى التسلو عن البيعة بالإمارة لعل في لست بالدلالة الواضحة على إنكار حقه إنكارا قاطعا حاسما في البيعة . وهي بهذا قد يمكن اعتبارها « هدنة » تفسح الوقت للتفاهم ، أو « دعوة صامتة » من معاوية إلى علي بمعاودة النظر فيما قر عليه عزمه من خلع صاحبها عن عمله بالشام .

وأما حديث رسوله فله ؛ كما يبدو ، هدفان : أبعدهما أن يعلن للأمة أن دم عثمان لن يطل وإن عز خصومه ، وإن داهنتهم المدينة ، وإن خافتهم كثرة رأت سلامتها في الاعتزال . ومن وراء هذا الإعلان لاريب توجس الخصوم واستعدادهم . وتحجز للمعتزلة ومن يتابعهم للنهوض في الطلب بالدم ؛ ووقوع الفتنة بين الفريقين بما يفسد الأمر على الإمام . . . وأقربهما تهديد على نفسه بغضبة كامنة ، وراءها أكدها من السلاح والرجال ، لا يستطيع أن يكف غلواءها عنه سوى صاحب الشام . ولعل إذن الخيار بعد هذا ، لو شاء خلع العامل القادر ، ولو شاء أبقاء . . .

هذه هي قصة الرسالة الفارغة التي أقبل بها رسول معاوية من دمشق بعيد البيعة للإمام في المدينة بنحو ثلاثة شهور . وهذه دلالاتها وعبارتها لا تحمل اتهامات صريحة لعل يقتل عثمان وإن حملت « إرهابا » و « فتنة » و « هدنة » و « دعوة صامتة » إلى العدول عن عزل معاوية إلى إبقائه على عمله ، وعن معاداته

إلى تألفه . وقد عا تألف رسول الله معاوية بالعطاء بعد غزوة الطائف ، فما لابن أبي طالب لا يتألفه اليوم بالعمل ؟ . .

على هذا النحو « للائع » جرت سياسة ابن أبي سفيان صدر خلافة الإمام ، لا تقطع ، ولا تبت ، بل تلف وتدور ولا تكف عن التلف والدوران . كانت مشبهة ، مهزوزة للامح ، مختلطة القسبات . وعلى ما أكثر معاوية الخوض في قتلة عثمان فإنه لم يوجه تهمة القتل للإمام . وظل هكذا حتى بعد أن فرغ على من الجمل ونهياً للزحف إلى الشام . ولعل في حديثه مع جرير بن عبد الله رسول على ، حين جاءه يطلب بيعته ، ما يؤيد الذي نراه . . .

يقول جرير :

« اكتب إلى صاحبك يجعل لي الشام ومصر جباية — فإذا حضرته الوفاة لم يجعل لأحد بعده بيعته في عنقي — وأسلم له هذا الأمر ، واكتب إليه بالخلافة ... »

وكتب جرير :

ولقد صدق الإمام عندما رد على رسوله يقول : « أراد أن يرثك حتى يذوق أهل الشام » . . . فالذي حدث فعلاً هو أن معاوية بدأ بعد هذا يتهم عليها علانية بالقتل ، لا يتلوم ولا يتحرج . وقد مالأه عمرو بن العاص وحرصه ومضيا يدسان مما على رؤساء أهل الشام من يلصق التهمة بالإمام ويقيم عليها الشهادة الباطلة . حتى إذا عرف أن الدس قدجاز ، راح يتهم باجترأ . وبعد أن كان يقول : « إني ولي عثمان وقد قتل مظلوما » — وسعه أن يفتري فيقول : « إن جرير بن عبد الله يدعونا إلى بيعته على ، وعلى خير الناس لولا أنه قتل عثمان . . . » . . .

وهكذا ولدت التهمة . . .

وهكذا ابتدعت العلة التي تحسب طائفة أنها مبعث الخلاف بين معاوية والإمام ، ابتدعت بعد الخلاف نفسه بشهور . . . فهل من نتيجة تسبق المقدمة ؟ وهل من معلول يسبق العلة ، إلا في منطق ابن أبي سفيان ؟ . .

مهد معاوية للتهمة كأبرع ما يمكن أن يعهد لتهمة زائفة مختلفة تبدو صحيحة مشروعة . وماله لا يفعل ؟ .. إن مقتل عثمان ، لا ريب ، هو « المجال الحيوى » الذى تستطيع أن تتنفس فيه أطماعه . وهو وسيلته لما يريد . وهو أيضا الألوان الزاهية البراقة التى يسهها رسمه فى صورة أحد أبطال اللروعات فى التاريخ . . . ولقد نجح معاوية حيث كان خيرا أن يفشل ، فإذا نجح به فى اعتبار الأخلاق . وفشل على حيث كان خيرا أن ينجح ، فإذا فشل يعلو به فى اعتبار الفضائل . ولئن قيل إنه لم يصابر ظروفه حتى تسعفه ، ولم يدأورها مداورة السياسى الرن بل تعجل خلع خصمه فأثار خلافه ، وحرك عداوته فى وقت كان أحوج فيه إلى تألفه واستصلاحه — إن قيل هذا احتجاجا على على فالقول به إذن غلو فى اعتساف العلة ، والقائل به إذن مبالغ فى العدل . ولئن عدل واعتل أن يرينا كيف كان على الإمام أن يعالج الأمور إبان ثورة عاتية أول أهدافها اجتثاث عثمان وولاته وقلب كل ما ابتدعوه من أوضاع ؟ . . .

نجح معاوية وفشل على ومن وراء النجاح والفشل عوامل شتى: نفسية وخلقية ومادية ، أصيلة وطارئة ، سبق بيئاتها ولسنا بحاجة إلى تكرارها واللاج فيها إن بإيجاز وإن بتفصيل . . . وكان النجاح نكسة كما كان الفشل نكسة إذا ما حسبت النتائج بأسبابها الأولية الأصيلة ولم تحسب بالعوامل الطارئة والدخيلة . . . ولكنه على أى حال نجاح قفز ببن أبى سفيان إلى إمرة الدولة بعد أن كان قد أعياء أن يظل واليا على الشام . وما يعنيننا الآن أنه خالف ونجح بقدر ما يعنيننا كيف خالف ، كيف تذرع لهذا الخلاف ، كيف « طوع » طمعه فى السيادة حتى غدا تهمة — أو بالعارة الرقيقة ، « حجة » مقبولة — أقنع بها أصحابه ، وما تزال إلى اليوم تجد من الناس ، بين قارئى سيرته والباحثين فى تاريخه ، من ينصره بها ، أو يراها الأساس الحقيقى للخصومة بينه وبين على ، أو يعتبرها — بأرفق رأى — لعبة سياسية بارعة يحسبها له ولا يحسبها عليه . . .

والظاهر الذى لا نزاع خافيا عن العين الفاحصة هو أن الرجل قد عاش صدرا من خلافة الإمام دون أن يلهم التهمة التى اتخذها من بعد مطية لآرابه ، أو على الأقل دون أو يجاهر بها إن كان قد ألهمها فى ذلك الصدء الذى ذكرناه . ولعل خياله المبدع وبديته الخلاقة لم يسعفا إذ ذاك . ولعله تخرج وتلوم . ولعله خشى أن ينقلب عليه كيدى إن هو انساق مع هواه وخامرت الناس ظنة فى حقيقة نواياه .

على أننا ندع ماقد عساه دار بضميره لتتابع ما كان يجريه فعلا — تلك الفترة — بسن قلعه وعلى طرف لسانه . . . فماذا نجد ؟ . . . علام تقع فى بيانه المنطوق وبيانه المكتوب ؟ . . . ما هى الأسناد التى تغنينا الغناء كله عن التعلل والافتراض ؟ . . . هنا نجمل فنقول : إن معاوية قد أقر على نفسه ، قرابة ثلاثة أشهر ، بأن عليا « لم يقتل » عثمان .

وهذه هى أولى الحقائق التى تنطق بها شواهد الحال ويفصح عنها بيان المقال . وهى كذلك الحجة الداحضة لحجة معاوية للمعتسفة حين أعوزه من بعد تبرير مخالفته عن على بغير التعلل بأنه « قتل » عثمان .

فالبدية أن التهمة — أى تهمة — وجرمها يتلازمان . والبدية بعد هذا أن الجرم ، لو كان قد وقع من على . لتفرت التهمة إلى على فى الحال ، وانضحت بها وأفصححت عنها أحاديث معاوية وخطبه وكتبه التى تعاصر الصدر الأول من خلافة الإمام .

لكن « تهمة القتل » التى ألصقت من بعد بعلى لم تلازم جرمها عند وقوعه ولا تفسير لافتراقها عنه إلا أنها لم تنبث منه ، بل انبعثت من خارجه . فحق انبعائها إذن ، ومن أين كان ؟ .

بعد أشهر من المصراع ، ومن داخل معاوية ولا جواب غير هذا الجواب ١ من داخل معاوية انبعثت التهمة للمعتسفة . من دواعيه النفسية التى سيطرت طويلا عليه ولم تزل به حتى دفعته ، بأهون تعبىر ، إلى إشباع نزعة طموحه وكلفه بالسلطان . وحين تتمقب المخالقات البيانية للعاصرة ، التى تركها لنا ابن أبى سفيان

في هذه الفترة ، سيظهر لنا أنها « فارغة » لا تحمل التهمة نصا ، ولا تشير إليها ولو بالإشارة العابرة ، لا من بعيد ولا من قريب . . .

ففي أول كتبه إلى الإمام لا يقابل البيعة بالرفض ولا بالإقرار ، ولا يذكر التهمة ، ولا يكاد يخط في رقعة طوماره سوادا في بياض . . .

وفي دعوته عمرو بن العاص ، إذ شاء أن يستعينه ، يشير إلى مقدم جرير عليه في بيعة على ، ثم يخائله بالمغم إذا لباه : « .. أقبل إذا كرك أمورا لا تعدم صلاح مغبتها . . . » ولا شيء بعد هذا أو قبله ينم عن اتهام أو خيال اتهام . . .

وفي بيعته للزعومة للزبير وطلحة ، لا نبكاد نلمح إلا تحريضا على فتنة وقودها منافسوه ممن أهلكهم — دونه — سابقتهم ومزايام لإمرة المؤمنين ، وغايتها التي داعبت خياله القضاء عليهم ، أو تجريدهم ، في القليل ، من قواهم ليصبح وحده ولا منافس ولا نظير في الميدان . . . فهو يثيرها على الإمام ، ويرسم لها — وهو قاعد موفور آمن — خطة العمل وسبيل السير دون أن يعمل أو يسير :

« ... دونكما الكوفة والبصرة لا يسبقكما إليهما ابن أبي طالب ... » . . . وهو يدعوها إلى الالتفاف حول العلم المشترك الذي رفاه ، أو رفعت صاحبتها عائشة قبله : « ... أظهرا الطلب بدم عثمان . وادعوا الناس إلى ذلك » ، ولكنه لا يقول عن الطلب ، ولا أين ثأر عثمان في الناس . فإذا علمنا أن أم المؤمنين وصاحبها كانوا يرون دم القتل إذ ذاك في الثوار الذين أجلبوا عليه ، وأنهم توسلوا لاختلافهم على الإمام — في أبلغ ما توسلوا به — بتريثه عن القصاص حتى تهدأ الثورة ، وتقر النفوس ، وتستبين الأمور . . . إذا علمنا هذا ، وضع لنا في غير خفاء أن « تهمة القتل » التي شاء معاوية من بعد إلصاقها بعلي لم تكن ، حتى هذه اللحظة ، قد ألهمها خياله للبدع أو صاغتها بديته الخلافة . . . ونعود فنسأل : متى إذن اختلقها صاحب الشام ؟ .

بعد للمصرع بأشهر كما أسلفنا ، وبعد مقدم جرير عليه في البيعة أيضا بوقت طويل : وبعد أن نفذت حيل معاوية في مساومة على لإقراره على ما في يديه على أي حال . . .

وهذه حقيقة ثانية جديرة بالاعتبار ، تظهر الرجل لنا متجنيا في اتهامه الإمام .
أجل . فلقد تردد معاوية منذ البدء في رفض البيعة التي كان عليه أن يؤديها
اتباعا لرأى المهاجرين والأنصار ووفود الأقاليم ومن بعدهم عمال الأمصار الذين
بايعوا عليا بالإمرة بعد مصرع عثمان . تردد ، أو على الأقل آثر على الرفض
الضريح الحاسم عندما قد بيديه في هيئة للتريث ولا يبيده في هيئة المخالف الذي
يعلن العصيان . وهو بهذا ابتدع نوعا من الهدنة أجدى على غرضه جميعا :
غرضه البعيد وهو الإمرة ، وغرضه القريب وهو الاحتفاظ بعمله على الشام . . .
ولعلنا لا نخطئ إذ نراها « هدنة مسلحة » يسندها تهديده بالجند والعتاد ،
ثم نراها كذلك « هدنة مشروطة » توسع للمساومة ، وتفتح الباب أمام على
للمدول عن خله ، تألفا له ، واستصفاء لوده وبأسه . وما كان معاوية بالحاسر
على أى حال لو أنه فاز بأدنى غرضه . ففي إقراره على الشام دون بقية ولاية
عثمان ، وفي إلحاق جباية مصر به ، ما سوف يمدد بمزايا معنوية ومادية خطيرة
تزيد في تدعيم مركزه الحالي ، وهو عندئذ ، في رأى الكثرة وفي نظرة الواقع
بلا جدال ، الرجل الثانى في الدولة . وهى لا شك مزايا كفيلة بأن تظهره بإمرة
المؤمنين خلفا لعل لو صلح ما بينهما وأخلص هو النية في الولاء ، كما هى كفيلة
أيضا بتحقيق ظفركه معجلا إن أبى إلا النكث وآثر الشغب والانتفاض .

والأدلة على انتهاج الرجل سياسة المساومة في تلك الفترة كثيرة ، ليس أيينا
طوماره الفارغ — الذى استهل به ، فيما نرى ، عهد التلبث أو الهدنة للشروط ،
والذى قد يعتل عليه بأنه أداة تأويل وما هو بدليل . ومع ذلك ففيما نقلته إلينا
الأخبار والآثار ما يغنينا عن التعلق بالطومار . . .

ففي حديث جرير إليه ما ينبي عن اشتراطه للبيعة شريطة هى بقاؤه على
عمله . . . يقول له جرير :

« ... فادخل يا معاوية فيما دخل فيه الناس . فإن قلت : استعملني عثمان ثم لم
يعزلني ، فإن هذا أمر لو جاز لم يقر لله دين ، وكان لكل امرئ ما في يديه ... »

وفي مقاله هو لجريز : ما يغنى عن الاستفتاح والتأويل إذ يقول باللفظ
السافر الصريح :

« . . . يجعل لي الشام ومصر جباية ، وأسلم له الأمر ، وأكتب له
بالخلافة . . . »

بل لقد قر في الأذهان أن الرجل مثنى للبيعة ثمنا لا يعدل عنه ، هو عمله .
قر هذا من قبل مقدم جريز عليه بكثير ، ومن بعد مقدمه بكثير ، وشفت عنه
أعداد من النصائح والأحاديث . فالمغيرة ، بدء خلافة الإمام ، ينصح لعل بأن
يبقيه على الشام . وابن عباس يشير بمثل نصحه . وأشباههما كثيرون ينصحون
ويشيرون وقد علموه لا ينهض في شيء مما أو هان إلا أن يكون له من وراء
النهوض فيه نفع أو — بعبارة السوم والمتاجرة — « جمل » حتى ولو كان هذا
الشيء دم عثمان . . . وصحب لعل أيضا يشيرون به ، بعد استقراء الخلاف وإراقة
بعض الدماء في صفين ، فيقول منهم قائل ، والإمام إذ ذاك يستفسرهم لاستفتاء
الرجل إلى الحق والطاعة :

« ألا نطمعه — يا أمير المؤمنين — في سلطان توليه إياه ومنزلة تكون
به له أثره عندك هو بايعك ؟ . . . »

ثم تفشل سياسة المساومة ، فماذا يكون ؟ . . .

لا شيء إلا أن يقتل على عثمان . . .

وهذه حقيقة ثالثة ، أو حجة الحجيح التي تذرع بها معاوية للنيل من علي ثم
بلوغ أربه في السلطان .

فلقد استنفذ حيله في الفوز بأصغر غرضيه عن مصالحة وتراض ، ولا معدى
له إذن عن الخلاف ليدراً العزل عن نفسه . . . فما عليه لو خالف في سبيل
هدفه الأكبر ما دامت ثمة عوامل معنوية ومادية تهيأت لعونه ، وما دامت
« التهمة » سوف تبديه في أعين الناس مناضلاً عن هدف عام لا متهاكاً على
مأرب خاص ؟ .

ولكنه — تحوطاً وحذراً — لم يفاجئ الناس بالتهمة في صورتها النهائية
الكاملة ، فعهد بهم به لا يعرفها ولا ادعائها وكانت أمامه الفرصة سانحة للدعاء والالتمام

إثر مصرع عثمان أو عقيبة بأيام قليلة . إنما مضى يبيذها حجرا حجرا ، ويطورها طورا طورا ، ويقطرها قطرة قطرة في الأذهان . فلما أن اكتملت ، وتخلقت تخلق الهوام الحتميرة يركة ففيلجة فمذراء فحشرة ، راح يحط بقدرها على ممة الإمام . . .

فلعل قائلا يقول : إنما تلبث معاوية هذه الشهور بعد مقتل عثمان ليستقصى ويستيقن لا يطور ويقطر ، فلما تثبت اتهم ولا جناح إذن عليه في التلبث بالاتهام . . . وهنا يسمن أن نقول : وفيه التثبت الاستقصاء ، وما قصاره وجدواه إلا الإعداد لباطل أو التذرع بحال أو بما يكاد يشبه المحال ما دام للمصرع قد كان على ملأ ولم يكن خفية ، وما دام القتلة — كما هو معلوم من اللحظة الأولى — كانوا فريقا من الثوار إن اختلفت في أسمائهم الروايات فليس منها على أي حال . . .

ونكر ثمانية إلى تخلق التهمة المفتراة بعد مراحل وأطوار لنعلم ما هي الأطوار . . . مع ما نسلم به من تفاوت بين الروايات التي تنقل لنا تاريخ العرب عامة وتاريخ هذه الحقبة الخاصة ، ومع ما يغلب عليها عادة من اختلاط بعضها ببعض ، وتداخل بعضها في بعض تداخلا واختلاطا يصعب معهما التوقيت لهذه الروايات وترتيبها الترتيب الزمني للمستقيم الذي يجعلها ثبنا آمينا لتعاقب الحوادث — مع كل هذا التفاوت والاختلاط والتداخل ، لا يعجز العين الناقدة ، وهي تعرض الخطب والكتب والأحاديث للعاصرة للأشهر الأولى من خلافة الإمام ، أن تقع فيها على حقيقة هذه التهمة ، وأن تتعقب في نصوصها ومعانيها على السواء قصة مولدها ، وأطوار نموها المختلفة طورا طورا من قم معاوية ، وبين أسطره ، وعلى لسان أخس حلفائه ومشيريه : عمرو بن العاص ، قبل غيرها من أسناد التاريخ . . . يخاطب معاوية أهل إقليمه ، بعد حديثه إلى جرير ، خطابا « مائما » يذكر للقتل ولا يمس عليا باتهام ولا بشبهة اتهام :

« يا أهل الشام . . . إني ولي دم عثمان ، وقد قتل مظلوما . . . وأنا أحب

أن تعلموني ذات أنفسكم في قتل عثمان . . . »

فهو يسند القتل لجهول . وهو يدعى لنفسه ولاية الدم من دون ولد القتل . وهو قبل هذا وذاك يستخير الناس حقيقة موقفهم أهم يا ترى متابوه لو أنه دعا للقصاص وما يهدف إليه من غاية خبيثة وراء القصاص ، أم لعلهم قاعدون عنه لا يحييون ؟ . . .

لكنهم يحيونه ، وهل يستبيحون القعود عن دم مظلوم ؟ . . . ويقدمون عليه — تحثم النخوة — يبايعونه على النار ، ويقرون له بولاية الدم المسفوك . فإذا ذاق أمرهم ، وأيقن الجد منهم ، خطا خطوة جديدة فكتب للإمام :
« . . . أغريت بعثمان للهاجرين ، وخذلت عنه الأنصار ، فأطاعك الجاهل وقوى بك الضعيف . . . »

أخذت التهمة تنفض ميوعتها . . . لا تعمم الآن . لا إسناد إلى مجهول مادام في طوقه إسناد بعض أركانها ، على الأقل ، إلى معلوم ! — وأي معلوم ؟ إنه أولى معلوم بالالتهم في هم معاوية ومناه . . .
ثم يقدم الرجل فيدفع بالتهمة إلى طورها الأخير . . . لقد أعد ومهد ، وهياً الأذهان ، وملاً الصدور والآذان . ولقد تلبث وانتظر فما أجدى عليه الانتظار . فليقتل إذن على عثمان . . .

وهكذا نراه بعد ثلاثة أشهر قضاها في الراوغة قبل مقدم جرير عليه في أمر البيعة ، وبعد ثلاثة مثلها قضاها في المساومة عقب اللقدم ، يطلع بالتهمة للفترة كاملة التكوين ، فيقول لشرحبيل سيد اليمن ، ورأس أهل الشام ، وأقدر الناس على تحريك قومها وراء مبتغاه :
« . . . إن جرير بن عبد الله يدعونا إلى بيعة على ، وعلى خير الناس لولا أنه — قتل عثمان . . . »

هذه قصة التهمة بغير حاجة إلى استلهاها من دوافع معاوية النفسية . فيها نطقت وقائع الحال ، وعنها شفت أسناد التاريخ ، ومنها ثبت أن « الإمرة » هي السبب الحقيقي للخلاف بين علي وغريمه ، ولا عذر بعدها لمن يحاول التمس سبب آخر موهوم يجهد لاعتسافه من بين ذلك الغموض الزعوم الذي غلب على نصوص وثيقة التحكيم . . .

٧

نجحت « اللعبة السياسية » التي لعبها أبي سفيان . كانت حقيقة بأن يحالفها النجاح قدر ما تقدر من جدل ، وما توقع بين جماعة المسلمين من خصومة . . . وقد قدحت فأورت ، وأوقعت فأمعنت في الإيقاع ، ثم مضت ترتب النتائج على اللقدمات .

فما هي نتائجها ؟ .. ما غاياتها المنتظرة بعد عقد التحكيم أو قبل عقد التحكيم؟ ليس أخطرها على أي حال شل على عن ممارسة سلطانه في الدولة فإذا هو « صورة » أمير ، أو هو — بلفظه — أمير مأمور . . . وليس أهونها أيضا « قشره » عن عمله بإفساد بيعته كقشره ولاية عثمان فيستوى العازل والمزول . . .

وبين هذه وتلك من النتائج « حل معقول » تطلع به اللعبة السياسية وصاحبها من ورائها يعلم أنه قل من يقول إنه غير معقول . . . هل يرى « تنحية » على عن الإمرة إلى حين . . . أو — بلغة القانون — « رده » عن أن يقضى في دم عثمان . . .

* * *

تلك إحدى النتائج المحترمة ، وإنها لا ريب نتيحة « مقبولة » لا تأبأها العقول التي تجهز اللعبة السياسية ، لأنها ترتبت على مقدمة « مقبولة » . . . فعلى قتل عثمان ، أو حرض على قتله في أهون صور الاتهام . . . ومعاوية ولي الدم . . .

فلن يكون الاحتكام . . . ؟
يأبى للنطق أن يكون على صاحب القضاء في هذه القضية لأنه متهم ، ولا يقبل منه أن يكون خصما وحكما في آن . . .

وإذن فقد وجب « رده » ضمانا لتزاهة الحكم ، وحرية التقاضى . ولن يجد امرؤ ينظر الأمر من هذه الزاوية ظل تحيف من معاوية على الإمام ، لأن « الرد »

هو الحل الوحيد المعقول الذي يدرأ الظنة عن القاضى ، ويوفر الطمأنينة للخصم ، ويكفل للقضية أن تمضى حرة إلى حيثما يجب أن تسير لهذا يكثر معاوية فى قتل عثمان ، وفى ولايته دمه ما وسعه سبيل الإكثار . لا يكاد يجد الفرصة أو يفتعلها حتى يكثر ويزيد ، ويبدى ويعيد ، ولا غاية له من وراء هذا إلا تثبيت حقه فى الطلب بالدم ، ثم تثبيت الدعوة إلى رد غريمه « القاضى الظنين . . . »

يحدث بعض قراء الشام ، قبيل صفين ، وقد رأوه يتهياً للقتال وراهم يوشكون أن ينكروا عليه ، فيقول : « ما أقاتل علياً وأنا أدعى أن لى فى الإسلام مثل صحبته ، ولا هجرته ، ولا قرابته ، ولا سابقته . ولكن . . . أستم تعلمون أن عثمان قتل مظلوما . . . » قالوا :

« بلى ! »

« فليدفع إلينا قتلته فنقتلهم به . . . »

وينخطب للناس ، وقد طال تأنيه عن البيعة :

« . . . إني ولى عثمان وقد قتل مظلوما . والله يقول : ومن قتل مظلوما

فقد جعلنا لوليّه سلطانا »

لكنه يمزج ولاية الدم ، ودفع القتل إليه ، بالشرط الوحيد الذى يحقق له غرضه الحثي : إقصاء غريمه المقتري عليه عن الإمامة والسلطان ، فيكتب إلى أهل مكة عند مخرجه إلى صفين :

« إنما نطلب بدمه حتى يدفعوا إلينا قتلته فنقتلهم بكتاب الله .

فإن دفعهم على إلينا كففنا عنه ، وجعلناه شورى بين المسلمين على ما جعلها عليه عمر بن الخطاب . . . وأما الخلافة فلسنا نطلبها . فأعينونا ، إن أيدينا وأيديكم إذا اجتمعت على أمر واحد ، هاب على لما هو فيه . . . »

عزل بعزل . . . يريد على أن يمزله عن ولاية الشام ، فيدعو هو إلى عزل على عن خلافة الإسلام . . .

، ويمثل هذا الطلب بحبه علياً بعد أن فشلت المساومة :

« . . . قد أبى أهل الشام إلا قتالك حتى تدفع إليهم قتلة عثمان . فإن فعلت كانت شورى بين المسلمين . . . »

هذه هي الدعوة التي دعا لها معاوية ، وروج جهد الترويح . وهي إحدى ثمرات لعبته السياسية ، وأهون نتائجها للتنظرة . وهي لا شك أحبولة محبوكة وقع فيها كثيرون في أيامه ولا تزال تطبق إلى الآن — فيها يلوح — على كثيرين ممن يعرضون لتاريخه بالمناقشة والتدوين . . .

على أنها حيلة لم تكن لتجوز على الإمام أو يخفى ما وراءها عنه . فذكره إياها متواتر ، ودحضه مزاعمها معلوم تفيض به كتبه إلى ابن أبي سفيان ، وحديثه عنه ، وسفاراته إليه . وبحسبنا منها عبارات تكشف الحيلة ، وتهتك الستر عن صاحبها حتى لتضعه من ولاية الدم موضع الدخيل للقتح ، ومن خذل معاوية — لا من نصره ! — بحيث كان ويجب دائماً أن يكون . . . يكتب له الإمام مرة :

« . . . ثم ذكرت ما كان من أمرى وأمر عثمان . فلك أن تجاب عن هذه لرحمك منه . . . فأينا أعدى له ، وأهدى إلى مقاتله ؟ . . . أمن بذل له نصرته فاستعده واستكفه ، أم من استنصره فتراخى عنه ، وبث النون إليه حتى آتى قدره عليه ؟ . . . كلا والله ! . . . لقد علم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم : هلم إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلا . . . »

وما كنت لأعتذر من أنى كنت أنقم عليه أحداثا . فإن كان الذنب إليه إرشادى وهدايق له ، فرب ملوم لا ذنب له ، وقد يستفيد الظنة المنتصح ! . . . وكتب أخرى :

« . . . فأما إكثارك الحجاج في عثمان وقتلته ، فإنك إنما نصرت عثمان حيث كان النصر لك ، وخذلته حيث كان النصر له ! . . . » وعلى هذا النحو جرى حديث أحد سفراء الإمام :

« يا معاوية ! . . . إنك لا تجد شيئا تستغوى به الناس ، وتستميل به أهواءهم ، وتستخلص به طاعتهم إلا أن قلت لهم : قتل إمامكم مظلوما ، فهلوا نطلب بدمه ! . . . »

فاستجاب لك سفهاء طغام رذال . وقد علمنا أنك قد أبطأت عنه بالنصر ،
وأحببت له القتل بهذه المنزلة التي تطلب »

ويحق لنا أن نبين أن موقف معاوية من علي في شأن عثمان على الهيئة التي
بسطها الإمام لم يكن غريبا على الناس إذ ذاك أو خافيا عنهم ، بل كانوا يعلمونه
حق علمه ، ويعذلون الرجل عليه ، وينكرونه منه وإن لم يكونوا ممن عرف
تشيعهم لملى . ويكفيها هنا مثلاً رأى محمد بن مسلمة في هذا الشأن . فهو امرؤ
أبى أن يدلى بالبيعة إلى الإمام حينما أدلى بها قومه الأنصار . وهو بهذا يحسب
عليه ولا يحسب له . وقد يحسب بأرفق تقدير من المحايدين الذين لا إلى حزب
العراق ولا إلى حزب الشام . . . يكتب ابن مسلمة هذا إلى معاوية يقول :
« . . . وأما أنت فلعمري ما طلبت إلا الدنيا ، ولا اتبعت إلا الهوى . . .

فإن تنصر عثمان ميتا ، فقد خذلته حيا . . . »

وإذن فلم تخف للراى الحفية وراء انتصار ارية لعثمان لا عن على ،
ولا عن صحبه ، ولا عن أولئك الذين كانوا منه بمنزلة قطيعة أو كانوا منه ومن
معاوية بموقف سواء . بل هى أيضا لم تخف عن أولياء ابن أبى سفيان وخاصة
خلصائه وفي مقدمتهم : مرآة نفسه وأهوائه عمرو بن العاص . . . فما كان انتصاره
سوى انتصار لنفسه يلبسه بما يشاء ليبيديه كما يشاء . بولاية الدم ، بالخذل ،
بالتحريض ، بالقتل ، بأى من هذه التعلات المعروفة أو بها كلها مجتمعة . فيحسبه
أن يبلغ أربه ، وأن يلقي بغريمه المفترى عليه في الظلال
ويكتب له على داحضا لمعاته :

« . . . وأما قولك : ادفع لنا قتلة عثمان ، فما أنت وعثمان ؟ . . . إنما أنت
رجل من بنى أمية وبنو عثمان أولى بذلك منك . . . فإن زعمت أنك أقوى على
دم أيهم منهم ، فادخل في طاعتي ، ثم حاكم القوم إلى أحملك وإياهم
على المحجة . . . »

لكن معاوية لا يأبه . ظل دائما وهو — كوصف الإمام له — « الذهاب في التيه ،
الرواغ عن القصد » . . . يلزم « الأهواء المبتدعة والحيرة المتعبة » ، مع تضييع

الحقائق ، واطراح الوثائق » وإنه عندئذ يعلم أنه غوى وأغوى ، ومال وأمال .
 عليهم بهذا من فم خصمه ، ومن منطق الحوادث ، ومن لسان صاحبه عمرو
 ثم لا يرشد ولا ينزع عن غيه وإمعانه في الادعاء . . . فلقد قال له عمرو مرة —
 وكم غيرها قال — في معرض حديثهما عن الإمام وحقه الذي لا ينكر في الخلافة :
 « إنه لصاحب ما هو فيه إلا أن تظلمه . . . »

ومع ذلك ظلمه . . . اختلق ما اختلق ليلوى به العقول والألسنة ثم يجعله
 وسيلة للعصيان : وأعانته على الاختلاق عمرو نفسه — الناطق قبل بحق على ،
 العارف له ! — لأنه هو الآخر عبد هوى . بمن يضمن لهم بدينهم ، ويبيعون
 الفرى بمثقال . . .

وقد نعجب لمعاوية كيف يرى الحق ويعيد لباطل ، ويرى الهدى وينحرف
 لضلال . وقد نعجب أيضا لصاحبه إذ يحثه على الظلم والحيف . وقد نعجب بعدهما
 لمن تابعهما من أهل الشام وهم على بصيرة من حقيقة الأمور — لكل هؤلاء
 قد نعجب ثم نرانا من بعد حقيقتين بأن يزيد في عجبنا أضعاف الأضعاف حينما نجد
 في صفوف الإمام ، ومن بين رجاله وأوليائه ، فئة غير قليلة يلتوى بها منطق
 معاوية حتى لترى في « دعواه » المختلقة « واقعة » يدخلونها في حيز الحقائق
 ولا يطردونها إلى تيه الأوهام . . .

أجل ، قد كان . . . فمن رجال العراق من استخفهم حب الجدل فراحوا
 يسفستون حول التهمة الباطلة التي ألصقتها معاوية بعلى . لم ينكروها كما أنكرها
 أصحابهم ولم يدحضوها بمثل حججه التي تهدرها وتهدمها وتجعلها هراء وهباء . ولم
 ردوها إلى أصولها الخلقية ، طوراً وراء طور ، إذ هي خلجة رعناء من أثر الماضي
 في قلب حاقد ، ووهم شارد في خيال حالم — إنما قد ازدهام عندئذ ، دون هذا
 كله ، « عليهم » بأساليب النقاش والجدل والحجاجة فمضوا شأراً اعتدادهم
 أو غرورهم من التهمة ، يحللونها ويبررونها كما تناقش الوقائع الثابتة وتبرر بالعلل
 والأسباب . . .

فما كان قصارى ذلك النقاش ؟ وما هي نتيجته ؟ . . .

كان قصاره — فما يبدو — إشباع تلك النزعة إلى الكلف بالنقاش في كل
 ما يعرض لهم من الخواطر والآراء وإن كان الخاطر اللهم ، والرأي الذي يجيء

بمقطع الحجة وفصل الخطاب . وما عهدنا باندفاعهم إلى مجادلة الإمام في أوامره ونواهيه ببعيد . . .

وكانت نتيجة انكسار قضية الخلاف بين علي ومعاوية فإذا هي ، من لحظتهم ، وعند التحكيم ، وبعده بالسنين والقرون ، تلوح للكثيرين خلافا على دم عثمان هل سفك بحق أم سفك بظلم ، ولا تتمثل في هيئتها الحقيقية إذ هي خلاف على السلطة يعتسف معاوية ودواعيه ، مظهره تمرد على صاحب الأمر الشرعي في الدولة ، وآثاره انقسام وحدة الأمة ، وجزاؤه في منطق الدين والسياسة على السواء جزاء التمرد والخروج على النظام العام . . .

يسفسطون ، مفسرين سبب الحرب بين أهل الشام وبينهم ، فيقولون بالمنطق السكاف بالنقاش ، وباللسان الذي يتكاف الترتيب والتخريج والتأويل :

« . . . إن الله عز وجل أحل البراءة بمن حكم بغير ما أنزل الله ، فتوليتم الحاكم (عثمان) بغير ما أنزل الله وقد أحل الله عداوته ، وأحل دمه إن لم يرجع إلى التوبة ويؤ بالدين . وزعمتم أنتم خلاف حكم الله ، فتوليتم الحاكم بغير ما أنزل الله وقد أمر الله بعداوته وحرمنه دمه وقد أمر الله بسفكه ، فعادينكم لأنكم حرمت ما أحل الله ، وحللت ما حرم الله ، وعظمت أحكام الله . . . »

ويسفسطون أيضا ، مثل سفسطهم هذه ، مبررين قتل عثمان :

« . . . قد قبلنا من عثمان بن عفان حين دعى إلى الله والتوبة من بغيه وظلمه . وقد كان منا عنه كف حين أعطانا أنه تائب حتى جرى علينا حكمه بعد تعريفه ذنوبه ، فلما لم يتم التوبة ، وخالف بفعله عن توبته ، قلنا : اعتزلنا ونولي أمر المؤمنين رجلا يكفيك ويكفيينا فإنه لا بخل لنا أن نولي أمر المؤمنين رجلا نهمه في دماننا وأموالنا . . . فأبى ذلك وأصر . فلما أن رأينا ذلك منه قتلناه . . . »

وإذن فقد نجح معاوية — أتمر به وترديده حتى التوت ، في صفوف الإمام نفسه ، السن وأذهان بدعواه . . . ولم يكن جسديدا على الناس خوضهم في قتل عثمان فهو من ساعته مادة للحديث والنقاش . ولم يكن عجبا أن يذهبوا فيه طرائق ومذاهب شتى تتراوح بين الإقرار والإنكار . ولم يكن مستغرب أيضا أن تجد بين

مقر به فئة تراه ضرورة سياسية ، وفئة تغلو فتعده واجبا دينيا ، وفئة أخرى بين هذه وتلك تأسف له ثم لا تنكر الظروف والدواعى التى انتهت به إذ تعتبرها حرية بأن تختم بمثل ذلك المصير حياة أى إنسان ، عثمان أو غير عثمان ... كلالا نعجب ، ولا تنكر ، ولا علينا من الإثبات ، لأن تعدد الآراء فى قتل عثمان — من حيث هو جرم — واختلافها أشد الاختلاف فيه ، حقيقة تاريخية معلومة ، لا سبيل إلى إغفالها أو التهوين منها ، ومبحث كان مدار مجادلة وحوار ، ولا يزال ، منذ وقع إلى الآن ... ولكن الذى نعجب له ، وننكره حقا ، ويجدر أن يكون دائما موضع تعجب وإنكار ، أن ينزلق هذا القتل — من حيث هو سبب موهوم لخلاف معاوية عن طى — ثم ينزلق وينزلق ليدفع السبب الأصيل عن طريقه ، ويزيحه ، ويبقى وحده ولا سبب سواه ...

لقد كتب طى وقال ...

وقد كتب معاوية وقال ...

ومن ورائهما جرت السن وأفلام بأقوال أنصار هذا ، وأقوال أنصار ذاك ، وأقوال من دونهم ممن لا يحسبون فى الأنصار أو الأعداء ، طى ما بيناه ، فلم نرفيا استفاض منها وشاع إلا « الخروج طى النظام » علة لهذا الخلاف ...

غير أن معاوية مضى شوطه ، يلبس ويشبه ، لتختلط الحقائق طى الناس ... ثم مضى أيضا شوطه ، يعاند ويكابر ، ويشيرها حربا من القرى والادعاء ليفرق ذلك السبب الصحيح الأصيل فى قاع سببه للوهوم الدخيل ...

وكيف لا ؟ .. إنه لعليم بأن استجابته لحجج الإمام سوف تجرده من سلاحه ، ثم تدعه هملا فى الناس . فإذا هو خليع بلا مطمع ، بلا سطوة ، بلا شام ...

ومع ذلك فقد كفانا من تملاته ، وكفانا من مكابرتة وتأييه ... ولتكن لنا نظرة عابرة فى ثنايا بعض أسطر الإمام وعباراته لنرى موضوع الخلاف الحقيقى ، فى صورته البسيطة الأولية التى ظل عليها طول عمره ، منذ نشأ حتى انتهى إلى التحكيم ، وبغير حاجة ، كسبب خصمه ، إلى التطويع والتطوير ... وإنما لصورة واضحة محلوة ، تضم ظلالها وأضواؤها كافة للبادئ التى تحد لنا الإمرة ،

بمن تكون ، وفيمن تكون ، وحق الأمة في السلام والوحدة ، وواجب الأمير في الاتصاف لها من كل مخالف يمرضها للانقسام . . .

في هذه الصورة ، أو هذا الدستور ، ينصل الإمام الأمر في سهولة ويسر . . .
فالإمرة لأولى المسلمين بها :

« ... إن أولى الناس بأمر هذه الأمة ، قديمها وحديثها ، أقربها من رسول الله ، وأعلمها بالكتاب ، وأوفقها في الدين ، وأولها إسلاما ، وأفضلها جهادا ، وأشدّها بما تحمله الرعية من أمورها اضطلاعا ... »

واختيار الأمير من حق تلك الصفوة المختارة من صحب محمد الدين كانوا بمثابة مجلس الأمة : لأنهم أعلم بحاجتها ، وبما يصلحها :

« ... الناس تبع المهاجرين والأنصار وهم شهود المسلمين في البلاد على ولايتهم وأمر دينهم ... »

وكلمة هذا « المجلس » في الاختيار واجبة الطاعة :

« ... بيعة واحدة . . . الخارج منها طاعن ، والروى فيها مدهق . . . »

فمن أبى الطاعة فهو خارج على الجماعة ، شاق وحدثها ، لا يدرأ خطره عليها إلا أن يحمل على الخضوع بقوة الإقناع ثم بقوة السلاح :

« ... إنما الشورى للمهاجرين والأنصار . فإذا اجتمعوا على رجل فسهوه إماما كان ذلك لله رضا . فإن خرج من أمرهم خارج بطعن أو رغبة ردوه إلى ما خرج منه ، فإن أبى قاتلوه على اتباعه غير سبيل للأئمة ... »

هذه هي المبادئ الأساسية في دستور المسلمين غير المكتوب الذي اتبعوه خلال عهود أبي بكر وعمر وعثمان ، أو تحروا اتباعه جهد استطاعتهم ، قد أعاده الإمام على سمع معاوية ، ومر به تحت بصره مرات . ولم يزل به يعيده ويكرره ، لا يعل ولا يئأس عسى الرجل أن يرشد وينزع إلى الصواب .

لكن معاوية أبى ، فلم يكن يحصى لعل من محاكته محاكاة خارج على وحدة الأمة :

«... استأستحل أن أدع معاوية يحكم على الأمة ، ويركبهم ويشق عصام...»
 فإذا وقعت الحرب ، ثم تداعى المسلمون في أثنائها إلى تحكيم القرآن في الخلاف
 بين الرجلين ، فلا وراء إذن في أن موضوع ذلك الخلاف الذى لا موضوع غيره
 هو خروج معاوية على جماعة المسلمين ، وإن التوت بدعوى ذلك الخارج الزائفة
 ألسن أقوام في صفوف الإمام ، والتوت بها من بعدهم نوايا ابن العاص الفوى
 والأشعري الظنين ! ...

٨

قال يحدث صاحباً له :

« إن الفتن لم تزل في بني إسرائيل ، ترفعهم وتخفضهم ، حتى يعيشوا الحكيم
 يحكان بما لا يرضى به من اتبعهما ... »

فخذره حينذاك صاحبه :

« يا أبا موسى ... إياك إن أدركت ذلك الزمان أن تكون أحد
 الحكيم ... »

« أنا ؟ ... »

« نعم أنت ... »

فبان الإنكار في وجهه :

« لا جعل الله لى إذن في السماء مصعداً ، ولا فى الأرض مقعداً ! ... »

لكنه أدركه .. أدرك الزمان الذى اختلف فيه الناس ثم لم يزدحم التحكيم
 إلا أعنف اختلاف .. فالدنيا دارت . والأيام تواترت تكدر على قومه أسباب
 الفرقة . والأمة التى كانت إلى أمس القريب كالصخرة العاتية توهى الصروف والحن ،
 وتوهن الفتن ثم لا تهين ، قد أصبحت فلقنتين مثل حبة الفول ... وها هو الآن
 فى معتزله ذاك الذى اختاره لنفسه ، يلبدة عرض ، بين الرصافة وتدمر ، يأتيه
 أت بما كان من قبل يكره أن ينهض فيه ...

يقول له أحد مواليه :

« إن الناس قد اصطاحوا ... »

« الحمد لله ! ... »

« ... وقد جملوك حكماً ... »

فقلب كفيه كالخائر :

« إنا لله وإنا إليه راجعون ! ... »

غير أنه لم يرفض . بل سارع ، كمن كان والنبأ على موعد مرتقب ، يتهيأ للرحيل إلى المهمة التي أشهد الأرض والسماء من قبل على تأييده عليها ، وعزوفه عنها ، وتجنيب نفسه الكلفة بالسلم أمرها الكربة الثقيل
وعندئذ يعجب صاحبه ، ويحاول أن يذكره ما عسى قد أنسى من رأيه الخالف القديم :

« يا أبا موسى . . . أتذكر مقالتك ؟ .. »

وما عليه لو ذكر ؟ .. إنه ليدكر ثم لا ينكر ! ..

على الزمن بلى إنكاره . . . فساخته اليوم سائحة تجيئه وهو قاعد ، غير ساع ولا أمل ، فتضع في يمينه وحده مصير على بن أبي طالب كما لم تضع قبلها سائحة مصير عاهل في يد عدو متور ولا ولي حليم ! .. طوته طي النهار الوضيء كابوس ليلة ! ..

فلعله فرح . . . إن الرجل من الناس قد يلغظ بالرأى ، ثم يلوكه لسانه . ثم لا يفتر يميده على الآذان كلاماً . منغماً أنغاماً ، ما شاء له أن يردد ويعيد ، ومع ذلك قلبه في جوفه ينكر عليه منطقته ، ونفسه تبرم به ولا ترضاه ، ودخيلة صدره تضرر خلاف ما يظهر ، حتى إذا وسعه من بعد أن يتحرر من نقاب تظاهره ، ويكشف عن خبيء ضميره ، جاء فعله غير قوله ، وطففت العقيدة الراسية في أعماقه — بعد طول احتباس وكتان — تطفئ بدرانها وطينها ووحلها على زخارف لسانه وبيانه الخادع للعسول ! ..

وكذلك انطلق الأشعري ، من بعد ، إلى حيث ينتظره دوره في التحكيم ، ليزن الأمور بميزان إدراكه الخاص ، ثم يسلكها المسلك الذي إليه تهديه رواسبه النفسية

كان قدرا مقدورا أن الرجل حين دعى استجاب . قدرا لازما على الإمام
لامناص منه ، ولا حيلة فيه ، بدت من خلاله الخاتمة وانكشف للصير المحتوم ..
ما من فرد واحد في الجانبين للتخاصمين ، من أهل الشام أو رجال العراق ، تجرد
حينذاك من هواء وظنونه إلا استشف أن دولة على توشك أن تؤذن بغييب
كما توشك غبرة الأفق أن تشف عن طلائع الغروب . . . حق الذين كانوا
من البدء في عزلة ، ولم يسهموا في الخلاف ، خايلتهم هذه الحقيقة . فالأشعري
اليماني منشورة لهم أجمعين صحيفة ماضية ، منعكسة على رقعتها خبيثته ، مكشوفة
نواياه — وإن حاول وسعه كتابها — لكل من شاء أن يتطلع من ثنايا
البداية إلى الخواتيم . . .

ومع ذلك فثمة طائفة من أصحاب الإمام رأوا لزما عليها أن تهبط إلى هذا
الحكم بالتبصير أو بالتحذير . . . لم يدفعها إليها أملها فيه ، ولا إيمانها بأنه قد أنسى
ماضيه . . . قلقها هو الذي كان يدفعها . عليها أنه ليس بثقة ولا بمؤمن على هدفها
الذي طالما تنكر من قبل له وأولاه ظهره . . . إنما كان هم كل منهم أن ينفص
عن نفسه وقراءات ثقيلة ، حريا بأن يظل إلى الأبد يشقله لو أنه لم يتقدم في هذا الوطن
بالنصيحة — وهي غاية جهده ومنتهى قصاره — إلى هذا الأشعري الظنين . . .
يقول له ابن عباس حين يلقاه :

« يا أبا موسى . . . إنه قد ضم إليك داهية العرب . وليس في معاوية خلة
يستحق عليها الخلافة ، فإن تقذف بحقك على باطله تدرك حاجتك منه ، وإن
يطمع باطله في حقك يدرك حاجته منك . . . »

لكن الحق والباطل في هذه القضية لم يكونا في نظرة أبي موسى على الهيئة
التي يراها العدول من الناس . . .
وبعض ابن عباس ينصح :

« . . . واعلم ، يا أبا موسى ، أن معاوية . . . يدعى الخلافة من غير مشورة
ولأبيية . فإن زعم أن عمر وعثمان استعملاه فلقد صدق : استعمله عمر وهو
الوالي عليه بمنزلة الطبيب يحميه ما يشتهي ، ويوجره ما يكره . ثم استعمله عثمان

برأى عمر ، وما أكثر من استعماله لم يدع الخلافة واعلم أن لعمر
مع كل شيء يسرك خبأ يسوءك ومهما نسيت فلا تنس أن عليا بايعه القوم
الدين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان . وأنها بيعة هدى . وأنه لم يقاتل إلا العاصين
والناكثين »

بهذا الحديث الصريح البين حدثه ، فكشف له ، بما لا يدع مجالا لتأول
أو شبهة ، حقيقة الخلاف بين الخصمين . ما هو إذن بدم أو ثأر . . . ما هو
بقتل عثمان إنما كان تطاعا من معاوية إلى اغتصاب الخلافة بمن عصها
للمسلمون برأسه وقلدوا بيعتها عنقه وإنما كان انسياقا منه وراء نزوة أطماعه
تحمته عليه « بيعة » أدلى بها إليه أنصاره أو « رعاياه » في الشام وإنما هو
إذن خروج منه على وحدة الأمة أوقع في صفوفها فرقة وانقسامًا وليس له عند
صاحب السلطة الشرعية ، الأمين على سلامة الدولة ، إلا ما لكل متمرد خارج
على النظام

وينطق أبو موسى جوابه ، كلاما ، منمما أنقاما ينطق من طرف لسانه
فيقول :

« رحمك الله ! . . . والله ما لي إمام غير علي . وإني لواقف عندما رأى ،
وما أنت وأنا إلا بالله . . . »

ومع ذلك فقد كان خليقا بشك الشاكين وريبة المستريين . . . الكثيرون
من عرفوا ماضيه ، وخبروه في أمسه القريب ، يتهمون الآن منطقه . أقد صدق ؟
أخلص النية ؟ . أهذا الحديث منه اليوم مرآة قلب يؤمن حق الإيمان بما ندب له
أم هو صدفة ظاهرها زخرف وجوفها فراغ ؟

ويقبل عليه الأحنف بن قيس ، يسرع به الشك ثم يبطنه اليقين ! . . . إنه
يحدثه . وينصح له ، ويشير عليه ، حتى إذا نصح وحذر بما يسمه النصيح والتحذير
أطلقها من بعد كلمات رقيقة ، بريئة للظهر ، ليلاوه ، ويعلم منه أصلحت نفسه حقا
وصفت للإمام أم قد بقيت على رأيها القديم السقيم ؟ . . . يقول الأحنف ، كأنما
يسوق فكرة طارئة قد تؤدي مناقشات التحكيم إلى تبنيها حينما يعضل بالحكمين
الاتفاق على الرأي الحق الذي لا وحدة ولا سلام بغيره :

« . . . فإن لم يستقم لك عمرو على الرضا بعلى ، فليتخذ أهل العراق من قريش الشام من شاءوا ، أو فليتخذ أهل الشام من قريش العراق من شاءوا . . . » فلم ينكر الأشعري فكرة هذا الاقتراح . ولم يبد عليه أنه لا يجد لها مكانا في خاطره الجدير بأن تمتلئ عمارجه ومداخله بفكرة غيرها تذود عن الحق البديهي للإمام . . . فكأنما كان لا يرى جناحا عليه في تقبل آراء تنأى به عن الجادة للمستقيمة التي حددها كتاب الله لفض كل خلاف ، وعن الخطوط السوية التي رسمها دستور المسلمين غير المكتوب وتقاليدهم المقررة في اختيار الخلفاء . وكأنما كان — بأررفي تعبير — لا يستشعر هنة من ضير في زوال ولاية أمور الأمة عن صاحبها الشرعي وقد اختير هو حكما ليؤدي عنه ، ويدفع عن حقه باطل خصمه . . . كلام ينكر . . . إنما تقبل الفكرة المقترحة بإقرار ، أو باستسلام يشبه الإقرار . فقال :

« قد سمعت ما قلت . »

وسمع على . . . وهل كان يملك إلا أن يسمع ثم ينتظر ؟ . . . إن الأحنف يسرع صوبه قلعا مهموما ، ويجأر وفي صوته رنة نذير :

« يا أمير المؤمنين . . . أخرج أبو موسى والله زبدة سقائه في أول غضة . . . » فيبتسم . هو بحقيقة الأشعري عليم .

ويتم الأحنف :

« . . . لا أرانا إلا بعثنا رجلا لا يشكر خلمك . . . »

لكن هذا النذير لا يهزه . . . فما الإمرة . . . ما ملك هذه الدنيا بأسرها . ما النصر الذي يود الأحنف بن قيس — يجمع ألقه ، وحتف ثقته واستقرائه مقدمات الأمور — لو يجيء ، وإن على يد الأشعري : السفير الظنين ، كما تجيء الخوارج مباغته ، وتقع المعجزات بغير إعداد ولا تدبير . . .

ويجيبه الإمام بهدوء :

« الله غالب على أمره . . . »

« فمن ذلك تجزع يا أمير المؤمنين . . . »

ثم يعفى أبو موسى شوطه ، وشأو رأى مكتوم — كان يحبسه من بضعة أشهر — أتبع له اليوم أن يطلقه من ربة خوفه ، أو حذره ، أو تخرجه ، أو أيعا عاطفة حكمته أن يجاهر — بعد عزله من الكوفة — بسياسة العزلة والتخذيذ التي كانت ثمرته . . . وإذا كان الأحنف بن قيس قد داوره ، ولم يرد أن يجبهه بهذه السقطة القديمة ، فشرح بن هاني جبهه ، وحذره أن تكون لها في نفسه بقية تفسد عليه نزاهة حكمه ، وتقضى على الرجاء الذي ظال رجال متفائلون يعلقونه به . . . يقول شرح وهو يودعه إلى دومة الجندل ، مقر التحكيم :

« يا أبا موسى . . . إنك قد نصبت لأمر عظيم لا يجبر صدعه ، ولا تستقال فتنته . ومهما تقل شيئاً ، لك أو عليك ، يثبت . . . وإن كان باطلاً . . . إنه لا بقاء لأهل العراق إن يملكها معاوية . ولا بأس على أهل الشام إن ملكها على . وقد كانت منك تشبيطة أيام قدمت الكوفة ، فإن تشفعها بمثلها يكن الظن بك يقينا ، والرجاء منك يأسا . . . »

فإذا الرجل يبدو كالمغضب لهذا التذكير بسقطته ، فيجيب غير مهاود :

« ما ينبغي لقوم اتهموني أن يرسلوني لأدفع عنهم باطلاً أو أجر إليهم حقاً ! »

عندئذ يعقب صاحب له بالرجاء فيه :

« إن أبا موسى سيدرك حقنا . . . »

فيبدأ الأشمري ويقول :

« والله إنى لأرجو أن ينجلي هذا الأمر وأنا فيه على رضا الله . . . »

على أن الرجاء واليأس منه قد حسمهما ، بعد هذا ، للغيرة بن زعبة . أحد الدهاة في العرب ، والرجل الذي كان له في ولاية معاوية رأى لم يقره عليه الإمام . . . فلقد بث معاوية حينذاك ، والحسبان لم يلتقيا ، إلى فريق من قريش كره أن يعينه في حربه ، يستلحقهم ليشهدم خاتمه الأمر . . . وكان فيهم ابن الزبير . وكان فيهم ابن عمر . وكان فيهم للغيرة الذي أسرع به فضوله من الطائف بالحجاز إلى هذه البقعة بين العراق والشام . .

واستقبله معاوية بلائنه عسى أن يستصفيه ويستخلص دهاءه اليوم قريب .
وأصغى المغيرة إليه وسمع منه ، فلما أن فرع تلطف ابن أبي سفيان وسأل زائره :
« . . . ما ترى يا مغيرة ؟ . . . »

تفكر الزائر الحذر هنية ثم قال :
« يا معاوية . . . لو وسعني أن أنصرك لنصرتك . ولكن ، هل أن آتيك
بأمر الرجلين . . . »

وفعل . ودخل زائرا على أبي موسى ، يحادثه ليدوق أمره :
« يا أبا موسى . . . ما تقول فيمن اعتزل هذا الأمر وكره هذه الدماء ؟ . . . »
فلم يكن أسرع إليه من جواب الأشعري شيء :
« أولئك خيار الناس . . . خفت ظهورهم من دمائهم ، وخصت بطونهم
من أموالهم . . . »
وركب المغيرة إلى عمرو :

« يا أبا عبد الله . . . ما تقول فيمن اعتزل هذا الأمر وكره هذه الدماء ؟ . . . »
فلم يكن أسرع إليه من جواب ابن العاص شيء :

« أولئك شرار الناس . . . لم يعرفوا حقا ، ولم ينكروا باطلا . . . »
من هذا الحديث وضحت نية الأشعري للمغيرة حتى لقد انطلق بها إلى معاوية
يمثلها وإنه عند ذلك غير مخدوع :

« . . . أما عبد الله بن قيس خالف صاحبه ، وجاعلها الرجل لم يشهد هذا
الأمر . . . وأما عمرو فهو صاحبك الذي عرفت . . . »

ومن هذا الحديث أيضا يتبين لنا الرجل على ما كان عليه بالأمس ، له نظرتة
الأولى ، وسياسة السلبية التي أقعدته عن انحيازه لهذا الخصم أو لذلك . . .

أفئلهاء يا ترى الآن إذ هو أخرج زبدة سقائه ، ونضح حقيقة بما فيه ؟ . . .
لكأنى إذن بفئة من الناس تراه ، أمس واليوم وفي غده ، غلصا لرايه ،
ثابتا عليه ، ولم يغير منه شيء ، فإذا هو في حساباتها يرتفع إلى مستوى أصحاب
الثل والبادي . . .

وكأنى بغيرها فئة أخرى تصوبه ، وتستطيع أن تزعم له صدق النظرة واطلاعها على المجهول ، إذ تنكشف له الأحداث فإذا الناس هذا اليوم في فريق العراق والشام ، قد « ثبطتهم » الظروف عن الحرب فقعّدوا مثله يلتمسون عافيتهم في السلام أو في السعى إلى استفاة السلام . . .

ومن حق الأشعري أن يستمسك برأيه . ومن حقه أيضا أن يرى في هذا التحكيم رجعة من الناس إلى تلمس خطة هينة ، ليس فيها عنف الحرب ، وتدنو هونا من خطته التي دعا بها وهو في الكوفة إلى القعود عن المشاركة في القتال ليجبر الخصمين على التزام الحسنى لنقض ما وقع بينهما من النزاع . . . من حقه لا ريب كل هذا وكثير غيره مما عساه قد خامر ذهنه حينذاك ، ويخامر الآن أذهانا أخرى من الآراء والنظرات ، ثم من حقنا بعده أن نقساءل أكان أيضا له أن يخضع قضية التحكيم ، وهي قضية عامة ، لرأيه الخاص ؟ . . .

كلا . . . وكلا بلا جدال . . . فلم يكن أبو موسى يمثل نفسه . كان يعلم أنه يمثل العراق والإمام . وكان يعلم أنه قد اختير ليتحدث عنهم برأيهم لا برأيه . وكان أولى به — إذ أيقن أنه لا يستطيع التحرر من رأيه القديم — أن يستقبلهم اختيارهم ، كما كان أولى به من قبل أن يستقبل الإمام ولايته على الكوفة ثم لا عليه لو اعتزل ، ملتزما سياسته السلبية ، أو داعيا لها بصفته الشخصية لا بصفته العامة . .

ولكنه لم يتجرد من نظرته الأولى . وأبى إلا أن يساير في التحكيم هواه ، فخذل الدين جاءوا به ، ونصر الدين كانوا أولى عنده بالهزيمة والخذلان . ولئن قيل إنه « حكم » وما هو بنائب ولا سفير لأهل العراق فليس يحق إذن عليه التزام رأيهم والدفع عنه . . . إن قيل هذا فإن القول به لا يهدر الحدود التي كان على الأشعري ، بأية صفة من الصفات ، التقيد بها والسير بحكمة في نطاقها المرسوم . . . لقد كان جليا له ، قبل اختياره وبعد اختياره ، فیم اختلاف الناس ، ولم اختاره أهل العراق ، وأية مبادئ — بنص وثيقة التحكيم — عليه التزامها وهو يناقش رفيقه ابن العاص ليخلص وإياه إلى الحكم المطلوب . . . كان هذا كله جليا ، وأجلى ما فيه ذلك النص الصريح في الصحيفة الذي أوجب « الحكم بالقرآن » .

فإذا رأى أبو موسى من بعد أن « يجتهد » رأى ثم يحكم بما يراه ، فحكمه إذن مردود منقوض لأنه لا يقوم على مبدأ « الحكم بالقرآن » ، واجتهاده إذن اسم جديد لهواه لأنه « لا اجتهاد مع نص » . . .

ومع ذلك فقد مضى شوطه ... لعله كان أسير نظراته القديمة ... لعله انزلق في دعوى معاوية ... لعله خدعته خدع ابن العاص ... على أى حال ، نسي الرجل — فيما بدا — الفتنة الأحنف ، ووصية ابن عباس ، وتحذير شريح ، وهو يتخذ سبيله إلى دومة الجندل . أفلم يكن أجدر به أن يذكر ، فيعتبر ، ما عساه قد أنسيه ، وهذا كتاب من الإمام قد لاحقه ، إلى حيث أقام بتلك البقعة بين الشام والعراق ، فيه تذكرة ، وتلميح بالشك ، وتحذير من الليل والزيف . . . لقد كتب على إليه إذ ذاك :

« ... إن الناس قد تغير كثير منهم عن كثير من حظهم ، فماتوا مع الدنيا ، ونطقوا بالهوى . وإني نزلت من هذا الأمر (الخلافة) منزلا اجتمع به أقوام ، أعجبته أنفسهم ، أداوى منهم قرحا . . . وليس رجل — فاعلم ! — أحرم على جماعة أمة محمد وألقتها مني ، أبتغى بذلك حسن الثواب ، وكرم المكاب . وسأفي بالذي أخذت على نفسي وإن تغيرت (أنت) عن صالح ما طارقتني عليه . . . »

كانت العودة حزينة ... العيون ساهمة . القلوب مكلومة . الرؤوس خافضة .
وهذه الأجسام التي مشقتها خشونة الصحراء ، وضمرت شدايد السلم والقتال
لاحت رخوة متداعية كأنها بلا عظام وأعصاب . وهذه البشرة الحنطية التي
أنضجتها حرارة الشمس ، ولوحتها أطيايف الأشعة ، بدت شاحبة كأنما امتصها
الرمل رونقها ، أو عكس عليها لونه الأصفر . . .

بلا حياة . في خمول وثقل . يمثل حركة الظلال أو الدمى للمنحوتة عادوا
يطلقون الأقدام على طريق حياة هي الموت وقد خلفوا وراءهم ساحة موت كانت
لهم في جنباتها حياة ... تفهقروا إلى مواطن الدعة . ارتدوا للسلم ينسلون صوب
الكوفة ففيها ملاذ لكل حالم بالطمأنينة يرخي جفنيه عن غوائل الحرب فعل
النعامة عن سهام الصياد . . .

وخلف ظهورهم كانت صنيين . البقعة التي غدت بقعة كبيرة من الدم ! اللثوى
الفسيح الذي التقم وما تخم ، وشرب وما شرب . . . الأرض الندية الجراء !
فكم لونوها . . . وكم أودعوها . . .

كم تركوا عليها وهم يعودون . . . كم خفقة قلب ، وخلجة صدر ، ولحمة عين
من اللحاحات اللواتي تترجم عن القلوب والصدر . . . كم أهדרوا ، هناك ، فوق
أرضها من عواطف ، من حنان الأبوة . من وفاء البنوة . من التعاطف الذي
كان حق أمسهم القريب يربط بين الرفاق في السلاح . . . تلك الأعداد الوفيرة
الكثيرة من الأعضاء والأجساد التي غيبتها عن عيون الأنجم تحت التراب .
في قبور غير معلمة ، ليست كل ما ضيعوه . فالصفاء أيضاً قد مات . . .

حق اللفظ الذي صاحبهم عند نخرجهم من ميدان الموقعة ، مات هو الآخر . .
دفنوه في صدورهم . وأدوه حسرة حية تضطرب بعد أن عملوا نهارين وليلتين
في إهالة ترى صنيين على قتلاهم . أم لا ، فقيم هو الآن ؟ . وما جدواه . . ؟

لقد ربح من ربح وخسر من خسر وليس بينهم راجع على الإطلاق ؟ .. إنهم
ليعلمون أن النقاش نقش على الهواء اصرخة بلا صدى ا هينة كهينة النائم ..
وإذا كان له ما وراءه ففرقة أقصى من هذه التي أشاعها بينهم ، منذ أيام ،
نداء التحكيم . . .

كلا ما لهم اللحظة طاقة لجدل ، ولا قبل بمحدث . . . هذه نفوسهم تبرم بهم .
تعاف ما كان منهم . نخجل أن تبدى فيه وتميد . فالسلم الذي تنادت به بعض
طوائفهم أطلع التسليم أو ما هو أدنى في اعتبار الحقائق من التسليم . والحرب
التي تصايحت بها بعض فرقهم كانت أدنى إلى أن تكون مذبة تقط فيها أعناق
قلة متحمسة بينما الكثرة المفتونة بإغمد السيوف واقفة تنظر . وبين أولئك
وهؤلاء كانت طوائف و فرق ترجع في حيرة ، لا تلحق بأحد الحزبين لأنها
لم تكن على يقين مما تريد . . . أما الآن فكلهم في هذه الحيرة : أصحاب التردد ،
ودعاة الحرب ، وللبشرون بالسلام . . .

كلهم في هذه الحيرة وهم يحركون أقدامهم للعودة ، ينطلقون في تشاقل ،
ويتدأبون على منبسط الصحراء في مسيرهم متداعين ، بلا إرادة ، كالمشيم حين
تدفعه الريح . . . بلا عظام ، بلا أعصاب كأنهم ظلال . . . والمشاعر في صدورهم
موءودة ، والخواطر في عقولهم خرساء ، والكلام في حلوهم غثق ، وليس
فيهم من علام الأحياء إلا زفرة تضطرب ، وخجل يرخي الأهداب ، وحسرة
تحنى القامة . . .

وسموا الإمام يبتهل لربه ، في نبرة حزينة :

« ... اللهم إني أعوذ بك من وعشاء السفر ، وكآبة للقلب ، وسوء للنظر

في المال والأهل . . . »

فكأنما هم في حلم . وكأن دعاءه قد شد شفاههم إليه فرددوه بغير وعى ،
مخافتين . . . ثم ذابوا خجلا . ثم تهافتوا حسرة ، والأقدام واللطايا تتحرك بهم
إلى الجنوب . . .

في سهوم ووجوم . وفي انكسار وكآبة ، راحوا يأخذون على شاطئ

الفرات صوب النخيلة ضاحية الكوفة ، حاضرتهم التي شهدت من أشهر يتمجلون
زحفهم إلى الشمال ليقطفوا النصر . . . فما أقرب اليوم من أمس ، وما أبعد
الحال عن الحال . . . إنهم ليسيروا سير الداهل ، لا يكادون يلقون بالامن
يستقبل ولا لمن يودع . أفواههم تعي بالكلمة ، وعيونهم تثقل بالنظرة . حق
الطريق التي أقبلوا عليها إلى صفين قد مالوا عنها ، وأخذوا غيرها أخرى ، كأنما
أخجلهم أن تشهدهم وهم على مثل فشلهم ، وتهاوى أيدهم وعزمهم ، وتفرق
رأيهم وهي التي من قبل شهدت وعزمهم منبع ورأيهم جميع . . .

واجتازوا هيت . وبلغوا صندوداء . . . وذهب مساء ، وجاء صباح . . .
عندئذ انتفضوا أحياء . . . تدفق الدم في وسائل الدمي المنحوتة ، وفي أطراف
الظلال . . . إنهم الآن قطعوا شوطهم . بلغوا آخر المراحل . . . فها هي النخيلة .
ها هي من ورأها آيات الكوفة تلوح لهم كالبقع الشهباء في ثوب النور . ها هي
وجوه أقوامهم ، تكاد تطالعهم في أخيلتهم الك . . . سامية زارية . . . وهل
هي إلى سوية أو بعضها ثم يلقون الناس ؟ . . . ويسمعون لوما أو يسمعون
سخرية ؟ . . . ويرجهم عويل هنا وعويل هناك ؟ . فما الذي تراه أعدوه لقاء ؟ .
لا الصمت يجدي عليهم ، ولا الوجوم يغني عنهم . . . هذه شفاههم تنفرج .
وصدورهم تضطرب . وعقولهم تصطنع وتعمل الشاعر المدفونة في أعماقهم
تمزق الأكتاف . الخواطر الحبيسة في أذهانهم تكسر الرجاج . الكلام المنقوش
في الخلق راح يتشكل همسا : فاعطا ، فطيننا ، فتصايحا وصرخات . . .

وعنف النقاش . . . فرغ الآن همهم من مشقة السفر ، ومشغلة الوجهة التي
نحلهم إياها ارتدادهم الفاشل عن صفين ، وانبطح حيالهم من زمانهم فراغ تستطيع
ألسنتهم المنهومة للجدل أن تتسابق فيه ، وأن تشتبك ، وأن تتصارع — فلا بد
من حجة يسوقونها للناس ، وعذر يسترون به أوبتهم التي عادوها على استحياء . . .
ولقيهم عن مدخل البلدة ابن وديعة الأنصاري : فأسرع يستقبل الإمام ،
وأسرعوا هم يرجئون مهاتراتهم ، ليصفوا في حديثه إلى ما قد يدلهم على رأى
أهل حاضرتهم فيهم . . .

ويسأله على :

« ما سمعت الناس يقولون في أمرنا هذا ؟ . . »

فيجيبه الرجل :

« منهم للمعجب به ، ومنهم الكاره له . . . والناس كما قال الله تعالى :

ولا يزالون مختلفين . »

« فما يقول ذوو الرأي ؟ . . »

فيتردد هنيئة ، متحرجا ، قبل أن يقول :

« يقولون إن عليا كان له جمع عظيم ففرقه ، وحسن حصين فهدمه ، حتى

مضى يبنى مثل ما قد هدم ، وحتى متى يجمع مثل ما قد فرق ؟ . . فلو أنه كان

مضى عن أطاعه إذ عصاه من عصاه ، فقاتل حتى يظهره الله أو يهلك ، إذن كان

هو الحزم . . . »

هنا يظهر الغضب في وجه الإمام ، ثم يتلوه أسي ، ثم تنطلق عينه توميء إلى

الجموع العائدة معه ، أو العائد معها إلى حيث أرادت ، ويقول بنبرة مرة وهو

يقلب كفيه من عجب :

« أنا هدمت أم هم هدموا . . أنا فرقت أم هم فرقوا »

ويعضى وجهه . . .

ويعود اللفظ والطين والتصايح . . . صحا في جيشه الخلاف بعد أن نام .

وأقبلوا فيما بينهم يترامون ثانية باللوم والشتم ، ويتراشقون بالدعوى والتهم : هذه

الحائمة الخنزيرة التي انجلت عنها صفين قد جرها عليهم هذا الفريق ! — كلا بل

ذاك ! — كلا بل أولئك الذين ترجحوا بين الفريقين لا يقرون ولا ينكرون . .

والتهم تحشد . والدعوى تكس ، والقرى تكتال بالكيل الأوفى وليس فيهم ،

مع هذا كله ، رجل واحد إلا نزه نفسه من الوزر وألقى بالتبعة على كاهل

سواه . ولولا ما كان بهم من إعياء الرحلة ، ولولا دنوهم هذا من الأهل والمشيرة

لكانوا احتكموا حينذاك للسيوف والرماح بدل احتكامهم للمص والسياط ! .

أجل . فلقد وسعهم أن يتشائموا ، ويتنابدوا بالألقاب . ووسعهم أن ينزو

بعضهم على بعض فيضرب بعضهم وجوه بعض . وأوشك سلاحهم آونة أن يتشابك

ويتلاحم . لم يتلوموا هنية ولم يستشعروا حرجا أن كان الإمام فيهم فما يخرجهم شيء ، ولا يكفهم شيء . أفلم يهدروا هناك ، على رمال صفيين ، كل العواطف الكريمة : حنان الأبوة ، ووفاء البنوة ، وحتى ذلك التعاطف الذي يؤلف دائماً بين الرفاق في السلاح ؟ . . .

مرة ، وثانية ، ومرات تلاحوا وتشاءوا وتضاربوا وهم على الطريق للكوفة . ولم تشهدهم البلدة من بعد إلا عدوين . ولم يستقبلوا أبوابها إلا فرقتين على خصومة جامحة . وعندما أخذت مطيهم وأقداعهم تطأ مدخل الكوفة ، كانت فرقة منهم تصبح بخصيمتها :

« ويحكم . . . فارقتم إمامنا ، وفركتم جماعتنا ، و . . . »
فإذا الأخرى تزار :

« يا أعداء الله . . . أدهنتم في أمر الله ، وحكنتم . . . »

ثم تنحرف بجمعها عن الصفوف العائدة كأنما يضاهيها أن يحتويها وإياها مكان أو يجمعها طريق . . . تنحرف في لجب وضجيج إلى قرية حروراء تلوذ بها عن هذه الحاضرة التي يعود إليها الإمام والدين تابعوه . فلما لها معه مقام . فرقهما الرأي فليفرقهما الوطن . . .

ويحزن الإمام . ويمضي بصفوفه الباقية في دروب حاضرتة والألم يعصف برأسه ويرنح خطواته . . . في صمت أجوف يسير . ومن ورائه لا تزال تدوى كالطبول صيحات هذه الفئة الخارجة عليه من أصحاب حروراء . . . تدوى صاحبة هادرة ، غاضبة ثائرة بهتاف أكثر من عشرة آلاف لسان :

« البيعة لله . . . البيعة لله . . . »

ولكنه لا يزال صمته ، ولا يروض نفسه على التطلع نحوها إلى الوراء . . . إنما ينطلق قدما ، إلى منتجعه المنتظر بالكوفة ، بصفوفه الصامتة كصمته ، الأسبانية كأساء . . . في وجومه الحزين ينطلق ، وثيدا وثيدا ، خطوة خطوة . حتى إذا طالعت القبور بظاهر البلدة ، ضيق الخطا ، وخفف السير ، وانقسمت سحابة الوجوم لتفسح لصفاء الخشوع على عجايب . . . فهاهنا دائما الخاتمة ، في حفرة كهذه الحفر . . .

هنا تصغر النفس حق تفنى ، ويرق الجسد حق يشف ، وتذوب الخلاقات والأطماع . . . هنا تصبح الحياة عبء . . .
ويقف يخاطب ساكنى ذلك القفر ، فى هدوء :
« السلام عليكم يا أهل الديار الموحشة ، والمحال المقفرة . . . أتم لنا سلف فارط ، ونحن لكم تبع ، بكم عما قليل لاحقون . . . »
ثم يرفع وجهه إلى السماء ، يناجى ربه بالرجاء والضراعة :
« . . . اللهم اغفر لنا ولهم ، وتجاوز بمعرك عنا وعنهم . . .
طوبى لمن ذكر المعاد ، وعمل للحساب ، وقنع بالكفاف ، ورضى عن الله عز وجل بذلك . . . »

٢

عادوا من وادى الموت ينسابون إلى قلب البلدة انسياب الأنهار ، بغير ضجة ولا هرج ، فالأرض تحتمهم خرساء لا تستجيب لوقع الأقدام . وكانت عودة هادئة ، لينة كأنما مشوا على ريش . ولكنها كانت أيضاً حزينة ، فأينا خطوا كان بكاء . وأينا كانت أدمع لاحت الأعين من وراء غيومها الرقيقة كسيرة ذابلة وهي تجول من صفوفهم فى ثغرات فارغة كان يملؤها أمس القريب أحباب وارايم التراب الندى فى صفين . . .

وكانت البيوت كالهجورة . وكانت الطرقات موحشة وإن غصت بالرجال والصبية ، فالبكاء صامت والأنين مكتوم . من هنا تند زفرة ثم يستردها التجلد . من هنا تبدر أنة ثم تغرق فى الصمت . وراء هذا الجدر لواعج ذاهلة ، لا تعربد ولا تصيح ، والجيش يسير فى تراخ ، ثقيل الخطا ، ثقيل القلوب . . .
لكن غاشية الصمت التى لفت الكوفة لم يتع لها حينذاك أن تدوم . كانت مثل غيمة من غمام الصيف بددتها خفقة ريح . . . الدمع الحى ينطلق .
الخلق تنفسح للنفس . الصدور تضيق بالأنين . كلما تقدموا على الطريق أوغلوا

في الحزن . وكما أوغلوا سكنت الصمت وتحديث التنجيم نطق القلب
للتجلىة بالمواجه ، فكان صياح وكان عويل

ويرتج الجمع . وتضطرب الخطا والبكاء في هذا الحى قد زلزل تحتهم مواطئهم
وهز عمد الفضاء ويرفع الإمام عينا عاتبة ، فيها شعاع من الرثاء والمرحمة ،
إلى رجل من أصحاب الطريق بقاء ويقول في عطف مشوب بإنكار :

« أينبغكم نساؤكم ؟ ألا تنهونهن عن هذا الرنين ؟ . . . »

فيدارى الرجل من حزنه في حياته ، ويجيب بخفوت :

ويا أمير المؤمنين لو كانت دارا أو دارين أو ثلاثا قدرنا
على ذلك . ولكن — ليس دار إلا فيها بكاء . . . »

ويطرق الإمام . ويسكت الرجل هنيئة وقد هاضه أن يسير في الحديث ،
ويرخى إلى الأرض عينيه حتى إذا وسعه بعد قليل أن يرفع بصره كانت
على أطراف أهدابه قطرات أدمع مستحبة

ثم يكتسى التجلىة بهز رأسه كأنما لينفى عن نفسه وأهل حيه الحور
والتهافت والتسليم للفجیعة . ويضغط بأسنانه على شفته السفلى مغالبا عاطفته ،
ويقول وهو يرسم على ملامحه المكتئبة أطياف بسمة مشرقة :

« أما نحن ، معشر الرجال ، يا أمير المؤمنين ، فإننا لا نبكى

ولكن ، نفرح نفرح لهم ألا نفرح لهم بالشهادة ؟ . . . »

فيأسى على له . ويربت ظهره مواسيا ويقول وصوته الهادى يذوب
حزنا ورحمة :

« رحم الله قتلاكم وموتاكم »

وإنها لرجاء ودعاء : الرجاء الذى يملكه حى لميت ولا غاية بعمده لأمنية
أو رجاء ، والدعاء الذى ينتظره ميت من حى ولا رقية غيره لمتلف على دعاء .
وإنها بعد هذا لعزاء

ويعضى الإمام صابراً محتسباً ، تخب به دابته . ويعضى الرجل ، متصبراً يسير
في جواره . فإذا على عند هذا يكبح دابته فتقف ، ويخاطب هذا الرفيق المحزون :
« ارجع فإن مشى مثلك مع مثلى فتنة لاوالى ، ومذلة للمؤمنين . . . »

ويأخذ سبيله وجيشه إلى القصر . . .

غير أنه لا يبلغه إلا وقد غدا هدفاً المزة من هنا ولمزة من هناك . فما سلم من
لحى القوم ، ولو من لومهم هم الذين أولى بتبكيته وعذله وقد جنوا عليه
ثم يوشكون أن يسلموه يومهم وغدهم لقبضة مصير مؤلم رهيب . . . ولكن الناس
هم دائماً الناس ، يترصبون بالمهيض الدوائر وإن وطأوا له للزائق تحت قدميه . . .
وها هو رجل من القوم يسخر ، لا يرده عن السخرية ذوق ، ولا تكفه عنها
محنة جديرة بالرائاء والتهوين ، يقول هذا الساخر في غير حياء :

« ما صنع على والله شيئاً . . . ذهب ثم انصرف في غير شيء . . . »

ويقلب كفيه ويهز رأسه . وتسرى كلماته الجارحة ، دون أن يدري ، إلى
مسمع الإمام فيلتفت إليه بنظرة زارية يفيض لها الدم في وجنة الماذل المجترى ،
ثم يقول لأصحابه :

« وجوه قوم ما رأوا الشام العام . . . »

فقد عذل وهو قاعد ، ولام وهو بقموده أحق باللام . ولكنها الألسن التي
تصيد الهنات ، والأعين للوكولة بالتطلع إلى ذرة الغبار في غيرها وفيها هي من
القذى مثل الأعواد ؟ . . . وكم غير هذا الناقد قالوا كقولهم وكانوا قعوداً لم يبلوا
مع الإمام في كفاحه الدامى ، ولم يعانون عناءه ، ولم يؤازروه ؟ . . . وكم غيره أيضاً
من الذين ارتادوا حقل الهلاك والنصر قد أضلّتهم غفلتهم فذاقوا من الهلاك حتى
تخموا عن النصر . . . كم من أولئك وهؤلاء يلحونه أو يعادونه وأجدر منه بهذا
اللقى وهذا العداء أنفُس لهم مريضة أو غنيدة قد أوهنت من أيده أو قهرته على
إهدار نصره هناك على ثرى صفيين ثم تأبى هذه اللحظة إلا أن تأخذه ، وهي
ظالمة ، بإثماً وتحاسبه عليه . . .

ولكنه يصير ما له عن الصبر على الساخر والمائب والمائب سبيل عسى أن
تبيين الحقائق فيرشد الغواة إلى هديه . إنما الذى أهمه وحز في نفسه تلك الطائفة
الغالية في مشاققتها ، التي رافقته في الخروج وهي أمعن ما تكون غلوا في الانتصار له ،
ثم رافقته في العودة وهي أمعن ما تكون غلوا في الإقتضاض عنه ، ما لها انحازت

إلى حروراء . . . أى الأمور تنكره منه ؟ . فبم خروجها عليه حين مرجعها
وهى أخرى بأن تبدى له من ندمها وتوبتها عما فرط منها هناك ، بساحة المعركة
ساعة الفصل ، فجر عليها وعلى إخوانها وعليه جميعا هذه العودة التى صارت مادة
للسخرية واللامة ؟ . .

أولئك الحرورية التوى بهم تفكيرهم حتى لتعبي في مرادهم الأفهام . هم اليوم
يأبون التحكيم . وهم أمس قد تقبلوه وغلوا في تقبله حتى أجبروا عليه الإمام
أو يقتلوه أو يسلموه . وبين موقفهم هذين تفرخ الفتن وتنمو ، ثم
تسمى وتميث . . .

غير أنه كان رأيا رأوه واعتنقوه اعتناق العقيدة للنزلة فلا فسحة لغيره في
صدورهم الضيقة . هو القضاء الذى لا يبرم . تنزيل من التنزيل فلا نقاش فيه . .
فمن عجب وهم القراء ، وأعلم الناس بالقرآن — فيما يتبدون للناس — تضيق بهم
مواطنهم . ويغتم عمى عصبيتهم الذهنية على قلوبهم حتى يغيب عنهم أن أولى وسائل
الدعوة للرأى ، كما رسمها الدين ، هى اللوعظة الحسنة التى توفر حرية المناقشة
ثم تقود إلى استخلاص أرجح الآراء ، وأثبتها للحجة ، وأجدرها بمد هذا بالاتباع .
لكنهم كانوا كما تحدث رسول الله عنهم ، ذات ساعة استضاء له فيها الغيب :
« يتلون القرآن لا يتجاوز تراقيمهم ! » . . . وهم الآن يتلونه ويلحدون فيه .
ويتأولونه بما يعتسف لهم من المعانى غير ما تطبق آياته جريا وراء غاية لهم رسمها
هواهم ، وتأيد الرايهم المشبه الخيط ، وها هم أولاء تعصرهم كزازة عقولهم في
مثل كهف مظلم ضيق لا تنفذ إليه لمحة من شعاع الإدراك ثم يحسبونه طلاقة العلم
والمعرفة . . . وإذا هم بزعمهم هذا هم وحدهم أصحاب النور . وإذا رأيهم وحده
هو الرأى . وإذا إيمانهم وحده هو الإيمان وكل ما عداه عمى وضلال . . .

كذلك زعمت هذه الطائفة صاحبة حروراء ذلك اليوم الذى باينت فيه عليا
وأبت أن تساكنه بمكان . فهو عندها ومعاوية سراء ، كلاهما قد انحرف ، وهو
والذين تابعوه ليسوا من الهدى فى شيء منذ ارتضوا التحكيم فأقروا به مبدأ يهدم
الدين لأنهم قبلوا أن يحكموا الرجال فيما لا حكم فيه إلا الله : وهو إذن أولى بأن
ينابذوه ، ويخلعوا طاعته ، ويخرجوا عليه . . .

كان هذا ما « هدام » إليهم تفكيرهم واتهموا به إلى رأى قال كل الغلو ، مغرق كل الإغراق في العسف والخطأ والتخيف يوشك أن تعتنقه شريعة سوف تحدث أفظع فتنة أصابت الإسلام . وقد اعتنقته اليوم ، وستعتنقه شرارهم لا تزال نطفها في أصلاب الرجال . وسيحضى الزمن بالأعصر فإذا الجليل بعد الجليل ينجم فيه لهذه الخارجة حزب لا ينفي بألو الأمة الإسلامية من مشاقته ما يشيع بين أبنائها الفرقة والعداوة والدم . وإذا كان أصحاب حروراء الآن قد أبوا على الإمام إمامته ، فإنهم من بعد سيأبونها على كل رجل لأنهم لا يرتضون إلا دولة « دينية » بلا إمام على الإطلاق فلا تنازع فيها « لكبار » على السلطان . إنما الأمر فيها لله ، والبيعة لله .

استحدثوا إذن نظاما جديدا من نظم الحكم ، شعبيا مغرقا في شميته لا حاكم فيه ولا محكوم من الناس ، الكل في ظله رعية الله . . . واستبد بهم رأيهم هذا حق أبوا أن يجعلوا على شريعتهم رئيسا منهم تطبيقا للبدا الذي استخرجوه . فخرقوس بن زهير أبي الرئاسة . وحمزة بن سنان أباه . وشرح بن أوفى امثل هو الآخر نهج صاحبيه . ولولا أن كانوا بسبيل حرب توشك أن تنشب بينهم وبين الإمام لأبى أيضا عبد الله بن وهب التزاما لما رأوا أن يأخذوا به الأمة جميعا من إباء الرياسات والإمامات . . . ولكنه عندئذ استحل لفرقة ما أراد تحريمه على أمته ، فقال لأصحابه حين عرضوا عليه الزعامة وألحوا عليه في القبول : « هاتوها . . . أما والله لا آخذها رغبة في الدنيا ، ولا أدعها فرقا من الموت . . . »

وهكذا غدت « البيعة لله » شعارا لطائفهم يلهجون به ويتخذونه دستوراً للحكم تقوم عليه « دولة مثلى » ابتناها لهم في خواطرهم الخيال . وعجيب حقا أنهم تنادوا به . وأعجب منه أنهم رأوا تطبيقه في الدولة الإسلامية وقد تبين لهم استحالة تطبيقه في مجتمع فتنهم القليلة للفتونة . ولكنهم مع ذلك استمسكوا به أشد استمساك ، وحسبوه دارتا عن الشعب الخلافات والحصومات التي يجرها تنازع « الكبار » على السلطان . وصورت لهم أوهامهم أنه أقوم للبادي والداثير

وأدناها إلى مقاربة الديث واتباعه لأنه يحق أمر الله ، ويجنب الناس طغيان الحكم . . .

ولقد عجب لهم على كيف تستمرى عقولهم مثل منطقهم ثم تلج وتكابر ، وتأبى أن تستجيب لمنطق الواقع . فإذا بنا من بعد نسمعه يناقش مبدأهم ، ويطلعهم بهذه المناقشة على ما تحتمه ظروف المجتمعات الإنسانية في كل زمان ومكان ، وفي حقائق الحياة لا في سطحات الأوهام ، فيقول :

« ... نعم ، لا حكم إلا الله ، ولكن ، هؤلاء يقولون : لا إمرة إلا الله ... إنه لا بد للناس من أمير ، بر أو فاجر ، يعمل في إمرته المؤمن ، ويستمتع فيها الكافر ويبلغ الله فيها الأجل . ويجمع به الفى ويقايل به العدو . وتأمن به السبل ويؤخذ به للضيف من القوى حق يستريح به بر ويستراح من فاجر ... »

هذه سنة الحياة وإن أبى معتزلة حروراء ، وإن أغلقوا عيونهم دون حقائقها ، وأصموا السامع عن دعوتها التى استجابت لها البشرية منذ درجت فى اللهد حق شبت وبلغت اليفاع . غير أنهم كانوا فريسة عناد أورثتهم إياه عصبيتهم العمياء لرأيهم للشبه الحيط ، فإذا هم دائماً يجمعون فى الفى ، ثم لا يزالون يجمعون ويخبطون كالعشواء حق تحشهم مصارعهم جيلا ناجما وراء جيل . . .

٣

لمعتزلة حروراء ، مهما قيل عنها ، أن تعتنق أى المبادئ تراه فى نظرتها أمثل الدساتير . وأن تجعل منه القاعدة التى تبنى عليها نظام الحكم الذى تعلم بتحقيقه وتحسبه أقوم النظم ، وأجداها على الجماعة ، وأولاها بالاتباع . وأن تدعو بعد هذا لنظامها ودستورها بكافة وسائل الترويج والإعلان . فما عليها أن تفعل ما لم تجر على حق الناس للشروع فى تقبل دعوتها بالحسنى ، أو رفضها بالحسنى . وما لم توقع بها بينهم فتنة . وما لم تخالف الدين . . .

من حق هذه الطائفة إذن أن ترى ، في الحدود المقررة ، ما تشاء ، وأن تدعو كما تشاء لأن هذا الذي تراه ، على أى حال ، رأى من الآراء له أن يسمع ، وعلى المجتمع أن يوسع له في الحياة ما ثبت للتمحيص والمحااجة . فهذه هي الحرية التي تكفلها دائماً الشرائع ولا تنبؤ بها العقول . . .

ولقد لقيت دعوة الحرية دائماً من على سعة الصدر ، وانتفاح الأفق ، والترفق الذي ليس بعده ترفق بدعوة مثلها قد اعتسفت اعتسافاً لإهدار حقه هو والنيل من شخصه ومن دينه إمعاناً منها في مناهضته والانتفاض عليه ، ذلك لأنه كان « إنساناً » مثالياً قبل أن يكون حاكماً مثالياً ، يعرف ما لحرية الرأي من أثر في تجديد الأفكار ، ودفع الشعوب في سبيل التطور والارتقاء إلى الأمام ، والبلوغ بالإنسانية إلى حياة أفضل . كما كان يعرف أن كبت هذه الحرية أو إهدارها هو في حقيقته إهدار ظالم لآدمية الإنسان .

فعلى ما بدا من تلك الفئة من عصبية ذهنية عمياء ، ومن غلو في العنت والتجنى ، ومن ركوبهم إياه بالمساءة التي لا تقرها قط أساليب الجدل للنصف النظيف ، ولا وسائل الخصومة الشريفة ، ظل على دائماً يلاقهم بالحسنى ، ويقابل زعمهم بالحجة ، ويقرع الرأي بالرأي دون أن يضيق بعنتهم أو يعضل به تجنبهم عليه فيروضهم بما في طاقة الحاكم من ضروب الشدة والقمع والإرهاب . . . وحتى عندما بلغوا من إبدائهم مبلغهم ، وتنادوا فيها بينهم بكفره ، وسلوا سيوفهم ييغون قتاله وقد أبوا إلا خلع ما له عليهم من طاعة . . . حتى في تلك اللحظة الحازبة التي أسفروا فيها عن إنكارهم عليه حقه في حرية الرأي التي مدها لهم ، وكشفوا عن عداوتهم المبيتة ، نراه يتعفف عن معالجتهم بشكيمة الحاكم ، ويترفق غاية الترفق فيقول لهم :

« إن لكم عندنا ثلاثاً : لا نمنعكم صلاة في هذا المسجد . ولا نمنعكم نصيبكم من هذا النخيل ما كانت أيديكم مع أيدينا . ولا نقاتلكم حتى تقاتلونا . . . »

ظل على هكذا من بدء اختلافهم عنه إلى أن شبوها عليه حرباً عمياء متحيفة كانت وبالا عليهم . فما كان عنهم لينال من سماحته . وما كان تجنبهم ليخرجه

عما التزم به نفسه من « مثالية » المعاملة ، لرفاق والأعداء سواء بسواء ، مثالية
ترسم للبشرية نهجا معبدا مستقيما إلى حياة فضلى فى ظلال المساواة والحرية
والكرامة ، ومنذ انحازوا عنه إلى حروراء ، عند دخوله الكوفة ، قالها فيهم
قولة لأصحابه لم يجد عنها قط :

« إن سكنوا عمنناهم ، وإن تكلموا حجبناهم ، وإن خرجوا علينا قاتلناهم .. »
وكان يعنى أن لهم عطاء هم يعمهم جميعا به ما جنحوا للسلم . وكان يعنى أيضا أن
رأيهم هذا الذى ارتأوا فى سياسة الحكم وفى شرعية التحكيم هو عليه هين لا يكاد
يثبت لمنطقه إن هم تحدثوا إليه به ، لأنه كفىل بأن يحاجهم فيحجهم ويغلبهم
بالبرهان . وكان يعنى بعد هذا أنه لا سبيل له سوى مقاتلتهم إن هم عدلوا عن
الاحتكام المنطق إلى المجاهرة بالخصومة المسلحة . . . كان يعنى كل كلمة قالها ،
وبقى وفيا لكل عهد قطعه فيهم على نفسه ، ولم يكرهه أنهم نبذوه وغلوا فى شقاقه
حق تهاقفوا بخلع سلطانه بغير حق ولا حجة لأنه عليهم بأن السكارثة حين تجيء
لن تلقاهم إلا وهم لها وليمة . . .

ومع ذلك فلم يدعهم وما اختاروا لأنفسهم من غى دفعتهم إليه فى الحقيقة
كزازة الذهن وأغرام به ضيق مسالك التفكير . إنما حرص كل الحرص على
أداء واجبه نحوهم كاملا بأن يبصرهم ، ويعمل ما وسعه على انتشالهم من وهدة
الخطأ الذى تردوا فيه فإن فاءوا إلى الرشدهم إذن منه ، وإن أبوا فليس عليه
حسابهم وما هو عليهم بوكيل .

والواقع الذى نراه ماثلا أمامنا من خلال هذه المحنة هو أن الإمام لم يكن
يعنيه أن يستفيثهم إلى جانبه ليستعز بفرقتهم ويقوى بها على غريمه ، إن عادت نيران
الحرب إلى الاشتعال ، بقدر ما كان يعنيه أن يجهد لهداية طائفة ضالة قادها عماها
الذهنى للانحراف . فهو دائما أحفل بالمعنويات منه بالماديات وهو أبدا يقدم رياضة
العقول وطب الأرواح على رياضة الجوارح وطب الأبدان . وهو فى حياته كلها ،
بالعظة والقعدة ، وكان مهذب النفوس قبل أن يكون مؤدب الأجسام وعندما
ترى طائفة كهذه من الجماعة الإسلامية التى انتهى إليه أمرها قد عنقت وأسرفت

في عنها حق لتأول القرآن فتسوء تأويله ، فإنه إذن حقيق بأن يسارع إليها ليكبحها ويأخذ بحجزها أن تشرذ وتهاوى في النار . . .

وكان هذا هو الذي أهمه . فلقد يضيره — كرجل دولة — أن يخرج عليه من شعبه فرقة ، تشغب وتشق وحدة الناس . ولكن الأكثر ضيرا والأشق عليه — كرجل دين — أن يكون في خروجها هذا عليه خروجا على مقومات الخلق البشري السوي التي تدعو إليها الشرائع وتقيمها أساسا لمجتمع فاضل . ذلك أن دعوة الحرورية ، بخلاف بدعتها التي اعتسفت دستوراً مزعوماً للحكم الشعبي ، كانت في حقيقتها تنطوي على التنكر للوفاء بالمهود والمواثيق ، وعلى الحث في الإيمان ، وعلى الحث على « دكتاتورية » فكرية تكاد تحرم حرية التفكير وتعطل العقول ثم تدعها شلاء . . .

كل هذه السقطات أودعوها دعوتهم التي بدت ، لأول وهلة ، وليدة غيرتهم على حق الإمام وتساميمهم به عن أن يتناوله بالمناقشة فرد من الناس حتى ولو كان هذا الفرد حكماً اختاره صاحب الحق أو اختاروه هم متحدثاً بلسانه وناثباً عنه . فلقد أنكروا من على رضائه بتحكيم حكيمين ينظران في الخلاف الواقع بينه وبين معاوية ولم يكنهم أن يروا في رضائه هذا إقراراً منه بانسلاخه من حقه الثابت في الخلافة ، بل تهاوتوا بأنه « كفر » وانسلاخ من الدين . . .

ونكاد نجزم بأن نظرية « الحق الإلهي » في السلطان إنما نشأت في الإسلام من تلك اللحظة ولم تكن الدولة العربية من بعد بحاجة إلى استعارتها من فارس التي لقحت الفكر الإسلامي بكثير من جرائم ثقافتها . ولقد يلوح هذا الرأي على شيء من الغفلة . ولكن دعوة الحرورية ، في الواقع ، قد انفسحت لهذه النظرية فيما انفسحت له من النظرات والآراء . .

فما هي دعوتهم ؟ . . . ومن أين استقوها ، أو إلى أي الأستاذ أسندوها ؟
ولام تومي* وتقود ؟ . .

نشأت هذه الدعوة ، وما زالت القوى للتصارعة على أرض صفيين لم تبرحها عقب تنادى فريق الشام والعراق بالموادعة ، واتفاقهما على إبرام وثيقة التحكيم . وكانت حينذاك خافتة . ولعلها لم تعد أن تكون فـكرة طارئة فجأة قفزت إلى لسان امرئ متحمس قبل أن تنضج في ذهنه ، فألقى بها يعلن مسخطة على هذا السلام الدليل المذل الذي حققته الوثيقة بديلا عن النصر العزيز المؤزر الذي كان آتيا لا محالة مع صبر ساعة أو نحوها على الحرب . على أى حال لا تراها إلا بدأت نفخة من حدث تضطرب حمية الشباب في دمائه فيرتفع عن قبول سلم هي الهوان ، وينبعث غاضبا وأخاله يحملان وحدهما على صفوف أهل الشام حتى يقتلا على باب معاوية . فلقد حدثنا التاريخ أن أول من نادى : « لا حكم إلا الله » حدثان صغيران من عنزة هما الأخوان « جعد » و « معدان » . . .

على أن نداءهما لم يمت بموتهما ، بل زاد جرسه علوا ، وزادت عبارته ذيوعا كأنما سقياء بالدم فترعرع وطال . . . ولم يكن عجبا أن يعلو ويذيع وله هذه « الرنة الدينية » الحقيقة بأن تسحر من القوم أصماع أناس يقرءون القرآن ، ويأخذون أنفسهم أخذا شديدا باحتذاء حروفه — فضلا عن نصه ! — احتذاء يعطل العقول ويشل الأذهان ويوفى بهم على شفاهاوية من الجلود الفكرى سحيفة . فما هو أن لقفوا اسم الله في النداء حتى ألقوا إليه القلوب والأصماع . وما هو أن تبينوا عباراته حتى رددوها ترديدا ذاتيا كأنه رجع الأصداء . وما هو أن خالط أفواههم حتى خاس عقولهم وأفئدتهم فسكرت به ، وغدوا منه في « غيبوبة دينية » حاجزت بينهم وبين الروية وسلامة الإدراك . .

تلقف أولئك القراء نداء الأخوين جعد ومعدان . وكلفوا به ، وهاموا هياما شديدا بجرسه الدينى فأخذوا يرددونه ، ويدعون إليه الناس بساحة صفيين ما شاء لهم الدماء والترديد . . وكان طبيعيا ألا يعدموا له نصيرا في صفوف أمثالهم من ذوى الجباه السود . وكان طبيعيا أيضا أن تلتف بهم طائفة من غيرهم من الذين كانوا يرون البقاء على الحرب وأنكروا الصحيفة وما أقرت من سلم مخزية ذليلة . كان طبيعيا أن يحدث هذا ، وأن تنجم الدعوة الجديدة كقرن اللاعز ، وأن يغدو

النداء الذى أنجبته — فيما نرى — فكرة طارئة فجأة ، مبدأ براقا يروجون له ، ويعصبون عقولهم وقلوبهم به ، ويناضلون عنه وهم يبشونه مبهين له من الأسناد والدعائم ما يقيمه راية عالية ، وإنهم لا ريب لقادرون على إسناده ودعمه بما فى طاقاتهم المرنّة من أدوات الجدل والتخريج والمكابرة . . .

لهذا نراهم لا يكادون يبرحون أرض الواقعة حتى يكون مبدؤهم قد لبس بالدين وانف به تليفاً أخفى وراءه النخوة والحماسة وحمية الشباب المتقدة التى حركت شفاء جمع ومعدان بالنداء . فهو عندهم مثل نص منزل . وهو عندهم دين من الدين . وبعد أن كانوا يرون الشرك كل الشرك فى إباء أهل العراق الاستجابة للاحتكام للقرآن عندما رفع أصحاب معاوية مصاحفهم ، وبعد أن جاهدوا هذا الشرك بألسنتهم وأسيانهم حتى حملوا علماً ، وهو صاغر ، على التسليم بالتحكيم . بعد هذا وذلك يعدلون عن نظرهم الأولى ، فإذا الشرك أن يبقى على علها ، وأن يفي بموثقهم وموثقه . وإذا الإيمان أن ينكث بمعهده ، وينقض الصحيفة ، ويعود إلى إنشأ القتال الذى أوقفوه . . .

كان رأيهم الذى ارتأوه واستمسكوا به أشد استمساك : أن الله أمضى حكمه فى معاوية وحزبه أن يقتلوا أو يرجعوا إلى وحدة الأمة ، ولا معدى عن أحد هذين الأمرين فى منطق كتاب الله . . . وكان سندهم هذه الآية الكريمة :

« وإن طائفتان من المؤمنين أقتلتا فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلتا التى تبغى حتى تنفيء إلى أمر الله . فإن فأت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين . إنما للمؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم ، واتقوا الله لعلكم ترحمون » .

فمعاوية وأصحابه بغوا ، واستنفدت معهم وسائل الاستصلاح ، وقوتلوا على بنهم فليس يحى عن أن يفيثوا إلى طاعة غير مشروطة ولا مختلف فيها ، يؤدونها صاغرين . . .

ذلك حكم الله .

أو ذلك حكمه الذى ينهيه أصحاب حروراء ، ولا مجال بعده لتأويل . . .

٤

تساءل فريق من قراء أهل الشام عن الخلاف الذى رأى أهل العراق حرجهم به ، واستحلوا عليه دمهم ، وإنهم جميعا — أولئك وهؤلاء — مؤمنون بالله وكتابه فلا ينبغي أن تكون بينهم فتنة مسالحة . . . وقالوا :
« نحن قوم نقرأ القرآن وليس يخفى علينا منه شيء . فأفهمونا الأمر الذى استحللتم عليه دماءنا . . . » .

وكان هذا بعد تداعى الفئتين للهدنة ، واتفاقهما على تحكيم حكيم فيما اختلفا فيه . . .

وأجابهم قراء أهل العراق :

« فارقناكم فى تفسيره ولم تفارقكم فى تنزيله . . . نحن وأتم نشهد أنه من عند الله . . . » .

ثم قال بعضهم لبعض :

« هم يمرضون كتاب الله بيننا وبينهم ، ويسألوننا حجتنا عليهم . وإنما هم صادقون أو كاذبون فى نيتهم ، وليس لنا عذر فى إنصافهم . . . فإنما نطلب الحجة بعد العذر ولا عذر إلا بيينة ، ولا بيينة إلا بقرآن أو سنة . . . »

وعلى هذا الأساس قام التحكيم لأنه الوسيلة التى تلزم المخطئ خطأه وتمهل له فى الرجوع للصواب . فهو فى حقيقته لا يعدو أن يكون استنباء كتاب الله حكمه فى الخلاف بينهم وبين أخصائهم ، يتم به الإعذار ، وتبليج به البيينة . وإذا كان القرآن « حملا » تنسع نصوصه — فى مجال المجادلة — لأكثر من تأويل ، فلهذا حكموا حكيم عارفين به ، ليتفقا على تفسيره بما يرضى الله ، أو ليحكموا بالسنة الهادية إذا فاتهما هذا الاتفاق . . .

كان هذا هو الهدف من التحكيم ، على الأقل فى رأى قراء الطائفتين إذا أغضينا عن الغايتين السياسية والحرية اللتين استترتا وراءه وكاتتا للطمع الحقيقى لمعاوية وابن العاص والخلاصة من رجال حزبهما المقربين . وكان هدفا لا يختلف

بقدر ما يتفق ، والدين . فالتحكيم مبدأ شرعى ، سنه الله على أن يأم به صدع وتمنع فرقة . سنه فى الصيد حين الإحرام . وسنه فى الشقاق بين الرجل وزوجه . وسنه فى النزاع بين طائفتين من المؤمنين وما كان لقراء أهل العراق أن ينكروه ، أو يتنكروا لدعوة أهل الشام به ، وقد قرأوا فى كتاب الله عنه ما يحثهم على الأخذ به .

« ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون . . . »
وقرأوا أيضا ما يعير به المنكرين له والمرتابين فيه :

« . . . أفى قلوبهم مرض ، أم ارتابوا ، أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله ، بل أولئك هم الظالمون . . . »

وقرأوا كذلك أنه يوشك أن يكون علامة من علامات الإيمان :
« . . . إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا ، وأولئك هم المفلحون » .

كل هذا قرأوه ، وعلموه ، وأصروا إصرارا ملحيا على العمل به حتى لنجد عصابتهم القارئة ، ذات الجباه السوداء ، وفيها زعميان من زعماء الحرورية هما مسعر بن فدكى وزيد بن حصين ، تأبى الإباء كله على أن ينصح لها ، وأن يبصرها بخدعة معاوية للستره بالمصاحف المرفوعة ، ثم تعنف به أعق عنف وأظلمه لينزل عند رأيها ويقبل التحكيم . . .

وكل هذا أيضا تنكروا له وعابوه . أو هم أنكروه من أنفسهم . — وما زالوا هناك بساحة صفين — واعتبروه معصية يحق عليهم العدول عنها ، والتوبة منها ، وإكراه على بكل وسيلة على العدول والتوبة . . .

بمثل هذه السرعة قبلوا التحكيم ثم عادوا فرفضوه . وبها أكرهوا عليا على قبوله ثم ارتدوا يكرهونه على رفض هذا القبول . وهم حين فعلوا لم يعدلوا عن نظرة لنظرة ، ولم يستبدلوا رأيا برأى . إنما كانوا فى الحقيقة يتنكرون لحرية الرأى فى ذاتها ما دامت هذه الحرية من حق سواهم كأنما رأوا حقاً لم دون غيرهم

من الناس أن يهجروا العقول إلى حيث يريدون ، مرة إلى يسار ومرة إلى يمين ، بلا موجب لهذه القلقة الفكرية إلا أن يسخروا الأذهان ويحملوها ذيلاً لتقديرهم المضطرب الحائر .

الواضح أن معتزلة حروراء كانت مترجحة الرأي منذ سمع لها صوت في سياسة الأمور . فلم تثبت أبداً على رأى ، ولم تقطع أبداً في شأن من الشؤون العامة التي كانت تشغل آنذاك بال الجماعة الإسلامية قطعاً للتثبت المستيقن . إنما كان حالها حال أمثالها ممن يعنيتهم المظهر دون الجوهر ، وتستخفهم السطوح والقشور دون الأصول والأغوار . وكأني بهذه المصيبة الذهنية التي كانت طابعهم قد اكتسبتم عجلة رعناء ، ككرة للطايط ، تقفز بهم من هنا إلى هناك ، ومن هناك إلى هنا ، كلما اصطدموا بفكرة طارئة ثم لا تكف عن القفز ما طرات لها في طريقها للمضرس الأفكار . . . وفي خلال ذلك العام الذي كان عمر علاقتهم بالضطربة جلي ، والذي انتفى بين وقع صفيين والنهروان ، كثر ترجيحهم بين الآراء ذات الطلاء والرنين وكانت لهم بدوات تستطير العجب ، تفصح عن حيرتهم الذهنية وقلقهم الفكري أيما إفصاح . . .

وتجمل ذلك القلق بإقصار فتراهم يهللون للمصاحف ويلبسون دعوتها الصامته للموادعة والإصلاح لأنها ، فيما يرون ويعتقدون ، دعوة «قرآنية» حقيقة بالتلبية وإلقاء السمع يهون معها عليهم أن يستقضوا الإمام حياته — أو حرите كأهون جزاء — إن هو خالفهم وأصر على ما كان يريد من موالاة القتال . . . ثم تراهم أيضاً يسرفون عليه فيسكروهونه على قبول أبي موسى ، حكماً عنه وعنهم وعن طائفة أهل العراق ، غير آبهين شيئاً لرأى على وريثته في الأشعري ، ولما سلف من تمرد الأشعري وتشيطه عن علي . وما أحسبهم قد أصرروا على اختيار هذا الرجل دون من عداه ممن رشحهم الإمام إلا لأنهم كانوا يرون في أولئك المرشحين دعاة حرب قبل أن يروهم دعاة رأى ، كما كانوا يرون في التحكيم وسيلة إلى « الله » تحقق ما تهدف إليه الدعوة «القرآنية» من سلام فأحق به إذن رجل سلام . ولعل حديثهم مع الإمام ، ومجادلتهم إياه عند ترشيح

الحكم تكشف لنا منهم عن هذه النظرة بجلاء . . . يجيئون فيملون عليه أن
« يختار » الأشعري وما له من عيى عن هذا « الاختيار ١ » :
« إنا لا نرضى إلا به ، فإنه قد حذرنا ما وقعنا فيه . . . »

فإذا أشار عليهم بآبن عباس أبوا وأغلظوا له القول . وإذا ذكرهم ماضى
حكمهم ازوروا عنه وعن الذكرى على السواء . وإذا عرض عنهم اسم الأشتر
تصايحت عصابهم . وفيها عندئذ زعياهم الكبيران زيد بن حصين ومسر
ابن فدى ، وردت يازراء وإنكار :
« وهل نحن إلا فى حكم الأشتر ١ . . . »

فيستفسرهم :

« وما حكمه ؟ . . . »

وهنا يكشفون عن نظرتهم :

« حكمه أن يضرب بعضنا بعضا بالسيوف حتى يكون ما أردت وما أراد . . . »
وعلى الرغم مما بدا من حرصهم وتكالبهم على التذرع بالدين لإقرار دعوة
المصاحف ، والتحكيم ، والحكم جميعا فإننا لا نلبث — وما مضت عليهم أيام —
أن نجدهم أشد تكالبا على نقائضها وذريعتهم الجديدة لهذه النقائض هى أيضا
الدين ، نفس الدين ١ . . . فإن هو أن يهتف فتيان صغيران ، احتدمت فى عروقهما
حميا الشباب ، وهزتهما الحماسة للحرب : « لا حكم إلا لله » حتى تنقلب
فى خواطرهم للمايير . فإن من بينهم جموع تردد الصباح . . . وإذا أحدهم ، عروة
ابن أدية ، يزار غاضبا لدينه : « أمحكمون فى دين الله وأمره ونهيه الرجال ١ » . .
وإذا « إيمانه ١ » يستخفه فينزو بسيفه على الأشعث بن قيس وهو يقرأ وثيقة
التحكيم حتى يسكاد أن يصصره جزاء وفاقا لأنه نطق عن الصحيفة بغير
ما يرضى الله ١ . . .

وقد يعجب المرء لهذا التحول فى موقف معتزلة حروراء إذ ذاك . ولكننا
نرى العجب آخر ما يمكن أن نتناول به تصرفاتهم ، كيفما كانت أو انقلبت ، فى ذلك
الحين وفى غيرهم من الأحيان على السواء . ذلك لأن العجب ، فى الحقيقة ، ليس

سوى اتفعال يصدر نتيجة لانحراف أى سلوك كان مقدورا استواؤه وغير مقدور
شدوذه عن قاعدته وخروجه عن الاستواء ، بينما القاعدة التى التزمها هذه الطائفة
دائما — فيما اعتدناه من سلوكها — كانت الشذوذ . . . وبحسبنا أن نذكر أنها
بعد ما ارتأت من اعتبار التحكيم ضلالة ، واعتبار دعائه والمستعسكين به مشركين
بالله ، واستحلالها قتلهم إن لم يتوبوا عنه — بعد هذا كله نرى فرقة منهم ، غالية
فى رأيها هذا الذى بيناه أشد الغلو ، تنطلق وعلى رأسها أيضا ذلك الزعيم مسمر
ابن فدى ، لتترضى الأشعث — وهو الناطق بالشرك والثابت عليه — وتعتذر له
عن نزوة عروة . . .

كان تفكيرها إذن خاطا ، وإيمانها بأرائها إذن خطا بلا تثبت ولا استيقان .
وما نرد هذا إلا إلى عصبيتها الدينية العمياء التى أكسبتها « حسامية » شديدة
تدفعها إلا الاستسلام لكل رأى يتصل بالدين ، ولو من بعيد ، ولو من ناحية
المظهر والصفة الشكلية ، وإن لم يكن من جوهر الدين رايه فى شيء . فيكفى أن
يقرن القرآن بكلمة عابرة ، أو يذكر اسم الله فى رأى طارىء ، ليخفوا سراعا
إلى تلقف الكلمة وتبنى الرأى ثم الجهاد عنهما ما وصعهما الجهاد ، بلا روية
ولا تدبر ، ودون أن يفسحوا السبيل لأى رأى مغاير ليثبت صوابه وخطأهم
ما داموا يحسبون أنهم وحدهم تفردوا بالصواب .

لهذا كانوا دائما يعنتون ، ويشقون على مجاديتهم كل مشقة ، فنقاشهم إملاء ،
ورأيهم هو الرأى ولا حق لغيره من الآراء فى الظهور . ولهذا أيضا كانوا دائما
متذائبين يترجحون بين مختلف الآراء من النقيض للنقيض ولا حريجة عليهم —
فما يظنون — إن ترجحوا ما بدت لهم فى هذا الرأى مسحة دينية لم تبد لهم فى
ذاك . . . هم حينما تشبث بفكرتهم وتشدد وصلاة تبلغ موات الجمود والصمم ،
وهم حينما آخر وهن وضعف ورخاوة تبلغ مهاوى التهاافت والاستسلام . ولا عجب
عندنا من ذلك فتلك شيمة كليلى النظرة الذين يعيهم تعمق الأمور وتستهويهم
القشور والظواهر . وها نحن أولاء نشهدهم يعنون فى التشدد غيب العودة من
صفين ، فإذا بهم قد اعتزلوا عليا إلى حروراء وحرموا على أنفسهم مساكنته

بالكوفة لأنهم يرون في التحكيم غير ما كان يراه . وهام أولاء ، بعد قليل ،
يدعون تشددهم حين يستغيثهم منطقهم فيعودون راضين . حتى إذا حسب الناس
أن يده ويدهم جميعا على خصمه انبروا هم خصما يكيدون له ، ويهطمون إلى حربته
في غير تأثم ولا استحياء . ثم ها هي أخيرا جموعهم بالنهروان لا يكاد يطالها
بحدشه حتى تنسأخ منها كثرة تنضم إليه ، وتبقى قلة على صلابتها العمياء ، تننادى
بشركه ، وتأبى إلا قتاله إلا أن يقر على نفسه بالكفر ويتوب . . .

ويأسف على . فلقد استنزف كل مباحته ، واستنفد حمله وعلمه ثم تقطعت
جميعا به دون بلوغ شأوه من استصلاحهم وهداية نفوسهم المريضة . فما بالهم ؟ ..
ما طهروا ، ما دواؤهم بعد كل هذا العلاج ؟ .. بحسبه أن أسمع وبصر ، وحذر
وأندر ، فإنما وزرهم على أكفهم يلقون به الله . ولأن أمهله عمره منهم بعض إمهال
أن يلوك الندم والحسرة من بعد ، يوم لا يجدى ندم ولا تشفى حسرة ، وحين
ينشق الزمن عن مصارعهم ، وتقبل الدنيا وفي يمينها لهم دم وقهر وإذلال .

على أن أشد ما حز في نفسه منهم تلك القرية الغالية في الظلم التي جردوه بها
من إيمانه كأنما قد وكلوا بحساب القلوب أو كانوا فيصلا عدلا يفرق الهدى من
الضلال . فما خالفهم وخالفوه حتى أطلقوها بلاروية ولا تخرج . وما أطلقوها
حتى مضوا بها يعيدونها ما حلت لهم إعادتها ، ويرددونها ما وسعهم التردد . وإنه
عندئذ ليعجب ، ثم يسخر ، ثم لا يملك أن يغضب ويثور :

« أصابكم حاصب ، ولا بقى منكم آبر . . . أبعد إيماني بالله ، وجهادى مع
رسول الله أشهد على نفسى بالكفر ؟ . . . لقد ضللت إذن وما أنا من المهتدين . . . »
ثم يكشفهم بذلك المال الذى ينتظروهم ، ويخايل بصيرته من وراء المجهول :
« . . . أما إنكم ستلقون بمدى ذلا شاملا ، وسيقا قاطما ، وأثرة يتخذها
الظالمون فيكم سنة . . . »

ولقوا ما قال . فما نجم منهم قرن بعده إلا قطعه خصومه الذين مكنوا لهم بعنتهم
بالاستئثار بأمر المسلمين من دونه . وما اجتمعت فرقة نيا أقبل من الأيام على مبدئهم
الحبيط المختبل حتى استقبلها القهر ، يعالج فيها الرأى بالسيف ، والفكرة بالشفرة . . .

أما هو الذى ظلموه فلم يقابلهم قط بالشدة وله مندوحة عنها إلى الموعظة الحسنة .
إنما ظل يصابهم ، وعلى لهم ، ويطاول عنهم وغيرهم عسى أن تتفتح فرجة في
أذهانهم ينفذ خلالها النور . . . فكم أسفر إليهم . وكم دعاهم إلى الهداية بالكلمة
الطيبة على لسانه وألسنة وفوده . وكم كف عنهم بطشه حتى عندما غلوا في شقاقه
وأطروه موتا على مشافر الصوارم وأسنة الحراب والسهام . . .

٥

عندما أوفد الإمام إليهم ابن عباس بحروراء يفادهم في العودة إلى الكوفة
والتزام جماعة الناس من طائفته ، حذره أن يحاجهم بالقرآن . فالقرآن « حمال »
تتسع نصوصه في مجال المجادلة للتأويل . وهم عصابة موالاة بالجلد ، قد غرها من
أنفسها أنها قارئة لكتاب الله حتى لتحسب أنه إليها وحدها يقتضى تفسيره . ولن
تعدم وهذه حالها أن تتناول الآيات بالتخريج والتأويل لتسند رأيها وتزكيه . . .

ورأيهم عندئذ معلوم ، تهاتفوا به عقيب سطر الصحيفة بصفين ، ثم ظلوا
ينشرونه ويدعون إليه . ولم يكن يضيرهم في شيء أن يقال عنهم إنهم هم الذين
أكروهوا عليا على التحكيم ، ثم على قبول حكم بذاته فرضوه عليه فكيف إذن
يمتبرون هذا التحكيم ضلالة . لم يكن يضيرهم هذا القول في قليل ولا كثير لأنهم
أقروا على أنفسهم بالكفر ، وأنكروا منها رأيهم ذلك القديم الذى انساقوا وراءه
حتى أنجب الصحيفة وما احتوت من اختيار حكمين لطائفتي الشام والعراق ،
ينظران فيما اختلفتا ، ويحكيان لإحداها وعلى الأخرى بالقرآن . فأما دعوتهم
الأولى إلى تحكيم الحكمين فشارك تابوا عنه ، وأما دعوتهم الثانية التى تفكر حتى
أيما امرئ كان في تفسير القرآن فهى ، فيما يرون الآن ، هى الصواب وغيرها
الخطأ الذى ينزل إلى هذه الإلحاد .

والواقع أن نظرة الحرورية هذه عجيبة ، لا لأنها خالفت ما أجمعوا عليه من
قبل ، ولا لأنها أيضا لا تستقيم والنصوص القرآنية التى تبيح أنواعا مختلفة من

التحكيم ، ولا لأنها كذلك تعطل أو تجب ما في كتاب الله من آيات تحت المؤمنين على الاستجابة دائماً للدعوة له لاهذا كله العجب منها ، وإنما لما تنطوى عليه من فكرة خطيرة ترى « تجميد » النصوص القرآنية بحيث لا تكون غير حروف وعبارات يؤخذ بها دون مدلولها ومعانيها الواسعة التي ليست في الحقيقة سوى « الكيان الحى » الناشئ عن تفاعل هذه الحروف والعبارات بالذهن البشرى .

لكن دعوة معتزلة حروراء ، حين تجردها ، نجدها تنادى « بالسطحية » . بمجرد « النظرة » إلى النص ثم بالتزام « العبارة » التي تلقفها هذه النظرة . أما إمعان النظر في النص حتى تنتقل « مرئية » الآية « وجوها » كله إلى الذهن ، وأما تفاعل الذهن بهذه « للرئية الكاملة » تفاعلاً يشير فيه أفانين المعاني والمشارع فليست لهم على بال . وما تحسبنا ، بحال من الأحوال ، متجنبين على هذه العصبية ولا متحيفين . فرأيها الذى ارتأته وكلفت به أشد الكاف ، وتخذته لنفسها شعاراً تلتف حوله وتندفع في رعوته مناضلة عنه هذا الرأى ، إذ ينكر تحكيم الرجال في دين الله ، إنما يحرم إنطلاقة الذهن في القرآن ليتفهمه ويستنبطه مدلوله الذى ترسم عباراته وأحرفه خطوطه الأولية ، كما يمنع استواء ذلك الكيان الحى متكفياً عنه بظاهر الألفاظ

ولقد يقول قائل ، وله لا ريب أن يقول : إن نظرية الحرورية تفسرها قولة عروة بن أدية صاحبهم الذى قال : (. . . تحكمون في دين الله وأمره ونهيه الرجال ؟) فهى إذن لم تعن الدين على إطلاقه إنما اجتزأت منه بأوامر الله ونواهيه . وهى إذن حين تحرم انطلاقة الذهن في القرآن إنما تحرم عليها الخوض في كل (حكم) أوردته الآيات في قضية من القضايا ، أو مشكل من الأمور ، أو حد من الحدود التي يقصر عن علاجها وحلها الذهن البشرى ، فليس له إذن الحق في تناولها إلا لتطبيق الحكم قد يقول بهذا قائل فيوشك إذ يقول أن يردد نفس الذى رددته معتزلة حروراء ، ذلك اليوم ، على مسمع ابن عباس ، وكادت به أن تمضله أو تصيبه بما يشبه الحسر لولا أن أتيح له الإمام ليسقطه ، ويظهر بمنطقه على جدال المكابرين

وندد حديث ابن عباس إلى حين لنعرض لهذا الذي قد يقال فإذا الجواب عنه حاضر ، بالحرف والعبارة ، في نفس النص الذي اتخذوه سندهم ، ودون حاجة إلى بداهة ولا جدال . . . فالمعروف أن الآية التي تأولها الحرورية لتحريم التحكيم هي آية الإصلاح بين المؤمنين عند انقسامهم ، ووقوع الخلاف بين فريقهم وقوعا ينشب الحرب ويشب نار القتال . وهذه الآية تدعو من يستطيع إصلاحا أن يصالح أولا ليطفي الفتنة ، وأن يكون ثانيا حاربا على الفريق الباغي حتى يفل حده ويخضع ، وأن يعود ثالثا إلى الإصلاح بالعدل بين الخصيمين وقد تداعيا جميعا للسلم . . . نحن إذن من « حكم الله » في هذه القضية حيال ثلاث مراحل : أولاها مرحلة « الاستصلاح » والقتال ناشب : « وإن طائفتان من المؤمنين اختلفتا فاصلحوا بينهما » . . . وثانيتهما مرحلة « مقاتلة » الطائفة التي لا تستجيب لهذا الاستصلاح وتبغى على خصيمتها بغير حق : « . . . فإن بغت إحداهما على الأخرى قاتلتها التي تبغى حتى تفي إلى أمر الله » . . . وثالثتهما مرحلة « الإصلاح » التي تعقب فيء الفئة الباغية إلى الحق : « . . . فإن فاءت فاصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا . . . »

هذه هي المراحل التي ترسمها الآية ؟ وتحدد بها ما يجب أن يكون عليه سلوك المؤمن حيال أية قضية مماثلة . وهي مراحل ، كما نراها ، واضحة كل الوضوح ، بارزة الخطوط والمعالم في غير لبس ولا شبهة . وهي إلى جوار هذا وسائل عملية إيجابية ، تنكر ما عداها من الوسائل السلبية كالحياد والعزلة . وتوشك أن تحررها بمدلول المعاني لا بمنطوق الألفاظ . وييمضها استمساك على . وآخذ إخوة له في الدين ، من خاصة صاحب محمد ، كانوا جديرين باتباعها قبل غيرهم من الناس . فلقد دخل عليه ، ذات يوم بعد صفتين ، سعد بن أبي وقاص ، وعبد الله بن عمر ، والغيرة بن شعبة ، يطلبون عطاءهم منه . فإذا هو يبادرهم : « ما خلفكم عنى ؟ . . »

قالوا يعتذرون ، ويبررون ، تخلفهم بما قد يهون ما كان من قعودهم وسلبيتهم : « قتل عثمان ولا ندرى أحل دمه أم لا . . . وقد كان أحدث أحداثا ثم

استبتموه فتاب . ثم دخلتم في قتله حين قتل . فلسنا ندري أصبتم أم أخطأتم ،
مع أنا عارفون بفضلك يا أمير المؤمنين وسابقتك وهجرتك . »
قال علي :

« أستم تعلمون أن الله عز وجل قد أمركم أن تأمروا بالمعروف وتنهوا عن
المنكر ، فقال : وإن طائفتان من المؤمنين اقاتلوا فأصاحوا بينهما ، فإن بغت
إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله . . . »
فإذا سعد ينبري مملا حياده :

« يا علي . . أعطني سيفا يعرف الكافر من المؤمن ! أخاف أن أقتل مؤمنا
فأدخل النار . . . »

لقد كان سعد يقول دائما حين يخاطب في اعتزاله :
« إني سمعت رسول الله يقول : يكون من بعدى فتنة خير الناس فيها
الحفي التقي » .

ولهذا أثر أن يلتزم الحيدة مخافة أن يكون الخلاف الناشب بين علي ومعاوية
هو الفتنة التي عنها الرسول . . .
ورد الإمام وهو يرجع على أمر عثمان :

« . . . إن عثمان كان إماما بايعتموه على السمع والطاعة ، فعلام خذلتهم
إن كان محسنا ، وكيف لم تقايلوه إذ كان مسيئا ؟ . . . فإن كان عثمان أصاب بما صنع ،
فقد ظلمتم إذ لم تنصروا إمامكم . وإن كان مسيئا فقد ظلمتم إذ لم تعينوا من أمر
بالمعروف ونهى عن المنكر . . . »
ثم عاد لما بدأ فأكمل :

« . . . وقد ظلمتم إذ لم تقوموا بيننا وبين عدونا بما أمركم الله به ، فإنه قال :
فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله . . »

وما نسوق هذا الحديث ازدراء بموقف سعد ، ولا احتجاجا على للتخلفين
عن نصرة عثمان الذين أكثروا القول في أمره ، بعد مقتله ، تفجما عليه أو لوما
لعلي وريية فيه وهم قاعدون كلا ، فما نصروا حقا ولا ناهضوا باطلا . وإن أمرم

لبين الخطأ أولا وآخر حين اعتزلوا الفتنة التي شبت النار بين العراق والشام .
فلقد فاتهم في الأولى أن يعملوا بقول رسول الله : « انصر أخاك ظالما أو مظلوما »
فلم يشدوا على يد عثمان ليعمل إن كان قد ظلم الناس ، ولم يعزوا جانبه إن كان
قد ظلمه الناس . وفاتهم أيضا في الثانية أن يعملوا بقول الله : « وإن طائفتان
من المؤمنين اقتتلوا ... » فلم يسعوا بإصلاح ، ولم يقاتلوا الباغية . إنما وقفوا
في كلا الحالتين ينظرون ...

لكننا سقنا الحديث الذي أسلفنا دلالة على وجوب التزام المؤمنين خطة إيجابية
حيال الطائفتين المختصمتين تثوب بهما إلى الوفاق ، مراحلها كما تبين الآية هي
الاستصلاح والمقاتلة والصالح ، أو هي بالألفاظ الحديثة : الوساطة والحاف وعقد
الصلح دون أن نجور في التعبير . فالدولة تختلف وأخرى خلافا يحتكان فيه للقوة
للسلحة . فإذا ثالثة تسمى بينهما لتكف الحرب ، فتعرض حلا سلميا ترى أنه
كفيل بفض الخصومة ، يحقق للعدالة أو موافق لمقتضيات الظروف والأحوال .
وقد ترضى الدولتان . وقد ترضى واحدة وتأبى الأخرى . وعندئذ لا يكون عجبا
أن تحالف الثالثة هذه الراضية لتجاربا المتأينة حتى ترضخ ، ثم يعقد الصلح ليعيد
الوفاق ، ويضع الشروط التي تسمح للخصومة وتنظم العلاقات ...

بهذا تقول طبيعة الأمور . وبه يقضى ، دون ريب ، كل منطق مستو سليم .
وعليه نصت الآية الكريمة التي اتخذها معتزلة حروراء سنداً لهم يظاهرون به
نظرتهم وما هو لها — فيما نعتقد — بظهير . فما يمكن أن يتم صلح قبل وضع
شروطه ، وتنظيم دقائقه وتفصيله ، ورسم خطة تنفيذه . . . غير أن القوم
شاءوا أن يصروا على رأيهم كأنما كان يكفي أن ينزع معاوية للصلح ليدخل فيه
دون شرط معلوم عليه ، وبغير جزاء — مادي أو معنوي — يؤخذ به الظالم ،
ويؤخذ به المظلوم ...

كل ما فهموه ، أو تأولوه ، من آية الطائفتين إذن أن معاوية وحزبه فئة
باغية ، حكمها في القرآن أن تقتل أو ترجع . أما كيف يكون رجوعها هذا ،
وما هي الشروط التي تنظمه ، وتضمن من بعد بقاء الوفاق والسلام ، ومن من

الناس يضعها ، فتلك كلها أمور ليس لها في ذهنهم مكان . . . وعجيب منهم ذلك الإصرار وهم أعلم الناس بأن معاوية ، حين تداعى وفئته للصالح ، لا يمكن اعتبارهم في حساب الحروب « مستسلمين » عن هزيمة حربية بقدر ما يصح اعتبارهم جانحين إلى « هدنة » لعلها تصلح الأمور إذ يتلاقى خلال مدتها الرأي بالرأى ، وتقرب النظرة من النظرة ، فتصفو الأنفس ، وتخلص القلوب ، ويقع الصلح المنشود . . . ولئن أبت معتزلة حروراء إلا أن تراهم قد هزموا ، وتقطعت بهم وسائل الكفاح للسلح ، وألقوا بالسلاح وهم صاغرون . فثمة قبلهم في تاريخ الإسلام طوائف محقتها الحرب ثم لم يقض عليها بالتسليم دون شرط ولا مراجعة وإن حالها حين ذاك لأهون من أن تباح للراجعة واشتراط الشروط ، وثمة غيرها أخرى أيسح لها التحكيم واختيار حكم ترضاه وما كانت هذه وتلك بالطوائف المؤمنة أو التي يرتجى منها إيمان . وما كان من أباها ما أباح « قارئاً » أو « عصابة من القراء » من أمثال معتزلة حروراء ، بل قد كان رسول الله . . . حدث هذا في غزوة بني النضير بعد نقضهم العهد بينهم وبين المسلمين . فلقد أرسل إليهم النبي ، محمد بن مسلمة ليقول لهم بلسانه :

« . . . اخرجوا من بلادى فلا تساكفونى . . . »

قالوا :

« نتحمل » .

فأبى عليهم أن يحملوا معهم شيئاً حين جلائهم . وغرم رأس للناقين عبد الله بن أبي بن سلول ووعدهم مؤازرته . فقاوموا أمر رسول الله ، ووقعت الحرب . وحاصرتهم جيوش المسلمين . فلما أن أضربهم الحصار والقتال وعضتهم الهزيمة ، « صالحهم » النبي على الجلاء . وأجلاهم إلى الشام « على أن لهم » ما أقلت الإبل من أموالهم إلا الحلقة والسلاح .

وحدث أيضاً في غزوة بني قريظة ما يتفق وما نقول . فقد خافوا الرسول إبان وقعة الخندق فذهب إليهم بجيشه يوقع بهم جزاء خيانتهم وحاصرمهم نحو شهر لم يروا بعده إلا التسليم ، وما كان لهم عيحص عنه بغير الفناء . وعندئذ مشى الأوس إلى محمد في أمرهم تشفع لهم إليه :

« يا رسول الله ، إنهم موالي لنا . . . »

قال ، وقد قبل :

« ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم ؟ »

قالت الأوس :

« بلى . »

قال :

« فذاك سعد بن معاذ . »

ورضى بنو قريظة ، أو هم كانوا الذين اختاروا سعدا ، وقالوا :

« نزل على حكم سعد بن معاذ »

هاتان حادثتان نريتا أنه لا ضير في « المصالحة » وما تمنيه من عرض شروط
للمصلح من فريق ومراجعتها من الآخر حتى يتم بينهما الاتفاق على الأخذ بها
بدون تعديل ، أو بعد تعديل ، وأنه لا ضير أيضا في تحكيم حكم يرتضيه الفريقان
ليبلغا به الفصل في النزاع . لا ضير ، بحسباننا ، في هذا ولا ذاك وإن أصرت
الحرورية على خلافه ، وملأت الدنيا لجاجا وعنادا وعنتا أورثت فتنة ما كان
أغنى للمسلمين عنها لولا جهود الأفهام . . .

ونعود الآن إلى ابن عباس . . .

فما كان حظه منهم عندما أرسله إليهم الإمام ؟ . . . وما كان قصارى جهده
وشأو منطقته وهو صاحب اللسان الإزعيل الذي لا يغلب في مقام جدال ؟ . . .
الحق أنهم أعيوه . أو هم على الأغلب الأعم أصابوه بالحسر أو أوشكوا أن
يصيبوه . فلقد أعجبه حبه الجدل إلى مجادلتهم مع ما سلف من قول ابن عمه له
حين أوفده : « لا تعجل إلى جوابهم وخصومتهم حتى آتيك » . . . وقد استخفه
علمه بالقرآن فجادلهم به مع ما سلف أيضا من نصيح على له ألا يخاطبهم بالقرآن
لأنه حمال . . . وشهدته عندئذ حرورا يناظرهم فإذا هم يتيهون به في بيداء من
النقاش . وإذا هم يتلقون من لسانه حجة عليهم فتكون حجة لهم عليه . وإذا
هو بينهم محصور أو محصور حتى يخف إليه الإمام . . .

٦

تجاوزوا ، فأثاروا في ابن عباس نهمه إلى الجدل . فإذا هو لا يصبر ولا يطيق
الانتظار . إنما يراجعهم :

« ما تنقمون من أمير المؤمنين ؟ . . . »

قالوا :

« تحكيمه الحكيم . »

« وما نقيم من الحكيم وقد قال الله عز وجل : إن يريد إصلاحا يوفق

الله بينهما ؟ »

ومضى الرجل يستعين علمه ليظهر لهم شرعية التحكيم في أمور غير ذات خطر
كبير ، فكيف إذن يسكرونه وإنه الآن لأحق أن يتبع في أخطر حنة تمر بها
أمة الإسلام ؟ . . .

وأصفوا له . إن الجدل يأخذه . إن حماسته لردهم إلى ما يراه صوابا تنفيه
حذره . إنه ليطوف بالقرآن ، وقد أغفل نصيحة ابن عمه ، يتلو منه على أسماعهم
آيات توجب التحكيم أو تميزه في هذا وذاك من خلافات فالله تعالى يقره
بين الرجل وزوجه فيقول :

« . . . وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله ، وحكما من أهلها ،

إن يريد إصلاحا يوفق الله بينهما »

والله تعالى يقره عند الإحرام فيقول :

« يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ، ومن قتله منكم متعمدا

فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم ذوا عدل منكم هديا بالغ الكعبة »

لكن المسألة عند الحرورية ليست مسألة قياسية . إنما هي مسألة « النص »

بالحرف والكامة . ويبدو أن ابن عباس قد أخطأ تنهم أذهان أولئك الذين

ي ناظرهم ، وما طبعت عليه من كزازة وسطحية يحصرانها من طلاقة الفكر

في أضيق الحدود ، فجاءها من حيث كان جديرا به ألا يجيء . وكأن بهم زارون

عليه يقتحمون منطقته وإن صابروه يسمعون . فأية الطائفتين التي اتخذوها سنداً يظهر نظرهم لم تنص باللفظ على حكم ولا تحكيم . وهي حقا تقدم الإصلاح بين الطائفتين للتخاصمتين ولكنها توجب بعده مقاتلة الباغية منهما قتالا يجعلها تفيء صاغرة إلى أمر الله . ولفظة « حق » تعني موالاة القتال إلى غايته ، وما غايته إلا النفي ، وما هذا النفي في رأيها إلا التسليم . . .

توشك معتزلة حروراء أن تمضي في تفكيرها على هذا النحو وابن عباس أمامها يجهد لتجسيم رأيه ، وعرضه عليها في ثوب بياني خلاب يكتنفه القرآن في جوانبه وحواشيه ، ويوشك ابن عباس أن يحسبها جانحة إليه بعض جنوح ، مقتنعة بجده بعض اقتناع . لكنها لا تقتنع ، ثم لا تجنح ولا تميل ، ثم لا تكاد تأبه قليلا بمنطقته هذا الذي أساسه القياس دون النص السافر بالكلمة الصريحة وبالحرف الصريح . . . وإذا هي تمارضه الحجة فتقول :

« أو تجعل الحكم في الصيد ، وفي الحديث يكون بين المرأة وزوجها ، كالحكم في دماء المسلمين . . . »

ولا تلبث به ولا بحديثه . فما يعنيها إلا أن تضعه حيث ترى أن يوضع بموضع حسر أو بموضع مخالفة عن نصوص القرآن التي ترسم أحكاما مقررة في قضايا وحدود ومشكلات توجب اتباعها حرفا وحرفا ، وتجب الاجتهاد ، وتسد باب القياس . . وإذن فهي تبين له القاعدة العامة التي لا يسمه حيالها إلا التسليم ، فنقول : « أما ما جعل الله حكمه إلى الناس وأمر بالنظر فيه والإصلاح له ، فهو إليهم كما أمر به . وأما ما حكم الله فيه وأمضاه فليس للعباد أن ينظروا فيه » وضربوا مثلا :

« . . . حكم الله في الزاني مثله جلدة ، وفي السارق بقطع يده ، فليس للعباد أن ينظروا في هذا . . . »

وهذا كلام حق صادق لأنه ترديد لمبدأ ثابت مقرر في الإسلام ، وفي كافة القوانين والشرائع ، لا يختلف فيه الناس : ابن عباس وغير ابن عباس . . . فلا اجتهاد رأي مع نص . ولا قياس وثمة حكم معلوم في قضية معلومة يجب الحكم

فيها بالقياس . . . ومع ذلك فقيم يردد الضرورية الآن هذا المبدأ البديهي ، وفيه يسوقون عليه الأمثال ؟ . . . إنما نحسبهم يجيئون بهذا كله تسمية . وبغية لي مناظرهم عن رأيه إلى ميدان المناقشة الذي يختارون ، وإيهاما لمن يسمعونهم أو يتسامعون بهم بأنه قد أتاهم بحجة بيانية مستنبطة فأتوه بحجة قرآنية منزلة لا مكان بعدها لدليل ، ولا وجه لاجتهاد أو تأويل . وما أراهم أيضا إلا قد أرادوا أن يعيروه ، وأن يضعوه بموضع حسر أو في منطقة خطرة لا سبيل له إلى اقتحامها إلا بجدل أو بتسليم . فإن جادل لزمته مغبة جداله في مبدأ ديني الجدل فيه معصية . وإن أقر فعاجز بحسبهم منه التسليم . . .

وبفلت ابن عباس . ويعاود النضال عن نظريته . ويعاودون مراجعته وهم يدورون ويلفون ويلجون ما شاء اللجاج . ولكنه يأبى إلا أن يجد هذا التحكيم حقا ، وهذين الحكيمين حقا لا موجب للإضرار به ولا للكابرة فيه لأنه وسيلة للمسلمين إلى خير عام :

« . . . إن الله عز وجل يقول : يحكم به ذوا عدل منكم . . . »
وعندئذ يماجلونه :

« فهذه الآية بيننا وبينك . . . »

ثم يراجعونه ساخرين ، وفي نبراتهم جرس الانتصار :

« . . . أعدل عندك ابن العاص وهو بالأمس يقاتلنا ويسفك دماءنا ؟ . . . »

كان عدلا فلسنا بمدول ونحن أهل حربه . . . »

وهكذا يتصيدون الألفاظ ، ويلبسون بها ، فقوام شأنهم كله الحروف والألفاظ . . . وينظر الرجل إليهم وهو مبهوت يكاد يحس الحسري يبي لسانه . فما أغنى عنه حقه . وما أغنى منطقته . وماهم بكافين هذه السفسة التي تبتدعها عقولهم الجامدة الصماء . . .

ويأتونه من لدنهم بقطع الرأي الذي لا يراهم يحيدون عنه مهما استعان عليه وحشد لهم من براهين :

« . . . قد حكمت في أمر الله الرجال ، وقد أمضى الله عز وجل حكمه في

معاوية وحزبه أن يقتلوا أو يرجعوا . . . إنا دعوناهم إلى كتاب الله فأبوه ، فبم كتبتم بينكم وبينهم كتابا ، وجعلتم بينكم وبينهم للوادة والاستفاضة ، والله قد

قطع الاستفاضة والوادعة بين المسلمين وأهل الحرب منذ نزلت براءة إلا من
أقر بالجزية ؟ . . . »

وسرت بينهم مهمة :

« لا حكم إلا لله ! . . . »

وتصايحوا في وجهه :

« حكتم الرجال في أمر الله ! . . »

وتاه ابن عباس من شغبهم في بيداء . . . إنهم لا ريب ينطقون عن هوى
أو جهالة . . . فلئن كانوا حقاً لا يرون في هذه القضية إلا الأخذ بالنص ، فأين
في آية الطائفتين النص الذي يحرم التحكيم ؟ . . . ولئن فسروا « النفي إلى أمر
الله » في الآية الكريمة بأنه الرجوع ، أو هو ، بالمعنى الأوضح ، التوبة ،
والدخول في الطاعة ، ولزوم الجماعة ، فكيف إذن تستطيع النقلة من الخصومة
إلى الوفاق بغير اتفاق تمهيدى على الدقائق والتفاصيل ؟ . . .

لا جدال — بنص الآية — في وجوب مقاتلة الطائفة الباغية حتى تنفي إلى
أمر الله ولا جدال أيضاً ، بنصها ، في وجوب الإصلاح بين الطائفتين بعد النفي
ولن يكون فيء حتى يعلن ، ولن يتم وينفذ بمجرد النطق به أو الرغبة فيه . . .
إنما لا بد أن يسبق تنفيذه إتفاق عليه كيف يكون . كيف يعامل المسيء . كيف
يسلم العتاد إلى غير هذه وأمثالها من أمور تلازم دائماً حالات وقف القتال .

غير أن معتزلة حروراء تأبى أن تفهم هذا كله وتضمن في الإباء بغير موجب
وهي نحسب — إذ تعقل — أنها تلتزم ما أمر به الله ، وما تتجنى حين تراها
لم تلتزمه في شيء . وما نخالها إلا خالفت بعنادها عن نص الآية التي اتخذتها سنداً ،
إذ اجتزأت منها ببعض دون بعض ، وراحت تستمسك بشطرها الأول ثم تغفل
شطرها الأخير . ولكي تتبين منها هذا الإغفال أو هذه المغالطة نورد الشطر
الذي لم تدخله عند عنثها في الحساب . . .

يقول الله :

« ... فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ، إن الله يحب المقسطين .
 إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم ، واتقوا الله لعلكم ترحمون . »
 والذي يدلنا عليه النص وترتيب عباراته أن الفاء هو نقطة التحول من البغى
 إلى الحق ، تقف به الحرب ، وتقر العزائم على الوفاق . ولكنه مع هذا يوشك
 ألا يحسم الأمر كله إلا أن يلزمه ، أو يتبعه على الأثر ، إصلاح بين الطائفتين
 بالعدل والقسط ، يحقق اجتناء ثمرة الفاء سلاماً وصفاء وطمأنينة تعيد للمؤمنين
 جميعاً ، بشطريهم ، إخوة متحابين في الله . وبيقينا أن هذا الإصلاح عامل متم
 للفاء ، أو منفذ ومنظم له وإلا ما كان الله أورد في الآية ولا كرر إثباته مرتين
 تأكيداً للزومه وانفتاحاً للأذهان لتتجرى حكمته وتأخذ نفسها باتباعه . .

ومع هذا فقد غفلت عنه أذهان الحرورية ولم تر الحرص عليه . . . أعن
 جهالة أم هوى . . . إنما عصبيتهم الفكرية ، فيما نظن ، هي التي أزلفتهم لأنهم
 كلّفون أبعد الكلف بكل رأى يرونه حتى لتعمى بصائرهم عن كل ما عداه .
 ولو قد خففوا من كلفهم ذاك ، ومن غلوائهم الرعناء لاجتنبوا المزالق وللصرع
 على السواء ، ولجنبوا الإسلام فتنهم الضالة المضلّة ، ولما اعتنوا بآبن عباس وهو
 يحاول هدايتهم حتى آيس منهم ، فاعتقد لسانه ، وبهت منطقه وهم يتيهون به من
 شغبهم في بيداء . . .

٧

كانوا لا يزالون يتصايحون حوله . من هنا ومن هناك ، في عناد وصلف
 وحماسة : « لا حكم إلا الله . . . أتحكمون الرجال في دين الله . . . »
 وكان لا يزال يحاول ما حاول معهم نفس اليوم ، مئات اللرات ، عساء يشيهم
 إلى الهداية . فإذا صوته يذوب في ضجيجهم ، وإذا صدره يضيق بالمغالطات
 والتملّات التي حشدوها له ، وإذا لسانه يدور بكلمات تهتز على طرفه وهي تجهد
 لتشق لنفسها طريقاً في زحمة للرء والضجة . . .

وعندئذ دخل الإمام . . .

مشى بينهم وثيداً ، خطوة ثابتة بخطوة ثابتة . في قلبه ثقة ، وبخطراته طمأنينة ، وعلى وجهه هدوء :

وأتلعوا إليه الأعناق . ومدوا نحوه أعينا مبغوتة . وبدأت كلماتهم الهادرة تجمد على الشفاة . . .

وفي رقة وضع كفه على كتف ابن عمه . وبشبرات عميقة صافية تحمل العتاب اللين همس له :

« انته عن كلامهم . . . ألم أنهك رحمتك الله . . . »

فنهض ابن عباس في الحال ، خفيفاً كأنما أزيح عن كاهله جبل . . . ووقف صامتا يتسمع لهذا الصمت الذي حف فجأة بالمكان وقد كان معرضاً من قليل للججاج والمكابرة والصياح . . .

وألقى إليهم الإمام بنظرة تومض ، شملتهم أجمعين ، صفا وراء صف ، وفردا وراء فرد ، حتى إذا رأى انعكاسة النظرة الوامضة تطلعا في العيون المبغوتة ، خاطبهم بصوته الرصين :

« أكلكم شهد معنا صفين ؟ . . . »

قالت طائفة منهم بنبرة مسموعة بينما اهتزت شفاة البقية ترسم حركة الألفاظ :

« منا من شهد ، ومنا من لم يشهد . »

« فامتازوا فرقتين ، فليكن من شهد صفين فرقة ، ومن لم يشهدا فرقة

حتى أكلم كلا بكلامه »

وعندما امتاز الجمعان ، دار بعينه لحظة فيهما وفيمن حضر مقامه هذا من غيرهم ، ثم قال للحشد كله :

« أمسكوا عن الكلام ، وأنصتوا لقولي ، وأقبلوا بأفئدتكم إلى . فمن

نشدناه شهادة فليقل بعلمه فيها . . . »

ثم التفت اعزلة حروراء :

« من زعيمكم ؟ »

قالوا :

« ابن الكواء . »

وتقدم نحوه ذلك الزعيم ، عبدالله بن الكواء اليشكري ، أميرهم على الصلاة ورمقه على هنية . ثم انثنى عنه بعينه وذنه وقلبه جميعا ، بعيدا ، بعيدا عن الناس ، ودنيا الناس . والخلائق والأمر في هذه الحياة الدنيا بما تضم من مادة ومعنى ، ومن شيء وفكرة ... انثنى إلى ربه في لحظات خشوع وابتهاال يناجيه ونجواه تضطرم بحرارة الإيمان :

« اللهم إن هذا مقام من أفلج فيه كان أولى بالفلج يوم القيامة . ومن نطق فيه وأوعث فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا ... »

ثم عاد من مقامه إلى ما كان فيه . فإذا طائفة منهم أمامه ، قد دنت لتسمع وتراجع ، تكاد حلوقها تذشق عن حديثها الذي تحبسه ، وتتأهب به للقاء حبيبها ..
وسألهم وهم في لهفة إلى سؤاله :

« ما أخرجكم علينا ؟ ... »

واندفعوا يجيبونه الجواب الحاضر ، الذي طالما لا كوه وأعادوه :
« حكومتكم يوم صفين » .

فابتسم . كانت بسمه فيها رثاء وحنان ، وفيها تهكم ووزارة ، وفيها عجب وصرارة . فأمسهم لديه مائل يقول إنها حكومتهم هم لا حكومته ، تحققت بفضلهم وبرغبتهم ، وبركوبهم إياه بالشدة والقهر وحد الحسام حتى أعطاهم ما أرادوه ...
ونفض عنه بسمته . وابتس محياء جدا صار ما ترجت عنه كلماته التي جرت إلى أسماعهم في جرس ثابت عميق :

« ألم تقولوا عند رفعهم للمصاحف : إخواننا وأهل دعوتنا استقالونا واستراحوا إلى كتاب الله سبحانه ، فالرأى القبول منهم والتنفيس عنهم ... فقلت لكم : هذا أمر ظاهره إيمان وباطنه عدوان ، وأوله رحمة وآخره ندامة ، فأقيموا على شأنكم ، والزموا طريققتكم ، وعضوا على الجهاد بنواجذكم ، ولا تلتفتوا إلى ناعق نقي ، إن أجيب أضل ، وإن ترك ذل ؟ ... »
ثم مضى يذكرهم والأسى يطلب على نبراته :

« ... لكنكم رددتم على رأبي ، وقلتم : لا ، بل نقبل منهم ١ ... فقلت : اذكروا قولي لكم ، ومعصيتكم إياي ... فلما أبيتم إلا الكتاب ، اشترطت على الحكيم أن يحيا ما أحيا القرآن ، وأن يميتا ما أمات القرآن . فإن حكما بحكم القرآن فليس لنا أن نخالف حكما يحكم بما في القرآن ، وإن أيا فنحن من حكمهما براء ... »

فأغضوا مليا صامتين . إنه لم يفارق الحقائق التي يعلمونها — وهم سطورها حينذاك بعنادهم — بمثل دقة شجرة أو خيط عنكبوت ... فمن يؤثمون ومنهم الإثم ، ومن يلومون وهم وحدهم فلك اللوم ومداره ؟ ... لكن في نفوسهم شيئا من هذا التحكيم ، الذي فرضوه وارفضوه ثم عابوه ، لا تزال تحس معه الحيرة آنا ، والجزع آنا ، والعذاب النفسي الذي يلزم الشعور بالمعصية آونات . هو يشيم هذا فيهم ، ويراه يضطرب خلجة خلجة ويتلون طيفا طيفا على قساماتهم المكدودة ، فيفرق بهم . ويخفف عنهم بعض ما بعثه : ن ندب على ما كان منهم من تداع إلى هذه الحكومة التي بلبات خواطرهم وأقضت عليهم المضاجع ، فيقول : « ... قد كانت هذه الفعلة ، وقد رأيتمكم أعطيتموها ... والله لئن أبيتها ما وجبت على فريضتها ، ولا حملني الله ذنبها . والله إن جثتها إني للمحق الذي يقبع . وإن كتاب الله لمي ، ما فارقته مذ صبحته ... »

وتبدو عليهم الطمأنينة هونا ، فهو أعلم منهم بكتاب الله ، أحرص على التزام أوامره واجتناب نواهيه ... ومع ذلك يسائلونه متلهفين ، عسى أن يحو قلقهم بإرشاده :

« نخبرنا ... أترأه عدلا تحكيم الرجال في الدماء ؟ ... »

عندئذ يصبرهم :

« إنا لم نحكم الرجال وإنما حكمنا القرآن . وهذا القرآن إنما هو خط مسطور بين دفتين ، لا ينطق بلسان ، ولا بد له من ترجمان ، وإنما ينطق عنه الرجال ... ولما دعانا القوم إلى أن نحكم بيننا القرآن ، لم نكن الفريق المتولى عن كتاب الله تعالى . وقد قال سبحانه : (فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول ..)

فرده إلى الله أن يحكم بكتابه ، وردة إلى الرسول أن تأخذ بسنته . فإذا حكم بالصدق في كتاب الله فنحن أحق الناس به . وإن حكم بسنة رسول الله فنحن أولاهم به . . . »

وطوف ببصره فيهم يرى الأثر الذي يطبعه حديثه في وجوههم ، في هذه المرايا التي قد تعكس عواطف القلوب . . . ومضت عينه من عامتهم إلى خاصتهم . إلى قلة بينها كانت أعنتها به ، وأعتاها عليه ، وأظلمها له ، قد أبى عليه أفرادها في صفين إلا الانخداع مثلهم بدعوة المصاحف المرفوعة أو يسلموه لعدوه أو يقتلوه . فلما استجاب لهم ، أبوا ثانية إلا أن يختار حكما بذاته فرضوه . وها هم الآن ، في هذه اللحظة التي يناظرهم فيها ، يأبون عليه كل هذا الذي حملوه عليه حتف رغبته من الموادعة والتحكيم والحكمين جميعا ، ويسألونه فيه . . .

وتقع عينه منهم على فئة تشهد مقامه . ويتبع خياله فئة أخرى شغلها بمض أمورها عن شهود هذا للنقام . فكأنه بالذين حضروا وغابوا على سواء قد أخزاهم الله إذ تبينت لهم الآن مغبة عصيانهم لإمامهم ، واختلافهم عنه . وسوء رأيهم الذي أثابهم الندم والحسرة . . . ولكنه يستحضرهم في باله على ما كانوا عليه إبان عتوهم ، والقتال حينذاك ناشب ، والنصر على قاس رمح منهم . وهم يمجأونه عن هذا النصر استجابة لخدعة مفضوحة لعلمها لم تكن لتجوز على ذهن غلام . فإذا هم عندئذ مرده . وإذا هذه الجبابرة السوداء ، التي أعلنتهم بكثرة السجود ، كأنما تخفي وراءها أفهام طفل أو عنت شياطين . وإذا زعيمهم هذا زيد بن حصين ، وزعيمهم ذاك مسعر بن فدكي ، قد أقبلوا عليه في عصاة من القراء أمثالهم ، يتلهب الغضب في أعينها وهي لا تأبه قتيلا بتحذيره ، بل تهدر وتزار ، ملوحة بأسياقها أمام ناظره :

« أجب القوم إلى كتاب الله . . . وإلا قتلناك . . . »

ثم يستحضرهم أيضا في باله ، على حالتهم تلك التي طلوعوا بها عليه ، بعد استجابته ، بأفهام طفل وعنت شياطين . . . فإذا هم ثانية يشقون عليه ، ويكرهونه

على غير ما يرى ، ويعملونه على الرضا بأبي موسى حكما . وإذا شئت بن ربي ،
هذا الذي كان لهم أمير حربهم في مولد حزبهم ، يقول :

« ... إنا والله وإن خفنا على أبي موسى من عمرو ما لا يخافه أهل الشام
على عمرو من أبي موسى ، فلعل ما خفناه لا يضرنا ، ولعل ما رجوا لا ينفعهم ...
فإن قلت : في أبي موسى ضعف ، فضعفه وتقاه خير من قوة عمرو وجوره ...
فأغلق به البلاء ، وافتح به العافية ... »

وإذا عبد الله بن الكواء اليشكري . هذا الذي جعلوه صاحب صلاتهم
عند الاعتزال ، ويقف الآن منهم بموقف زعامة ، ينبري إذ ذاك ، ساعة إصرارهم
بصفين على اختيار الأشعري ، فيقول :

« ... إنك أجبت الله فأجبنك . ولكننا نقول : الله بيننا وبينك إن كنت
تخشى من أبي موسى عجزا ، فشر من أرسلت الخائن العاجز . لست تحتاج من
عقله إلا إلى حرف واحد : ألا يجعل حقتك لغيرك فيدرك حاجته منك ... »

ثم يبعد الإمام من باله هذه الصورة الباهتة من ماضيهم القريب التي أطلعهم
مردة عتاة ، ويستقبل بعينه شخوصهم التي تطلعهم الآن كأنهم أذلة على خزي وقد
حضرهم مآل عصيانهم ، ووبال مشاققتهم .. فما أضعف جلد الجائر ... وما أشدها
قوة يستطيع الخور أن يفرض بها سلطانه الجائر على النفوس القلقة ... وهام
أولا — هذه للعصبة العاتية المدلة بالأمس ، يستكينون لحيرتهم . ويتظلمون
للرجل الذي أعضلوا به ، وجرعوه من عنادهم مذاق العلقم ، مطوفين حوله
بالقلوب والأبصار عسى أن يكون في وقاضه ، من ذخرك عليه ، ما يشيهم أمن
الأنفس ، ويرد عنهم الحيرة الرعناء ...

ويعاود ما كان من حديثه عن التحكيم :

« ... إنا أصبحنا نقاتل إخواننا في الإسلام على ما دخل فيه من الزيف
والاعوجاج والشبهة والتأويل . فإذا طمعنا في خصلة يلم الله بها شعثنا ، وتعداني
بها إلى البقية فيما بيننا رغبنا وأمسكنا عما سواها ... »

ويعاودون مساءلته :

« نخبرنا عن الأجل ، لم جعلته فيما بينك وبينهم في التحكيم ؟ . . . »
حق هذا أيضا يسألونه فيه كأنما يغيب عن أذهانهم أن تدركه ولكنها نهكة
الحيرة ، وغمة القلق النفسى . وكرب الاضطراب قد ابتزتهم الثقة بأنفسهم ، وشلت
عقولهم ، وتركهم بمضيعة . . .

ويجيبهم الإمام :

« إنما فعلت ذلك ليتبين الجاهل وينتبهت العالم . ولعل الله أن يصلح في هذه
الهدنة أمر هذه الأمة ولا تؤخذ بأكظامها فتعجل عن تبين الحق ، وتنقاد
لأول الغي . . . »

ومضى يعظهم ويصبرهم . لا يستقبلونه بمسألة إلا أجابهم فيها بما يشفيهم .
ومضوا يحاورونه ويسألونه ، لا تعرض لهم شبهة تدفع بها أذهانهم المكدودة ،
وتنجيها نفوسهم القلقة إلا طالعوه بها ، واستخبروه طبعها . حتى إذا فرغت جمبتهم
اكتنفهم الصمت ، فقام يقول ، يعظهم :

« . . . ألا إن أفضل الناس عند الله من كان العمل بالحق ، وإن نقصه
وكرهه ، أحب إليه من الباطل وإن جر إليه فائدة وزاده . . . »
ونهمض فنهضوا معه . وخاطبهم في هدوء ورفق عسى الله أن يهديهم ، ويلم
بهم بعض شعث أمته :

« ادخلوا مصركم ، رحمكم الله . . . »

أعن هداية عادوا ، أم هي بدوة من بدوانهم ، ونزعة طارئة كبدوانهم
 ونزعاتهم التي طالما تكشفت ثم لا يعرف الناس ، ولا يعرفون هم أيضا ، عقباها ... ؟
 أحسبها راحة من قلق نفوسهم أظاءها عليهم حديث الإمام ، يومهم هذا ، فانفسحت
 هونا قلوبهم لرضا ، ولانت هونا عقولهم بها ، فلم يروا إغما في العودة ... لم يكن ثمة
 مبرر لانحيازهم عن الكوفة وهم هناك بحروراء قاعدون إن أنكروا باطلا
 لا يناهضونه أو رأوا حقا لا يؤازرونه . فلقد مضت بهم أيامهم فيها والسيوف في
 القرب ، والأكف عاطلة لا تضرب بسلاح ولا بسوط ، وأعضاؤهم كلها خدرة
 مفترة إلا هذه الألسنة التي أتيسح لها أن تتحرك لحظة من ساعة ، أو ساعة من يوم
 تتحدث بنظرتهم كلما وفد عليهم من رجال على واند أو نفر يناظرونهم — وقليلًا
 كانوا — ثم تهجد بعد هذا خرساء ! .

فلهم بالكوفة ، إذ يخالطون إخوانهم ، تنزاح عنهم بقية هذه الحيرة الذهنية
 التي لا يزالون يعانون منها ولا تزال تلح عليهم كلما خلوا إلى نفوسهم يذاكرونها
 سلوكهم أمس ، وسلوكهم اليوم ، والتناجح المحتومة للغبية التي لا ريب مطالعة الأمة
 قريبا أو بعيدا لو هم صبروا على هذه الحكومة حتى تبلغ مبلغها ، أو إن برموا
 فعاجلوها بالتقويض .. ولعلمهم أيضا بهذه المخالطة مفسحون لجدلهم آفاقا تربهم
 الحق أين مأناه ... ولعلمهم بها كذلك أفدر على نشر دعوتهم ، وتصيد التابعين
 لها والأنصار لهم إن تبينوا أنها وحدها هي السبيل ...

أحسب هذا كله كان بعض ما خامر خواطرهم وهم يرحلون القرية إلى المصر ،
 ويدعون العزلة إلى الجماعة . فما بانحيازهم خيره معلوم وإنهم به لحرس الأسنة . عاطلو
 الهام ، أشلاء الأجسام ! وما تضيرهم العودة الآن ، ولا قد أضرهم الاعتزال قبل ،
 فإنما راموا بهذه وهذا وجه الله لم يروموا وجه على ولا وجه غيره من العباد ...
 وتموج الكوفة بجمعهم كأنها في يوم عيد . ويستبشر الناس فهذه الطائفة التي

أربت على عشرة آلاف من المقاتلة الأشداء ذوى الأيد قد أصلح الله شأنها فعادت تلزم الجماعة ليشدد بها الأزر . . . والناس من فرحتهم يرددون البشرى ، ويتناقلون الرجاء فى مستقبل عزيز وهم يذكرون أن الحرورية عادت إلى طاعة الإمام ، وفاءت بهديه إلى الصواب . . .

لكنها لا تكون إلا مدة قصيرة حتى يختلط الأمر على أهل الكوفة . لا تكون إلا مدة قصيرة ، أياما معدودات ، تعيشها البشرى ، ويحيها البشر ، ويستشعر القوم فيها عزة جانبهم ، ثم تجمد الفرحة وينفض نبع الرجاء ، ويقبل الناس حيارى ، بعضهم على بعض ، يتساءلون عن حقيقة الدوافع الخفية التى خرجت بهذه العصابة العنيدة من معتزلها حين أيقن وفود أمير المؤمنين ، وصحبه ، والأمة جميعا من ورأىهم ، أنها لن تكف عن غلوائها ، ولن تدع رأيا ، ولن تعود . . .

هنا وهناك فى دروب البلدة همس . هنا وهناك عجب وتساؤل . ما التقي رجل برجل إلا ساءله . ولا صاحب بصاحبه إلا ساءه فى تخرج وحذر . فلقد ذاع أن هذه الحرورية لم تنزل لعل عن رأيا ولكنه هو الذى نزل لها عن رأيه ، واشترى منها رجوعها إلى رجاله ، ورضاءها عنه بالتسكّر لما كان قد خالفها عليه . . .

وعجب الناس . ولكننا لا نرى ثمة ما يشير عجيبنا من هذه الأخبار ما دامت النفوس البشرية أبدا مجبولة على تلصص العذر تدعيه لتبرر به أى هزيمة تحقيق بها ، فكرية أو مادية ، وتظنها — إن هى تركتها بغير تبرير — آخذة من مكائنها ، ومنتقصة من هيبتها فى مجتمعتها بمقدار . . . ومعتزلة حروراء بشر من البشر ، نفوسهم كالنفوس ، ورجوعهم إلى الكوفة بعدما كان من تأييدهم إن هو إلا إقرار صريح بخطئهم ، واعتراف بليغ بهزيمتهم يتحدث به ملائ الناس ، فلا بد له إذن — فى حساب هيبتهم — من تبرير . . .

لكأنى بهم ، وهذه مشاعرهم ، لا يكادون يستقرون بالكوفة ، ويخالطون أهلها ، ويتسامعون بتلك الأحاديث عن نزوعهم إلى الجماعة والطاعة بعد عزة وعناد حتى يقول قائلهم :

« إن أمير المؤمنين قد رجع عن التحكيم . . . »
وكانى بهذه القولة بعد قليل تجر وراءها نتيجتها المحتومة فإذا هي تفصح وتقول :
« . . . إنما ينتظر أمير المؤمنين أن يسمن الكراع ، ويجبي المال فينهض
إلى الشام . . . »

وكانى بشائعتهم هذه ومثيلاتها تنطلق بين الناس ، فى الدروب والمهافل
والدور ، فتتمو وتكبر ، وتتضح لها الملامح ، وتتخلق فيها زوائد وأطراف كما
انتقلت من قم لأذن ، ومن أذن لقم ، حتى تستوى كيانا كاملا لرواية كاملة تصور
بعض ما جرى فى التقاء الإمام بهم ، فتبرز رأيهم ، وتبرز معه نزوع على إليه ،
واقتراعه ، وتبذيه إياه بعد توبة واستغفار . . . تقول تلك الشائعات :
حدثهم الإمام فقال :

« أنشدكم الله ، أعلمتم أحدا منكم كان أكره للحكومة منى ؟ . . . »
قالوا :

« اللهم لا . . . »

« أفعلمتم أنكم أكرهتمونى حق قبلتها ؟ . . . »

« اللهم نعم . . . »

« فعلام خالفتمونى ونايذتمونى ؟ . . . »

فأقروا على أنفسهم بالكفر :

« قد كنا كما ذكرت ، وفعلنا ما وصفت ، ولكن ذلك كان منا كفرا . . . »

وقد تبنا إلى الله عز وجل منه . فتب كما تبنا نبيائك ، وإلا فنحن مخالفون . . . »

وهنا تقول الرواية إنه بايعهم على ما قالوا ، وأقر على نفسه كإقرارهم على

أنفسهم ، وتاب :

« إني أستغفر الله من كل ذنب . . . ادخلوا فلنمكث ستة أشهر حتى يجي

للمال ويسمن الكراع ، ثم نخرج إلى عدونا . . . »

على هذه الهيئة جرت شائعة العصبة القارئة صاحبة حروراء أو على أشباهها

من صور وهيئات . وما ننكرها منهم ، فهى بحالتهم النفسية حينذاك أشبه .

وما نأبأها كذلك كل الإباء ، ففيها حق لا يرد إلا مبطل ، وفيها باطل لا يقبله إلا أفاك . فهم أكرهوه على هذه الحكومة . وهم أكرهوه على هذا الحكم الذي فرضوه . . . لم يبالوا شيئا بنذيره ، وعصوه في الأولى وقد قال :

« . . . احفظوا عني إياكم ، واحفظوا مقاتلكم لي . . . أما أنا فإن تطيعوني فقاتلوا ، وإن تعصوني فاصنعوا ما بدا لكم . . . »

ولم يبالوا شيئا بنذيره ، وعصوه في الثانية وقد قال :

« قد عصيتهموني في أول الأمر فلا تعصوني الآن . . . »

ويأسف منهم لهذا العصيان ، ويقول :

« . . . فعلة ضعفت قوة ، وأسقطت منة ، وأورثت وهنا وذلة . . . وإيم

الله ما أظنكم بعدها توافقون رشدا ، ولا تصيبون باب حزم . . . »

حق إذا غلبوه على أمره ، وأعطى عهد الله وميثاقه على ما رأوا ، بين لهم :

« . . . فإذا أبيتم . . . فلا يصلح الرجوع بعد الرضا ، ولا التبدل

بعد الإقرار . . . »

أفئن شاموا الآن في عصيانهم اللتى ذاك معصية أقبلوا يهملون أن يثأروه بمعصية

جديدة ، يكفرون بها عما فرط منهم ويتوبون عنه ، هي تقضهم عهد الله ، ثم

لا يكفهم بعدها إلا أن يرموا بالكفر ذلك الذى حذرهم العصيان ؟ . . .

على أى حال ، ذاعت هذه الدائعات في الكوفة بعيد استقرارهم بها ، يعجب

لها الناس . ينكرونها حيناً وهم يرونها تنتقص من قدر إمامهم وما عهدوه من

إيمانه الذى لا تطوله ظلال الشبهات . ويشفقون منها حيناً آخر وهم يرونها تدنيهم

من النكت وخفر الذمة وتبعد بهم عن الوفاء . ويضطربون فيها ثلاثة اضطرابة

الحيران القلق الذى توشك الشكوك أن تمصب عينيه . وهى خلال هذا كله

تلب على الألسنة ، وتملاً للمسامح ، وتهز الأذهان كلها دارت معهم أينما داروا

في الدروب والمخافل والدور . . .

ودومة الجندل بعد هذا تخايلهم ، فمعد اجتماع الحكيم بها يدنو . والزمن

ينطلق ويسير . ولكنه يحض بهم ويثدا بطيئاً يزحف ، ثقيل شديد الوطء على

تقوسهم . فما يدرون أيجتمع الحُكَّان فتكون حكومة أم هذه الحكومة حقا
ضلال فلان تكون . ويدع أناس ما كان من تخرجهم وهمسهم بتلك الذائعات
فلا مناص الآن من إعلانها ، ولا حيلة لهم في المشي بها إلى الأمام ليعلموا منه
خبرها لليقين . . .

ويصارحه قائل مومنا إلى أصحاب حروراء :
« يا أمير المؤمنين . . . إن القوم قد تحدثوا أنك رجعت لهم عن كفرك . . . »
فيعجب . ويغضب من القرية للمعنة في البهتان .
ثم تكون الذائعات قد استمارت أجنحة طارت بها عبر البلدة ، تبحر
أبوابها ، وتنتشر بعدها بين الشمال والجنوب ، وبين للشرق والمغرب ، فتملأ
الحواضر والبيد حتى يأتيه من الشام من يقول :
« إن معاوية قد وفي ، فف أنت لا يلفتك أعاريب بكر وتيم . . . »

عندئذ يرى لزاما عليه أن يكف عيهم ، وأن يضع الناس على بيئة من الأمر .
وإذا هو ذات ظهيرة يدخل المسجد فيعطي منبره ، ويخطب فيمن أقبلوا للصلاة .
فلا يدع شيئا من قصة هذه الحكومة إلا ذكره ، ولا من هذه الشائعة التي تشيع
حولها إلا دحضه ، ولا أناسا أذاعوها قد ابتدعوها إلا أكذبهم . . . ثم رمام
بنظرته في الأمر بيضاء بقاء بغير شبهة :

« . . . ألا من زعم أنني رجعت عن الحكومة فقد كذب . . . »
فما هو أن ينطق بمنطقه ، حتى يثب من بين الناس رجل يصيح في حدة
كأنما قد تخبطه مس :

« يا على . . . أشركت في دين الله الرجال ، ولا حكم إلا الله . . . »
ويتواثب على أثره طائفة ، هنا وهناك بالمسجد ، يعللون أركانها صياحا وجلبة :
« لا حكم إلا الله . . . »
« لا حكم إلا الله . . . »
« لا حكم إلا الله . . . »
ثم لا تكاد الصلاة تبدأ حتى يرتفع صوت أحدهم يتلو :

« . . . ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك
ولتكونن من الخاسرين . . . »

فإذا الإمام لا يدع هذا التعريض الذي أراد به ذلك التالى المسكار ،
فيبادر بتلاوة :

« فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفك الذين لا يوقنون . . . »
ومن تلك اللحظة تسفر الحرورية عن عداوتها . فما كانت عودتها إلى
الكوفة نزوعا إلى الحق والزاما لجانب الجماعة بقدر ما كانت بدوة من بدواتها
التي تخبطها بين اليقين والحيرة ، وما تزال تتخبطها أبدا في الريب والشكوك
ما بقيت تسمى معصوبة العقول والأعين لا تستطيع أن تتبين الطريق .

٢

غدا المسجد موئل حجاجهم . أنى دخوله أثاروا فيه ألوانا من الجدل
والسفسطة . وغدا القرآن متأولهم ، يتخاطبون به ، وبه يخاطبون غيرهم بمن
يخالفونهم في الرأي ، لا يتخرجون عن إخضاع آياته لتأييد شعارهم مرة ، ونقاشهم
أخرى ، وإن علموا أن هذه الآيات ما نزلت إلا في غير هذا الشعار والنقاش . . .
وغدا على بعد هذا هدف السنتهم الزارية العيابة . تتناوله وهو غائب . وتتناوله
وهو شاهد . وتتناوله وهو قائم في صلته بين يدي الله . كلما وسعهم أن يعيروه
عابوه ، وأن يشاقروه شاقروه . وهو أحيانا يغضى أو يلطف ، وأحيانا يرد
ويعارض . . .

والأمثلة على غلوهم في شقاقه كثيرة . . . يشورون بشعارهم في وجهه
ذات مرة :

« لا حكم إلا لله . . . »

فيجيبهم بهدوء :

« كلمة حق أريد بها باطل ! »

ويشورون أخرى ، فيقول يتوعدهم :

« حكم الله أنتظر فيكم . . . »

ثم لا يكون منه إلا التسامح الذي هو بخلافه أليق ، فلا يعنف بهم ، ولا يحرمهم حقهم في معارضته وإبداء رأيهم حرا بغير حظر ولا تقييد ، فيعلن لهم سياسته فيهم :

« أما إن لكم عندنا ثلاثا ما صحبتمونا : لا نمنعكم مساجد الله أن تذكروا فيها اسمه . ولا نمنعكم الأنبياء ما دامت أيديكم مع أيدينا . ولا نقاتلكم حتى تبدأوا . . . » ومع هذا ينبري له منهم من يقول في غرور وصالف وهو يسوق مشاقته في ثوب القربة إلى الله :

« . . . اللهم إنا نعوذ بك من إعطاء الدنية في ديننا فإن إعطاء الدنية في الدين إذهاب في أمر الله ، وذل راجع بأهله إلى سخط الله . . . يا علي . . . أباقتل نخوفنا ؟ . . . أما والله إني لأرجو أن تضربكم بها عما قليل غير مصفحات ثم لتعلن أينا أولى بها صليا . . . »

لكن الإمام لا يشور . ويدعهم وصالفهم ، إنه ليعلم أنهم أهون عليه من غصبة يستقبلهم بها وهذه مصارعهم تخايله وتوشك أن تحدث إليه غير مقصورة ولا موجزة . . .

يظل يأخذ نفسه منهم بالروية في أمرهم ، وبالتبصير والإرشاد والاستصلاح يجري بها إليهم محبة كلما وسعه أن يزجي نصحا أو رجا أن يهديهم . فإذا تساعده لا يلين من جانبهم شيئا . وإذا هديه لا يزيدهم إلا إصرارا على رأيهم ومكابرة فيه . وإذا هم يعودون كبدهم أو أشد عنتا فلا يكفيهم أن يغلوا في القضية ما شاءوا حتى يبدو لهم أن يرددوا أمورا غيرها قد رث ترددها ، وأن يقبلوا صحائف ماض دارس يلقفون منها أسطرا يحلو لهم أن يتخذوها مادة تضيف إلى إغراقهم في اللجاج والخصومة . . .

ثم إذن شعبوا خصامهم شعبا ، وفرعوه فروعا ، ما كانت لتنبت إلا عن كلفهم بالجدال والمحااجة . فليس يكفيهم الخوض في هذه الحكومة ومناقشتها من حيث هي ،

في حساباتهم . الخطأ السياسي الذي له آثاره الضارة بالجماعة ، ولا في هذا الخطأ من حيث جسموه فجعلوه المعصية الدنيوية التي تبلغ الشرك فتصغر أمامها كل معصية إنما يعضى بهم عنهم أشواطاً فيجادلون في الألفاظ التي كتبت بها الوثيقة ، وفي معاني ودلالات شتى يخرجونها من هذه الألفاظ وينحتونها تحتها ، آناً مصقولة وأوناً كثيرة غير مصقولة . ثم يشردون مع الواقع الملح بالنقاش فيجادلون في أمور بعيدة كل البعد عن شعارهم ، لا تتصل به في القليل ولا في الكثير وقد سلف للناس الفراغ منها وباتت الآن في طي النسيان

تشهدهم الكوفة إذ ذاك يعاودون عيهم على الإمام أن قد حكم الرجال في دين الله ، مع ما قد سبق من حجة له عليهم بحروراء وبالكوفة على السواء رسمها لسانه وردتها السنة صحبه ووافديه ، لكنهم يؤثرون أن ينسوا حججه وبراهينه لأنهم يؤثرون أن يعودوا لبدنهم ليشبوها فتنة كاد يحتويها الرماد . ويحلوا لهم دائماً أن يطمسوا الذاكرات والأعين حتى عن مجلسه ذاك الذي لا يزال الناس يتحدثون به ويتندرون في مجالسهم بما جرى فيه . فلقد شاء الإمام ذات يوم أن يأتيهم بالدليل « العملي » التي تحسر أمامه سفسطة جدالهم ولغومهم ، فاعتقد الدار لا يستقبل فيها إلا كل قارئ يحمل القرآن ويعيه . فلما أن امتلأ المكان بالقراء وضاق ، أخذ مصحفاً فجعل يصكه بيده وهو يناجيه :

« أيها المصحف ، حدث الناس ! . . »

فصعب الجمع ، وقالوا له :

« يا أمير المؤمنين . . . ما تسأل إنما هو مداد في ورق . وإنما نحن نتكلم بما

روينا منه . فما تريد رحمتك الله ؟ . . »

وعندئذ قال :

« أصحابكم هؤلاء . . »

وكانت لفتة تغني عن المجادلة والبيان . . .

وتشهدهم الكوفة أيضاً يكررون لما بدأوه من أخذهم عليه أنه محاسن إمرة

للؤمنين عن نفسه بالوثيقة مع أنه قد علم لهم من قبل هذا المحو فأحسن تعليمه
ولكنهم يعاودون :

« انسلخت من قميص البسكة الله ، ومن اسم ممالك به الله . . . »
ثم لا يكفهم عن المعاودة والترديد أن قد تلا عليهم في مجال المحاورة :
« لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر . . . »
فالرسول قبله قد محا الرسالة عن اسمه ، في صحيفة الحديدية حينما أعنت به سهيل ،
واقف قريش ، ولم يقل امرؤ عندها ولا بعدها إنه ليس برسول الله . . . لكنهم ،
فيما يبدو ، أحبوا له ما لم يحبوه للرسول ، وكانوا أحرص منه على إمامته حتى
ألبسوها قداسة تدخل في روع الناس ما ليس في الإسلام من عصمة الحاكم ، ومن
حقه الإلهي في ممارسة سلطانه بغير معقب ولا رقيب من الشعب المحكوم . . .
وتشهدهم الكوفة كذلك يستخرجون من صحائف الماضي وقعة الجمل فيعيون
على الإمام قائلين :

« قتل الأنفس الحرام ولم يقسم السبي والأموال . . . »
وكانما قد نسوا أنه أبي عابهم بعد تلك الوقعة جشمهم الذي دفعهم إلى التنادي
بعد النصر بتقسيم الأموال والسبي فيهم ، وأنه قال لهم حين أسرفوا عليه وعلى
أنفسهم بالإلحاح :

« فأياكم يأخذ أمه ؟ . . . أقرعوا على عائشة لأدفعها إلى من تصيبه القرعة . . . »
وكانما نسوا أن ابن عباس قال لهم بحروراء عندما عادوا لهذا الحديث :
« قد كان في السبي أم للؤمنين ، فإن قلتم ليست لكم بأم كفرتم ، وإن
استحللتم سبي أمهاتكم فقد كفرتم . . . »

لكنهم ، ولما بالجدل ، ينسون . . . وهم أحرى بأن ينسوا كل حجة يرونها
تنهض لمطقتهم حتى يظلوا أبداً — في أعين أنفسهم — أصحاب الفلج والرجحان . . .
وساخل تعصيتهم إلا قد أعماهم ، فالذي عصب بصره لا يرى سوى العصابة . ومن
أغمض عينيه خلق بأن يشرد به الظلام كل مشرد ثم يختبل عن طريق النور .
وما كانوا إذن بمهتدين وقد غلوا بظلمهم فأغرقوا نفوسهم في غمرة من الريب

والشكوك حق بها عليهم الضلال وما سلف من نبوءة رسول الله فيهم وإنهم إبانها لأجنة في بطون المجهول . . . فلقد قال عنهم :

« تفرق أمتي فرقتين ، فتمرق بينهما مارقة فيقتلها أولى الطائفتين بالحق . . . »

ولقد مرقت هذه المارقة على حين فرقة من الناس ، كما ذكر محمد ، لم يكفها علمها عن اللروق . وأخذ شكها يتخطها فمرة في لد و مرة في هدنة ، وآنا تشق وآنا تنف . وإنها انتفرق فيما بينها فرقا شقي لا يصبر جميعها على أمر واحد فإذا بعضها يخافت بعدائه ، وإذا بعضها يجاهر به ، وإذا منها من يسبق إلى التشريع للحرب يتمجل — بزعمه — الشهادة وما وراءها من رضوان الله ، ومنها من يقعد عنها ترثا وتؤدة ثم لا يكون مصير العجول والقاعد كليهما إلا مصارع سبقت في الغيب تهيئها يدا الإمام . ولعلها أن تكون أطفأت من فتنة لولا سيفه لكانت أخلق بأن تسرح وتأكل وتمتد إلى حيث لا يعلم إلا الله . . .

ويسمع الإمام مرة قارئا يرتل :

« قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا . . . »

فيتسم ويقول :

« أهل حروراء منهم ! . . . »

٣

الكوفة تضطرب . . .

النفوس فيها قلقة . الحديث فيها جلبة ولغط . الجداول يملو إلى ذروة الحوصلة . . . فما هي دومة الجندل تنهياً لتستقبل حكم الشام وحكم العراق . ها هو شعبان أقبل وموعد اللقاء حل . ها هم الناس يهرعون بالأخيلة والظنون — لا في البلدة وحدها بل في منازل الإسلام كلها — إلى ما سوف يسفر عنه هذا الاجتماع المرقوب . . .

وتضطرب الكوفة ...

وليس اضطرابها لأن مئين أربعا من أهلها توشك أن تخف بهم رواحلهم إلى الشمال ليكونوا شهودا على الحكيم الذين اختير عن الفتيين ليحكم بكتاب الله . ولا لهذا الضجيج الذي يصاحب الرحيل عادة ويدفع المشيعين ، من هنا ومن هناك ، إلى وداع اللين الراحلة . ولا من قلق لما عسى قد تنجاب عنه الحكومة من نتائج وآثار ... لا لهذا كله اضطراب حاضرة على في هذه الفترة قبيل مسير وفدها ، ولا عند تشييعه ، ولا إبان مخرجه عن حدودها إلى منبسط الصحراء يدب على الدرب إلى مقر التحكيم ... إنما هزها أولئك الحرورية الذين أثاروا فيها جدلهم أضغاثا ، ورفعوا أصواتهم صياحا وجلبة وهم يرون الحكومة التي ينكرونها ، وطالما حاربوها وهي فكرة ، تخطوا خطواتها الحاسمة نحو التحقيق ...

الآن لا منطق ولا حجة . ناء جهدهم بالحديث ... منطقهم كأنه عواء . حجاجهم سباب . نقاشهم تلويح بقبضات الأيدي المتوعدة وتقبض على القسي والسيوف ... لم يعنفوا من قبل مثل عنفهم هذا . ولم يخرجوا عن طورهم نكروجهم هذا . ولم ينالوا الناس من مخالفهم بمثل هذه اللساعات التي أخذوا يحشدونها وينالونهم بها اليوم ووقدهم — هذه اللين الأربع — مودع ، وركبه بهم أن يسير ...

ولم يسلم على منهم ، وما كانوا ليدعوه . عنتم دائما يلاحقه . في الدار ، في الطريق ، في المسجد ، وأينما تقفوه . حق في صلاته كانوا يعارضونه بالغيب والعنف واللكابة . إن هو أغضى عنهم وعف ثاروا ، وإن أجابهم لا يكادون يتركون فرجة ينفذ بها إلى أسماعهم حديثه من خلال ما يشبونه من الصياح والضجيج . بل إن منهم لأناسا كانوا يجابهونه بما يشاءون من لجاجهم فإذا شهدوه يحرك شفثيه وبهم أن يقارعهم لغوهم بحجته وضغوا أصابعهم في آذانهم لكيلا يسمعه ... واكثر عليه محبة في أمرهم ولكنهم بقى على ما انتهجه حيالهم من الرفق بهم ما وسعه ، ومن إهمالهم والصبر عليهم . فلعلها بدوة من بدواتهم تخففها الأيام ، ولعلها غمرة وتنجل ... ويأتيه فيهم الأشعث بن قيس فلا يزيد على أن يقول له :

« لا أقاتلهم حتى يقاتلوني . . . »

ثم يسكت قليلا ، ويكمل وهو أسيف :

« . . . وسيفعلون ! . . . »

« فلقد أخرجوا دخائلهم .

ومع ذلك فالخسر في أن يداريهم ويعالج شرورهم في الغي بالكف عنهم والاستثناء بهم عسى أن تلهث منهم الأنفاس قبل أن يبالغوا شوطهم من اللدد والخصومة . وإن هي إلا أيام أو أسابيع ثم تبدو نتيجة هذا الاحتكام فيعلم موضعه ، ويعلمون مواضعهم ، وقد يؤلف بينهم وبينه حكم القرآن . . .

والحق أنه لم يكن له عن التصبر سبيل . فليس يستطيع أن يحملهم على ترك تذبذبهم هذا بين الهدى والباطل وهم مرة يرضون ومرارا كثيرة ينصرفون . وليس يستطيع أن يخاصمهم بمنطق القوة الذي غدا الآن منطقهم للفضل ومجتمعه في هذه الآونة أحوج إلى الاحتفاظ بالهدوء والوحدة أو بمظهر الهدوء والوحدة حتى لا يطمع فيه عدوه ولا يكون للاضطراب والانقسام آثارها في رأى حكمه الذي أوفده وفي نتيجة التحكيم التي ينتظرها الناس . . .

هو إذن يداريهم ويمهلهم ما وسعه وإنه لعليم أن الشك هو الذي يميل بخطاهم ويسوقهم في غلوائهم إلى أقاصيها حتى ليقول مرة وقد شهد منهم رجلا قد قام الليل يتعبد ويتلو القرآن :

« نوم على يقين خير من صلاة في شك ! . »

وهو يترفق بهم ويعف في أحيان كثيرة عن سفاهتهم . يسمع الشتم ولا يرد عليهم ، ويرى من بعض صحبه الغضب له على ما يصيبه فيكفهم عن الشتم للسر . . . كان مرة يعظ الناس فأعجبت موعظته حروريا فإذا هو يهتف وهو كاره :

« قاتله الله كافرا ما أنقذه ! . . . »

ويتسامح الإمام فيدع العائب وشأنه . ولكن بعض صحبه يثيرهم من الإمام حله كما يثيرهم من الخصم سفهه فيهمون بالحروري يوشكون أن يقتلوه : وعندئذ ينهائم على في لين :

« إنما هو سب بسب ، أو عفو عن ذنب . . . »

لكن ترققه بالحرورية كل هذا الترفق لا يكتفهم عن هذه المشاقة التي يسطنونها في غير تأثم ولا حرج ويفرقون فيها كل الإغراق . بل لعله يزيدهم عنتا ولجاجة فيغرون به سفهاءهم وسلطاءهم يجهونه في كل لحظة بما يسيئه لعضلوا به ، ويهظوه ويخرجوه عن طوره الخروج الذي يرمونه ويرونه الدواء لماهم فيه حتى إذا طال عليه عنتهم وهو صابر ، وفرغت حيلهم دون أن تثمر ما أرادوه . مشى إليه زعيان منهم يندرانه ، ويسفران عن عدااء جماعتهما بلامواربة ولا إخفاء . . .

يدخل عليه الرجلان وفي ملاحظهما ينطق تحديهم ، فيأدرانه بالهتاف التقليدي للعلوم :

« لا حكم إلا الله . . . »

فلا يشور . ويردد وهو هادي :

« لا حكم إلا الله . . . »

وعندئذ يخاطبه منهما حرقوص بن زهير ، مغفلا لفظة الإمرة ، مسرفا في عنف مقاله :

« يا علي . . . تب من خطيئتك ، وارجع عن قضيتك ، واخرج بنا إلى عدونا نقاتلهم حتى نلقى ربنا »

ويعضى الرجل وإملاءه . ويعضى على وإصفاءه إصفاء جميلا غير مشوب بمراجعة ولا مقاطعة حتى يدرغ الغوى منطقته فيجيب برفق وفي أناة :

« قد أردتكم على هذا فعصيتموني . وقد كتبنا بيننا وبين القوم كتابا ، وشرطنا شروطا وأعطينا عليها عهدنا وموآثيقنا . وقد قال الله عز وجل :

وأوفوا بعهدهم إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ، إن الله يعلم ما تفعلون . . . »

وما أتاهما بجديد ، فهذا حديث معاد مسموع منه ورضوا به ثم آثروا الآن أن يرفضوه . ولكنه هو الحديث وهو الدستور الذي يجب أن يحتذيه البشر في معاملاتهم في كل أوان ومكان لأنه لب الشرائع ونهج الأخلاق . . .

لكن حرقوص بن زهير يأباه ، ويتعلل لإبائه بأن يقول :

« ذلك ذنب ينبغي أن تتوب منه . . . »

فيجيبه الإمام يصحح له :

« ما هو ذنب ، ولكنه عجز من الرأي ، وضعف من الفعل . وقد تقدمت

إليكم فيما كان منه ، ونهيتكم عنه . . . »

غير أن الرجلين بخلطان بين المعصية وخطأ التقدير . بين الدين وسياسة الأمور . بين ما المرء أن ينظر فيه ويدلى بالرأي وبالعمل وبين ما عليه عليه الشريعة وليس له دونها اختيار . . .

ويصيح به ثانيهما . زرعة بن البرج ، يتوعد :

« أما والله يا علي ، لئن لم تدع تحكيم الرجال في كتاب الله عز وجل قاتلتك

أطلب بذلك وجه الله ورضوانه . . . »

عندئذ يهتف الإمام زاريا وإن لحة من لمحات المجهول لتبدي لعينه مصارع القوم ومصرع هذا اللدل بجبروته جزاء وفاقا على سوء رأيهم وانسياقهم مع الهوى إلى مصير محتوم :

« يؤسا لك ما أشقاك . . . لكأني بك قتيلًا تسلى عليك الريح . . . »

فأمعن الرجل في مكابرتة وعناده :

« وددت أن قد كان ذلك . . . »

« ويحك ! . لو كنت محقا كان في الموت على الحق تعزيزة عن الدنيا .

ولكن الشيطان قد استهوأك ، فاتقوا الله . . . »

لكنه لا يسمع الصم ، ولا يسمع الموتى في القبور . . .

٤

بيتوا أمرهم بليل . . .

كانت نذر خلافهم تتجمع في الأفق ، واضحة لكل ذى عينين ، كتجمع خطوط الأصيل الحمراء خطا إلى خط حتى تكسو السماء بلونها الدامى الذى يرسم طبيعة الغروب . . . وكان الزمان حينذاك مغربهم . وكانت أحداث النفوس تطلهم صرعى ، دمهم كرقعة الشفق ، وشخوصهم على هذه الأرض كالظلال الباهتة التى تلقىها الأشعة الآفلة ثم لا تلبث أن تذوب فى اللساء . . .

ما من امرئ إلا قد استيقن مصيرهم من قبل أن يحين . لا خير فيهم . لا جدوى من وراء مطاوانهم كل هذه الأيام والليالى . لا رجاء فى استعادتهم إلى الجماعة التى شقوها بمنادهم وباعدوا ما بينها وبين أنفسهم وإن ساكنوها بأبيات البلدة وقاربوها بالأبدان . فما أبعد الفكر عن الفكر ، والنظرة من النظرة ، ومشاعر القلوب من مشاعر القلوب . . .

إنهم أسرى وهم يلوح فى خواطرهم عقيدة . أوقعتهم فى برائته كزازة ذهن . كبلهم فى أغلاله تعصبهم . حبسهم فى سجنه المظلم ضيق . أفقهم خالوه فى مثل انطلاقة الفضاء الفسيح . وكلما انفتحت لهم فى جذره كوى سارعوا فسدوها لأنهم يرمون بالضياء الذى سيتسرب إليهم من خلالها بل لأنهم يخشون أن تقتحم عليهم بعض النسبات الحرة الطليقة محبسهم العطن فتطفي ذبالة رأيهم الواهن الذى قد آثروا أن يعيشوا عليه . . .

وكانت شكوكهم هى التى تحركهم كما تحرك الرياح الهوج أوراقا جافة ذابلة فى إبان إعصار ، أحيانا يمنة ، وأحيانا يسرة ، ودائما تملو بها معاينة وهى تدور كالدوامة ثم لا يكون شأوه هذه الحركة إلا السكون والعودة بالأوراق الحائرة إلى حيث كانت لا إلى حيث تصير وتكون . . . فهام أولاء بعد طول مناظرة وحجاج وتحذير يكرون ثانية إلى بدتهم فينكرون ما تعبت الألسن فى دحض إنكارهم له ، ويتمسكون بما أظهروا ، مرات كثيرة ، صدق النية فى تركه والإقلاع عنه . .

حق ذلك الفاصل البين بين حق طي وباطل معاوية قد غم عليهم هم الذين قد هرعوا إليه قبل القتال يعلونه حق غدا سورا شاهقا ما إلى اقتحامه ولا تجاوزه سبيل . ولكنهم في غمرة شكهم لا يرونه ، ولا يذكرون لبنة واحدة منه ، ويقبلون في ساعة من ساعات حجاجهم لابن عباس وكأنهم أجهل الناس به يقول لهم ابن عباس وهو يهون عليهم ما يهبطهم من أمر التحكيم : « . . . ولقد أخذ طي طي الحكيم ألا يجورا ، فإن يجورا فعلى أولى من معاوية وغيره . . . »

فإذا هم يقولون وهم في ريب :
« إن معاوية يدعى مثل دعوى على . . . »
كأنما يسرون بين الدعويين ولا ينكرون طي عاهل الشام دعواه .
ويجيبهم ابن عباس كالساخر :
« فأيهما رأيتموه أولى فولوه . . . »
« صدقت . »

لكنهم ينسون كل هذا الذي حاربوا عنه ، وجادلوا فيه ، وأظهروا المرة بعد المرة الاقتناع به ثم ينطلقون وهم أعمى ما يكونون سخطا وأعتى حقدا على الإمام فيبيتون أجسهم بيل . . . في ظلة الأماسى ينسلون كالحفافيش من دار إلى دار ومن منزل لمنزل تتخبطهم وساوسهم ليتهاوسوا بالنآس . والعيون حينذاك عنهم في غفلة . والخواطر تحسبهم لا يزيدون شيئا طي هذا اللفظ الذي يجاهرون به في المجمع وطى ملأ الناس . . .

وتجهمهم مرة دار عبد الله بن وهب الراسي ، ذلك الرجل ذى الثغفات الذى تقرحت جبهته من فرط سجوده . وإنهم جميعا لعل مثل هيئته ، تحسبهم من سيام يفنون تقى ويزوبون زهادة ، كأنما كانوا من أولئك الذين يمنهم على بقوله :
« . . . اتخذوا الأرض بساطا ، وترايبها فراغا ، وماءها طيبا ، والقرآن شعارا ، والدعاء دثارا ، ثم قرضوا الدنيا قرصا على منهاج المسح . . . »
فإذا بلوتهم فهم على غير مظهرهم ، تكاد تصدق فيهم قوله التى ينعت بها للناقضين :

« ... يتلونون ألوانا . . . يحشون الخفاء ، ويدبون الضراء : قولهم شفاء ، وفلهم الداء العياء . . . إن سألوا ألحقوا ، وإن حكموا أسرفوا . يقولون فيشبهون ، ويصفون فيجوهون . . . فهم لمة الشيطان ، وحة النيران . أوائلك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون . . . »

تجمعهم حينذاك دار صاحبهم ابن وهب وإنهم لقراء مثله ، لهم علام السجود والتهجد ، ولا شمار يتنادون به بين الناس إلا كتاب الله . فإذا أجنهم ليهم ، وغلقت عليهم الأبواب تظاهروا فيما بينهم بالمؤامرة يدبرون الشر ويهدون طريقه . . . ويقوم فيهم صاحب الدار يخطبهم :

« . . . أما والله ما ينبغي لقوم يؤمنون بالرحمن ، وينيبون إلى حكم القرآن أن تكون هذه الدنيا — التي الرضا بها ، والركون إليها ، والإيثار إياها عناء وتبار — أثر عندهم من الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والقول بالحق وإن مر وضر ، فإنه إن يمر ويضر في هذه الدنيا فإن ثوابه يوم القيامة رضوان الله . . . »

ويعضى الرجل وعظته مليا ، ثم يطالعهم بهذا الأمر الذي جمعهم له ، ورأى أن يحرضهم على العمل به :

« . . . فأخرجوا بنا ، إخواننا ، من هذه القرية الظالم أهلها إلى جانب هذا نسواد . . . إلى بعض كور الجبال أو بعض هذه للدائن ، منكرين لهذه الأحكام الجائرة ، والبدع اللئيلة . . . »

ريمقب بعده حرقوص بن زهير :

« إن للتاع بهذه الدنيا قليل ، وإن الفراق لها وهيك ، فلا تدعونكم زينتها وبهجتها إلى المقام بها ، ولا تلفتنكم عن طلب الحق وإنكار الظلم ، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . . . »

كذلك يتحدون فيما بينهم الخروج من بين ظهراني القوم الذين ظلموا لينكروا البدعة اللئيلة التي تعنت في التحكيم . فأما وسيلة هذا الإنكار ، وأما للهجر الذي عزموا على اتجاذه ففكرة لا تزال تدور في الأخلاذ دون ظهورها إلى نطاق النفاذ مجامع لم تشهدا الأمسيات في خفية ودبر الميون والأصماع . . .

ثم تجمعهم ، ليلة ثانية ، دار زيد بن حصين فلا يكون وعظه إياهم بأدنى من وعظ صاحبه ، ولا حثه بأقل أثرا في نفوسهم للفتونة بفكرة الجهاد وإن غرتهم نفوسهم غلطوا بينها وبين الفتنة . وإنه ليحرض ، ويتلو عليهم من القرآن حتى يشتعلوا حمية فتتلف عزائمهم على ما صورته أوهامهم من صدق البلاء في ذات الله

يقول لهم فيما قال :

« . . . إن الله قد أخذ عهودنا ومواثيقنا على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والقول بالحق ، والجهاد في تقويم السبيل . . . وقد قال عز وجل لنبيه : يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ، إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد . . . وقال تعالى : ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » ولا يزال يتلو عليهم ما شاء حتى يبلغ من قلوبهم مبلغه ، فيقول لهم ، مصارحا في غير إخفاء :

« . . . اللهم إني أشهد على أهل دعوتنا من أهل قبلتنا أنهم قد اتبعوا الهدى ، ونبذوا حكم الكتاب ، وجاروا في القول والأعمال ، وإن جهادهم حق على المؤمنين

ويفعل قوله فيهم فعلة حتى لينهض من بينهم رجل ، تثب به حميته وتهزه مشاعره وثوبا أرعن وهزا عنيفا فيبكي ويصيح وهو يكاد يشرق بدموعه :

« . . . اضربوا وجوههم وجباههم بالسيوف حتى يطاع الرحمن الرحيم . . . فإن أنتم ظفرتهم وأطبع الله كما أردتم ، أثابكم ثواب الطيعين له ، العاملين بأمره . وإن قتلتم ، فأى شيء أفضل من المصير إلى رضوان الله وجزائه ؟ . . . »

وما كان هذا بآخر اجتماع . . بل كأي بهم لا يزالون يجتمعون الليالي للتعاقبة في هذه الدار أو في تلك من دور رؤوسهم وأساطينهم ، يخالسون فيها بمجالسهم ولا حديث لهم إلا تدبير هذا الخروج الذي غدوا وهم لا يجدون عنه عيصا لإحقاق حق الله والجهاد في سبيله . وما كان شيء يمنعهم من المبادرة بتنفيذه إلا أن يحكموا له

التدبير ، ويهيئوا للقومات التي تكفل لإنجاحه وتمضي به إلى الغاية التي تخافهم من وراء تفكيرهم السقيم . . .

واقت وضحت الآن خطوط هذا التدبير ..

فأما مهجرهم فذاك بمكان اعلمهم يضمرونه إلى حين .

وأما وسيلتهم لإنكار البدعة المضلة فليس الأمر بالمعروف ، ولا النهي عن المنكر اللذين ليعطوا بهما من قبل وأكثروا فيهما بالحديث . ولكنه التنكر لمنطق الحاجة بالحسنى والانحياز إلى منطق القوة وضرب الجباه والوجوه . . .

وما يمنهم ؟ . . . إنهم — فيما يوقنون — بسبيل هجرة ١ — خروج في الله كتلك الهجرة التي فر بها محمد بدينه ، منذ قرابة ثلاثين عاما ، من بين ظهرائي قومه الذين كذبوه وساموه الاضطهاد والعذاب . الآن عزموا على أن يفروا فراره ويخرجوا كخرجه ، يسبحون في الأرض إلى ملاذ يمنهم من ضلالة مخالفهم أن تضلهم وتفتنهم ويدعهم خفاقا يفرغون إلى لقاء الضلال المناوئين اعلمهم أن يحملوهم قهرا على الجادة ويلزموهم أمر الله فإن نجح سلاحهم فذاك قربة إلى ربهم ، وإن تقطعت بهم أعمارهم دون غايتهم المنشودة ففي الله إذن هجرتهم ، وفيه مصارعهم ، وعنده المكاب والثواب . . .

وتمضي الاليالى تباعا ودورهم تتلقاهم ، وأبوابها تغلق على سرهم ، ومذاكرتهم أمرهم تعدم في كل ليلة محطب جديد للفتنة . . .

وتمضي أيضا والناس من مخالفهم في شاغل عنهم بذلك الوفد الذي بارح الكوفة ، وبذلك الآخر الذي بارح دمشق . . .

ثم تمضي كذلك وعيون المسلمين من كل مصر ، ومن كل رأى ، تمتد إلى دومة الجندل . إلى أبي موسى وعمرو بن العاص . إلى الحكيمين اللذين انتهى بهما اللطاف إلى البلدة الصغيرة على الحدود بين العراق والشام . وتتعاقد الأنظار بهما وبهذا القرآن بينهما الذي قد أبرم العهد على أن يستخبراه حكمه فيما شجر بين الفريقين من خلاف .

وتعلو صدور وتهبط . وتسكن قلوب وتضطرب . ولكن الأخيلة جميعا

في دولة الإسلام عامة ، تدنو من شفاء هذين الحكيمين تنصت في توجس ولحفة إلى كل كلمة ، وكل حرف ، وكل همسة قد تكون أنفاسا خلت من الحروف والكلمات ، عسى أن تبين فيها المصير اللازم الذي ينتظر الناس ...

أما هذه الضرورية فعلى بينة الآن مما يريدون فعله فقد أئبغ تدبيرهم ، وقرت عزائمهم ، اتفق الحسبان أو اختلفا ، اجتمع الناس أم افترقوا ، لأنه لا مناص من جهادهم في الله . . .

٥

كان الناس بدومة الجندل كالوان الطيف . . . طوائف شتى ، وأفكارا شتى . فيهم العلوى . وفيهم الأموى . وفيهم أيضا الحرورى بالعاطفة وإن لم يستمله الهوى كل الليل فيرفع السيف في مذهبه كإخوانه الذين عانت منهم الكوفة . . . وفيهم بعد هذا فريق يؤثر التطلع ويراه متعة لنفسه ثم لا يبالي أن يقع الأمر في يمين أولئك أو يمين هؤلاء من طائفتي الخلاف . . .

البلدة الصغيرة تحتويهم فإذا هي بهم مثل خلية تعج بالطين . ودخائل نفوسهم تجيش بهم فإذا هم منها في مثل لجة عاتية من القلق ، تهدر وتضطرب مدا وجزرا وليسوا يدرون أمتى مطافها بهم إلى بر آمن أم إلى مهوى القاع . . .

هنا ، في هذه الناحية ، أصحاب معاوية من وفد الشام ، يتكتمون في صدورهم لواعجهم ، ويرسمون على ملامحهم السكينة . لقاءهم حذر . حديثهم بينهم إيماء . نقاشهم ، إن نهركت به شفاء ، مسارة . الأسماع للتربسة بهم قد تلفظ بعض همسهم بين آن وآن ولكنه لا يكون عندئذ إلا هينة مبهمة لا تلو عن خفقة نفس ولا تكاد تفصح عن حرف . فإذا اجتمعوا فعلى رضا ، وإذا انقضوا ففي سلام

كان معاوية يكتب إلى عمرو ، فيقبل رسوله بالكتاب ثم يؤوب فلا يدرى الناس فيم أقبل أو بم آب ، لأن وفد الشام ذا اللين الأربع من الشهود والفرسان

لا يسأل الرسول ولا يسأل الحكم ، أو هو يسأل في خفية ثم لا يسمع الناس شيئا لا من سؤال ولا من جواب . . .

وهناك ، في تلك الناحية ، أصحاب على من وفد العراق . لا حيلة ولا حذر . أمرهم لغيرهم مكشوف . لا تكاد صدورهم تستقبل سرا حتى تعي به فتلفظه على الشفاء وملامح الوجوه . . . حديثهم جليلة . ونقاشهم صياح . وسرهم دائما غرض للتربص ، ولقبة من لا يعنى نفسه بمطاردة الأسرار على السواء . إذا اجتمعوا اختلفوا ، وإذا افرقوا اختلفوا فهم دائما في شقاق . . .

كان على يكتب إلى ابن عباس ، صاحب صلاتهم ، فلا يكاد الرسول يترجل عن مطيته حتى يلتف به وفد العراق يسأله نبأه ويلحف في السؤال ما شاء . ولا يكاد يدبر حتى ينقلب الوفد إلى ابن عباس ليعلم منه الكتاب والجواب ، وإن جهره وعلى ملائ الناس . ثم يدور بينهم جميعا الجدل ، وما يجره الجدل من هتك السر ومن إثارة الخلاف والشحناء . . .

وكم سألوا ابن عباس :

« ما كتب به إليك أمير المؤمنين ؟ . . . »

فإذا استأناهم لحين خلوة غاضبوه وأكثروا عليه بالإلحاح . وإذا كتمهم ظنوا به الظنون وتركوا حدسهم يستنبط لهم ألف جواب . . .

وإذا أعيوه إلحافا فصارحهم ، قدموا الشك فيه ولم يصدقوه :

« ما نراك إلا كذبتنا . . . »

وهو بينهم دائما حائر . يضيق بهم ، وتبهظه حماقتهم حتى لقد طالما كان يشور ويعنف لهم في المقال وإن أيقن أنه لا طائل من العنف ولا طائل من الحلم والمهادنة . . .

وكثيرا ما كان ييكنهم :

« ويحكم . . . أما تعقلون ؟ . . . أما ترون رسول معاوية يحيى ، لا يعلم أحد

ما جاء به ، ويرجع لا يعلم أحد ما يرجع به ، ولا يسمع لهم صوت ولا صياح وأنتم

عندى كل يوم تظنون الظنون ؟ . . . »

كان هذا دأبهم ودأبه منذ احتوتهم دومة الجندل مشين أربعا جاءوا ثلة
حق خلفوها بعد التحكيم فرادى مفرقين ... لاحتطة . ولاحرز لسر . ولا مجرد
إيهام لهذه الزمر الحاشدة حيالهم من خصوم وأولياء يضعهم في أخلادها حين
علانيتهم أو نجواهم على هيئة رفاق . والناس من ورائهم يشهدون من خلافهم ،
ويسمعون من لفظهم ما ينبئهم عن خطر فشل مقدور . . .

على أن أجدر فرقة مما ضمت البلدة الصغيرة إذ ذاك باستشارة الفضول كانت
التي وسمها ماضيها البعيد والداني بالانحراف كل الانحراف عن الإمام — تلك التي
تخلفت عنه تخلفا كالخيدة فلا إليه ولا إلى غريمه ابن أبي سفيان ، أو تناوت تناثيا
بلغ بها كراهة النصر له إن لم يوغل في هذه الكراهة إلى أغوارها حتى يصل
إلى ألد العداء . فمنها من قعد عن بيعته وعن نصرته كليهما وهو يبدو كمن آثر
السلامة في القعود . ومنها من ثبط نفسه عن للمشاركة فيما وقع بينه وبين معاوية
وهو مع هذا إلى معاوية أميل . ومنها من كان حربا عليه عجيبة ثم كف عنه العجز
فإذا هو يخلد إلى نجوة ، أو إلى عزلة سياسية يستأني بها الزمن عسى أن يطلع
له ساحة يستطيع فيها أن يعاود لدهه ويشبها على الإمام من جديد خصومة مدمرة ...
من هؤلاء شهدت دومة الجندل كثيرين — أفرادا وشيما يخالطون فيها
الجموع الشاهدة والوفود الرسمية ويمدون بينها أسماعهم وأعينهم هنا وهناك لتصيد
اللمحة والهمسة وتجمع النذر لتستغبرها نتائج التحكيم . . .

فقيم مقدمهم ؟ . . . فيم خروجهم الآن من معازلهم التي سكنوا إليها كل هذه
الشهور ؟ . . . أبغية رقبة ؟ . . . أعن تشوف وفضول ؟ . . .

عجب الناس لهم وأكثروا في أمرهم بالمساءلة والاستفسار . فإن منهم عبد الله
ابن الزبير . وإن منهم للغيرة بن شعبة . وإن منهم عبد الله بن عمر . وإن منهم
أيضا سعد بن أبي وقاص تجرى السنة بأنه أقبل ، وتجري أخرى بأنه على عزله ،
وتجري ثالثة بأنه بين هذه وتلك قد آثر أن يشهد الأمر عن كئيب وهو بنجوة
لأنه كره أن يخالط الناس وأن تكون له في ندوتهم للعقودة صورة حاضرة
أو خيال منظور . . .

ومع ذلك فالناس لا يملكون عجبهم ، ولا يحكمون أيضا السنتهم أن تخوض
في سيرة أولئك الأفراد وأمثالهم ممن تعيدهم غواجرهم إلى الذاكرات وهم مع طي
على مشاقة أو علاقة لا يفهم قط أن من معانيها الولاء . . . كلا ، ليس الفضول
وحده هو الذي ساقهم ، ليست بغية الرقبة ، ليس ولعهم باستباق زمنهم والطفرة
من حاضرم وحاضر الناس على أجنحة الاستقراء إلى تلك اللحظة المرتقبة من
مستقبل قريب مجهول ، التي ستطلع عليا لهم على ما يشتهون ، أو على غير
ما يشتهون . . .

وحق العجب ثم حقت بعده الريب والظنون . . . أم لا فقيم إذن قد أقبل
للمغيرة بن شعبة الذي له ، منذ ولاية علي ، رأى في معاوية كان خليقا بأن يضعه
حيث هو الآن من الشام ، غير مدافع ولا منكور عليه حقه فيها ، وإن كرهت
طبيعة الثورة التي ما قامت إلا لإقصائه وأمثاله من ولاية عثمان ؟ . فيم أيضا بجيئه
الآن ، وإنه ليحضى في هذا المجمع يشم الريح ، ثم يكر إلى معاوية بلسان بشير . .
ثم فيم ، بعد هذا ، بشراه ؟ . .

وفيم كذلك مقدم ابن الزبير . . . ذلك الأطلس كالدثب الذي أغمد سيفه
بعد الجمل وهو مقهور ، واعتزل الأمر وهو كاره ، أيجىء لحبر ؟ . . أجاىء ليشهد
كما يشهد الناس ، ويسمع ما يسمع الناس ؟ . . أتكفيه من هذه الغمرة النظرة ؟ . .
لتوشك الشبهة أن تسبق إلى أخلاذ الجروع كل نظراته البريئة الخائفة ، فلكلماته
— فيما يحدثسون — كان إقباله اليوم على جمهم ، يشفى بها نفسه التي أصابها
على بالقرح ، إن أطلعت اللحظة للمرتقبة عليا هذا وهو مقهور . . . لكانهم به
يشهد ليشمت . . . أو لكانهم به يسهم في الأمر ما وسعته حيلة أو وسيلة لتأتى
نتيجة التحكيم بما يفسح له في شفاء ضغنه على الإمام . . . أو لكانهم به قد
استخفنته منزلته إذ هو ابن الزبير ، وابن أخت عائشة ، ومبسط أبي بكر ،
والساعى إلى الإمرة ذات يوم بآبيه ، وصاحب السابقة في الدين ، فجاء يعرض
الآن نفسه في سوق الاستخلاف ، إذا اضطرب الناس ينفشون رجلا يجمع الشمل
ويحسم الخلاف . . .

وفي الواقع لم تخل أذهان الجموع في دومة الجندل من أمثال هذه الخواطر التي
تطلع تلك الطائفة من للمتزلة طامعين في الخلافة ، لا يشهدون مجمع التحكيم إلا
راجين أن يخمارهم الناس . فما تغيب عن أحد سابقهم إلى الإسلام ،
ولا استطالهم بقريش ، ولا — قبل هذا كله — بعد كثرتهم عن الانتماس في
الفتنة التي أسالت الدم ، ونشرت الفرقة ، ونالت من عزم الدولة ، حتى أوشكت
أن تسوقها إلى مضيعة . وإذا كان ابن الزبير قد انغمس في الخصومة التي مزقت
الأمة ، فلمهم عنه عوض فيمن هو خير منه ، وأنتى يدا وأخلص نية : عبد الله
ابن عمر ، أو سعد ابن أبي وقاص . . .

وهكذا يكثر الناس في الرجلين ، يستنبطون الدوافع ، ويتخيّلون النتائج ،
ولا يكفون عن ظن الظنون وحس الأحاس . فما هو أن يظهر ابن عمر
بالبلدة الصغيرة ، حتى تتعلق به الخواطر وتشرئب إليه الأنظار . وما هو أن يذكر
ابن أبي وقاص ، حتى تستبق الأخيلة تروء مكانه ، هنا أو هناك ، بدومة
أو بخارجها ، وتنسج حوله الروايات . . .

وهكذا تنطلق الأمانى بالجموع ، ظنا وتقديرا وخيالا يشطح فيداني الحقائق
مرة ، ثم يجانبها مرات ، وهم مع هذا آتسين إلى أنفسهم ، راضين عما تزخرف
لهم حتى ينفض القدر إلى شوطه ، فإذا هو يسبق كل ظنونهم بما تنقطع دون
بلوغه الأتفاس ؟ . .

٦

لم يكن سعد بن أبي وقاص ، في الأغلب ، قد دخل دومة الجندل ، وإن
دخلها دون ذكروه ، ولا شهد شيئا من مجعها التاريخي الخطير ، وإن شهد
اسمه الرنان . . . ولعله كره شهود ما تمخضت عنه تلك الفتنة التي توقاها جهده .
أو لعله ربا بنفسه أن يكون من هذا الاجتماع بمكان الفتنة الذي يثير العجب ،
ثم لا يسلم من اللامة ، لما ينسى موقفا وقفه بماضيه ، وعاب فيه على الدخلاء

للمقتحمين شهودهم ما لم يدعوا له غب مصرع عمر واجتماع أهل الشورى لاختيار خلفه . . .

كان ذلك والأمة من مقتل ابن الخطاب في جزع ، ومن اختلافها بعده على نفسها في خشية إن هي لم تجتمع على أحد الستة الذين رشعهم الخليفة الصريح لولاية الناس . وكان الستة في دار المسور بن مخرمة ، يديرون بينهم حديثهم بعيدا عن العيون والأسماع ، ثم لا يكادون يدرون إلى أيهم يدلون بالبيعة . . . وعندئذ أقبل عمرو بن العاص ، ثم أقبل من بعده المغيرة بن شعبة ، وقد استخفهما الفضول وغرتهما مكاتهما ، فانساقا إلى باب الدر ينستان ، أو يحاولان الإنصات . فإذا سعد بيادرهما ، فيأخذ عليهما مسلك المقتحم الدخيل ، وإذا هو ينهرهما نهرا شديدا ، ثم يحصبهما بالحصباء ، ويطردهما وهو يقول :

« جئنا لتقولا حضرنا الشورى . . . »

وحرهما الفخر الذي سعيا إليه . . .

أجل ، لعله ذكر هذا الموقف فأبى لنفسه أن تلقى ما لقيه منه إذ ذاك المغيرة وابن العاص ، وبقي مؤثرا نأيه — عن دومة وعن مجعها — حيث اختار وأقام . . . على أى حال كان الرجل معتزلا ، مخلصا — فيما بدا — لعزله ، مؤمنا كل الإيمان بأنها أسلم له في دينه ، وإن لم تكن أجدى عليه في دنياه ، فهو منذ تخلفه في بلدة الرسول عن بيعة على لم يسهم في شيء من الأمور العامة ، بل قد انسلخ عن مجتمعه الذي عاش فيه خير أيامه ، وأبرد جذوة نشاطه الذي أسلكه في الأعلام ، وأخلد إلى خلوة كادت تضعه وراء العيون والأسماع . . . وإنه الآن ليؤثر على بوارق الحرب والسياسة ، وأعجاد البطولة ، ورنة الذكر والصيت ، حياة هي الخول يقضيه في البادية بين غنمه ، راعيا كالرعاة . . .

لكن ابنه عمر لا يرضيه هذا الخول من أبيه . فاللقى طموح . شغوف بتسم غوارب الشهرة وإن لم تكن هذه الشهرة من غرس يديه وكانت ظلا لأب يستطيع ، لو شاء ، أن يتبدى لقومه في هيئة عملاق . . . واللقى منهوم للعلياء ، أو هو في الحقيقة مولع بذبوع الاسم واستطارة الذكر وليس يضيره أن يأتيه هذا الذبوع وهذه

الاستطارة بأية وسيلة ومن أى طريق . ولسوف نراه من بعد يتلمس إلى مبتغاه كل سبيل حتى ليهطع إليه حين تحقق عليه شقوته ، غير متأثم ولا ثقیل الضمير . وهو يسبح في بركة من دماء الحسين الشهيد . . .

لا يرضى عمر بن سعد بهذا الخول من أبيه فيسرع إليه ، بمعزله الذى اختاره بالبادية عند ماء ابنى سليم ترعى حوله غنماته . . . ويشهده الرجل ولا يقبضه وهو قادم عليه من بعيد . ويرمى بنظرة مسترربة إلى هذا الراكب المجذ الذى يقطع الطريق صوبه فوق مطية لا تكاد قوائمها — لفرط سرعتها — أن تستقر على الرمل . . . فإذا هو يتوجس . وإذا هو يستعبد :

« أعوذ بالله من شر هذا الراكب ! . . »

وتعصى من الوقت لحظات ثقيلة . وتأخذ المطية في الدنو . وتتضح قسبات راكبها فيسرع الشيخ إلى ولده في لفظة يستخبره أمره الذى أركبه اليد :

« مهيم — (ما شأنك) ؟ »

ويبادره الفتى ، من بين لهثاته وما تزال قدمه في الركاب :

« أبت ! . . . التقي الناس بصفين فكان بينهم ما قد بلغك ، حتى تفانوا . ثم حكموا الحكيم : عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص . وقد حضر ناس من قريش عندهما »

ويتريث مليا ليلتقط أنفاسه والشيخ صامت يصغى وينتظر . . .

فهل هذا الخبر جديد ؟ . . . إن الناس ليتقولون في هذه الساعة على سعد أنه خرج إلى هذا الجانب من الصحراء ليتشوف لنفسه الأنباء التى تشغل الجميع . . . ويعود الفتى إلى حديثه ، يضغط على الكلمات والحروف لتؤدى عنه بعض ما يرمى إليه :

« . . . قاشدهم ! . . . إنك صاحب رسول الله ، وأحد أصحاب الشورى ،

ولم تدخل في شيء كرهته هذه الأمة . . . »

لسكن أباه يبتسم في هدوء من لم تثر فيه الكلمات للفرية أية حماسة ، وإنما

يقول بإيجاز حازم :

« لا أفعل . . . »

« احضر دومة الجندل ، فإنك صاحبها غدا . . . »

فلا يزيد جواب الشيخ عن هزة من رأسه تفصح عن تأييه .
ويشتعل عمر . ويمضى يحثه ويشيره لعل جذوة المجد الحبيثة في صدر الشيخ
ينتفض عنها رماد الخول فتعود للتوهج :

« يا أبت احضر . . . فإنك أحق الناس بالخلافة . . . »

غير أن الوالد لا يهتز بهذا التحريض ، ولا بهذه المخايلة المغرية بالسلطان
الباذخ الذي يكاد يجثو له عند قدميه ، بل يقول في تؤدة ورفق كمن يلقي الفق
درسا لا يعيه :

« مهلا يا عمر . . . إني سمعت رسول الله يقول : يكون من بعدى فتنة خير
الناس فيها الحقى التقي . يا بني . . . إني لو كنت غامسا يدي في هذا الأمر
لغمستها مع على . . . »

ويدهش الفقى وتتسع حدقتاه . ولكنها على أى حال الدهشة التى قد تفسح
للرجاء . فامل أباه مسهم فى الأمر فى جانب منه إلى ناحية على فخارج بهذا من
عزله ، معاود نشاطه الذى لا ريب حقيق بأن يفتح أمامه الأبواب . . . الآن
قد طمع عمر فى تحريك الشيخ . . .

ويقول سعد وقد رأى سكون ولده ، وشهد فى الأفق خطوطا داكنة
ترسم الظلمة :

« أقم عند أبيك ليلتك هذه . . . »

ولكنها ليلة بلا مضجع . . . فالرجل يقظان ، والابن يقظان قد تحركت
عليهما أشجانهما خالف الأرق منهما الجفون . . . كلاهما أرقه همه . الصحابي
الجليل القانع يجتر خطئا . . . رأى جنبته إلى ليلته هذه فتنة مضلة ، والشاب
الطامع يشغله وهمه الذى أطلع له آماله دانية ان تلبث حتى تتوئب نحوه عرائسها
بكلمة يلفظها فم أيه . . . وحيالهما هنا الليل ينساب ثقيلًا بطيئًا له فى النفس
وحشة كأنه الرقطاء تزحف على الرمل . . .

وفي غمرة الهدوء ، ومن بطن الظلمة التي لفت المكان ، يذبع صوت هامس حزين :

« هربت بديني والحوادث جمة وفي الأرض أمن واسع وممول
فقلت معاذ الله من شر فتنة لها آخر لا يستقال وأول ... »
فينتفض الفق . ويمد عينا في السواد حوله ، وأذنا متلصصة تسترق
الهمسات ...

ويهمس الصوت ثانية ، بنفس النبرة الحزينة :

« ولكنني زاولت نفسا شحيحة على دينها تأبى على وتبخل .
فيا عمر ارجع
وعندئذ يثب عمر . إنه إذن أبوه قد كشف عن نفسه وهي أشد
ما تكون إصرارا على ما كانت عليه أمس ، لم يحركها تحريضه ، ولا إغراؤه ،
ولا هذه الخائلة بالسلطان الداني الذي يوشك أن يقدم اليوم عليه ليجثو آتسا
عند قدميه ...

إنه إذن وهم وسراب ما رجاه من الشيخ ...
ولا يتلبث الابن حتى يطلع النهار فما له الآن مقام بأرض تموت فيها أطماعه ...
إنما ينفض عن نفسه تمبها ، وعن أعضائه تفرها ، ويسرع بعد راحلته ...
غير أنه لا يمضي حتى يقذف أباه ببعض حنقه عليه كلاما جافا لا لين فيه ،
كله إنكار وسخرية :

« يا أبه ... أَرْضِيَتْ أَنْ تَكُونَ أَعْرَابِيَا فِي غَنَمِكَ وَالنَّاسُ يَتَنَازَعُونَ
لِلْمَلِكِ فِي الْمَدِينَةِ ؟ ... »

وإذ ذاك يدع الرجل ما كان من حله وترفقه به ، ويدفع يده في صدره
يتهره :

« اسكت ... والله لأشهد هذا الأمر أبدا ... »
ولا يعقب الفق بشيء ، بل يذهب فيمتطي راحلته ويلوى بجانها صوب
الشمال ، وإن بنفسه لما يشبه النعمة ، وإن بحلقه لفصة ، وإن كيانه كله ليهتز

من غضب ومن عجب لهذا الشيخ الذى آثر رعى الأغنام على سياسة أمور دولة
سرحت تخومها بين قرنى الشمس ، وعلا عرشها على سماء العروش . . . وفى
سكون . ورأسه ناكس على صدره ، يضرب فى عرض الصحراء . . .
وحيال غبشة السحر ، يقف الأب كأنه قطعة تخلفت من ظلام الليل الداهب ،
يشيع ولده بنظرات فيها أسى وفيها رثاء ، لا تزال تمضى وراء الدابة خطوة خطوة ،
ومرحلة مرحلة ، حتى تذوب بفتاء فى الظلمة . . . فإذا غابت عنه إلا آثارا حفظتها
الريال الندية ، تلونت النظرات المشفقة الأسيانة بالرضاء ، ومسحت على ملامحه
الغضبى بأطيان من الطمأنينة . فلقد ذهبت الدابة ، ومضى الراكب ، وانطوى
معه شره ، وبقي للراعى الشيخ السلام الروح ، والسلامة للدين . . .

* * *

طموح عمر بن سعد الآن فى مغربه . . . ولكنه لا يزال يابح عليه ، ويتشبث
به تشبث المحتضر بدنياه ، ويتمجله ابتغاء المجد لنفسه من أهون سبيل . الفقى
لا يريد أن يقنع بهذه الفسكرة التى تسيطر على أبيه لا يريد أن يستسلم لها .
لا يسهه قط أن يدع الشيخ وما اختار من منزل بالبادية على حافة ماء بين غنيمات
لا ينال منها ، هو الابن الظالم للشهرة ، سوى التحول . . .

ودومة تكتظ . . . الناس تقبل عليها من كل ناحية . الأحاديث تجري فيها ،
همسات تارة وعلانية أخرى ، بأنه لا مخرج للأمة مما قد وقعت فيه إلا بالعدول عن
على وعن معاوية كليهما إلى امرئ فى الرجال لم يلوئه هذا التنازع على السلطان ،
ولم تختضب يده بدم الفتنة ، ولم ينطق له لسان بحرف فى مساجلات هذا الخلاف .
فمن فى الأمة كأبيه ؟ . . .

من الذى يلوذ به القوم ، من هذه الطائفة ومن تلك ، ومن بقية أهل
الإسلام فى كل بلاده حين تذلم الخطوب ، وتم الكروب ، ويتلفتون
يتلمسون اللاذ ؟ . . .

إنه هذا الذى يقبع فى هيئة الرعيان ، بين غنيماته ، على حافة ماء . . .
لا سواء . . . فهو بقية أهل الشورى من أصحاب رسول الله ، ذهب أربعة
إلى ربهم يبتغون رضوانه ، وبقي خامس انغمس فى الدماء إن تسكن البيعة له فنصف

شعبه عليه ، ونصفه الآخر من الذين معه قد هان حقه عليهم حتى أنزلوه الآن بمنزلة سلعة تعرض في السوق

ومع ذلك فهذا الأب العنيد يأبى . ولا تزال الفكرة القديمة ، التي راودت ذهنه بالمدينة من عامين ، باقية غضة على جدتها في نفسه ، وعلى قوتها أيضا ، تسيطر عليه ، وتستأثره وهو أخو بادية ، راعى غنم ، في بني سليم . . .

كلا ، لن يستسلم الفتى . . لا يدع هذه الخلافة التي تولى لأبيه وتقول : « هيت ا » تلوى جيدها عنه يائسة إلى حينما يتلقفها ذراعا أي عابر سبيل . . وإذا كان هو قد فاته التوفيق ، وفشل في إغرائه أو إقناعه ، ففعل غير . يكون أحظى لدى الشيخ ، وأبعد جدا ، فيسمعه أن يلين من صلابته ، وينفض الغبار عن جذوة همته ، ويرده إلى القبول . . .

ويسرع عمر إلى أخيه . .

وينطلق عامر بوسوسة عمر مثل انطلاقه هذا من قبله فيركب الصحراء إلى الراعى الشيخ العنيد . . .

ويتلقى الأب فتاه الثاني بترحاب . . .

فإذا قر القدام ، وهدأت أنفاسه ، وجرى الحديث بينه وبين أبيه رخيا في غير تلهف . لينا في غير اقتحام ، عاج الابن بكياسة الأريب إلى ما جاء فيه . . يرسل عامر عينا ترود المكان الفسيح الذي يحنويهما ولا يحده إلا التيه . . لكانه ينبو بهذا العشب الأخضر الذي يفتح أطراف السماء . . لكانه يضيق بالقطعان والثغاء والرغاء . . لكانه يستوحش لهذا المحل الذي تقطنه خيام تناثرت على الأديم الأصفر من رمل شاحب شحوب العدم . . أما غير هذا الفراغ والشحوب والوحشة ؟ . .

ويرد عينه من شرودها إلى أبيه ليقول ، وهو يبدو كمن لا يبالي ولم يستلهم عزمه ولا أعمال الفكر ليقول :

« يا أبت . . الناس يقاتلون على الدنيا وأنت ها هنا ؟ . . »

ويدفع بصره ثانية ليسبح في التيه . . .

ويسكت الأب . . .

ويسكت الولد أيضا . إنه ليحمل نفسه حملا على السكوت حتى لا يشي بما في نفسه . ولكنه بين اللحظات يدير النظرة الخالسة في ملامح أبيه لعلها أن تقع فيها على ما ينبئ عنه أثر ما قال . . .

غير أن الشيخ لا يفوته القلق الذي يستره صمت ولده . ولا حيرة النظرة الخالسة . إنما يظن ويتريث فما يغيب عنه خبيء مثل هذا الحديث . . . ثم يضحك أيضا . . . لكنه الآن أرق جانبا وألين عريكة منه حينما حدث عمر . فليس يضيق من عامر الكيس الرقيق بخلافة رعناء بخلافة أخيه . وليس ينتظر منه مثل إلحاح ذلك وانتهاك سره . وهل هو — فيما يظن — إلا رسول ؟ . . .

ويرمق بعد هنية ابنه عاتبا ، ويقول له في رفق وهوادة :

« يا بني . . . أفي الفتنة تأمرني أن أكون رأسا ؟ . . . »

ثم يهز رأسه مرات هزة التأبى للنكر ، ويتابع كلامه بنبرات حازمة تبين عن إصراره :

« . . . لا والله حتى أعطى سيفا إن ضربت به مؤمنا نبا عنه ، وإن ضربت

به كافرا قتلتني . . . »

عندئذ يفضي القلق على حياء . . . ثم يمضي يتفكر . . . ثم يدير في باله

هذه الفكرة التي انبثقت فيه فجأة كما ينبثق نبع الماء من صخرة صماء . . . أليكون

أبوه في هذه اللحظة قد استنارت بصيرته فرأى على النور اللهم أن الفتنة التي

أخذ نفسه بتوقها أمس ، هي اليوم باقية ، وهي غدا باقية ، وهي أيضا باقية بعد

هذا التحكيم الذي قد ظنه الناس قاضيا عليها ورادا الأمة إلى الألفة ؟ . . . أئمة

حقا سيوف متضرب ، وقتال سينشب ، ومؤمن سينزو على مؤمن فيسفك دمه

بعد كل ما قد سلف من ضحايا ودم في تلك الأيام السود ؟ . . . لهذا يحجم الشيخ

ويحبس نفسه مؤثرا المكث بالبادية وعيشة الرعيان ؟ . . .

ويتم سعد ما بدأه :

« يا بنى . . . إني سمعت رسول الله يقول : إن الله يحب العبد التقي الغنى الخفى . . . »

ثم يتردد به ذهنه إلى حقبة من ماضيه ، وإلى صحبة رضية كان فيها أمن نفسه في ظل صاحب عظيم كريم ، وإلى كلمة سمعها حينذاك من شفق محمد رطبت صدره ، وأطفأت فيه نار الأطماع التي توقدها دنياه :

« قد أفلح من أسلم ، ورزق كفافا ، وقنعه الله بما آتاه . . . »
وصدق رسول الله . . .

وكان هذا حسبه من حياته . فقد اتقى الفتنة ، وفر بدينه إلى الصحراء ، وغنى بهذا الكفاف من عيشة البادية الذي قنعه به الله . . .

وكان هذا حسب فتاه . . . فلن يعدل الشيخ شيئا بعزلته في هذه المفازة الجرداء وإن كان ملكا باذخا يبدأ مع المشرق ويكتمل بالغروب . . .

وكان هذا أيضا حسب تكلم الجموع الخاشدة بدومة الجندل ، الصاحبة على انعط ، النائمة على أحداس . . . فقد ختم سعد بحديثه مع ابنه محائف فصولها للطولة ، وما لعلها كانت علقته عليه من آمال أو احتمالات . . .

* * *

ويرجع عامر . . .

يرجع وهو ، فيها نحسب ، مقر أباه على موقفه ، راض له بعزلته التي جنبته الفتنة أمس ، وهي كفيلة بتجنيبه مثيلات لها يوشك الغيب أن يكشف عنها أستاره ، ليدهم بها الناس في القريب . . .

وتتهاوى مطامع عمر . . .

تهاوى ، فيطوى سجله على الشهرة السهلة الدانية . ويخلق نفسه على آماله ، ثم يحملها على الانتظار ليوم قابل قد يوسع له في المجاز إلى بغيته وإن على حساب مكارم الخلق ، وإن بلغها سابحا على بركة من دماء الشهداء . . .
ويلوى الناس نظراتهم إلى جديد . . .

يلوونها عن راع شيخ بالبادية ، على حافة ماء لبني سليم ، ويمضون بها تعس
وتطوف في هذه الزمر من ذوى الأسماء الرنانة ، ومن أصحاب الأصول والأنساب ،
ومن رجال السابقة في الدين . . .

فأين هنا بغيتهم ؟ . . .

لتوشك العيون أن تطوف وتدور ، ثم تدور وتطوف ، ثم يميها الطواف
والدوران فلا ترى حيا لها — بعد سعد بن أبي وقاص — غير واحد في القوم
تهافت عليه العيون والظنون . . .

ذاك عبد الله بن عمر بن الخطاب .

أجل ، لا سواء . . .

إنه امرؤ له صحبة . وله سابقة . وله ورع . وهو من القلائل الأولى لم يدخلوا في
هذه الفتنة التي كرهتها الأمة الآن . وكان له إلى جوار هذا ذكر في الشورى إن لم
يلحقه بأهلها فقد وفر له من فخرها ما لم يتوفر لغيره من أجلة الصحابة الأحياء . . .
وهو ابن عمر أيضا . . . وحين يذكر عمر فاصمه إذن هالة من النور
تخطف الأبصار . . .

على أى حال ، اجتمعت في الرجل كل المزايا التي اصطاحت أفكار الناس
حينذاك على وجوب اجتماعها في الأمير الجديد ، فلا عجب أن تافط به الألسن ،
ولا عجب أن تنسى به راعى بني سليم . . .

٨

ما شاعت قط حينذاك شائعة بدومة الجندل ، وربما ببلاد الدولة الإسلامية
عامة على انقساح رقعتها وتعدد ناسها وأجناسها ، كنتلك التي كانت ترى الخير في
الخلاص من هذا الخلاف الذي طائته الأمة ، وطعمت للرم من ثمره ، بالخلاص ممن
أثاروه وأذاقوا وطنهم علقمه . . . ما من فكرة شغلت الخواطر ورددتها الألسنة
تلك الأيام انتشرت في الجوع بدومة كهذه . فخلع على وإقصاء ابن أبي سفيان

حسم النزاع . وحسم النزاع عود إلى السكينة . وفي ظلال السكينة تستطيع
المواطن أن تهدأ ، وتستطيع العقول أن تفكر ، ويسع الناس بعد هذا
وقد تحملوا من عهودهم لهذا الرجل ولذلك ، وارتد أمرهم إليهم ، أن يعيدوها
عندئذ شورى جديدة ، يختارون بها لأنفسهم الأمير الذي يرتضونه وتسكن باختياره
ثائرة الخصومة ونوازع الشقاق . . .

كانت هذه هي الوساس التي تخامر القوم وما يزال الحسبان لم يلتقيا ،
وما يزال الحكومة المرتقبة تتعثر بينهما لم يوردا فيها ولم يصدرا عنها برأى ولا بيان .
وكان حقا لهذه الوساس وأمثالها أن تجد الطريق إلى الأنفس ممهدا معبدا
لا عوائق فيه . فالعامة والخاصة من الفريقين المختصمين ، ومن الطوائف الشاهدة
جميعا ، كانوا قليلي الإيمان بالتحكيم ، قليلي الرجاء في جدواه . . .

بل قد كان هذا أيضا شأن علي . وشأن معاوية سواء بسواء . كلا الرجلين
كان ينتظر على قلق ، وكان يتصبر ولا يصبر . وعندما تعرض لحال ابن أبي سفيان
— فأمر على هنا معروف — نجده قلقا وتوجسا وحيرة . إنه لا يكاد يأمن
حق لهذا الحكم الذي بعثه وهو يرجو الخير على يديه . لا يكاد يثق في إخلاص
عمرو له ولعائته التي مضى فيها لمجمع التحكيم . وإذا كان قد أولى ابن العاص
كل ثقته عند مخرجه إلى دومة فإن الأنبياء لم تن تأتبه وافدة بما يهز هذه الثقة هزا
عنيفا ويوشك أن يقتلها من جذورها التي حسنها ثابتة . . . ينصح عمرو ليتحرز
عند التقائه بخصمه أبي موسى حتى لا ينضله الأشعري في الحكومة ، فيطمشه
عمرو ويقول :

« . . . أقل الاهتمام بما قبلي ، وارج الله تعالى فيما وجهتني له . . . إنك من
أمرك على مثل حد السيف ، لم تنل من حريك ما رجوت ، ولم تأمن ما خفت .
ونحن نرجو أن يصنع الله لك خيرا . . . »

ويطمئن طاهل الشام لحكمه كل الاطمئنان ، حتى لقد يدع له الحرية كلها
في أن يقول ما يشاء ويفعل ما يرى دون إرشاد منه ولا توجيه . يتجلى هذا حين
يسأله عمرو رآيه :

« أرايت إن ذكر أبو موسى عليا ، وجاءنا بالإسلام والمهجرة واجتماع الناس عليه ، ما أقول ؟ . . . »

فيكون الجواب الذي يبادره به معاوية وهو واثق فيه ، آمن له :

« قل ما تريد وترى . . . »

لكن هذه الثقة لا تلبث — كما قلنا — أن تهتز فتوشك أن تتقوض وتنهار وتنبت في مكانها الشكوك والظنون . . . فلقد ذهب المغيرة يتشوف له الأخبار بدومة ، ويلقى هذا الحكم ويلقى ذلك ليعرف ما أبطناه ، ثم يعود فيقول لمعاوية عن ابن العاص :

« . . . وأما عمرو فهو صاحبك الذي تعرف . وقد ظن الناس أنه يرومها لنفسه ، وأنه لا يرى أنك أحق بهذا الأمر منه . . . »

ويختبل الأمر على الماهل وينوشه القلق ثم تفترسه الوسواس في شأن هذا صاحب الذي يتحدث الناس بأنه عامل لنفسه ، موجه الأمر في التحكيم بحيث تنتهي إليه هو دون هذه الإمرة التي كافح لها كل هذا الكفاح المرير . . . تختبل أمره عليه . وتفتكث ثقته ، ولا تملي له الأحاديث التي تروح وتغدو في لحظة واحدة من الطمأنينة وراحة البال . بل إن هذه الأحاديث لتغلو كل الغلو في تصوير « أزمة الثقة » بين الصاحبين حتى لتسويها قصة ، هي أدنى إلى التلفيق والاختلاق منها إلى مسامرة الحقيقة والنطق ، تبين عمق الهوة بينهما إلى ما بعد انقضاء التحكيم وحين لم تعد حاجة لحكم كعمرو يتعلق به مصير ابن أبي سفيان فيخشاه . . . ولكنه غلو إن يكن ينحو إلى الخيال فإنه ، على أي حال ، دلالة تؤيد هذه « الأزمة » التي أسلفناها ولا تنفيها بحال ، لأنه لا دخان بلا نار . . . تقول القصة . . .

ويكون آخر اجتماع . . . ويمضي أبو موسى يمرض أسما من يرى فيهم خيرا ، ومن يرى من بينهم من هو أحق بإمرة الناس . . . ويمضي عمرو يرفض ، ثم يذكر اسم معاوية . فإذا أباه الأشعري بادره عمرو :

« فأتيتك بآخر ليس هو بدونه . . . »

« من هو ؟ . . »

« أبو عبد الله عمرو بن العاص . . »

ويعلم أبو موسى أن خصمه يلعب به ولا يريد الفراغ — لأمر في نفسه —
مما قد بعث فيه فيغضب . وينفض يده من حكومة لا جدوى فيها ، ويأحق بمكة .
ويرجع عمرو إلى الشام فينزل منزله دون أن يأتي معاوية أو يحدثه بشيء .
ويقلق معاوية لاحتجاب رفيقه عنه فيبعث إليه يدعوهُ ، فإذا جوابه عندئذ له
جواب لا يخطر ببال . . .

بحييه عمرو :

« إنما كنت أجيئك إذ كانت لي إليك حاجة ، فأما إذا كانت الحاجة
إلينا فأنت أحق أن تأتينا . . . »

إذ ذاك تتحقق وساوس معاوية ، لكن ما من سبيل له إلا إظهار
الخنوع . . .

ويدبر العاهل في نفسه أمرا يراه خليقا بأن يضع هذا المستعلى عليه حينما يجب
أن يكون وتسكون أطباعه . . . ثم يدخل عليه منزله . . .

ولا يقوم عمرو لاستقبله ، ولا يدعوهُ أيضا لمجالسته على فراشه الذي اتكأ
عليه في خيلاء ، إنما يدعه يسعى نحوه ، ثم يقتعد الأرض عند قدميه ، ثم لا يكاد
يلتفت إليه . . .

ويتحدث الرجلان ساعة ، هذا يرفق كل الرفق ، ويظهر الخنوع كل
الخنوع ، وهذا يعنف كل العنف ، ويظهر الصلف كل الصلف ، حتى إذا بلغا
مقطع الجد من حديثهما ، أخرج عمرو كتابا فنشره ، وقال :

« هذا الكتاب الذي بيني وبين أبي موسى ، عليه خاتمي وخاتمته ، وقد أقر
بأن عثمان قتل مظلوما ، وأخرج عليا من هذا الأمر ، وعرض على رجلا ،
لم أرهم أهلا لها . . . »

ثم يتمهل برهة يعود بعدها إلى الكلام في اعتداد يداني الغرور :

« . . . وهذا الأمر إلى ، أستخلف من شئتة . . . قد أعطاني أهل الشام عهدهم وموائيتهم على ذلك . . . »

ويبدى معاوية الاقتناع ، ويداوره مليا ، يداعبه حيناً ويضاحكه آخر كأنما ليس في الأمر ما يسوءه ، فإذا طال الوقت ، وراه قد أنس له ، وقال :

« يا أبا عبد الله ، هل من غداء . . . »

فيلتفت عمرو إلى من حضره من رجاله وغلماؤه — الذين جمعهم بمجلسه ليأمن على نفسه فجاءات « غريمه ا » — ثم يضحك ويحجب :

« أما والله شيء يشبع من ترى ، فلا . . . »

عندئذ يدعو معاوية أحد مواليه الذين بالباب ويأمره :

« يا غلام ، هلم غداءك . . . »

ويؤتى بالطعام من قصر الماهل . . . ويضيق المسكن فليس يتسع لرجال الصاحبين ، فيقول معاوية :

« يا أبا عبد الله . . . هلم مواليك وأهلك بأكل أصحابك . ثم يأكل أصحابي بعد . . . »

ثم تبدأ الوليمة كلما فرغ أحد رجال عمرو من طعامه قام لجلس صاحب معاوية ، حتى لم يعد أحد بالقاعة إلا منهم ، وحتى يتلفت ابن الماص فإذا هو حبيس بين هذا الجمع الذي لا يأمنه على نفسه وكل مواليه وأهله خارج الدار . وبهت الرجل وعينه تنتقل من الباب المغلق إلى أولئك الذين أحاطوا به . وهتف وهو مقهور :

« فعلتها . . . »

فابتسم معاوية وقال باستخفاف :

« أي والله . . . وبينى وبينك أمران اختر أيهما شئت : البيعة لي ،

أو أقتلك . . . »

« فأذن لغلامي وردان حتى أشاره . . . »

« لا تراه والله . . . ولا يراك إلا قتيلا أو على ما قلت لك . . . »

ولم يكن إذن بد من التسليم ، فقال ابن العاص :

« فأولنى مصر . . . »

« هى لك ما عشت . »

ودعا معاوية أصحابه والخواص من أهل الشام يشهدهم ، ولم يدع أحدا من رجال خديته :

وقال عمرو يقر على نفسه :

« قد رأيت أن أبايع معاوية ، فلم أر أحدا أقوى على هذا الأمر منه . »

وبايعه فبايعوا ولم ينصرف عاهل الشام إلى داره ، ذلك اليوم ، إلا خليفة .
تلك هى القصة . . .

إنها لا ريب حديث خرافة ، ووليدة صناعة واختلاق . ولكنها أيضا دلالة لا سبيل إلى إغفالها حين تعرض لهذا القلق الذى ركب الناس جميعا من هذه الحكومة ، ولهذا الشعور الذى جعلهم قليلي الإيمان بالتحكيم ، قليلي الرجاء فى جدواه . . .

وفى الحق ، لم تكن الجموع بدومة ، حين تلاغطت بفكرتها القائلة بخلع على وإقصاء خصمه ، بالمتجنية على شواهد الحال ، ولا بالتى تعتسف الحلول دون أن تستشفها من مقدمات ثابتة مدروسة . إنما كانت تستهدى حاستها الجماعية ، أو وعيها ، أو أيما اسم يوائم شعورها اللهم حينذاك من أمثال هذه الأسماء فتستجيب لمساء . فما ينسون أن عليا قد أكره على هذا التحكيم وإنه لصاحب الأمر الذى لا ينكر عليه حقه فيه بتحكيم أو بغير تحكيم . . . وما ينسون أيضا أن معاوية إنما احتال بهذا التحكيم ، ليلم من شعث جيشه الذى تهاوى فى المعركة تهاويا ذاتى الهزيمة ، وليمد عدته خلال الهدنة لتهيئة جيش جديد ، أفيستسلم إذن أى الرجلين ، وأحدهما معه حقه ، وثانیهما معه أطاعه وجنده العدد والنظم ، لكلمة يلفظها الحكمان . . . كلا ، ولا جدال . . .

لهذا آمن الناس بأن هذه الوسيلة للإصلاح قليلة الغناء ، مقضى عليها بالفشل من قبل أن تكون فعلى حساب أحد الخصمين ستأتى نتيجة الحكومة وما هو إذن براص عنها وإن نطقت بها عصبة من الحكام . . .

وندع مشاعر الناس . وندع حديث الظنون والوساوس التي تفرق في الخيال وتشطح وراء الأمانى أو الأوهام على عاداتها في الأزمات والخطوب . . . ندها جميعا فإذا بنا من الوقائع الثابتة في مثل ما تقودنا إليه الأقاصيص الملفقة ، والأحاسيس المحمومة ، واللغظ الذي قد لا يراد به إلا إزجاء وقت الفراغ . . . ذلك أننا لا نعدم أن تقع في الأسناد والحوادث على ما يبرر استهانة الناس بوسيلة الإصلاح التي تدعى إليها الفريقان المختصمان ، وما يقرم على كفرهم بها ، وغضهم من قيمتها ، والخاسم — في الأمانى أو الأفكار — حلا آخر يبعد عليها ومعاوية عن الميدان . . .

ونضرب الأمثال من الأسناد والحوادث فنجتزئ بالقليل . . .
يوصى معاوية بن عمرو بن الماس حين يبعثه للقاء أبى موسى ، فيقول فيما قال :
« إن أهل العراق أكرهوا عليا على أبى موسى ، وأنا أهل الشام راضون بك . وأرجو في دفع هذه الحرب قوة لأهل الشام ، وفرقة لأهل العراق . . . »
فليس مبتغاه إذن إلا هدنة أهل له ليزيد قوة يكون بها أقدر على بلوغ ما يتمناه . أما أن تجتمع الأمة برأى الحكيم وتعود لها وحدتها ، فذاك أمر لم يكن — فيما بدا من كلامه — يرجوه . . .
وبسر بن أرطاة يقول لمعاوية عند عقد الهدنة :

« . . . والله إن الشام لك خير من العراق لعلى . وما في يدك لك ، وما في يد علي لأصحابه دونه . فإن كنت إنما سألت المدة لإعداد العدد وانتظار اللدد فنعم . »
فلم يخالف الرجل بقوله عن نية مولاه . . .
بل ابن عباس أيضا قد قال مرة للحروية :
« . . . قد أخذ على الحكيم ألا يجورا . وإن يجورا فعلى أولى من معاوية وغيره . . . »

فهو — ورأيه جماع رأى أهل العراق — لا يرى الأمر إلا لعلى ، عدل الحكمان أم جارا . . . وما زانا نخالفه في شيء فحق الإمام في الأمر معلوم ، لا ينكره إلا مسرف في الحيف ، موغل في الإبطال . ولكننا نسوق قوله لأنه يكمل

الصورة التي تطلع لنا الحزبين جميعاً وكل منهما لا يرضى بغير الفوز بمبتغاه ، حكم
التحكيم له أو حكم عليه . . .
وكذلك كان . . .

وكذلك اهتزت ثقة الناس في الحكومة ورأوا نتيجتها قليلة الغناء من قبل
أن تكون . . .

وكذلك ترددت شائعاتهم ، تطرق مرة باب سعد بن أبي وقاص ، وتطرق
أخرى باب عبد الله بن عمر . ولو قد أملى لها الراحة تطرق كل باب تشيم وراءه
رجلا من أولئك « المعتزلة » من قريش ، أهل السابقة وذوى الأحساب . . .
لكن الحكومة تسير سيرها ، بطيئة متهمة . ثم تفاجئ الدنيا فتطلع عليها
بأعجب نتيجة أسفر عنها حكم . فليست بيانا ، ولا رأيا ، ولا قضاء مستقى من
الدستور السماوى الذى أخذ العهد على الحكّامين أن يقضيا بما فيه . . . إنما كان
خطا في موطن استقامة ، وعبثا في مقام جد ، و « لعبة » جديدة كالأعياب
معاوية ورفيقه ابن العاص تفوق كل سابقاتها جنوحا إلى المحال ، وزيفامع الهوى
والضلال . . .

« تم بحمد الله الجزء الخامس »

ويليه الجزء السادس والأخير

الامام
عَلِيّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ

الجزء السادس

تأليف
عبد الفتاح عبد المقصود

منشورات مكتبة العرفان
بيروت

ثقل على الناس الانتظار . . أينما راح منهم رائح أو غدا غاد ، بمحاضرتي
النزاع ، لمس قلقا ولهفة ، وسمع ضجرا في همس ، وضجرا في علق . .
في السكوفة كما في دمشق ، وفي دومة أيضا . . والناس ، حيثما كانوا ، ما برحوا
على قدم ، يعدون الأعين ، ويتلمعون الأعناق تطلعا إلى الثمرة التي تهيأت لقطفها
يد التحكيم .

ولم يبال الحكمان — فيما بدا — تلك اللهفة ، ولا حاولا أن يهدئا من نائرة
ذلك الفضول الذي غلب على نفوس الجمهور . بل لعلهما كانا أدنى إلى تقلب
جمره وتأريث ناره بما اتبها من استخفاء وتكتم كلما فاءا إلى المفاوضة واجتمعا
بمستقرهما لبحث الأمر وتبادل الآراء .

كانا ، إذ ذاك ، ينحازان بعيدا عن الجموع . عن الخاصة والعامة . عن الأعين
والألين . . أياما عدة أمضيا بهذا الجانب من الأرض الجرداء في دومة الجندل ،
في مسرى الريح ، بنخيمة من وبر لم تكن تكف عنهما زمهرير الشتاء . صبحهما
موصول بليله ، وليلهما موصول بفجره . في النور حوار ، وفي الظلمة
تدبر وادكار .

ولكنهما لحكمة انحازا . أو لعل ، فما أفصح الزمن عما أضمرت قلوب . .
لحكمة ، أو لعل تمهلا إلى رمضان إلى نهاية المدة ، وشدا وثاق الليالي الطويلة
بقيد التريث الثقيل . . إن يكن أبو موسى الأشعري استأنى بالأمر عن تردد ،
أو تخرج ، أو محاذرة حتى يعرف موضعا لقدمه ، فما بال عمرو بن العاص ينزع
أيضا إلى نفس هذا الإبطاء الرذول وهو العالم بما أقبل فيه ، المستوثق بما في يده ،
الباني في أمسه لعدده . . ؟

فلعله إذن بعض دهاء ابن النابغة أن يرجى لحظة الحسم ما وسع جهده
وحيلته إرجاء . . وأن يبطئ كرفيقه ، ويملى للوقت في المهل والتريث ، وأن
يفسح لهذا الرفيق في المحاورة والمداورة وهو ، في الحق ، إنما يدور بالناس
في تيه من القروض والأحداث ، ومن الريب والشكوك ، ومن النظرات

والآراء . . . كَأَنِّي به يعط في التريث ليشد أعصاب الجمهور ، ويزيد في قلقهم ، وينزع قلوبهم توجسا وخوفا من مجهول مرهوب ، حتى إذا اشتبهت على الأشعري المسالك ، وكثف حوله ضباب الظنون ، تهاوى بما بقي من إيمانه المصدوع المهزوز — إن كان لديه من قبل إيمان — بهذه القضية التي اختير لنصرتها وهو منها ، منذ نشوئها ، بموقف شبهة واتهام . . . كَأَنِّي بالناس ، إذ طال بهم الانتظار ، وضجوا منه ، ونفذ صبرهم عليه ، قد تاقوا إلى تكشف الغيب ، سريعا سريعا — اليوم ! الساعة ! اللحظة ! — عن غدهم المرتقب وإن طلع عليهم بشر الخطوب . فما أشق على النفس من ترقب البلاء . . . وما أعنى وأشد من بلاء مجهول . . . فإذا انجابت إذن لحظة الحسم ، من بعد ، عن حكم هو أهون شرا من ذلك الخطب الذي حزرتة الأوهام دون الأفهام ، وقدرته الأخيلة المريضة المكدودة ، وخالته الأعصاب المهيضة المشدودة ، فذاك عندئذ هو الشر المأمول المقبول . . .

على الأعصاب لمب إبطاء رفيق دومة الجندل بالحكم ، تلك الأيام الطويلة الثقيلة التي امتزجت فيها قرة الشتاء بنهكة الصيف ، تجرى بردها في الأوصال بالقشعريرة ، ومنغها في الجسوم بالإعياء . . . ما من امرئ طلع عليه هلال رمضان ، ذلك العام ، وهو هناك ، إلا ود — بيعض عمره — لو تعجل الخاتمة المجهولة . . . الذين كانوا بمقام عزلة ، لا إلى أولئك ولا إلى هؤلاء من فريق العراق والشام ، شاقهم شهود النهاية التي تشبع الفضول ، وتطبق الغلاف على قصة الخلاف . . . والذين عرفوا حقهم وآمنوا به ، ودوا لو جاءتهم هذه النهاية معجلة : انتصارا كانت لهذا الحق أم كفاحا جديدا في سبيله ، بالحديد والدم ، حتى يرتفع علمه ويتهاوى خصمه . . . والذين هزتهم الشكوك أو استعبدتهم أهواء الأنفس وعروض الحياة ، رجوا أن تكون الماقبة خاتمة ، سواء أقبلت في موكب سلام أم شدت إلى عجلة استسلام . . .

رغبات الجموع كانت ، حيال النتيجة المنتظرة ، على تفاوت ، وإن كانت مشاعرهم ، حيال الإبطاء بها ، على اتفاق . . . لكن فئة من الناس هي التي صارحت الحكيم حينذاك بما ضمت الخواطر وأجنت الضمائر . قلة منهم . بضعة نفر ، خرجوا من المحس إلى الجهر ، ومن اللغظ المبهم إلى الإفصاح المبين . . .

وما كشفوا ، حين لفظوا عباراتهم القصيرة الموجزة ، إلا عن شق الأحاسيس التي خالطت السرائر في مختلف أرجاء الوطن الإسلامي الكبير . .

من الأولى عرفوا حقهم ، ولم تراودهم عنه شبهة : سعيد بن قيس ، أحد أصفياء علي . . جاء يحمل إلى الحكيم ضيق الناس بإيظانهما المريب ، ولا يكتنهما إيمانه بحق إمامه ، وتحرقه إلى بلوغه وإن على طريق تفرشه العواسج ، وتحده الأسنة ، وتظله السيوف . . قال :

« أيها الرجال ! . . إني أراكما أبطأ عما بهذا الأمر حتى أيس القوم . . فإن كنتما قد اجتمعتما على خير ، فأظهراه نسمعه ونشهد عليه . وإن كنتما لم تجتمعا رجعنا إلى الحرب . . »

وعدى بن حاتم أيضا ضاق بهما ، وكان أشد عليهما من زميله . . طالعهما غير مداور ولا مجامل ، برأيه سافرا ، ظاهرا ، بادى الحشونة والتسعر كما انتفضت ، عن جمر متقدة غبرة الرماد . . قال :

« أما والله إنك يا عمرو لغير مأمون الغناء ، وإنك يا أبا موسى لغير مأمون الضعف ، وما ننتظر بالقول منكما إلا أن تقولوا . فوالله ما لكما مع كتاب الله إيراد ولا صدر ! . . »

فأى المشاعر والانفعالات أثارَت هذه الأحاديث وأمثالها في نفس الحكيم ، وبأى كلام تحركت شفاههما جوابا على ما انتقل إلي سميعهما من عمل الجمهور . . ؟ الأشعري كان أظهر برما ، وأشد دفعة ، وأعجل من رفيق حكومته الماكر الختال إلى الرد المتهور الذي يكشف السريرة . فلم يكذ يسمع حتى تغير وجهه ، وبان السأم في ملامحه ، ثم طوح بيديه ملالة وهو يهتف ، في أنفة البرم المنكر ، وصلف الواثق المدل بمقداره ، المزدري رأى ناقيه :

« كفوا عنا ، فإنما نقول فيما بقي ، ولسنا نقول فيما مضى . »

فكان جوابه أشبه شيء بخيال انعكس من أمسه القريب الذاهب على مرآة يومه المقبل الجديد . . كان — في الحق — رآيا أخلق به ، وأدنى إلى مزاجه . ولعل عبارة لم تفصح قط عن دخيلة صاحبها ، ولا كشفت من رأيه الخفي المستر

ما كشفت هذه العبارة من رأى الشيخ وهو يقولها إذ ذاك بلهجة إدلال لا بمنطق تدليل . .

فهل هي زلة لسان ؟ . .

هل هي خطرة سجية ، ودفعة ولا روية ؟ . .

عن وعى منه ، أو غفو الخاطر ، حسر الرجل اللثام عن دوره في التحكيم — كما يرتأيه — فإذا هو يجاوز به ما ندب له ، ويخالف فيه ما اجتمعت عليه أفهام حزبه ، وشطحت إليه أحداص معارضيه . . . لكانه شاء أن يدع أمس ويمرض لغد . أن يغفل ما كان ويعمل عنه إلى ما يريد أن يكون . أن ينأى بنظره وفكره عن الخلاف الذى شجر بين على ومعاوية وهو — بغير جدال — اب القضية التى يتقاضى عليها اليوم ، فى رحابه ورحاب زميله ، ذانك الزعيمان ومن وراءهما من أبناء الأمة الإسلامية الذين وقع بأسهم بينهم شديدا ، دفاعا عن الوحدة ، أو تطلعا إلى السلطان . .

وعلى سنن الأشعرى ، أو فى سبيل قريب ، سار آخر من رجال الإمام ، قد طوح به حب الحياة ، والشغف بالجاه ، من أقصى الجبين إلى أقصى اليسار حتى لأوشك — وهو من قادة المراق — أن يكون ذبلا لأهل الشام . على نفس هذا السنن المتوى الدوار كان انطلاق الأشعث بن قيس ، والحكماء عندئذ يتشاوران أو يتداوران . . فلقد أقبل عليهما ، واللهفة تأكله ، والخشية على السلم — وليده الشائه الذى أنجبت له الزاوجة بين الوهن والحيانة — تكاد تتخطف ثباته واتزانه ، فقال :

« يا هذان ! إنا قد كرهننا هذه الحرب فلا ترداها إلينا . . إنها مرة الرضاع والقطام ، فكفاها بما شئتما . . »

بما شاءا . .

بأى عن . .

بالوسيلة التى تحفظ الدم ، وتمسك العظم على العظم ، وتقلل المثل واقم ! تقيم السلام على استسلام . تكف الحرب على ما يشتهى داعية التخاذل الأول يوم صفين حين أثر الارتداد عن ولائه وأعلام النصر تحفّق إذ ذاك على معسكر الإمام ، كما أثر ، عقيب موت الرسول ، الارتداد عن الإسلام . .

جاوز الحسبان كل معالم الحدود التي رسمتها ظنون الأعداء وأمانى الأصفياء .
أبو موسى الأشعري طفرت به « غفلته » — أم هي فكرته ؟ — بعيدا
بعيدا عن مواطن الثقة ، غائرا غائرا في مهاوى التشكك فيه .
عندما خرج للحكومة تصايحت فئة له ، إيمانا به ، أو اطمئنانا إلى حكمته .
وتصايحت فئة عليه ، ريبة فيه ، وتوجسا منه . ولكنه أتاها من بعد جميعا —
بمخلاف كل منتظر — بأقصى نقائص الإيمان ، وأدنى مناقص الشكوك .
قيل له :

« . . اعرف خطب هذا الأمر ، واعلم أن له ما بعده . . . إنك إن أضعت
العراق فلا عراق ، فاتق الله . . . وإذا لقيت عمرا فلا تبدأ بالسلام فإنها —
وإن كانت منة — إلا أنه ليس من أهلها . ولا تعطه يدك فإنها أمانة . وإياك
أن يقعدك على صدر الفراش فإنها خدعة . ولا تلقه وحده ، واحذر أن يكلمك
في بيت فيه مخدع تخبأ فيه الرجال والشهود . »
فسمع بأذن ، ولفظ بأخرى ، وآثر المحذور المحذور . . .
وقيل عنه :

« . . لقد تمجلت رجال مساءتنا في أبي موسى ، وطعنوا عليه بسوء الظن ،
وبما الله عاصمه منه . . . »
فلم ينصف دفاعهم عنه ، بل اعتصم منه بسوء الظن ، وظاهر — بفعله —
كل طاعن عليه ، مستريب فيه . . .

وعمر بن العاص طفا في لجج خبثه على قمة الخدع والأباطيل ، تطهو الزبد
والنداية ، حتى بلغ في انحرافه عن الجادة أبعد ما رجحت له أحلام أصحابه ، وبما
خشيت منه مخاوف مناوئيه . . .
قيل له :

« . . إنك رجل قريش ، وإن معاوية لم يبعثك إلا ثقة بك . . . وإنك لن

تؤتى من عجز ولا مكيدة ، فكن عند ظننا بك . . .
فأتى من المكر بما أعبي المكر . . .
وقيل عنه :

« . . . إن عمرا ليس من الله في شيء إذا كان له في أمر هوى . . . »

وكان له ، بلا جدال ، هوى وأهواء . في سطوة في إمرة . في دنيا تعود
عليه بسلطان أمسه الذي تركه هناك ، ذات يوم مضى ، إلى جانب النيل على توى
الوادي الأخضر . . السنون السوائف لم تنسه جاهه الذهاب ، ولا بخلت عليه بحلمه
الحلو الذي ظل طويلا يخالط صحوه ونومه ، شهرا شهرا ، يوما يوما ، ساعة ساعة . .
حق والمنايا تتربص به ، وتوشك أن تسد عليه مسالك النجاة في عنفوان
الصراع بصفين ، برقت له مصر في خياله كما يبرق الشهاب الهاوى في الليل
الأسهم . . عندئذ استضاءت على البرق ألميته التي أخذها ، إلى حين ، غبار الهزيمة ،
وتوهجت جهرتها ، واشتعلت تلهب نفسه بسورة كأنها الحيات تهيج الخمور . فما
أسرع ما اندفع ، غير وان ، على بقايا القيم المشروعة لينتزع حياة رخيصة كالتراب ،
كريمة كالصاب ، من أبواب الموت . . بالحيلة انتزعها . باللعبة الغادرة . بهذا التحكم
الذي مده حباله محبوكة الخيوط ، دقيقة النسيج ، صادت العقول المخدوعة . .

ولم ينس أبدا ذاته وهو يحاور رفيقه في قضية الخلاف . . مرات عدة حام
بحديثه حول نفسه ، وحول ابنه ، وحول أيما امرئ شام في استخلافه تحقيق
أطماعه الطويلة العريضة . . بل قد حاول ذات مرة أن يرشد أبا موسى على الرأي ،
إحساسا منه — في أعماقه — بأن لكل رأى ثمنا ، وأن المعنويات — كالماديات —
توزن أيضا بالدرهم وتشتري بالدينار . . .

فيأترى تجنى ؟ . . .

على طبعه لم يفعل . . . إنما كان وفيا لنفسه الوفاء الذي يدفعه دائما إلى امتثال
رأيها ، واحتذاء نزعها — بالشبر وبالفتى — كأنه يسير إلى آرائها على صراط . . .
وإذا كان قد راود الأشمري عن ولائه للقضية ، فإنما مراودته صدى خليفته ،
وظل شيمه وسجاياه . فالإناء ينضح بما فيه . والبرء يقيس الأمور بمعايره الخاصة
ثم يحسب الناس وإياهم في الهوى سواء . . .

هكذا كان . وهكذا انطلق بصاحب مفاوضته يلف ويدور في تيه من الأمانى والفروض . حق إذا حسب أنه أعياء رأيا وحيلة ، فذفه باسم سيده ، رفيق خدعته : معاوية ، أميرا للمؤمنين . .

معاوية ؟ . .

لم لا وبيته في قریش رفیع ، وهو أحد الصحابة ، وأخته أم حبيبة ؟ . .
وبدا الأشعري هنيهة كالحائر . .

وراح عمرو يشد عليه ، ويوسوس له :

« . . إنه إن ولى أكرمك كرامة لم يكرمها خليفة . . »

عندئذ أصابت دعوة الغدر المثمن ضمير الشيخ بوخزة موجعة فانبعث منضبا

يجيب :

« والله لو خرج لى من سلطانه ما وليته ، ولا كنت أرتشى فى الله . . »

فلمن هذه الغضة الهادرة ، وفيم الإباء ؟ . .

لغير على بطبيعة الحال . . لا للوفاء ولا للولاء . بعيدا بعيدا عن النية السليمة ، والطوية الخائصة المستقيمة التى من أجلها اختاره أهل العراق ليكون وكيلهم ، صاحب رأيهم ، الدائد عن قضيتهم ، وإنما فى رأى الواقع لقضية التمرد على الإمام والخروج على النظام العام .

لغير هذا كله صاح الأشعري فى وجه ابن العاص ، تلك الليلة من ليالى التحكيم ، نافضا تلويحه بالسلطان ومخايلته بإياه بالجاء . أم لا فكيف تفهم تصرفه وهو يتبع ثورته الغاضبة بآخر ما كان ينتظر من وكيل أمين ؟ . .

لا يلبث قليلا على استنكار الرشوة المعروضة حتى تهدأ نفسه ، ويخرج طائعا مما ندب له وجاء فيه ليعرض من لديه بضاعة جديدة ! . . بلا تحرز ، ولا شعور بتبعة نحو أهون ما يطالب من مبعوث مثله من أمانة العرض والأداء — دع عنك واجب الدفاع — نسمعه يردف إياه بشر استخذاء . . يقول :

« . . إن شئت ، أحيينا سنة عمر بن الخطاب . . »

فإذا لم تكن عبارته هذه تنكرا للبدأ ، ونقضا للولاء ، وخيانة خبيثة فاحشة

للذين أوفدوه ، فعلى أية صورة من الصور يمكن أن يصاغ النكت أو تصور
الحيات ٢ . . .

لكأنى بالأشعرى عندئذ قد لبس إهابه ، ورد على نفسه ثيابه كيوم تخذيله
في الكوفة عن الإمام . . . كأنما عاد ثانية لأمره يثبط عن نصرته على ، ويحمد
في أئمة المسلمين ، وفوق شفاههم ، وبين قبضات أيديهم ما كان حقا عليه أن
يرسله من طاعة لولى أمرهم الشرعى تتمثل في خفق القلوب بالولاء ، وهتاف
الألسنة بالدعوة وبالثناء ، واهتزاز الكفوف بالسيوف تحش عدوه كحش المناجل
السنابل ١ . . .

بل كان أشد على أمير المؤمنين هذه المرة وأعق . لم يعتزله . ولا وقف منه
موقف حيدة . ولا حث القوم حوله على التلبث والريث حتى تتكشف لهم
غوامض الأمور وتتبدى ، من خلال الأحداث المتلاحقة كهوج البحر في اليوم
العاصف ، لمحات آية نهديهم سبيلا إلى تأييد على ، أو اعتزاله ، أو قتاله . . . إنما
بسط ما طوت الشهور السوائف من كفره بحق الإمام في الإمرة ، ثم انطلق
قدما ، مشدود العزم ، ثابت الخطو ، على درب خطيئته ، لعله يبلغ الآن ما فاته
بلوغه منذ حين . . .

بالنية المعقودة لا بالهفوة العارضة ، وبالإصرار ، عن اختيار ، وقف
الأشعرى موقفه . وما هو في الواقع علوم حين تقاس النتائج بمللها ، وترد
الفروع إلى أصولها ، وينظر من خلال الطبائع الفطرية والسلائق الأولية إلى
الأعمال والأقوال . نفس وما تهوى ، ونفس وما تعيل . . . إن نظرك ليقع على
امرى فلا تملك ، من أول وهلة ، إلا النفور منه والميل عنه . وإن نظرك ليقع
على آخر فلا تملك ، من أول وهلة ، إلا الإقبال عليه والميل إليه ، ثم لا تدري ،
في كاتنا حالتك هاتين ، أى دافع دفعك إلى شعورين متباينين هما تقيض وتقيض . . .

ومع ذلك فليس طيش العاطفة وحده ما طوح بالحكم الشيخ إلى أقصى نهاية
اليسار سمعنا به في النأى عن نصرته موكلية ، خائنا أمانتهم ، ناقضا عهدهم الذى
عليه عاقده . من النصفة له أن نقول إنهم أخطأوا الخطأ كله في حقه وفي حق
أنفسهم على السواء . . . أخطأوا في حقه وهم يحملونه من أمرهم ما هو غير أهل

لحمه غير كفاء للنهوض به . وأخطأوا في حق أنفسهم وهم يدركون طبعه ويعرفون غايته ثم يكادون يلمسون لمس الحس — في لحظة بمته للحكومة — ما يقطع الشك باليقين ويوحى بالشواهد الناطقة والأدلة المبينة أنه خليف بخذلانهم والانتفاض على قضيتهم انتفاض الصابى المرتد عن عقيدة أكره على اعتناقها ولما يجاوز إيمانه بها حدود شفتيه . . . فلقد كان لأبى موسى فيمن جانبوا فريق الإمام ومعاوية ، واعتزلوا محنة الجماعة الإسلامية آنذاك ، رأى معلوم يظاهرهم ، ويضع الحق كله في جانبهم ، ثم لا يدع لسواهم إلا الباطل والشر والخطيئة . . في تشبيطه بالكوفة دليل . وفي قعوده عن على دليل . وفي أحاديثه المرسلة هنا وهناك ، قبيل اجتماعه بعد التحكيم — مرة مع الأخنف ، وثانية مع المغيرة ، وأخريات مع عدى وشريح وأضرابهما من فريق العراق — دليل ودليل ودليل . . لا نلوم الشيخ الأشعري ، حين نحاسبه كصاحب رأى ، وإنما نلومه ونؤثمه إذ هو وكيل . فعلى رأيه ثبت وأقام الأيام تلو الأيام . ومن أجل إنفاذ هذا الرأى ذهب إلى أبعد الحدود حتى هانت عنده الأمانة خفان . وفي سبيله ضحى بفرصة العمر فأبى الرشوة وكانت حرية أن تجيئه بصولجان . . .

أفكان حقا ذا غفلة ؟ . .

كلا ، ما كان ، إغما الدين عيروه بالغفلة من قبل ومن بعد كانت الغفلة بهم الصق وأليق ، لأنهم أغفلوا أمسه وحاضره ، ولم يبالوا مشاعره ، واعين أو مخدوعين . .

٣

طاش ، فيما أحسب ، تقدير عمرو بن العاص حين استخلص لنفسه سائمة ظفر ذاتى من حديث الأشعري الشيخ . . ظنه ، وهو يرشح عبد الله بن عمر للخلافة ، إنما صدر في ترشيحه عن ميل له ، أو لعمر ، أو لكليهما لقه في غلالة من تقوى الابن قد تبهر أبصار الناس إن لم يعطهم إلى تأييده ذكر ابن الخطاب . . لكأنى ببسمة خاية اللون رفت عندئذ على شفتى الداهية ، عن طمأنينة ، حق لقد

أوشك أن يفرك كفيه ، ويبعج شذقيه ، ويهتز فرحا وهو يعقب على رأى نده
بأهجة من ذات الحجة له ودان فصل الخطاب . .

قال عمرو :

« . . إن كنت إنما تريد أن تباع ابن عمر لدينه ، فما يمنعك من ابني عبد
الله وأنت تعرف فضله وصلاحه ؟ . . »

فجبهه الشيخ بالجواب الحاضر الذى لم يغير من خلاصة مغزاه ، وإن غير من
مبناه ، دوران الأيام :

« إن ابنك لرجل صدق ، ولكذك قد غمسته في هذه الفتنة » .

وهوت على الأثر فرصة ابن العاص . .

هوت فرصة الظفر الداتى التى صورها وهمه ، وجسدتها أمانيه ، بهذا الجواب
الثابت الهادىء الرصين فإذا هو قد ابتعد به تدبيره وتقديره عن المألوف المعروف
من ذكائه ودهائه بقدر ما أبعد الأشعرى عن الشائع الدائع من غفلته وغرته . .
إنها لمثرة لابن العاص تضاف إلى عثرات دهائه ، وتظهر — فى حساب مكروه
— عليه ! . . ثمانية عثرتين فى يوم واحد ! فى جلسة ! فى نقاش قصير لم يكد يمتد
إلا سويعة من زمان غفل خلالها الغريم الداهية عن حقيقة الغريم الساذج الذى
طالما تبدى — له وللناس — فى هيئة غر تلب به براعة اللفظ فتوقع به براعة
الحيلة . .

هذه المرة الحاضرة : لم يستطع بصر عمرو أن يحترق على الأشعرى جلد بلهه
ليكشف خلفه عن صاحب فكرة قرت دائماً فى ضميره قرار الإيمان فعمد العزم ،
منذ زمان ، على نصرتها ، وإن هو ضحى لها ، من قبل ومن بعد ، بالسطوة والسمة ،
واكتوى فى سبيلها بالزراية والامتهان بل بالتحريم والتأثيم . . .

وتلك المرة السالفة : غاب عنه من طبيعة أبى موسى أنه صاحب تقوى زهف
فيه من الحساسية الدينية والتخرج النفسى ما يشعذ ذهنه ، ويوشك أن يعيل به
عن تقبل المتاع والعروض المألوفة ، فما بالك بالرضائح الصارخة المفضوحة والرشا
المزفوفة المكشوفة . . ؟

ومع ذلك فليس عمرو وحده من كان يؤمن بأن الغاية تبرر الوسيلة ، وأن المحذور الممنوع مقبول مشروع . . . عبد الله بن الزبير — على ما عرف من تقواه وروعه — لف أيضا لف ابن العاص في هذه الناحية ، وكان يؤثر ، حين الحاجة ، الوسائل الملتوية على النهوج المستوية ما دام الانحراف ينتهى إلى الغاية . . فلم يكذب إغراء عمرو ، وتلويحه بتلك الرشوة ، يصلك سمعه ، حتى مشى — بكر الثعلب الختال — إلى عبد الله بن عمر بن الخطاب يوسوس له ، ويدفعه إلى القبول :

« اذهب إلى عمرو بن العاص فارشه . . . »

فلصالح من هذه الوسوسة الملبسة بالإرشاء ؟ . . .

ليس ابتغاء وجه الإنصاف بطبيعة الحال . . لا للقضية ، ولا للأمة ، ولا لابن عمر نفسه كانت هذه النصيحة الزبيرية التي تطوع بها صاحبها آنذاك وأنه لأول عالم أنها دعوة لا تجد صدى في نفس المرشح لها ، وخدعة لا تجوز على المدعو إليها ، ورأى إن وجد له مكانا في عداد الآراء فإنه موقع الذيل للبتور الذي تهمد حركته ، وثبتت سكنته ، وتخرس نأتمته إذا ما جاشت بالحلول المرتقبة لأزمة الحكم مكامن الخواطر ومقار الأفكار . . . ومع ذلك قال . . .

أفكان هدفه وممره أن ينأى بقضية على غير المسلك الطبيعي الذي وجب أن تسلكه وتعضى فيه ، انحرافا براعيا ، الناضح عنها ، إلى ما يخالف مآدب له ، وتثبيتا له على رأيه المشبه الخبيط ؟ . . ليوشك الأمر هكذا أن يكون ففي طبيعة ابن الزبير ختل ثعلب يدفع به إلى تجنب المصارحة ، وإلى التزام المسالك الخلفية ، والدروب التعتية ، بلوغا إلى ما يريد . . وفي ماضيه أيضا سلوك ، شهد الجمل ، وقاسته البصرة ، ينضح الآن بأن قصاره ، في سره ونجواه ، أن يكون ذهاب ربح الإمام مسك الختام . . .

أم لا فكانت ياترى عاطفته « الحجازية » هي التي أملت عليه حث ابن عمر على ركوب ما يكره ، أو ما تصدف عنه فطرته ، بغية الود بالخلافة — في شخص هذا العازف الصادف — إلى أرضها الأصلية : الحجاز ، وإلى حاضرتها الأولى : مدينة الرسول . . .

في هذه التملة ، بغير تخرج ، شطر الجواب . . كثيرون أرتأوا آنذاك ، وإلى اليوم يرتأى أكثرون ، أن عصبية البيئة — إلى جوار الطموح — كانت دائماً تدفع خطوات الثعالب إلى امتطاء أمداد المغامرات سمياً للحكم من أفصر سبله ، أو تدبيراً — في القليل — لتقريب أوان هذا الحكم بتقريب قاعدته من متناول برائته وأنيابه . وما كان شيء يذنيه إليه ، بطبيعة الحال ، مثل غدوه بقلب قطر ، ويبد ظهراني أمة ظلت تتطلع — منذ انسلاخه عن المدينة في مستهل عهد علي — إلى لمحات برق في سماء الأحداث قد تصحبها ، حين فرصة موانية ، صاعقة واهمة ، خليفة بأن تنقض على هيكل البناء السياسي القائم لتقضى على « اغتراب » الخلافة : مشرقة في بلاد العراق أو شاملة في أرض الشام . .

وكان ابن الزبير واحداً من أوائل أولئك الذين عاشت في أمانهم هذه اللععات ، ثم غدا هو نفسه ، على الأيام ، الشرارة الباعثة للصاعقة المرتقبة . . . كان ثم غدا ، إذ سبقته ، وتلتته إلى الأمنية ، صفوف . . لما تنسى كيف أن الأنصار ، حين تبينوا عزم الإمام على الخروج إلى الكوفة ، عندما فاءت الإمرة إليه ، قد أشفقوا أن ينسخ سلطان الإسلام من مهده ليعيش كالغريب المشرّد في غير موطنه ، يديار لم تشهد مولده ، ولم تتمهد عوده ، وبين أقوام لم يتمرسوا برعايته وافتدائه التمرس الذي يرفعهم إلى مستوى من الحرص عليه كمستوى الذين عاصروه سنوات محنه وأزماته ، وبوأوه فوق الأرواح . . إن منهم من سعى إليه بالإغراء ، يحثه على البقاء :

« . . يا أمير المؤمنين . . إن الذي ينوتك من الصلاة في مسجد الرسول ، والسعي بين قبره ومنبره ، أعظم مما ترجوه من العراق . . » .
وإن منهم من شق عليه خروجه من المدينة ، وإن لكفاح متعردة طلحة وعائشة والزبير ، خاول رده عن مسيره ، بالتحذير والرجاء :
« . . لا تخرج منها . . لا تخرج . . فوالله لأن خرجت منها لا ترجع إليها ، ولا يعود إليها سلطان المسلمين أبداً » .

ما تنسى أيضاً أن ثورة المعارضة للدولة الأموية ، صدر نشأتها ، كانت دائماً تتركز في الحجاز ، ونجد أنصارها بين أبناء المهاجرين والأنصار ، الذين اتخذوه

عند ذلك ملاذا ، يأبون أن يعدلوا غيره به طوال حكم معاوية ، ومفتتح ولاية ولده يزيد . . .

أن منهم من وقف ثأراً في وجه مروان حين أرادهم معاوية على البيعة لابنه ، يصيح به :

« تريدون أن تجعلوها هرقلية ، كلما مات هرقل قام هرقل ! » .
وإن منهم من ود لو حال بين الحسين وبين الخروج إلى الكوفة ليتخذها مستقراً لدعوته ، وموثباً على الحكم الأموي بالشام . . . ودوا لو حالوا بينه وبين منتجعه الجديد وفي أخلاصهم الضياع والهلاك والاسترقاق قرين ذلك الخروج :
« . . الزم الحرم فإنك سيد العرب ، لا تعدل بك أهل الحجاز أحدا ، ويتداعى إليك الناس من كل جانب . . لا تفارق الحرم ، فوالله لئن هلكت لنسترقن بعدك . . »

بل ابن الزبير نفسه قد لاذ بالبيت لا يفارقه وهو يعصى دولة الأمويين ويكتوى من بأسها نظير عصيانه . ثم قد لاذ بالحجاز لا يرضى فراقه وهو يكاد يظهر عليهم ، وتأتيه من قائد جيوشهم مصالحة على البيعة له . .
نادى ابن الزبير عندئذ على جيش يزيد :

« علام تقاتلون وقد هلك طاغيتكم ؟ . . »
فالتقى به بمدحها الحصين بن نمير ، قائد الماهل المهالك ، يعرض عليه :
« أنت أحق بهذا الأمر . . هلم لنبايعك ، ثم اخرج معنا إلى الشام ، فوالله لا يختلف عليك اثنان . . »
لكنه أبى :

« لست فاعلا ، وأكره الخروج من مكة . . ولكن بايعوا لي هنا ، فإني مؤمنكم ، وعادل فيكم . . »

أجل ، إنها لعاطفته الحجازية ، من قبل ومن بعد ، التي حركت لسانه إبان التحكيم ، كما حركته عقب الحسرة وهو يوشك أن يقبض يرائنه وأنيابه على صولجان السلطان . . وإنها أيضا لطبيعة الثعلب الرواغ فيه قد دفعته إلى الوسوسة لابن عمر ليرشو ابن العاص عسى أن تعود الرشوة بقاعدة الحكم إلى مكان ،

وبين ظهراى أمة من الناس ، تجعل كاهما فى متناول البرائن والأنياب حين يحين
الحين ، وتتهيا الظروف والأسباب . . .

غير أن ابن عمر فوت على الثعلب غرضه :
« لا والله ما أرشو عليها أبدا ، ما عشت » .

ولم يكفه هذا الردع ، بل انطلق أيضا إلى ابن العاص يحذره مغبة شرارة
يوشك أن يقدحها فتتسع نارا مدمرة لا تصيب الذين ظلموا خاصة ، بل تصيب
الجماعة الإسلامية كافة : الغائب والحاضر ، البرىء والمسىء ، البر والفاجر إلى
أجيال . . .
قال :

« ويلك يا ابن العاص . . . إن العرب قد أسندت إليك أمرها بعد ما تقارعت
بالسيوف وتطاعنت بالرماح ، فلا تردهم فى فتنة ، واتق الله . . . » .

* * *

. . . وليس عمرو وحده من أخطأ فهم ماهية العوامل التى سيطرت على
الأشعري إبان التحكيم ، ودفعت به إلى موقفه المعلوم . . . عبد الله بن عمر نفسه
أخطأ الفهم ، وحمله الوهم على الاعتقاد بأن الأشعري رشعه لمقدم على ، تقربا
وزلفى من وجه ، وإشارا وتفضيلا من وجه آخر . . . وقد عبر ابن عمر عن
خاطريه هذين فى كتاب بعث به بعد حين إلى الشيخ ، كان مما فيه :

« . . . إنك تقربت إلى بأمر لم تعلم هواى فيه . . . أكنت تظن أنى أبسط
يدا إلى أمر نهانى عنه عمر ؟ . . . أو كنت ترانى أنقدم على على وهو خير منى ؟ . . . » .
ليس عمرو وحده ، ولا ابن عمر ، ولا غيرها ممن جروا آنذاك هذا الجرى
فى فهم أبى موسى أصابوا النظرة وأحسنوا الحساب . جم كثير أخطأوا الخطأ
نفسه . أضلهم وهمهم عن بواعث الشيخ . خدعهم منه مظهر مذاجته عن تعمق
دخيلته واكتناه حقيقة تقديره للمشكل حتى صدمهم من لدنه الحل الذى طالهم به
فى التحكيم على ذلك النحو الغريب المريب . . . إلى اليوم أيضا ، وعلى امتداد
القرون الطويلة ، يحسب الناس الأشعري فريسة خدعة أعدها دهاء ابن العاص
واستدرجه إليها ، وهو غافل ، بالملق والحيلة حتى أوقعه فيها كما تستدرج وحش
الغاب إلى حفرة أخفتها الأعشاب . . .

لكن الأشعري لم يكن قط ذلك المغفل الأبله الذى يشير السخرية والرياء .
 فى حسابى أنه لعب دور الخادع وهو يلبس ثوب الخدوع . بمهارة لعب دوره ،
 وبقدرة خارقة على الأداء لم تحنه ولم تتعثر به منذ البدء إلى لحظة إسدال الستارة
 على الرواية الحزينة . . ولقد أسفر ، فى نتيجة التحكيم ، عن رأى الذى اعتنقه
 فإذا هو رأى الأليق بما أومأت إليه أقواله وأفعاله ، حركاته وسكناته ، دائماً
 دائماً قبل التحكيم ، من بعيد ومن قريب ، وإن استقبله بالعجب فريق ، وبالأسف
 فريق ، وبالإسكار فريق ، وانطحات بين تباين هذه العواطف ملامح المثير
 الأصيل للرأى المنكود ثم ظلت إلى اليوم مطحوسة عن عين كل ناقد لموقف
 الشيخ ، متناول محنة التحكيم بالاستقراء ، مقابل ظروفها وصرورها بالتحليل
 أو بالتعليل . .

كالأعشاب التى تنخدع الوحش عن الحفرة ظل باعث أبى موسى ، الذى أفهمه
 حكمه ، خافياً على الناس ، آناً وراء غفلة الأشعري ، ودائماً وراء خدعة ابن
 العاص . ومع ذلك فكلتا العلتين مغلوطة ، وكلا الرجلين مظلوم . وإذا لم يكن
 بد من تقويم سلوك الأشعري فلا ضير عليه فى حساب رأى لا فى حساب الأمانة .
 فالأمانة هاهنا تضعه بمنزلة خائن ، أما رأى فيوثقه مكانة شهيد . . .

أبو موسى كان مؤمناً أشد الإيمان بجذوى العزلة ، راغباً كل الرغبة عن
 جمالة أى طرفى الخلاف ، عاملاً غاية قصاره ، لجل الناس على رأيه ، اليوم كأمس ،
 وحين قدرته كمين عجزه وتقطع الوسائل به دون بلوغ مأربه المنشود . . ولقد
 ظل أبداً ثابتاً عند رأيه لا يجيد وإن تنقلت نظرات معاصريه إلى موقفه فى مراتب
 المخالفة والزراية من هبوط إلى علو ومن علو إلى هبوط ، ونذبذبت آراؤهم فيه
 بدارج النعوت من الضعف ، إلى الغفلة ، إلى الخيانة . . ظل هكذا وليس من
 معاصريه ، ولا تابعيهم ، ولا اللاحقين بأولئك وهؤلاء انحدارا مع الزمن إلى
 هذا الجبل من رد حكم الشيخ إلى منبته الأول : الإيمان . .
 فأى إيمان . . .

إيمان الذى يرنو بعينه فى خمة الليل على خفقة فتيلة ذابطة ثم يحسب أنه وحده
 يبصر ما لا تدرك النواظر السابحة إلى مراصمها على أفيض النور . . . إيمان النعامة
 الحقاء بأن لا خطر هنا ولا خطر هناك لأنها لوت رقيبها عن مواطن الخطر

ومواقعه ، ودفنت رأسها الفارغ في ثنايا الرمال ... إيمان جاهل ، ضيق الأفق ،
قريب القاع كإيمان فئة القراء ومعتزلة حروراء سواء بسواء . . .
قشرة إيمان . . .

ليوشك المرء أن يتهم الأشعري في هذا اللقاع أي اتهام إلا أن يلصق به أنه
اغتر بأخاديع عمرو ، إذ أنه صدر في حكمه الجائر العائر عن عدوى من الرأي
أعداه بها سواء وليس عن اقتناع ذاتي وإيمان — أي إيمان .. ولئن كانت صحائف
التاريخ تكاد تمتلئ بغير هذا فالتاريخ هاهنا مطفف ، كالابن العاص فطفف له
الكيل ، ووزن أبا موسى فأخسر الميزان ؟ . . . وبحسبنا أن ثمة سطورا وكلمات
يستطيع من شاء أن يلتقطها فإذا هي معول يسعه أن يهدم به ، في غير عناء ، تلك
الخرافة الثنائية التي اقترنت فيها غفلة الأشعري بكر عمرو وظن أنها مفتاح
نتيجة التحكيم . . .

عن اقتناع ذاتي ، بلا ريب ، وإيمان كتب أبو موسى إلى ابن عمر — إذ
لامه على ترشيحه إياه للخلافة — يقول :
« . . . وإني والله ما أردت بتوايقي إياك . . . ربيعتي لك ، القرية إليك .
ما أردت بذلك إلا الله . . . »

وعن اقتناع ذاتي ، بلا ريب ، وإيمان كان أيضا جوابه إلى ابن أبي سفيان
بعد التحكيم ، حين حسب عاهل الشام أنه يستطيع استمالة الشيخ إلى جانيه ،
واستقاءه إلى ظله ، فبعث إليه يدعو أن يقيم لديه ، ويقول في الكتاب :
« . . . أما بعد ، فأكره من أهل العراق ما كرهوا منك ، وأقبل إلى الشام
فإني خير لك من علي . . . »
عندئذ أجاب :

« . . . إنه لم يكن مني في علي إلا ما كان من عمرو فيك ، غير أنني أردت
بما صنعت وجه الله ، وأراد عمرو بما صنع ما عندك . . . »

عن اقتناع ذاتي بجدوى سلوكه ، وصحة فعله ، كان تصرف أبي موسى ثم كان
حكمه الذي أدلى به على ملائ الناس بعد اجتماعات التحكيم . . . اقتناع بفكرة قرت
في نفسه كالمقيدة ، ورسخت رسوخ الإيمان . . . وهل كانت موافق القراء
ومعتزلة حروراء التي أصابت الأمة الإسلامية بأقصى النكسات إلا صادرة عن
نوع كهذا من أنواع الإيمان ؟

٤

جرت قصة التحكيم ، فيما أرى ، على سنن واضح مرسوم لكلا الحكيمين دون محاولة من الأشعرى لإقناع عمرو ، ولا مكيدة من عمرو لطى الأشعرى .. والمحاولات الكثيرة التى توالى طوال المناقشة لم تقرب بأى الرجلين من الغرض الذى عرف الناس أنهما نداعيا إليه وجاءا فيه حسبما نصت وثيقة التحكيم .

كلا الرجلين لم يدانيا لب القضية التى أقبلا للحكم فيها وهى : قضية الخلاف بين معاوية وعلى ، أو قضية تنكر عامل من عمال الدولة لواجب الولاء لهذه الدولة بتمرده على ولى الأمر الشرعى . كلاهما أغفلا ماندبا له ، وراحا يحومان حول جزئيات لا سبيل معها إلى بلوغ الغاية من التحكيم بل — فى نظر الحق — هى السبيل إلى البعد عن هذه الغاية المرتجاة والإمعان بهما ، وبالأمة وراءهما ، فى تيه من خلاف جديد .

ومع ذلك فقد مضيا على سنن مرسوم . عمرو بن العاص يداور ويطاول ، ويعطى فى مدة النقاش إفساحا للوقت أمام صاحبه معاوية حتى يلحق جراحه النازفة فى صفين ، ثم يعيد تنظيم جيشه ، ويكتب كتابته ، وبعد نفسه — هذه المرة — إعدادا أمثل يكون به فى غد أقدر منه بالأمس على لقاء غريعه العنيد ... وأبو موسى الأشعرى يتأنى ويتمهل ، ويصابر الحديث الجارى حتى تحين له ثغرة فيه ينفذ منها إلى تحقيق رأيه ، الذى ملا ضميره ، وملك عليه تفكيره وتديره ، وإنه — فى حسبان — للرأى الذى لا رأى بعده لحل هذه الأزمة الطاحنة من أهون سبيل . وهل شئ أهون عليه وأدنى إليه من كلمة يلفظها تجرد ابن أبى طالب من سلطانه فتوصد أبواب الحرب والعداء وتفتح أبواب السلام والصفاء ؟ ..

لقد شاء ابن العاص — مكرًا وخديعة — أن يختار لنفسه أسلوب حديث يجتذب به ثقة الأشعرى ، ليستلب إرادته ، ويجعل منه أداة طيعة فى يديه ، فجعد إلى الشاء ، واللفظ الناعم ، وحركات الانحناء . . كان يقدم الشيخ . إعطاء صدر المجلس ، وإمامة الصلاة ، وبدء الكلام والطعام . وكان يدعو بأحسن النعوت ، ويخاطبه بأجمل الأسماء . . لكنها كلها وسائل جرت إلى غير طائل ، لأنها لم تأت

بجديد غير ما أضمر أبو موسى وطوى عليه دخيلته وعقد عزمه قبل أول اجتماع . .
على هذا النهج سار الحسبان . .
بيدا عمرو فيقول :

« يا أبا موسى ، إنك صحبت رسول الله قبلى ، وأنت أكبر منى سنا ، فتكلم
أنت ثم أتكلم أنا » .
ويبدأ أبو موسى فيقول :

« يا عمرو ، هل لك فى أمر هو للأمة صلاح ، واصلحاء الناس رضا ؟ . . »
« نعم ، يا صاحب رسول الله » .
« نولى هذا الأمر عبد الله بن عمر بن الخطاب الذى لم يدخل فى شيء من
هذه الفتنة ، ولا فى هذه الفرقة » .
ويقول عمرو :

« فأين أنت عن معاوية ؟ . . »

فيرمقه الأشعري بنظره إباء ، ويلوى عنه ذكره وعيديه . .

ويمضى الحديث سجالا بين الرجلين . هينا حيناً . فانرا أحيانا عديدة . أحدها
يحاور ويداور وهو لا يكف أبداً عن إبداء الرقة مقرونة بالتوقير فى اللفظ
والإشارة . والثانى يصارح ويكشف وهو لا يدع كلمة تند عن شفته إلا تحمل
رأيه ، واضعاً بلا غموض ، عارياً بلا غطاء من شعار أو دثار . . . ولقد حرص
عمرو ، دائماً ، على أن يوغل بنقاشه نأياً عن موضوع الخلاف الذى جاء ليقضيا
فيه . ولكن نظيره — وإن مضى معه شوطاً فى الحديث — كان لا يلبث أن
يرتد إلى نقطة البدء من جديد . . . ولقد حرص أبو موسى ، دائماً ، على أن يثبت
على رأيه ، ويشد نظيره معه إلى هذا الرأى ما وسعته إلى ذلك عبارة . ومن هنا
كانت المفاوضة بينهما كلاماً مرسلًا واستطراداً لا يحددها إطار . فلم تخل من
معاودة وتكرار إن لم تكن كلها تكراراً وإعادة لبضع جمل تتغير فيها الألفاظ
ولا يتغير المفهوم . . . كانت كأنها قطعة مطاط ، تدور بين الأشدق ، يعضغانها
ولكن لا ييلعانهما لأنها عصية على الابتلاع . . .

ويدهن عمرو فيقول :

« يا أبا موسى ، إنه ليس أهل العراق بأوثق بك من أهل الشام ، اغضبك لعثمان ، وبغضك للفرقة » .

ثم لعله يتعمل هنية يرقب في أثنائها أثر كلامك على وجه صاحبه ، حتى إذا اطمان أو استشعر ظل طمأنينة أكمل يقول :

« . . . وقد عرفت حال معاوية في قريش ، وشرفه في عبد مناف ، فما ترى ؟ . . . »

فيواقفه الشيخ :

« أرى خيرا . . . »

ثم لعله يتعمل هو الآخر هنية يستجمع فيها شوارد منطقة يستأنف بعدها الحديث :

« . . . أما ثقة أهل الشام بي فكيف يكون ذلك وقد سرت إليهم مع علي ؟ . . . وأما غضي لعثمان فلو شهدته لنصرته . . . وأما بغضى للفتن فقيح الله الفتن . . . وأما معاوية فليس بأشرف من علي . . . »
فينقطع الحوار ! . . .

وكرة أخرى يرد الرجلان إلى البداية . إلى قطعة المطاط التي تمضغ ولا تبلع ، يلوكانها بين أشداقهما من جديد .

.. ويدور ابن العاص في مرة بالحديث دورة ذات التواء وانثناء ، حتى إذا رأى أنه قد بلغ من أحداث الماضي نقطة تصاح للانطلاق الظافر أسرع يواجه الأشعري بسؤال :

« ألسنت تعلم أن عثمان قتل مظلوما ؟ . . . »

فيجيب الشيخ :

« بلى » .

فيستضيء للجواب وجه عمرو ؛ وهل نصر عنده أعظم قوة من هذا الاعتراف ؟ . . .

ويتلفت يشهد من حوله :

« اشهدوا ! » .

غير أن ابتهاجه لا يكاد يحرك شيئا في نفس أبي موسى ، لا من قلق ولا من حيرة . . فلقد قتل ثالث الخلفاء — فيما آمن الأشعري — وليد غضبة جمهور ثائر ، نطقه عذف ، وعقله سيف ، وحكمه حيف ! . .

ويعضى عمرو يكمل نسج ما كان فيه :

« . . فما يمنعك من معاوية وهو ولي عثمان وقد قال الله تعالى : ومن قتل

مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا ؟ . . »

عندئذ يباغته الشيخ :

« اتق الله يا ابن العاص . . فإنى لم أكن أوليه لنسبه من عثمان وادع

المهاجرين الأولين » .

فيرد عمرو ، مثابرا على إصراره :

« . . إن بيت معاوية من قریش ما قد علمت » .

« هذا الأمر ليس على الشرف يولاه أهله ، إنما هو لأهل الدين والفضل . . »

وطويلا طويلا تجادلا على هذا النحو . . يتبدى عمرو كمن يتصيد الكلمات

لينفذ منها إلى غرضه ، فيتصدى له أبو موسى يعارضه ، كلما حرك رأيا جمده ، أو فتح

بابا أوصده . . طويلا طويلا سارا أشواطا من النقاش ، منذ ضمتهما اجتماعات

ودية عقيب وقف القتال في صفين إلى ذلك اليوم من رمضان الذى ختم مهزلة

التحكيم . . لكنها أشواط ، وإن امتدت ، لم تبعد بهما — كما أسلفنا — خطوة

واحدة عن بداية الحديث ، ولا هى أيضا انتهت آخر الأمر إلى لقاء كحقيقة

ما يكون اللقاء . لا إلى اتفاق ووافق ، ولا إلى خلاف وفراق كان مؤدى نقاش

الرجلين ، وإنما ظلا يسيران ويسيران كأنما على محيط دائرة ، فى نفس الاتجاه ،

وطى بعد بينهما ثابت ، لا ينقص منه ولا يزيد فيه طول الدوران . .

فإن نعجب فلقضية تميش فى تصور قاضيا بغير جسم ولا رسم ، ولهاجة يطرد

الحجاج فيها بغير حجة ولا برهان ، ولحكيمين يجتمعان وينقضان لوجه ثرثرة

جوفاء — ومن أجل سباق إلى غير هدف — بعبارات بتراء تضطرب وتتدافع

كالأفراس العمياء . . أم لا ، فأين دليل فى حديثهما ، فرد ، يظهر لنا عدوان

الظالم ، أو يؤكد براءة المظلوم ؟ . . وكيف تفسر تناولهما البيت فى الاستخلاف

قبل بحث الخلاف ؟ . . وبأى مبدأ ، وبأى معيار ، عابرا الاختيار والمختار ؟ . .

٥

على خلاف اتفاقا ، من قبل ومن بعد — إن كان نعمة مع تنافر لقاء — كما يلتقي ومض الدار ووبل الماء في العاصفة الهوجاء ! . .

فاعتزال ما نشب من خلاف ، وكره الدماء ، والجود حيال الفريقين المتناجرين دون إنكار لباطل أولئك أو تأييد لحق هؤلاء كانت وحدها جواز المرور إلى نفس الأشمري ، والمزية التي ليس قبلها ولا بعدها مزية ترفع صاحبها في عيذه وتضعه على رقاب الناس .

وقصة المصراع ، وولاية الدم ، والثأر الذي انقلب من قصاص إلى إمرة كانت محجة عمرو التي لا محجة له غيرها إلى مطمع ، ولا لمعاوية بن أبي سفيان إلى سلطان . . .

من نعم الجود إلى نعم الدم تذبذب نقاش الحكمين إلى هنا مرة ، وإلى هناك مرة ، بغير محاولة منهما لتدبر القضية الأصلية ، ولا لذكرها — مجرد ذكر — بعبارة أو إشارة . فلقد شاء أحدهما لحيالاته وأوهامه ، وشاء الآخر لأطباعه وأحلامه أن تكون — دون وقائع الحال — سبيل الوصول الجدلي إلى أمير المؤمنين الموعود . فرتب كل منهما الحاعة قبل المقدمة ، واختار سلفا اسم الخليفة المنتظر ثم أخضع منطق الحوار للاختيار . . .

ومع ذلك فلا غرابة ، في مقام كهذا لا إطار فيه الموضوع ولا اصطلاح على منهج الاجتماع — أو بلغة اليوم : جدول الأعمال — أن تؤخذ النتائج غصبا ، وتعاسف الخواتيم اعتسافا على نحو ما سمينا من حكم الشام وحكم العراق . . لا غرابة أن تسبك الأسباب المأفوكة ، وتصاغ العلل الزائفة لتطفف الكيل أو لتخسر الميزان . فأحاديث دومة ، التي شاركت في ابتداءها خيالات واهم وأطباع نهاز ، لم تزد على تراشق لفظي هازل ، وسباق كلامي عابث بين نظرة شخصية ومأرب ذاتي ، ولم تكن قط صراعا جادا بين مبدئين تتأخر فيه الرغبات الخاصة وتتقدم نظرة الحق جنبا لجنب إلى جوار مصلحة المجموع .

كل هذا وغيره من مناقص التحكيم وسقطاته ليس بغريب ما دما نقف حيث وقف الحكماء على حافة الحق لا يقدمان ، وننظر مثلهما إلى الأمور نظرة مغرض

أو موتور يركب إلى أوطاره كل محذور . . . لكن الغريب العجيب حقاً هو أن
يمتد عمر التعلات الموهومة فلا تذوب في الأحداث التالية عبر الزمن ولو على مدى
السنين والقرون ، بل تظل عالقة أبداً بنفوس من اصطنعوها لا تفلتهم ولا يفلتونها
وإن طال بها العهد ، واستنفدوا جدواها ، ولم يعودوا بحاجة بعد إلى التعلل
بعلة أو التوسل بوسيلة . . .

فما بالهم ؟ . . .

أقد أوهموأ فمن فرط ما أوهموأ وهموا ، وتخيّلوا فمن طول ما تخيّلوا خالوا ؟ ..
إنهم كذلك . . .

أبو موسى — مثلاً — لم يقنع عن وهمه وإن غلبته صروف الوقائع عليه
ولم تدع له سوى القدرة على اجتراره . . . فر يأتعه ، مهزوما مذموماً ، إلى مكة ،
بعد وقوع الواقعة وفساد الأمر — بما كان من قضائه المشؤم في التحكيم — على
الإمام وأصحابه ، فإذا على بيعث إليه يذكره جرمه لعله ينتفع بالاذكار ، ويرشد
للتوبة ، ولكنه لا يرعوى ولا يركن إلى الصواب . . .

كان فيما كتب على إليه في هذا المجال :

« . . . أضلك الهوى ، واستدرجك الغرور . . . فاستقل الله يقلك عثرتك ،
فإنه من استقل الله أقاله . . . »

فأى تصرف عندئذ كان مسلكه حيال هذه الدعوة الكريمة ؟ . . .

ما كان منه إلا أن اشتد ، وصلب ، ونأى بجانبه عن الرشاد كأنما وهمه القديم
قد تجسد في ضميره حقيقة لا ممدى معها عن إيمانه بأنه وحده على الصراط . . .
رد يقول :

« . . . لولا أنى خشيت أن يؤول منع الجواب إلى أعظم مما في نفسك لم أجيبك ،
لأنه ليس عذر ينفعنى عندك ، ولا عذر يعنى منك . . . وإنى أصبت أقواماً صغروا
من ذنبى ما عظمتم ، وعظموا من حقى ما صغرتم فأقمت بين أظهرهم . . . »

بل قد جاوز الرجل بعد حين حد التوهم والادعاء إلى علياء الاعتزاز
والكبرياء كأنما أوتى الحكمة وحده ، يضعها حيث شاء ، وينزعها ممن شاء . . .

سمع أن الإمام ناظم عليه ، لاعتن له ما سلف من قضائه الجائر ، فأرسل كتابا إليه كان فيه :

« . . فإني قد بلغتني أنك تلعنني في الصلاة ، ويؤمن خلفك الجاهلون . وإني أقول كما قال موسى : رب بما أنعمت علي فلن أكون ظهيرا للمجرمين . . . »
وعمره — مثلا . .

إلى نهاية حياته كان ابن النابغة يدعى الحق لتعلاته . . . يدعيه وهو يعلم أنه يكذب على نفسه ليغرر بمن عسى اشتبهت عليهم الأمور فوقفوا في الصراع بين معاوية وعلى بمكان ريبة ، يتذبذبون ، تارة إلى يسار ، وتارة إلى يمين . . . فلقد كان لا ريب أعرف امرئ بخرافة الطلب بدم عثمان ، التي ادعاها ، ولقنها صاحبه ، وألصقها وإياه بالإمام تجنيا بالاتهام ومغالاة في اللدد والخصام . . . كان أعرف الناس بها حين ابتكرها ، وحين أشاعها ، وحين جاءت من بعد بملك النيل ومطت لأمره وسيد مملك الشام حتى احتوى في ديباجته ملك الإسلام . ولقد ظل عارفا بها عرفانه — طوال السنوات القلائل التي تبقّت له ، غب النصر ، من عمره المديد الطويل — كمرقان الجاني جنائته لا يفتأ ، وإن تناسى ، يجترها في خياله في لحظة ندم أو لحظة مباهاة . وقليل أقل القليل كان الندم ، وكثيرا كثيرا كان الحقد هو الذي يحرك شهيته للاجترار . . .

وكم اجتر حتى أتختم . . .

قال يوما لعائشة ، والدنيا يمزها في يديه ، والدولة لسيده ، وعلى حينذاك ذكرى ذاكر وأحدوثة خاطر :

« لوددت أنك قتلت يوم الجمل . . . »

فهتفت به كالمدعورة :

« ولم ، لا أبالك . . . »

قال :

« كنت تموتين بأجلك ، وتدخلين الجنة ، ونجملك أكبر التشيع على علي

ابن أبي طالب . . . »

لكن حقه كان يتوارى أحيانا ليفسح الطريق لكافة حتى تند من بين

شفتيه كبدا معاوية ، وزروعا عن ملاحقته بالرياء المداجي إلى مجابته بالصراحة الصارمة ، كلما رأى منه تغافلا عن مطلب ، أو خشي جورا على ما في يديه . . . دخل مرة عليه يسأله حاجة ، فكره معاوية قضاءها وتشاغل عنه . فما كان من عمرو إلا أن نزع عن وجهه نقاب الرياء ، وأطلق لسانا كالحية يقول : « يا معاوية ! . . إن السخاء فطنة ، واللاؤم تغافل ، والجفاء ليس من أخلاق المؤمنين . . »

فلم يباليه العاهل ، وإعنا زاد جفاء ، وجهه بعير اكتراث : « وبماذا تستحق منا يا عمرو قضاء الحاجات ؟ . . » عندئذ أفصح ابن العاص السبيل لكامة حق حبيسة وراء جدران أحقادهم لتتسلل إلى حيث وجب أن تكون من بضع سنين . . . رد في صلف وخيلاء :

« بأعظم حق وأوجب ا كنت في بحر عجاج فلولا عمرو لفرقت في أقل مائه وأرقه . . لكنني دفعتك فيه دفعة فصرت في وسطه . ثم دفعتك فيه أخرى فصرت في أعلى المواضع منه . فمضى حكمك ، ونفذ أمرك ، وانطلق لسانك بعد تلجلجه ، وأضاء وجهك بعد ظلمته . طمست لك الشمس بالدهن النفوش ، وأظلمت لك القمر بالليله المدهمة . . »

فهل عقب معاوية ؟ . . وما غناؤه من تعقيب قد يشير وخزا آخر ، أعق وأشد ، من لسان رفيق جمعته وإياه المنفعة الضالة ولم تجمعهما القيم السماء ؟ حسبته في هذا المقام أن يتناوم ويطبق جفنيه مليا مطأطئا رأسه للعاصفة . حتى إذا رحل ابن العاص من لدنه ، اعتدل يزفر ، ويقول لجلسائه وهو مغيظ :

« أرايتم ما خرج من فم الرجل ؟ . . ما عليه لو عرض وفي التعريض ما يكفي ؟ لكنه جبهني بكلامه ، ورماني بسموم سهامه . . »

ولقد كان كثيرا ما يجلس إلى معاوية مجلس الصفي من صفيه فإذا هما ، بعد لحظات ، بمجلس غريم وغريمه لا يكاد الحديث يسير بهما حتى يحلو لأحدهما أن يكاد صاحبه ثم لا تخلو المسكايمة ، آخر الأمر ، من لحة جد تضمهما كليهما حيث يكرهان وإن لم تذكره شواهد الواقع ولا حقائق الحال . . . انبرى معاوية له ،

في جلسة من تلك الجلسات ، التي تراشقا فيها بالحوار ، يسأله في تخايب :
« . . فما أعجب الأشياء ؟ . . »

فكان الجواب الهادي ، الذي لفظته — ربما — نزعة لاشعورية ، وأبطن
من سموم التعريض ما يشد الأعصاب :
« أعجب الأشياء غلبة المبطل ذا الحق على حقه . . »

فلم يتركها له ابن أبي سفیان ، وإنما ردها عليه صاعا بصاع :
« بل أعجب من هذا أن تعطى من لاحق له ما ليس له بحق ، من غير
غلبة . . »
ومعاوية — مثلاً . . .

هو أيضا كان يستطيب التوهم ! . . لم يغن عنه سلطانه . العرش الذي
اقتعده لم ينسه إغيه لجهد — عمره كله — ليتلقف الراحة النفسية من خلال
تبرير عدوانه على حق الإمام ، والإلحاح بهذا التبرير على الأسماع ، أينما وجد سامعا
بين الخصوم والأعداء ، أو بين الرفاق والأتباع . . بل قد كان أقدر من صاحبه
على افعال هذا التبرير ، فذهب أبعد المذهب في اصطناع الزمر التي تؤيده فيه وفي
خلق المشاهد التي تجسمه أمام حواسه ، وتجعل من أوهامه الذاتية شخوصاً تتحرك
قبالته كما تتحرك على المسارح شخوص التمثيل . . .

ومع ذلك فكيف فشل . . كم طالما انقلبت عليه مهازله فأخذت منه ولم
تأخذ له . . .

جمع مرة زمرة ، فيها عمرو ، وفيها مروان ، وفيها المغيرة ثم أطلقهم على ابن
عباس — وهو عندئذ ضيف مجلسه — يهرون حوله ، وينبجونه أخبث نباح . .
فماذا أصاب إذ ذاك ، وأصابته له كلابه وإنه ليجعد شيطان غالب حيال حق
مغلوب ؟ . .

قال أحدهم يتوعد :

« لولا حلم أمير المؤمنين عنكم ، يا ابن عباس ، لتناولكم بأقصر أنامله
فأوردكم منها بيميداً صدره . . »
وقال ثان يزيد من لهب النار :

« أروع — يا أمير المؤمنين — بالتنكيل به غيره ، وشرد به من خلفه .. »
وقال ثالث . وقال رابع وهم ماضون في تعاور الضيف بأنياب ناهشة
شرهة والضيف يترفق صابراً في الجواب ، ويحاول وسعه اتقاء هجماتهم الباغية
عليه بالهوادة ، كما يفعل الفارس المتمرس حين يتقى بدرعه ضربات خصم منهار ،
متعففاً أن يصرعه ، متفضلاً عليه — دون الإرداء — بالازدراء . . .

ثم قال آخر من بين الزمرة الضارية ، وهو يتلمظ تلمذاً بمصرع الإمام :
« لله در ابن ملجم ! . . . فقد بلغ الأمل ، وأمن الوجل ، وأحد الشفرة . . .
وأدرك الثار ، ونفى العار . . . »

هنا هزت هذه الشماعة الفاجرة ما كان خامداً من غضب ابن عباس . فلم يملك
حلمه ، وإعنا صاح بالشامت ، وبسيده ، وبالجمع الباغى ، يلهيهم بسيياط لسانه
اللاذع الإزعيل :

« ويحك ! . . . لقد كرع ابن ملجم كأس حنقه بيده ، وعجل الله إلى النار
بروحه . أما والله لو كان أبدى لأمر المؤمنين صفحته ، لألقاه صاباً ، وسقاه سماً ،
وألقاه بالوليد وعتبة وحنظلة ! . . . كلهم كان أشد شكيمة ، وأمضى عزيمة . ففرى
بالسيف هامهم ، مسباهم بدمائهم ، وقرى الذئاب أشلاءهم ، وفرق بينهم وبين
أحبائهم . أوائك حصب جهنم لهم لها واردون ! . . . »

ثم تخلى الضيف عن بقية التفضل والهوادة ، وجاهرهم بالصراخ الصارمة
التي تهتك النقب ، وتزيل الأصباغ عن شخوص التمثيل ، عندما سمع للغيرة بن
شمعة يقول في خيلاء :

« أما والله لقد أشرت على بالنصيحة ، فبآثر رأيه ، ومضى على غلوائه ،
فكانت العاقبة عليه لاله . . . »

النصيحة ؟ . . .

وفيم إذن كانت ثورة الثوار بمصر ، والسكوفة ، والبصرة ، والمدينة نفسها
لو أبقى الإمام معاوية على عمله ، وابن أبي سرح على عمله ، وابن عامر على عمله ،
وغيرهم من عمال انعزل بهم طاغوت الحكم عن مشاعر شعوبهم ومصالحها حتى
كرههم الناس وأشعلوا في عروشهم النار ؟ . . .

وأجاب ابن عباس بفصل الخطاب :

« . . كان — والله — أمير المؤمنين أعلم بوجوه الرأي ، ومعاقد الحزم ،
وتصريف الأمور من أن يقبل مشورتك فيما نهى الله عنه ! . . قال سبحانه :
لا تجد قوما يؤمنون بالله ، واليوم الآخر ، يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا
آباءهم ، أو أبناءهم ، أو إخوانهم ، أو عشيرتهم »
وتعمل قلباً ليسكلم :

« . . ولقد وقفك على ذكر مبين ، وآية متلوة قوله تعالى : وما كنت متخذ
المضلين عضداً . . »

ثم مال ببصره إلى معاوية ، وقال وصوته يقطر سخرية :
« . . وهل كان يسوع له أن يحكم في دماء المسلمين وفيء المؤمنين من ليس
بأمنون عنده ، ولا يوثق به في نفسه ؟ . . هيهات هيهات . . هو أعلم بفرض
الله ، وسنة نبيه أن يبطن غير ما يظهر . »

وكما انقلبت عليه مهزلة هذه ، انقلبت عليه ، بمن قبلها ومن بعد ، أخرى
وأخبرات . ولعله في مرة منها جميعاً لم ينكس الرأس خزيًا كتنكيسها ذلك
اليوم أمام فرد من رعيته أعزل إلا من سلاح الإيعان . .

تلك المرة دخل عليه أبو الطفيل الكنانى ، وقد غاب ابن أبى طالب عن
دنيا الناس ، وخلف بعده دموعاً تجهد لتتوارى وراء الجفون نجاة بأصحابها من
بطش السلطان المتجبر . . ولم يكن نعمة ما يحمل معاوية — إلا صلفه — على إهاجة
شجن زائر المحزون غير رغبة — فيما يلوح — توافقة إلى التلذذ برؤية الألم على
محيا الزائر تلذذ الوحش بفزعة فريسته حين يدغدغها بالظفر والمخلب قبل أن يجهز
أو يضرب . . فباللفظ الناعم ، واللهجة الرائية ، قال ابن أبى سفيان :

« يا أبا الطفيل . . كيف وجدك على خليلك أبى الحسن ؟ . . »

« كوجد أم موسى على موسى وأشكو إلى الله التقصير . »

فتخايط معاوية :

« أ كنت فيمن حضر قتل عثمان ؟ . . »

« لا . . واسكنى كنت فيمن حضره فلم ينصره . »

عندئذ أثاره هدوء الرجل ، فصاح مغضبا .
« فما منك من ذلك وقد كانت نصرته عليك واجبة ؟ .. »
فإذا الجواب الحاسم ينطلق كالقذيفة :
« منعني ما منك إذ تربعص به ريب المنون وأنت بالشام ! .. »
هنا استخزي الطاغية ، ونكس رأسه ، ولم يجد كلمة يسوقها لعلها تخفى إغته
غير أن قال :
« أو ما ترى طلبي بدمه نصرة له ؟ .. »
لكن الرجل الحزين العنيد لم يتزعزع شعرة ، وإنما مرة أخرى عاجل
الماهل المكابر :
« بلى ، ولكنك وإياه كما قال الجعدي :
لا ألهينك بعد الموت تندبني وفي حياتي ما زودتني زادا ! .. »

٦

ثم فضجت الثمرة ! ..
على غير ما حسب كثيرون ، آثر ابن العاص العدول عن قيادة الحديث ، وعمد
إلى وضع الأعنة كلها في يد زميله . وما يضيره ؟ . لقد وضع له من نية الأشعري
أنه مؤمن أوثق إيمان بألا مناص من استخلاف « معتزل » لم يقارف الخلاف ،
ولم يشارك في الفتنة بين قطبي الصراع . وإنها لنية — فيما خبر — لا تكف عن
الغوران في ضمير الشيخ ، والاضطرام في خلدته ثم لا تنتظر لتسفر عن وجهها
أمام الملاء غير لحظة يتاح فيها للأشعري أن يفتح شفثيه ! ..
وأتجمع الناس . وبدأ الحديث هينا خفيفا ولكنه أشبه بالنسائم الرخية التي
تسبق هبوب الزواجر ونورة العواصف الهوج . وأحس ابن عباس الخطر المتخلق
على طرف الأفق فانخرط في المجلس ، إلى جوار أبي موسى ، ينشر أذنيه حتى ليكاد
يصر بهما حسيس المشاعر ، ويفتح عينيه حتى ليوشك أن يسمع بهما اختلاج
الأفكار . . ولم تكن حاله خافية على عمرو ، ففيها تربعص وتحفز إن خلى بينهما
وبين الطريق فلربما ملأه عليه بالعراقيل ، وأفسدا كل ما رسم وأعد للحظة
الفصل الدانية . . وعندئذ مال ابن الدابة إلى من حوله من أحلاف وخلان ،

وفيهم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، وعتبة بن أبي سفيان ، وبضعة من قادة الشام ، ثم همس بصوت كأنه الحسيس :

« أما ترى ابن عباس ؟ . . »

فتخالست الأعين النظر صوب ابن عم الرسول ، ونفت عتبة من بين أسنانه :

« ما به ؟ . . »

« قد فتح عيذه ، ونشر أذنيه ، ولو قدر أن يتكلم بهما فعل . . . وإن غفلة أصحابه لمجبورة بفطنته ، وهي ساعتنا الطولى ، فاكفيه . . »

قال عتبة :

« بجهدى . . »

ثم قام ، وقام معه ابن خالد ، إلى حيث جلس ابن عباس فزاحماه مجلسه ، وأقبل أحدهما عليه يحاول أن يلوى التفاته بقول غث من فارغ الحديث وسقط الكلام . .

وبرم ابن عباس بوسوسة جليسه ، ففرع له يده ، يستفيئه إلى السكوت :

« ليست ماعة حديث . »

وانتقلت المحاولة من عتبة إلى عبد الرحمن ، يجهد جهده كصاحبه أو أشد ، ليشد انتباه ابن عباس بعيدا عن مجال الحكيم في نطاق من التيه . . كلمة كلمة استطعمه جوابها فلم يجب ، وكلمة وكلمة فإذا هو يشيح . وكلمة كلمة فلا تنفتح شفتاه ، وإن عبست عيناه ، إلا عن سكوت .

وتكررت المحاولة . مرة من هنا ومرة من هناك ، وابن عباس يصارها ما وسعته مصابرة وانفسحت أناة . أحيانا باللفظة الزاهدة في الحوار ، وأحيانا أخرى بالإيماء الخرساء . حتى إذا برم بهما ، اندفع بلهجة الزاجر يكف محدثه الملحف عن الإلحاح :

« إني لفي شغل عن حديثك الآن . . »

وكانت هذه لحظة الفصل ، فاصطاع الغريم المدبر غضبة تلون لها وجهه ، وصاح بانفعال :

« يا بني هاشم ، لا تتركون بأوكم وكبركم أبدا . . »

وأردف رفيقه :

« أما والله لولا مكان النبوة منكم لكان لى ولك شأن . . . »
وكأنما أعدت ابن عباس الغضبة فتلهب غيظه لهذا العدوان الذى يستبطن
الامتهان ، فرأى ألا سبيل إلى ردعهما عما أسرفا فيه إلا أن يكيل لهما الصاع
بالصاع .

عندئذ احتدم الجدل بينهم مسعرا ، هو يرد ، وهما يتصيدان من ألفاظه
ما ينزلقان به فى حوارهم إلى مزيد من ثورته عليهما ، وعلى عيشهما المقصود .
وانبرى عتبة يتعداه :

« حسبك يا ابن عباس . . . إن ثقتك بأحلامنا أسرعت بك إلى أعراضنا .
وقد والله تقدم منا من قبل العذر ، وكثر الصبر . . . »
ثم أقذعاه . . .

وحشى هو وجاش مرجه ، فأسمعهما من الكلام ما يسوء . . . واضطرب
فكره . واشتغل باله بما غدا فيه . فلما صخب المكان بهم ، جاء قوم فحاجزوا
بينهم ، ينحونه عنهما ، وينحونهما عنه وإنه عندئذ لسحور بغيظه ، ذاهل عما يدور
بين أبي موسى وابن العاص من نقاش التحكيم . . . وإن ابن العاص لراض الرضا
كله عن مؤامراته ، يرمى بمؤخر عيذه صاحبيه ، كأنما يسأل كليهما : « ما صنعت ؟ »
حتى يجيئه الجواب ، هامسا كفضيح الأفعى ، من لدن عبد الرحمن :

« قد كفيتك التقواله . . . فأحكم أنت أمرك . . . »
وأحكم أمره .

قال بهدوء الواثق ، العارف بمواقع خطاه ، وهو يضع أعنة الحديث وفصل
خطابه فى بد الأشمرى :

« خبرنى ما رأيك ؟ . . . »

فتمهل الشيخ كأنما يستلهم حكمة الأيام رأى الراجح السليم :
« رأى أن نخلع هذين الرجلين ، ونجعل الأمر شورى بين المسلمين ، فيختار
المسلمون لأنفسهم من أحبوا . . . »
شورى ؟ . . .

يا بشرى إذن لصاحب الشام . . . فبحسبه أن ييمد على الطريق ، وأما
البقية فعلى الأيام . . .

وسارع عمرو يؤمن على قول زميله :

« الرأى والله ما رأيت » .

كانت هذه لحظة الفصل التى حلم عمرو ، ومن حضره ، ومن تخلف ذلك
اليوم عن مجلسه من أحلافه ، بأنها آتية بخير ما يشتهون : بمزل على بلسان وكيله
فى التحكيم . . كانت لحظة الدهرة الفاجعة على من شهدها ، ومن غاب عنها ،
ومن جرت فى أخلادهم قبل من شاهد وغائب من أشباع على وأتباعه الذين
كألفوا طويلا فإذا هم الآن أمام عبارة كأنها سيف القدر ، تجهز على حقهم ،
وتسلم أمتهم كلها جارية مسترقة إلى يد الحيف والباطل والبهتان . .

بهذه العبارة القصيرة اختتم عهد وبدأ عهد . ولا عبرة قط بما جرى بعدها
من صراع أريد به استخلاص الأرض المسلوقة . . فلقد غدا على ومعاوية على
سواء فى كفتى الميزان . . وأصبح صاحب الحق الشرعى فى الإمرة كالتنمرد عليه
وعلى سلطان الإسلام . وانتقلت القضية كلها فى أعين الناس ، وفى عين التاريخ ،
إلى نزاع على السلطة ، وليس نزاعا على توطيد القيم أو تحقيق المثل التى يجب
أن تسود .

وأقبل الحكمان على الناس ، وهم مجتمعون . فدفع عمرو بصاحبه أبى موسى
إلى مكان الصدارة ، ليعلن القرار :

« يا أبا موسى ، أعلمهم بأن رأينا قد اجتمع واتفق . . »

فاستجاب الشيخ :

« إن رأى ورأى عمرو بن العاص قد اتفق على أمر نرجو أن يصلح الله عز

وجل به أمر هذه الأمة . . »

فأيده عمرو :

« صدق وبر . . تقدم وتكلم . . »

وكأنما أفاق ابن عباس إذ ذاك من غشيته ، فاندفع إلى الشيخ يحاول أن
يبصره بما فوته عليه عتبة وعبد الرحمن ، وأن يجمد فى حلقه حديث كارثة
وشبكة الوقوع :

« ويحك . . . والله إني لأظنه قد خدعك . إن كنتما قد اتفقتما على أمر ، فقدمه فليتكلم بذلك الأمر قبلك ثم تسكلم أنت بعده ، فإن عمرا رجلا غادر ، ولا آمن أن يكون قد أعطاك الرضا فيما بينك وبينه فإذا قتت في الناس خالفك . . »

لكن الشيخ نقض النصح والتحذير ، وزجره في ملالة :

« إياها عنك . . . إنا قد اتفقتنا » .

ثم تقدم يواجه الجمهور :

« أيها الناس . . إنا قد نظرنا في أمر هذه الأمة فلم نر شيئا هو أصلح لأمرها ، وألم لشعنها من ألا تتباين أمورها . وقد أجمع رأي ورأي عمرو على أن نخلع عليا ومعاوية ، وأن نستقبل هذا الأمر فيكون شورى بين المسلمين ، فيولون أمرهم من أحبوا . . . »

وأتبع بلهجة تأكيد :

« . . وإني قد خلعت عليا ومعاوية ، فاستقبلوا أمركم ، وولوا عليكم من رأيتموه بهذا الأمر أهلا . »

وتنحى عن مقامه ، فقام عمرو مكانه ، يعلن بصوت جهير :

« إن هذا قد قال ما سمعتم ، وخلع صاحبه . وأنا أخلع صاحبه كما خلعه ، وأثبت صاحبي معاوية ، لأنه ولي عثمان ، والطالب بدمه ، وأحق الناس بمقامه . »
فبهت الناس :

لبرهة ساد بينهم صمت أومك أن تدوى خلاله خفقات القلوب الواجفة في الفضاء كأنها ضربات عصي على أديم مشدود . . لبرهة دارت عيونهم جبرى في محاجرها ، وبين صحائف الوجوه ، في وجوم وذهول . . لبرهة التصقت الألسنة بالآفواه المنفورة . وخرست الأنفاس . لكن مرارة الهزيمة التي ولدتها الحيانة ، وحلاوة النصر الذي أنجبه الغدر ، ما لبثا أن اختلطا واضطربا معا في صياح عارم كأنه الهزيم . . .

وماجت الجموع . .

وانبث أبو موسى ، وهو مقهور ، يعنف قرين التحكيم الغادر ، ويهتف به

في إنكار :

« مالك ، لا وفقك الله ، غدرت وفجرت ؟ . . . إنما مثلك (كمثل الكلب ، إن تحمل عليه يلهث ، أو تتركه يلهث) . . . »
فاحترق لون ابن العاص . . . يا ويل الشيخ . . . أويرميه — تعريضا —
لأنه قهره ، بالكفر والمروق ، كنص الآية التي اجتزأ منها بهذه العبارة :
« وادل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها ، فأتبعه الشيطان ، فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها ، ولكننا أخلد إلى الأرض ، واتبع هواه ، فمثل كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ، ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ، فاقصص القصص لعلهم يتفكرون . ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا ، وأنفسهم كانوا يظلمون . »

وردها على الأشعري كيلا وافيا :

« وإنما مثلك كمثل الحمار يحمل أسفارا . . . »

ثم تركه يستعيد نص الآية ليستشعر مثله مرارة التعريض .

« مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا ، بثس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله ، والله لا يهدي القوم الظالمين . »
وكذلك تراشقا بالقرآن على ملأ ، والناس بينهما في ذهول . وإذا كانت
ثمة فكرة تسربت عندئذ لبال منتبه — قد ثاب لوعى — من خلال ضباب
المفاجأة . فإنها الفكرة التي تسنيقن مروق الرجلين جميعا وانحرافهما عن صراط
التنزيل . فلقد جاء ليقضيا بالقرآن ، ويحكمها في نبراسه ، فحاد بهما الهوى
— كليهما — عن محكم آياته ، وغلب عليهما الغرض الشخصي ، أو الرأي
الذاتى ، إن لم نقل آثارا الانواء و « السياسة » على استقامة الإيعان . . .

V

لا هو خب ، ولا هو ختل ، ولا هو خداع ذلك الذى تفتقت عنه نفس
ابن العاص في قضية التحكيم ، بل الغدر والفجر والكفر كان . . . ولمن شاء أن
يسند فعلته إلى « مناورات » السياسة ، وما يستباح في شرعتها من ركوب الخصم
بالحيلة — دحراله وتفوقا عليه — أن يعلم ، أولا ، أن السياسة ، في معناها
المستقيم ، مصالوة بالذكاء والخبرة واقتناص السوانح ، وليست تحيفا على مثل

الأخلاق أو هدماً للشرائع والقوانين . . وأن يعلم ، ثانياً ، أن ركيزة المساجلة بين الحكمين كانت حكم الله لا اجتهد الناس وتفرقهم مع الآراء الشخصية والأهواء الذاتية أيما افتراق . . وأن يعلم ثالثاً أن الطريق فيها إلى الحكم المتوقع السليم قد خطه نص قرآني ما ينبغي أن يحيد عنه أحد الطريق إلا أن يشاء مناقضة حكم التنزيل واقتحام محرم من المحارم يفضي به إلى الضلال . . .

في صلب الصحيفة ، بيانا لمبادئ التحكيم في علم جمهور المتقاتلين الذين فاءوا إلى هذه المبادئ خلاصاً من محنة الحرب والخلاف :

« رضينا أن نزل عند حكم القرآن فيما حكم ، وأن نقف عند أمره فيما أمر . . وأنا جعلنا كتاب الله فيما بيننا حكماً فيما اختلفنا فيه ، من فاتحته إلى خاتمته . . . » وفيها كذلك ، بيانا لما أُلزم الناس به الحكمين المتفاوضين من عهد ، وربطوهما به من ميثاق :

« . . أخذوا عليهما عهد الله وميثاقه ، وأعظم ما أخذ الله على أحد من خلقه ، ليتخذان الكتاب إماماً فيما بعثاله لا يعدوانه إلى غره في الحكم بما وجداه فيه مسطوراً . ومالم يجداه مسمى في الكتاب رداً إلى سنة رسول الله الجامعة ، لا يتعمدان لها خلافاً ، ولا يتبعان في ذلك لهما هوى ، ولا يدخلان في شبهة . . » فالقضية إذن واضحة ، هي : الخلاف الناشب بين طائفة من الناس شقت — عامدة أو مخدوعة — وحدة الأمة الإسلامية ، وبين بقية ناضلت لدفع غائلة الانقسام . أو هي ، في واقعها ، بين متمرد على سلطان الدولة وبين القائم الشرعي على حماية هذا السلطان . . والوسيلة إلى الحكم في النزاع أيضاً واضحة ، هي : كتاب الله وسنة الرسول بلا ترخص فيهما ، ولا عدول عنهما إلى سواهما من الوسائل والأسباب . .

ومع ذلك فقد انحرف الحكماء . أطفأ النبراس . قضيا بغير القانون . فإذا كان انحرفهما هذا ، عن محكم الكتاب ، ليس كفرآ وغدرآ فأى شيء إذن يكون ؟ . .

أهو رأي ارتأياه ؟ . . لا حاجة بنا إلى دحض ما قد يقال في هذا إن أعذر عنهما معذور بأنهما اجتهدا الرأي للقضاء — بخلاف على — على ما شجر في الأمة من تنازع بحكمهما الاجتهادي المردود . . فما جسا به النزاع ، ولاهدأ ثأثرته

ولا ردا على البلاد وحدثها ، وإعنا زادا من حدة الانقسام ، وتماونا معا على النفخ في النار . .

أجل ، صبا الزيت على النار . . ودفعنا ألسنتها مشبوبة الأوار لتحرق كل بواذر السلام . . . وإنهما ، من اللحظة الأولى ، ليريان ثمار غرسهما الخبيث ، تفرع وتطول ، ولما يغيبا بعد عن مسرح التحكيم . .

من اللحظة الأولى حمى الصراع بين طائفتي المحتكمين . أولئك الذين سخطوا الحكم جأروا بسخطهم حتى تسرب إلى أسنة أسياف تسكاد تتبرقش بالدم ثأرا من الذين أبرموه . وأولئك الذين فرحوا به اضطربت منهم الأنفس جزعا فتقبضت أوكفهم على السلاح . الساخطون من الفريقين كالحذر . جميعاً أمتلأوا بخشية المغيبة المرتقبة . ما من امرئ منهم شام فيه الخلاص ، ولا السلم الموقوتة ، ولا الطمأنينة . إغما ، وهم لا يزالون في ميدان الخدعة ، تصايحوا ، وتشادوا ، وتنابدوا بالألقاب حتى لم يعد في مجال الصراع النفسى فسحة لغير فتنة جديدة . وإذا كان ثمة شيء قد ردهم عن مهاوى القتال وأقدامهم إذ ذاك تستبق الانزلاق فإنه لا ريب ذهول البغته الذى صدمهم به الحكم الناجم على حين غرة كأنه حمة بركان دأبه الخمود . ومع هذا كله فقد كان حريا أن يستقبل أبو موسى مصرعه فى تلك الآونة لولا أن فر بعمره ، على ظهر دابة عجول ، عبر الصحراء ، نحو مكة ، بدار أمان . وأوشك عمرو أن ينال الجزاء المعجل لفجره على ظبة سيف كان أولى بأن تسك يد شريح . لكن شريحا — وقد أعجلته المفاجأة — ركب بهما هو أدنى إلى عيئه بسوط معه ، قعه به ، وفاته — لذهوله — أن يتحدث بمقال الحسام وإنه ، عندئذ ، لأبلغ مقال فى أنسب مقام . .

حق الدين لا إلى أولئك ولا إلى هؤلاء ، فى حيدة عن النزاع ، أثارهم غدر ابن العاص ، وأهاج فيهم المشاعر كما أخرج الضمائر . ولم يكن ابن عمر إلا مثلامن لم تطاوعهم نفوسهم على شهود مأساة الحكم دون أن يدلى بما يعبر عن استنكاره ، فعمل — وهو المحايد الهادئ المستكين — على عمرو يسم أن ينال منه . . وإذن فقد ماج الناس . واختلطوا اختلاطا شديداً يتناجزون بالقول والإشارة فى أخفى هيئة ، وبأقذع عبارة . . وغدا الزمن ، عندئذ ومن بعد ، مسرحاً

تصطرع عليه العواطف التي كانت حبيسة إلى حين . . .
الطائفتان تتجادلان وتتنابذان . ولكم حملت إلينا الأخبار في هذه الحقبة «
من شأنهم أكثر الكثير . . . فهذا امرؤ — مثلاً — من أنصار معاوية ، يتغنى
بأميره ، والنصر ، فيقول في اعتزاز :

« نعت بابن هند في قریش مضاربه
سعى بابن عفان ليدرك ثأره
وقد غشيتنا في الزير غضاضة
فرد ابن هند ملكه في نصابه
وما لابن هند في لؤى بن غالب
فهذا ملك الشام واف سنامه
وهذا آخر من رجال الإمام
« غدرتم وكان القدر منكم سجية
وسميتم شر البرية مؤمنا
نعت بابن هند في قریش مضاربه
وأولى عباد الله بالثأر طالبه
وطلحة إذ قامت عليه نواديه
ومن غالب الأقدار فالله غالبه
نظير وإن جاشت عليه أقاربه
وهذا ملك القوم قد جب غاربه ١ »
ينسبى للرد عليه :
فما ضرنا غدر اللثيم وصاحبه
كذبتهم فشر الناس للناس كاذبه »

وعنة ثالث ورابع وخامس ، ومثون عديدة من أوائك وهؤلاء جروا في
هذه الأنحاء . . حتى الراسي ، عبدالله بن وهب ، ذلك الخارجى صاحب حروراء ،
لم يخل خلقه من غصة ، ولا قلبه من ندم ، حين تبين الحكم فوجده ثمة من ثمار
مشاقته ورجال فرقته أمير المؤمنين وخلافهم عليه . أفما أكرهوه ذيل صفين
على التحكيم والنصر آنشد تكاد تحفق أعلامه وتلتمع نجومه في حلبة القتال ؟ . .
أما لووا رغبته عنوة ، تهديداً بالسيف ، ليرضى لطائفته أبا موسى حكماً وقد كان
قليل الثقة فيه ، عارفاً بضعفه عن الصمود لابن العاص ، وبافتقاره للقدرة على
الطفو إلى مستوى الحدث الكبير حدث التحكيم ؟ . . لقد عانى الراسي جريرة
رأيه ، وطعم منها حسرة دفعته — في لحظة من لحظات استفاقة الضمير — إلى
الجهر بذنبه وذنب أصحابه ، فقال :

« ندمنا على ما كان منا ومن يرد
خرجنا على أمر فلم يك بيننا
خفاء على بالى ليس بعدها
رمانا يمر الحق إذ قال جثتم
سوى الحق لا يدرك هواه ويندم
وبين على غير غاب مقوم
مقال لدى حلم ولا متحلم
إلى بشيخ للأشاعر قشع

فقلتم رضينا بابن قيس وما انا رضا غير شيخ ناصح الجيب مسلم
وقال : ابن عباس يكون مكانه فقالوا له : لا لا ألا بالتهجم
فما ذنبه فيه ، وأتم دعوتهم إليه عليا بالهوى والتعحم ؟
وأيا عبارة من أمثال هذه العبارات ، وكيفما انتقلت بها إلينا الأخبار عبر
العصور ، فقد ثبت أن ميدان الوقعة اضطرب بالملاحاة أشد اضطراب وأعنفه .
بل قد ربا هذا الاضطراب إلى ذروة الغليان حتى أوشك أن ينقلب إلى انفجار
تتلون بالدماء أطرافه وحواشيه . فابن عباس يهدد ويشور ثم ينقض ، في غضبته
الغامرة ، على أبي موسى يسبه ويلعنه حتى لا يبدو كأنه يهم أن يبطش به . والشيخ ،
في لحظة خزيه ، يهتز ويتلعثم ، ولا يجد لنفسه عذرا إلا أن يهمهم بذلة المفهور :
« غرر بي . . إنما كان غدرا من عمرو . . »

وشريح بن هانيء ، الذي دافع بدء التحكيم عن الأشعري ، تملكه الحسرة
على خيبة ظنه في صاحبه ، فتمتلىء نفسه — مع الحية — بثورة عارمة يحرقه
تيارها إلى موضع الحكيم اللذين خانا الأمانة وخذلا الله . لكنه — فيما بدا —
يلقى ابن العاص منفوخ الصدر مصعر الحدين من خيلاء ، فلا يعمله أن يستمتع
بخيلائه ويقنعه بسوط في عينه إذ هو أعق الخائنين وأحقهما بالحساب العسير . .
ويلجح ابن عمرو هذه النزوة فيخف إلى نجدة أبيه ، ثم توشك حلقة الشجار أن
تتسع لولا أن يكفها بعض الناس . .

فإذا سكنت الحدة هونا ، انكفأ سعيد بن قيس الحمداني ، إلى الحكيم
يجبههما برأيه فيما أتيا به — بعد تلك الليالي الطويلة من المفاوضة والحوار —
وإنه للرأى الذي يكنه آنذاك الجمهور الصاخب ، المنسكر لما نضحت عنه مهزلة
التحكيم . . يقول الرجل لهما في طمأنينة راسخة مبطنة بالازدراء :

« والله لو اجتمعنا على الهدى ما زدنا على ما نحن عليه . وما ضللكما
بلازمنا . وما رجعتما إلا بما بدأتما . وإنا اليوم لعلى ما كنا عليه أمس » .

وأنصف فيما قال . فالحكم الذي قضياه لم يأت بجديد . إنما قد جهد الزمن ثم
لوى عنقه كما تلوى عنق الناقة لتحملها على العودة إلى الوراء ، كرة ثانية ، إلى
أول الطريق . . . إنهما ارتدا القهقري . رجما بالفتنة إلى حيث كانت قبل
التحكيم . .

وتشائم عمرو وأبو موسى . . .

وصاح كردوس بن هانيء مغضبا هادر النبرة والأحاسيس :

« ألا ليت من يرضى من الناس كلهم بعمرو وعبد الله في لجة البحر !
رضينا بحكم الله لا حكم غيره وبالله ربا والنبي وبالذكر
وبالأصلح الهادي على إمامنا رضينا بذلك الشيخ في العسر واليسر
رضينا به حيا وميتا وإنه إمام هدى في الحكم والنهي والأمر
فمن قال : لا ، قلنا : بلى إن أمره لأفضل ما نمطاه في ليلة القدر
وما لابن هند بيعة في رقابنا وما بيننا غير الثقافة السمر . »

وكذلك انطلق الأمر ، ومضى الوقت ثقيلًا بطيئًا ، والجو آنذاك ملئ
بصراع جدلي ، مشحون بشرارات الالتحام ، فالفريقان يتناولان الحكم من
حيث يحب كل منهما أن يراه . بالحجة الساندة المؤيدة ، أو بالحجة القاصمة
الهادمة . والنقاش بينهما يمتد حق لينذر بقتال ... وعندئذ يقف يزيد بن أسد
القسري ، القائد الأموي ، وقد خشي المغبة ، يخاطب مناوئي فريقه ، بلغظ رطيب ،
كأما ليستفيئهم إلى الرضا بما كان :

« يا أهل العراق ، اتقوا الله ، فإن أهون ما تردنا وإياكم إليه الحرب ما كنا
عليه بالأمس وهو الفناء . وقد شخّصت الأبصار إلى الصلح ، وأشرفت الأنفس
على الفناء ، وأصبح كل امرئ يبكي على قتيل . ما لكم رضيتم بأول أمر صاحبكم
وكرهتم آخره ؟ . . إنه ليس لكم وحدكم الرضا . . »

وصدق الرجل إذا قيس كلامه بمنطق الأحداث وإن لم يصدق بتقياس شريعة
الحق والضمير . . فالعراق ارتضى التحكيم ، وارتضى مبعوثه إليه . لكن الحكم
قد جاء على خلاف الصحيفة فأهدر المبدأ المرتضى الذي لا سبيل إلى إهداره
أو تنقح صحة الحكم ولا تصبح له ولاية على الناس . .

وكذلك انقض القوم وفي القلوب سخط أو حذر ، وأمام البصائر والأبصار
سحائب خطر تنذر بانبعاث الفتنة كرة أخرى كالألغام عند وقف القتال . ومع
ذلك فلم يسكن اللفظ ، ولم تقر الألسنة خلف الشفاه . إنما استعرت حرب لفظية ،
هنا وهناك بين الفريقين لم يغب عن الانخراط فيها امرؤ له لسان ورأى من هذا

الصف أو من ذاك . . . واحد فقط بين الجمعين بلغ لسانه وزم فيه خشية أن تشي
به ألفاظه وتقصص عما يخفيه . ذلك هو الأشعث بن قيس الذي أرادها منذ البدء
سلما مخزية وإن اشتراها بالقيم القوية ، وبإمامه وبنخوة الرجال ! . . .
وانطلق أصحاب علي ، من ميدان الخدعة ، صوب الكوفة ، في ركب الحنية ،
وإنهم ليجترون الندم واللوعة ، وعلى رأسهم شريح بن هانيء يكاد يشرق بحسرتة
وهو يشد يمينه على سيفه ويقول :
« ما ندمت على شيء ندامق على ضرب عمرو بالسوط . ألا أكون ضربه
بالسيف ، آتيا به الدهر ما آتى ! . . . »

في رحاب الكوفة استشعر أصحاب على الراحة . .

كانت راحة على تفاوت ، تصنف بمستوياتها أولسكم الرجال ، وتفرقهم فرقا لا يكادون يلتفون إلا في الصعبة ، ثم إذا هم جميعا أمامها طوائف شتى يفترقون في طوابع النفس ومثيراتها كما يفترقون من بعد في الاتجاه والسلوك . .

فالأولى خلصوا له — لوجه ربهم — وجردوا نفوسهم من هواها دخلوا البلدة خفاف المؤونة ، قد انزاح عن قلوبهم ثقل العهد الذي التزموه — حتف أنوفهم — عندما فرض عليهم التحكيم . فعلى كره كانوا قد ارتضوه . وعلى مضض صبروا الليالي الطويلة ينتظرون عقابه . وعلى أسف وموجدة سمعوا الحكم . ولكنهم الآن وقد جبهتهم المكيدة ارتدوا مرة أخرى أشد ما يكونون تملقا بإمامهم ، وثقة فيه ، وإيماننا بالنظرة الصائبة التي رمى بها عبر المستقبل إلى هذا الكيد الذي حذرهم إياه يوم استجابت كثرة أنصاره إلى خدعة المصاحف وحملته على قبول دعوة الأمويين .

والأولى لم تخل قلوبهم من دخل ، فصاحبوه على حرف ، وأحيوا بسيرتهم حiale — في سرهم أو علنهم — سنة النفاق كعهد طغمة مثلهم في فترة الرسالة الإلهية وحياة الرسول ، امتشروا الراحة في تحقيق رغبتهم ، وانتهاء التحكيم بما أكنت ضمائرهم الغاشة ، وما اشتت نفوسهم الموروبة . فما كانت ميولهم وصبراتهم — التي كتمتها الشغاف دائما ووشت بها الألسن أحيانا على حين غرة منهم — إلا سلما ترد عنهم نهكة الحرب وغوائلها ، وترد عليهم الأمن ، وإن كانت سلما مخزية ، وأمنا في حساب الأجسام الصماء والضمائر المسترخية لا في حساب شرعة المروءة الأبية والأفهام المستضيئة الواعية . .

والجهرة ، بعد أولئك وهؤلاء ، من الناس ، طعموا أيضا الراحة . ولكنهم طعموها كما يلع المرء — وهو غافل — قطعة حنظل خالطت طعامه ، فلا يفيد أنه يلفظ بقايا مالاك وقد تسرب المر إلى جوفه ، وبطن بمذاقه الكريه فمه ولسانه إلى البلعوم وما وراء البلعوم . . إنها إذن راحة اليأس والاستسلام .

ولم تخل النفوس ، مع هذا ، من ألم ، ولا الوجوه من وجوم إذا ما تصفحت الصفوف العديدة التي تجمعت هنا وهناك من ميدان الحكم ، ومن أرجاء البلدة ومشارفها ، وراحت تحت المطى والأقدام إلى مستقر الإمام كلهم واجم وكلهم حزين . حتى أولئك المدخولون من زمرة النفاق ، طلوا وجوههم بالأسى ، ولونوا شفاهم بالاكتئاب رياء الناس .

على الوجوم عاشت الكوفة ، وعلى البشر — فيما تراءى لأهلها — كانت دمشق ، ومالاذ بها من مدائن ، ذلك اليوم العصيب المشهور ، حرية بأن تعيش . . . فلقد ترامت الأخبار حينذاك في جنبات القصبة العراقية ، على ألسن العائدين ، بما انطلقت به الرسل من أهازيج النصر المشبوه إلى صاحب الشام . . . كثيرون من أنصار معاوية تلقوا الخدعة المضالة — وما كان الحكم إلا ضلالة — بالهتاف والتهليل . . . وكثيرون أفصحوا عن خلجاتهم بالشير والنظيم . . . وكثيرون خفوا إلى مطاياهم يرمون بها قبلة أغراضهم ومنتجع مطاعمهم حيث يقبع معاوية ، يرومون عنده دنياهم . . . حتى ابن العاص لم يصبر نفسه إلى حين اللقاء المنتظر وتعجل الزمن في كتاب مع رسول طوى الصحراء فور الخدعة ، ليذف بشراه إلى مولاه . . .

قل إنه كتب إليه :

« أتتلك الخلافة مزفوفة هنيئا مربثا تقر الميونا
تزف إليك زفاف العروس بأهون من طمنك الدارعينا
نخذها ابن هند على بعدها فقد دافع الله ما تحذرونا
وقد صرف الله عن شامكم عدوا مبينا وحربا زبوننا »

واقعد افترى عمرو — لا شك — على منطق الحقيقة في كتابه وحمل خدعته مالا تطبيق . فما أبرمت لصاحبه بحكمه بيعة ، ولا دانت له خلافة إلا أن يقال إن ابن العاص قد ارتضاء المسلمون عامة ، في كل جوانب الدولة ، ليقضى لهم برغبتهم ، فملك عنهم حق تحرير المصير .

ومع ذلك فلا ينكرن أحد أن معاوية بعد الحكم لم يظل في نظر كثيرين نفس معاوية قبله : مجرد عامل متمرد على السلطان الشرعى قد اجتمعت قوى الدولة — خارج إمارته — لرده إلى سواء السبيل . كلا . بل تغيرت الحال واختلفت

الظروف . وفي حساب الأرباح والخسائر نستطيع أن نضعه في الجانب الأول ثم نضع السلطة الشرعية في الجانب الثاني ونحن بهذا لا نجانب الصواب . . . لا شك ولا مرأ . فالرجل بالحكم المأفوك — ومنذ خدعة المصاحف كذلك — قد سمن واستطار . . . كفته النكسة ، التي أصابت جيش على عندئذ بوقف القتال ، شرهزة كان يمكن أن تحيق به وبفلول أجناده المنسحقين بين رحي القوات العلوية في صفين ساعة الهجوم الأخير . . . وكفته مرارة الاستسلام وذل التسليم . . . وكفته عاقبة الخارجين المتمردين . ثم هي قد ردت إلى شامه موفور السلامة ، يسعه بمنجاة عن الصراع أن يلحق جراحه ويستعيد طمأنينة عارضه يستروح منها شيئا من ثقة بنفسه ، وبرجاله ، وبأمله الطويل المريض الذي أوشك أن ينسكب جميعا في حلبة القتال .

فإذا نحن رقبنا وضعه بالنظرة الشعبية العامة ، التي لا تستبطن الأمور ، ولا تغوص منها إلى الأغوار ، فهو حيالها وعلى بمنزلة سواء ، كفئذ في كفتي ميزان . . . كلاهما خصيم وخصيم . وكلاهما يلوذ بالتحكيم . وفي ظل هذا الاستواء خلق بالإدراك السطحي الذي يفرزه جمهور الناس أن ينسى البون الشاسع بين وضعه ووضع الإمام في القضية ، وما وراء هذا وذاك من اختلاف الأهداف ، وتفاوت الأقدار ، وتباين الآراء . . .

وإذن فقد كان حريا أن تهتز — قليلا أو كثيرا — « معنويات » أهل العراق لتماسك — بنفس المقدار — « معنويات » أهل الشام . وأن تصبح الشحنة النفسية التي تظاهر هدف معاوية أنشط وأقوى من غريبتها التي تظاهر هدف الإمام . وأن يغدو العزم ، في الأرض الأموية ، أقوى وأصلب منه قبل التحكيم ، بينا مثيله ، فيما عداها — من أرض الدولة — قد تراخى وأخذ في الانهيار . . . « الروح المعنوية » إذن في صفوف أهل الشام راحت ترتفع وتهتز ، والروح المعنوية في صفوف أهل العراق راحت تخبر وتهبط . ولقد رأى بعض الناس — وبحق رأوا — في الحكم خيانة لأمانة العهد ونقضا سافرا لليثاق ، ولكنك مع هذا ما كنت قادرا على أن تمنع أنهم كثيرين — من معتزلة النزاع ، ومن الذين تنامت بهم الأبعاد ، ومن ذوى الإدراك السطحي في الجبهة العراقية أيضا — من

الوقوع فريسة اضطراب فسكرى يوشك أن ينحاز بهم عن قضية الإمام . وما كانوا يعلمين إذ وقعوا وهذا مبعوث على نفسه ، الذى عاهده على الانتصاف ، يقرر خلع سبيل لا معدى عنه إلى لم شعث الأمة وقضاء على عوامل الخلاف . .

إلى هذا كله نستطيع أن نقول إن إطار الصورة الماثلة كان يضم — فى الجانب الأسمى من اللوحة — خطوطاً من أضواء عدة أضفت على وضع معاوية كثيراً من البريق . فالعاهل الشامى قد أملى له زمنه فى فسحة من الوقت ، منذ وقف القتال إلى ساعة الحكم ، استطاع فيها إعادة تنظيم جيشه ، وتكثيب كتائبه وألويته ، والاستزادة من الأنصار . ولم يكن عسيراً عليه عندئذ أن يجتذب المخدوعين أو يشتري بديناه كل طامع إلى منصب ، راغب فى جاه ، متطلع إلى ثراء . . فإذا نقلنا النظرة إلى الجانب العلوى بداخل الإطار ، طالعنا أطياف ظلال قد أخذت تكثف وتتراكم لتطمس بعض ملامح هذا الجزء وتنتشر فوقه سواد الضياع . فالخلاف قد نشب فى صفوفه ثم حمى وشاع . والناس غدوا فى جدل « سفسطائى » عابث — لنصرة هذا رأى أو نصرة ذاك — نسوا معه جوهر القضية ، وهدفها ، وتشيعوا شيعاً مع الفروع . . فرفع المصاحف حيلة غادرة أو احتكام مشروع . والتحكيم خطأ أو صواب . والحكم نفسه باطل مردود لذاته أو مرفوض لأنه استند إلى غير أساس شرعته الضعيفة طريقاً إلى القضاء السليم . والقتال بعده مفروض لازم أو هو مشروط برجوع من ارتضوا التحكيم عن نظرهم الأولى إليه وإقرارهم على أنفسهم — وفيهم على — بالكفر إذ قبلوه ، ثم نزوعهم إلى التوبة لنحقق لهم استجابة الأمة لمعاودة الحرب المقدسة وهم أطهار خلصاء أو يفرض قتالهم — إن لم ينزعوا — على كل مؤمن لأنهم مارقون كفار .

عديد من هذه المناقشات ملأ الأفهام والأفواه . وعديد وراءه من شراذم الأنصار أنبته الجدل والحوار . ومع ما نشأ من اضطراب الأفكار ، وكثرة الشيع الفكرية المتناجزة من خطر يهدد القضية ، فإن الخطر الأكبر عليها — ثم على الأمة الإسلامية ووحدها إلى حقبة طويلة — كان يجثم فى فرقة الخوارج التى نجم قرنهما ولما يبرح الجيشان ميدان صفيين . فإذا نحن مسحنا ، ولو بالنظرة الخاطفة ، مواقع أقدام رجال الإمام ، لوقعنا فى كل ناحية منها ، على عراقيل وعقبات يوشك

معها أكثر القوم إشار استسلام يغلفونه بالسلام . . . ففي كل بيت دمعة على قتيل .
وفي أغلب الأنفس استطابة لمذاق الدعة بعد نهكة الحرب ومرارة القتال . وفي
الأكثر الأعم من الجهرة ، وبعض القادة ، ميل إلى الدنيا ، التي حبس عنهم على
زخارفها بقيمه الخلقية ومثله الرفيعة ، وخلي معاوية عنها نهبا مستباحا لمن اتبعوه
أو هادنوه . .

ونشفق أن نسيح في تيه بلا انتهاء لو حرصنا على تقصى كل أوائك الذين
حباؤا إلى معاوية — في هذه الفترة وما تلاها — من رجال الإمام . فما كان
أكثر المرتدين أو الذين شغفهم إغراء عروض الحياة فتحنوا الفرصة للارتداد .
وما كان أفوى سلطان الدنيا وزخرفها على أولئك وهؤلاء . وإذا كان ثمة فريق
من همل الناس دفعهم الغفلة إلى الصبوء ، فليس يعتذر بالغفلة لمن انشقوا عليه
من خلصائه وأصحابه الأذنين وأساطين دولته الذين اجتباهم لمعاونته في سياسة
الحكم وضبط الأمور . إنا يفسر سلوكهم إذن بأهم مغامرون ، أو عبيد منفعة ،
يشمون الريح ثم يتجهون إلى حيث جيفة المتاع . . .

من أمثال أوائك الحائنين يزيد بن حجة التيمي : كان عاملا لعل على الري
ودسبقي ، وشهد معه الجمل وصفين والنهروان . ولئن كان صبوؤه قد جاء بعد
فترة من الحكم ولم يحى نتيجة مباشرة له فيما يلوح ، فإنه مع ذلك مثل من الحفنة
الضالة التي كانت تراودها أطماع الذات عن ولائها ، وتحنين السوانح للخروج على
هذا الولاء . إنه أحد الذين شغفهم الإغراء . واحد من شرذمة تتعثر فيها أقدام
عابري التاريخ — طوال عهد الإمام من بدء سلطانه إلى ساعة أفول شمس هذا
السلطان — قد استبدت بأفرادها الأشقياء نزغات الأنفس المريضة ، الكافرة
في كل مكان وآن بقم الأخلاق ، المؤمنة دائما بالأثرة ، المنهومة أبدا إلى مزيد
وإن كان من حرام . . .

فكذلك كان يزيد لم يغن عنه جاهه ، ولم يغن عنه منصبه ، فامتدت يده
الجمعة إلى مال المسلمين في عمالته ، يقتنص منه ما شاء ، ثم ينطلق بالغنيمة إلى
رحاب معاوية لائذا لديه ، كأشباهه ، بلاذ يوصمه من عاقبة شرهه ، ناعما عنده
بما ينعم به كل غر مفتون لا تسكفه النعمى سوى الغلو في مدح عاهل الشام

والإغراق في هجو الإمام . . . ولقد دفع الهارب الطريد الثمن ، فمدح وقبح ، ثم مدح وقبح ، ثم مدح وقبح ، فلما عاتبه ابن عم له بشعر كتبه إليه ، منكرأ فعله مقبها رده ، لم يجد لنفسه حجة تستطيع مواجهة إنكار صاحبه ، وآثر أن يسند صبره إلى الأحداث التي جرت في الجانب العراقي ، كأنما لم يشارك هو فيها ، ولا كان أحد صانعها بالقول والسلوك والسلاح . . .

قال يجيب :

« لو كنت أقول شعرا لأجبتك . ولكن قد كان منكم خلال ثلاث لا ترون مهن شيئا مما تحبون : أما الأولى فإنكم سرتهم إلى أهل الشام ، حتى إذا دخلتم بلادهم ، وطعنتموهم بالرماح . وأذقتموهم ألم الجراح ، رفعوا المصاحف فسخرُوا منكم ، وردوكم عنهم ، فوالله ووالله لا دخلتموها بمثل تلك الشوك والشدّة أبدا . والثانية أن القوم بعثوا حكما ، وبعثتم حكما ، فأما حكمهم فأثبتتم ، وأما حكمهم فخلعتم ، ورجع صاحبهم يدعى أمير المؤمنين ، ورجعتم متضاغنين . . . والثالثة أن قراءكم وفقهاءكم وفرسانكم خالفوكم فعدوتم عليهم فقتلتموهم . . .

« أحببت أهل الشام من بين الملا وبكيت من أسف على عثمان أرضا مقدسة وقوما منهم أهل اليقين وتابعو الفرقان »
فأين إذن كان أسفه ، من قبل ، إذ رفع سيفه ينصر عليا في المعارك الثلاث . . .
وبأية حجة حارب بصفين أولئك الذين ساهم أهل اليقين والفرقان ؟ . . . وفيهم إزراؤه على الإمام وأصحابه « العدوان » على الخوارج وقد كان هو من رموس أولئك « العادين » في النهروان ؟ . . .

على أي حال يطول بنا المدى كل مطال لو أخذنا أنفسنا باستقصاء كل الظلال الداكنة في الجانب العلوي من الصورة . فالسواد لا ينحسر ، وبقعه لا تسكن ، بل تسرح فتتسع كما تسرح قطرة الزيت في النسيج . وإذا كان نعمة جمال يغنى عن الإفاضة ، فإن صفوف الإمام بعد الحكم راحت تغورها عوامل للتفكك والانحلال يقر بها لسان الحال ولا ينكرها لسان المقال . فيها تفرق الرأي ، وفيها ثبوت الهمة ، وفيها تلويح الدنيا لأخذانها بسطوة الجاه وزبرج المال ، ثم فيها قبل هذا وبعد كاه ميلاد قوة جديدة ، غالية في اللدد والحصام ، في نفس هذه الصفوف ، تتربص بها الدوائر ، وتنتظر فرصة موالية لانتفاض على إخوة السلاح والكفاح . . .

٢

عقد على مؤثرا ، من رجاله . .

كانت اللحظة حازبة . الحكم المفترى قد ملأ الأسماع . العجب في العيون .
السخط في الصدور . . . في شطحات الخيال الجامحة قصرت الأذهان قبل وروده
عن التنبؤ به ، وعجزت الأفهام — حيال مقدماته — عن توقعه — قليلون عند
اختيار الحكيم كانوا في شك من قدرة أبي موسى على مصاولة عمرو ، ولكنهم
كانوا في حمى من عجزه بما نصت عليه الصحيفة . أقصى ما بلغته خشيتهم إذ ذاك
أن ينضح الأشعري بما فيه ، فيقبلهم بيعتهم ، ويردها شوري يختارون بها امراً
لم ينغمس في الخلاف . أى أن ينساق لغفلته ، ويصبح مطية ذلولاً لخدعة ابن
العاص ، فهذا ما لم يحل لهم مطلقاً في بال . .

ووقفوا على ترقب . ماذا عسى أن يفعل الإمام ؟ . . ما رأيته في الخدعة ؟
ما موقب قادتهم ؟ . . ما هو المصير الذي يوشك أن يرسمه هذا الحدث الخطير
وإلى أى مدى يمكن أن تعاون على رسمه طوائف الأمة هنا ، وهناك ، في الكوفة
وفي غيرها من الأمصار ؟ .. أحرب مجلية ، أم سلم مخزية ، أم هدنة مسلحة تجمد
الوضع إلى حين بين الحرب والسلام ؟ . .

وتوقعوا أن يطلع عليهم على بيان للناس ، يشخص الداء ، ويحدد العلاج .
ولكنه لم يفعل . لم يحب أن يصدر في فعله عن غير مشورة . فرأى الجماعة أولى
بأن يتبع . وألسنة الخلق أقلام الحق ، كما قال

وجمع رجاله يتناولون الأمر بالمناقشة وتبادل الآراء . .

وبدأ عدى بن حاتم :

« أما والله ، يا أمير المؤمنين ، لقد قدمت القرآن ، وأخرت الرجال . . . »
وما أحسب الرجل حين نطق بقوله كان ينكر على قبوله التحكيم . فما هو
عن خالجتهم في حكمة الإمام ربية . ولا هو بعثهم عنده حين يحاسب امرؤ على
وفائه وولائه . ولو رجعنا القهقري قليلاً لوجدناه من خير أصحاب الإمام غيرة على
قضيته ، وتحمسا لحقه ، وفي إبان محنة رفع المصاحف كان من القلة التي رأت إباء

الاحتكام إلا للحرب فيصلا يرد كيد الغاوين ... ولقد قال إذ ذاك لعل يمحضه رأيه
الخالص الصريح :

« يا أمير المؤمنين ، إن كان أهل الباطل لا يقومون بأهل الحق فإنه لم
يصب عصابة منا إلا وقد أصيب مثلها منهم ، وكل مقروح ، ولكننا أمثل بقية
منهم . وقد جزع القوم وليس بعد الجزع إلا ما تحب . فناجز القوم . . . »
ثم قد كان أيضا محبا لعل ، غالبا في حبه وإن جاء هذا على حساب أهله
وولده ... مر أثناء الهدنة ومعه ابنة زيد ، فشهدا حابس بن سعد الطائي ، حامل
راية طيء بالجيش الأموي ، قتيلا على أرض الواقعة ، فهتف زيد من جزع :
« يا أبه . . هذا والله خالي . »

قال عدى وليس في قلبه على القتل ذرة من أسف :

« نعم . لعن الله خالك ، فبئس والله المصراع مصرعه . . »

لكن الولد لم يكن كأبيه إيمانا وثقة ، فأنحرفت به عاطفته — والحرب عندئذ
موضوعة — إلى قاتل حابس ، فصرعه على حين غرة منه ، ثارا لقرباء ظالمة ،
كثارات الجاهلية ، فيها خيانة للعهد ، ونقض لاتفاق وقف القتال . .
هنا هاج عدى ، وصاح بابنه :

« يا ابن المائقة ! . . لست على دين محمد إن لم أدفعك إليهم . . »

وحمل عليه .

لكن زيدا اتقى الحملة بفارس طارت به بعيدا عن غضبة أبيه إلى الشام ،
لاحقا بماوية يلقي لديه ما يلقيه أمثاله المارقون . .

وكم حزت جريرة الولد في الوالد ، وكبر عليه إفلاته من العقاب العادل ،
فكان يرفع يديه داعيا عليه :

« اللهم إن زيدا قد فارق المسلمين ، ولحق بالمحلين . . اللهم فارمه بسهم من

سهامك لا يشوى ، فإن رميتك لا تمنى . . . »

ولكم غدت فعلة زيد شيئا لعل — في نظرة أناس مبتهين — يزرون بها
عليه ، ويظعنون في أمره ، ويلحقون به إفكا هو منه براء ، ففضى الأب الأسيف
المظلوم إلى إمامه يبلغه ذوب قلبه ، وهو يشكو ويستنصف .

« يا أمير المؤمنين . . أما عصم الله رسوله من حديث النفس والوساوس وأمانى الشيطان بالوحى ، وليس هذا لأحد بعد رسول الله ؟ . . فقد أنزل فى عائشة وأهل الإفك ، والنبي خير منك ، وعائشة يومئذ خير منى . . وقد قربنى زيد للظن ، وعرضنى للتهمة غير أنى إذا ذكرت مكانك من الله ومكانى منك ذهب حنانى ، وطال نفسى . . والله أن لو وجدت زيدا لقتلته ، ولو هلك ما حزنتم عليه . . »

كلا ، لم يكن عدى بهم فى ولائه ، ولا شاء أن يعتب بكلمة عن التحكيم شيئا على على ، أو يطعن فى رأيه عنه ، وإنما أراد أن يرسم بحديثه حقيقة ما وقع ، بيانا وتذكرا . .

ولم يلمه الإمام . إنما استقبل قوله بالجواب الذى يكمل حقيقة الحال ، ويتم جوانب الموقف فلا يدع ثغرة لتأول ولا ادعاء .
قال :

« إني قد أخبرتكم بالأمس أن هذا يكم . . رجهدت أن تبعثوا غير أبى موسى فأبيتم . . »
فعدت سقطة الأشعرى ، على الأثر ، محور النقاش . .

خاض المؤتمرون فيها ، وكل يترجم عما أودعته فى نفسه من مرارة ، ويحاول أن يردّها إلى هذا السبب أو إلى ذاك . . . فالسقطة وليدة خدعة مأكرة عرفت كيف تأخذ طريقها إلى الحياة من خلال غفلة جالت عليها طبيعة الشيخ المأفون . . أو هى نتيجة حتمية الحدوث ليل قديم عن مؤازرته إمامه له علائمه وسماته منذ وقف بالبصرة يثبط الناس انتصارا للاعتزال . . أو هى خيانة مقصودة لحق موكله عليه ثم لأمانة القضاء . . أو هى قبل هذا كله كفر وضلال لأنها جاءت على حساب إهدار حكم القرآن . . .
وأكثر ما شاء إكثار . .

فقال الحسن :

« . . قد أكثرتم فى أمر أبى موسى وعمرو ، وإنما بعثنا ليحكم بالقرآن دون الهوى ، فكما بالهوى دون القرآن . . . »

وعقب عبد الله بن جعفر يضيف بكلامه إلى الصورة المائلة بضع لمسات :
« . . هذا أمر كان النظر فيه لعلى والرضا فيه إلى غيره . . جئتم بأبي موسى
فقلتم : قد رضينا هذا فارض به . . وأيم الله ما أصلحنا بما فعلنا الشام ولا أفسدا
العراق ، ولا أمانا حق على ولا أحييا باطل معاوية . . ولا يذهب الحق قلة
رأى . . »

عندئذ عاد الإمام بجمل قصة الماضي وإنه في إجماله ليضيف بسبب جوهرى
من أسباب النكسة لم ير أحدا من أصحابه قد عرض له ، لا بإطباب ولا بإقصار . .
قال والمرملء فيه :

« . . إني كنت تقدمت إليكم في هذه الحكومة فنهيتكم عنها ، فأبيتم
إلا عصياني ، فكيف رأيتم عاقبة أمركم إذ أبيتم على ؟ . . »

فحملتهم كلماته فورا على أجنحتها عبر الماضي إلى صفين ، واشتداد الواقعة ، وليفة
الهرير ، ثم إلى المصاحف التي رفعها أهل الشام ردءا لهم من هزيمة مؤكدة
نكراء . . فلعلهم الآن — بعين التذكر — يرونه ، وقد حاول تجنيبهم إغراء
بالدعوة ، يصيح بهم محذرا :

« دعوة حق يراد بها باطل ! . . »

ولعلهم يسترجعون في بالهم قوله :

« . . والله ما رفعوها لأنهم يعرفونها ويمملون بها . . ولكنها الخديعة . . . »

ولعلهم تتردد في آذانهم — اللحظة — كالحزيم ، صيحاته اليائسة ، يجهد بها
أن يردم عن تحاذلهم :

« . . أعيروني سواعدكم وجهاجكم ساعة واحدة ! . . قد بلغ الحق مقطعه ،

ولم يبعد إلا أن يقطع دابر الدين ظلموا . . . »

لكنهم — الآكثرين منهم — أبوها عليه ، وخالفوه . . عن غفلة خالفوه .

عن جهل . عن إغراء غاوين . . .

ومد بصره بين الجمع اللؤثر ، يتفحص الوجوه ، حتى إذا وقع بينها على

الاشمئ رماء من عينه بثمل سهم مسمومة ، وهو يواصل الحديث :

« . . كيف رأيتم عاقبة أمركم إذ أبيتم على ؟ . . والله إني لأعرف من حملكم

على خلافي ، والترك لأمرى ، ولو شئت أن آخذه لفعلت ، ولكن الله من ورائه . . . »

ونكس الأشعث رأسه ، وتداولته الميون المنكرة حيناً وهو — فيما حسبت — لا يجسر أن يتربها النظر . فها هو نتاج غرسه . ها هي الثمرة المشتهاة . ها هي السلم التي منى بها النفس ، ووضع جرثومتها — ليلة الهرير — في قلوب قومه كندة ، ثم راح يتعهد بها بتعريضه حتى أعدت بدائها كافة القلوب المهیضة والنفوس المريضة في بقية الصفوف . . .

ولم يكن الأشعث — بطبيعة الحال — الواحد الفرد الذي جرد النصر من ظفره وثابه ، ثم رعى به لقي مضيقاً على ثرى صفين . ولكنه كان باعث فكرة المواعدة ، ورأس مسانديها ، وعلماء على كل من شارك في تخليقها — بالدعوة الهينة ، أو بالتهجم العنيف — ثم استقبال ولادتها من بعد بالترحيب . واقد كان حديثة ذاك لكندة — كما نعلم — بمثابة الشعاع الهادي الذي انبثق فجأة من جانب الغيب لأصحاب معاوية ، فرأوا تحت وهمه أن بين محنتهم المدلهم ، ثغرة إلى النجاة ، وأسعفتهم آئذ قرأئهم بحيلة المصاحف مطية ذلولا إلى هذه النجاة . . . وعاد الإمام يبصره كرة أخرى إلى الجمع ، وقد استرد هدوءه ، وعدل بقوله سن موالة التعريض بعرف النار ! . . . فلا سخط على الرجل الآن يعيد الزمن إلى الوراء . ولا جدوى على المسلمين من إثارة حفيظتهم على باعث النكسة ، هذه اللحظة التي دعاهم فيها لجمع الكلمة ولم الشتات . إنما الخير في أن يختم حوار المؤمرين بكلمة موجزة تهيب بهم أن يسلكوا الطريق الوحيدة إلى إصلاح الخطأ الذي جرمهم إليه تفرقهم عنه ، واختلافهم عليه . . .

ووقف يخطب القوم ، وإن أسى نفسه ليشعل نبراته وكلماته :
« الحمد لله وإن أتى الدهر بالخطب الفادح ، والحدث الجليل . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، ليس معه إله غيره ، وأن محمداً عبده ورسوله . . .
أما بعد ، فإن معصية الناصح الشفيق العالم المجرب ، تورث الحسرة ، وتعقب الندامة . وقد كنت أمرتكم في هذه الحكومة أمرى ، ونخلت لكم مخزون رأيي لو كان يطاع لقصير أمر ! . . . »

فانتقل ، غب كلمته هذه ، إلى أذهان سامعيه مشهد من مشاهد التاريخ عفا
الزمن على سطورره ولم تبق منه إلا ذكرى . . . بدت لهم ، في تصورهم المسترجع ،
الزباء ملكة الجزيرة ، وهي تجرد حشنها الحلاب لاستهواء جذية ، وتبعث
بدعوة لينة له ، ليلحق بها في قصرها ضيفا ، فرفيقا ، فزوجا يشاركها عرين
الحكم ، الحب والحياة . . . وبدا لهم قصير مولى جذية معترضا طريق سيده ،
قاطعا عليه رغبته في رحلة المتعة المرتقبة والسلطان المهيأ الميسور . . . لكن
جذية المدل بقدره ، الوثائق من موقع نفسه عند الزباء ، يسخر من رأى قصير ،
ولا ينتصح به . . . ثم يضى شوطه على الدعوة للمساء فإذا هو عندئذ بوكر حية ،
تنزو عليه ، وتستقبله أتعس لقاء ، بقبلة الغدر والموت ، لا بقبلة الوفاء والصفاء . . .
واستمر الإمام يواصل خطابه :

فأبيتم على إزاء المخالفين الجفاة ، والمنابذين العصاة ، حتى ارتاب الناصح بنصحه ،
وضن الزند بقدره ، وكنت وإياكم كما قال أخوهوازن :

أمرتكم أمرى بمنعرج اللوى فلم تستبينوا النصح إلا ضحى الغد «
فكذلك كان حاله وحالهم وهو يأبى عليهم إجابة عدوه إلى دعوة التحكيم
وهم يلحفون عليه فى القبول . أكثر فى محاجتهم ، فأكثروا فى الإلحاح عليه حتى
بدا — من كثرة اجتماعهم على خلافه — أنهم دونه على الصواب .. وهل نظرته إلى
الأمر ونظرتهم إليه إلا رأى ونظيره ، ما دام هذا يخطئ فإن ذلك يصيب ؟ . . .
لكأنه عندئذ ، بلسان حاله ، قد ود أن يستطرد من قول الشاعر إلى
حيث يقول :

« . . فلما عصونى كنت منهم ، وقد أرى غيوائهم ، أو أنى غير مهتد
وما أنا إلا من غزية ، إن غوت غويت ، وإن ترشد غزية أرشد «
ثم ختم كلامه بفصل الخطاب :

« . . . أيها الناس . . . »

إلا إن هذين الرجلين اللذين اخترعوهما حكيمين ، قد نبذا حكم القرآن وراء
ظهورهما ، وأحيا ما أمات ، واتبع كل واحد منهما هواه بغير هدى من الله ،
فكما بغير حجة ، ولا بينة ، ولا سنة ماضية . . . واختلفا فى حكمهما . . . وكلاهما لم
يرشد ، فبرىء الله منهما ورسوله وصالح المؤمنين . . . فاستعدوا للجهاد ، وتأهبوا

المسير إلى الشام ، وأصبحوا في معسكرهم يوم الاثنين إن شاء الله
إذن فإنها الحرب . لا سبيل إلى إقامة الأمر على ساقه إلا بوصل ما انقطع ،
والعودة إلى الاحتكام مرة أخرى للسيف . لا حيلة ولا مناص . فلقد ضل الحسبان
وأخفقا فيما تدبأ به . طمسا معالم الصحيفة . استذلا القضاء الأهواء . جارا أعنف
الجور وأبغضه على كتاب الله . . .

٣

النخيلة خلية نحل . المكان عوج بالجلبة . الجنود تحتشد . السلاح يصلصل .
أينما وجهت سمك النقطة وقعا وقعقة . الخطا تدب . الخوافر تحب . العدد
تتراكم . أكداس من الماؤن والذخيرة تترى . في كل بقعة من المعسكر الكبير
حركة لا تفتر ، كأنما الأرض به قد غدت بحيرة مزججة ، المدة والناس والدواب
موجها الصخب ، والكوفة ومنبعها الهادر . . جنباتها تنسج بحياة تنهيا للموت ،
وتسمى إليه ، لأنه جسرها إلى الخلود

مامن امرى آمن واستيقن إلا أسرع وبكر . وما من امرى شك وأراب
إلا تلكأ وتعث . فالدواعي شتى ، والنفوس على تباين . . الذين آمنوا بإنسانيتهم
دفعتهم القيم إلى الاحتشاد تأهباً لقتال لا تحقق بغيره أهداف هذه الأمة التي أوشك أن
يعيل بها جموح بعض أبنائها إلى مزالق الهوى والانحراف . فالخلق قيمة . ونقاوة النفس
قيمة . والخلق السوى قيمة . والدين قبل هذا وبعده رأس هذه القيم والفضائل .
وإذا كانوا قد اتقادوا في سلوكهم وما يصدر عنهم من فعل أو قول لأمر المؤمنين
فلأن نظرتهم نظرتهم ، وإيمانه إيمانهم ، وشخصه هو العلم الذي يرمز لهذه المثل
العالية وتلتف جموعهم حوله نضالا وتضحية والذين آمنوا بذاتيتهم دفعتهم
النخوة إلى مواقعهم ، لا نصرة للحق بل نصرة للنفس ، ودفاعا عن مظاهر الشرف
والحياة التي لا تتأكد غيرها ولا تعزز هذه الذاتية . . والذين كانوا من الأمر في
شبهة ثم أغذوا الخطا إلى المعسكر ، في تلكؤ وتمتر ، إنما خطوا إليه على كره ،
رثاء الناس حتى لا يميروا بين ظهري القوم بالنكوص والجبن والصبر على الضيم .
ومع ذلك فقد تخلفت عن الحشد فئة اشتهرت بالورع والتقوى ، وارتفعت بها
حامتها الدينية إلى ذروة أوشك ألا يدانيها لديها مدان حتى لقد حسب الناس

أنها بحق رأس الإيمان . . تخافت عن النخيلة الحرورية ، أصحاب الثغفات والجباه السود من فرط الركوع والسجود ، وغابت اليوم عن مشهدهم أولى — في حساب الإيمان — بشهده والسمى إلى تحقيق غايته وبلوغ عقباه . .

فما خلفهم ؟ . . ما أقعدهم اليوم عن مؤازرة إخوانهم المتهيشين لإخضاع الشام بالحديد والنار وقد أعياهم إقناعها بمنطق البيان وحكم القرآن ؟ . . ما أخرهم اللحظة وإنهم عند التحكيم وبعده وإلى الآن لأصحاب الدعوة إلى القتال ؟ . .

وكتب على إلبهم يقول :

« بسم الله الرحمن الرحيم .

من عبد الله على أمير المؤمنين إلى زيد بن حصين ، وعبد الله بن وهب ، ومن

معهما من الناس :

أما بعد ، فإن هذين الرجلين اللذين ارتضيا حكمهما قد خالفا كتاب الله ، واتبعوا أهواءها بغير هدى من الله ، فلم يعملوا بالسنة ، لم ينفذا للقرآن حكما فبرئ الله ورسوله منهما والمؤمنون . . فإذا بلغكم كتابي هذا فأقبلوا ، فإننا سائررون إلى عدونا وعدوكم . ونحن على الأمر الأول الذي كنا عليه . والسلام . »
ودفع بكتابه إلى الرسول .

ولم تكن مواقعهم بخافية عنه . ولا حالهم وموقفهم . . في الأيام الملائل التي تلت الحكم . تكاتبوا ، وجمعوا شراذمهم ، ثم بيتوا الأمر على الهجرة — في الله ، فيما حسبوا — إلى موطن سوى الكوفة ، لا يساكنون به قوما حادوا الله ورسوله ، وحادوا عن السبيل إذ حكموا الرجال في دين الله . . .
في خفية عن الأعين بيتوا الأمر . جلسات عديدة عقدوها ، خلف الأبواب ، وبين ظلمة الليل ، في دور رؤوسهم ومشيتهم ، يتذاكرون فيها الأوضاع ، والظروف ، وخطط المستقبل . ولم يكن همهم عندئذ أن يقلبوا وجوه الرأي من أجل استنباط وسيلة لنصرة القضية العامة ، وإنما لهم كل الهم هو كيف ينصرون رأيهم ، ويحمّلون الجماعة الإسلامية كلها عليه ، بالحجة والإقناع ، أو بالإرهاب والإكراه . ولقد تقطعت بهم آنذاك وسائل النقاش والجدال فاجتمع عزمهم على الصيال والقتال . . .

وقال لهم شرح بن أوفى ، يحدد الخطة المثلى لتحقيق ما يريدون :
« نخرج إلى المدائن فنزلها ، ونأخذ بأبوابها ، ونخرج منها ساكنيها ، ونبعث
إلى إخواننا من أهل البصرة فيقدمون علينا . . . »
فترث زيد بن حصين هنية يفكر ، ثم جاء من لدنه بما يكف عن هذه
الخطة الإخفاق :

« إن خرجتم مجتمعين اتبعم . ولكن اخرجوا وحدانا مستخفين . . . فأما
المدائن فإن بها من يمنعكم ، ولكن سيروا حتي تنزلوا جسر النهر وان . . .
وفعلوا .

وانطلقت زمرة منهم ذات ليلة في الشتاء من ليالي شوال ، مستخفين عن
الأعين ، وعلى رأسهم شرح بن أوفى ، وهو يتلو كأنما يحصن نفسه وصحبه
بما يقول :

« نخرج منها خائفاً يترقب ، قال رب أنجني من القوم الظالمين . ولما توجه
لتقاء مدين قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل . . . »

وسارت الشرذمة على الطريق للمدائن ، ولكنها لم تنس نصيحة ابن حصين
فانجهت دونها إلى سباط . وما كان لها أن تدخل البلدة أو تقاربها ، وهذا أميرها
سمد بن سعود قد جاء نبياً مقدمهم ، فأخذ أبواب المدائن ، واستخلف عليها
بعده ابن أخيه المختار ابن أبي عبيد ، ثم خرج إليهم يطاردهم بخيله ، حتى وقع على
فئة منهم يرأسها عبد الله بن وهب ، فالتحم بها ساعة . . . لكن الليل حجزه
عنهم ، وأفسح لهم بظلمته في الفرار منه عبر دجلة إلى أرض حوفى ، فالنهر وان
حيث وجد بقية أصحابه وقد عسكروا بها على مثل الجسر من قلقهم عليه . . .

وكذلك فعلت خارجة البصرة ، فانطلقت هى الأخرى إلى منتجع الفتنة ،
يقودها مسمر بن فدى . تسللوا أيضاً خفية ، ثم بلغ نبؤهم واليها عبد الله بن عباس ،
فجرد لهم أبا الأسود الدؤلى في قوة مطاردة ، تبعهم إلى الجسر الأكبر ، وأوشكت
أن توقع بهم لولا الليل الذى أمدهم بظلمة أكنتهم عنه ، وفتحت أمامهم طريق
الهروب موفورين إلى حيث حشدتم الأكبر . . .

والتأم الجمع بالنهر وان أربعة آلاف قارىء وعابد أعمتهم عصبية الدهن وأضاهم

ضيق أفقهم عن التمييز بين الهدى والضلالة وإن واصلوا الليل بالنهار في التهجد وفي تلاوة القرآن . فما تغني عنهم التلاوة . وما يغني عنهم الصيام والقيام وإنهم ليقرأون فلا يعون ، ويأخذون بالحرف والعبارة وهم في غفلة عن المضمون . . . وجاءهم كتاب الإمام ، فعلى أى وجه استقبلوه ؟ . . .

لكننى بهم عندئذ خدود مصمرة ، وأوداج منفوخة ، وأعناق أتلعها الصلف والتهيه إلى مسارح الغيم التى أطلعها عليهم الأفق الأشهب ذلك اليوم المشيع ببرد الشتاء . . . فما يخالونه إلا نصراً لرأيهم آزرته بهم أخيراً الأحداث . . . ألم يعارضوا التحكيم ؟ . . . ألم ينهوا علياً عن السير فيه ؟ . . . ألم يحاولوا حمله مراراً عدة على نقض نصوصه عوداً إلى الاحتكام للقتال ؟ . . . فما باله الآن يدعوهم للحرب التى أبأها عليهم طوال أشهر ثمانية إلا أن يكون قد اهتدى إلى صوابهم ورآهم أخلصوه حقاً النصح يوم خالفوه . . .

لكن فى نفوسهم شيئاً ما زال يفصل بينهم وبينه ، ويضعهم وإياه فى طريقين لا يلتقيان . . . إنهم فى الحق لا ينكرون أنهم أكرهوه ساعة رفع المصاحف على قبول التحكيم ، وأكرهوه بعدها على اختيار أبى موسى حكماً يتحدث بلسانه وألسنتهم ، ففضوا بهذه وتلك للطائفة المبطلة بالنصر ، وعلى الطائفة المحقة بالخذلان . فالحمة إذن ، التى رماهم الحكم فيها ، من غرس أيديهم ، والجريرة التى وقع فيها على هم الذين حفروا حفرتها تحت قدميه ثم جروه ليتردى فيها معصوب العينين مشدود الوثاق . ومع ذلك فما فتئوا أن يبينوا خطيئتهم ، فزعموا عنها ، وتابوا إلى الله راجعين كرة أخرى إلى ما أرادهم قبلها عليه . أفئن جاءهم الآن يستغيثهم إلى صفوفه ، ويدعوهم بنفس دعوتهم ، إنه إذن قد نزع نزعهم ، وحنث نفسه إلى التوبة ؟

طائفة منهم أخذت الأمر من أقرب موارد ، وودت لو لحقت به ما دام قد دعا بدعوتها ، وتنهأ لحرب المحلين البغاة بالشام . فلقد التقى الهدف بالهدف والنظرة بالنظرة ، وعاد السيل إلى مجراه . . .

وطائفة أخرى لج بها الكبر والعناد فلم ترفى الدعوة إلا وسيلة يحنثها لدعم سلطانه وقد تبدى له تهاوى أركانه ، فليس يرجو بها إذن وجه الله . . .

وطائفة بقيت على تذاؤب ، لا إلى هذه ولا إلى تلك ، فوقفت تنظر ما عسى أن ينجاب عنه الجدل ، وفي نفوسها بقية من ريبة في موقفه وموقف الخارجة على السواء ، لا تستطيع معه أن تحسم ، أو ترجح إحدى كفتي الميزان . . .

لكن الذين شاقوه في البدء هم الذين شاقوه أيضا اللحظة ، وعلت كلتهم ، ثم نضحت رسالة الجماعة برأيهم فيه . . .

كتبوا إليه :

« أما بعد . فإنك لم تغضب لربك ، إنما غضبت لنفسك . فإن شهدت على نفسك بالكفر ، واستقبلت التوبة ، نظرنا فيما بيننا وبينك ، وإلا فقد نابذناك على سواء ، إن الله لا يحب الخائنين . . . »

٤

أغضى عنهم ، فما يكرثه فعلهم . وليس حريا به أن يجعلهم هما يشغلونه عن الهم الأكبر . . .

الشام اليوم هي هم . معاوية . الفئة التي خرجت على سلطان الإسلام وأصابته بصدع يشق وحدة الأمة ، ثم تذرعت بأخش الحيل وأخبثها لسكى على نفسها في البقاء . مجيشة المال ، مستغلة هوى الأنفس ، مستعينة بالدنيا ، متكررة للقيم ، متلعبة بكتاب الله . . .

الخطر — في رأيه — ليس في فرقة من رجاله تخرج عليه . ولا في سلاح يشمر لمناجزته وإن حملته حباله أكف قلة أو كثرة من مخدوعين أو مشاغبين كانوا إلى أمسه القريب من أخلص مظاهره . . . لا . لا أيضا من جحافل مرصوة قد تحجب بحشودها ضياء النهار . ليس يكرثه قط أن يكثر العدد ، ولا أن تجلب الدنيا عليه بالحيل والرجل والعتاد . ولا أن يقف وحيدا في الميدان يناضل بيمينه وشماله عاريتين من أداة حرب تحميه . فالصراع عندئذ « بدني » إن تكون خسائره سوى سلاح ، وضحاياه سوى أشلاء . . . إنما الذي يقلقه الآن أنها حرب « خلقية » إن لم يتهيا له النصر فيها ، جاءت العقبي وبالا على المبادئ المثلى التي شرعها الدين ، ووضع بها دعامة مجتمع فاضل ، ينبغي أن تسود

في جنباته المعنويات على الماديات ، تنقية للنفس ، وارتفاعا بإنسانية الناس عن غرائز الدواب . . .

ولقد ظل دائماً في باله هذا الخطر ، يرادفه في صحوه ونومه ، في سره ونجواه . . . في صباه وهو غلام . في شبابه وهو جلد ذو أيد . في رجولته وفي كهولته وقد اجتمعت له قوة القلب والجنان إلى خبرة العلم وحسكة التجربة . إبان عطله من السلطان وإبان امتلاكه لناصية هذا السلطان . . . دائماً دائماً كان قدوة . دائماً دائماً كان يصدر في فعله وفي قوله عن سلوك من يحس بالتبعة أمام ضميره ، وأمام الناس ، وأمام الله عن توطيد القيم الروحية التي لا بد من غرسها وتنميتها في خلائق البشر ، إن لم يكن إشاراً لها على مطالب البدن فتحقيقاً للتوازن في طبيعتهم المجدولة من وحدة حية ، ثنائية التكوين ، قوامها روح ومادة . فكذا علمه محمد . كذلك شريعة الله . . .

لكن معاوية شاء غير ما ينبغي أن يكون . وراح يشج ، بعمله ودعواه ، وحدة الكيان الإنساني ، مملياً للمادة في الطغيان . . . لتأكيد ذاتيته كان يفعل . لمأربه الخاص . للاستزادة من البطانة والأعوان . ولئن كان أسلوبه هذا غير مستحدث — إذ هو المركب الأبدي لكل وصولي ، من قبل ومن بعد ، إلى مراميه ، فإنه بلا ريب ردة عن الصراط . . . فما أيسر الإغواء . وما أقوى سطوة الرخارف والعروض الدنيوية على النفوس . وما أسرع نزوع الأبدان الممتعة الصماء — إذا ما كشفت شفافية الروح — إلى الأهواء . . .

أجل ، فالهوى شهى طريقه قصير . والهدى ثقل طريقه طويل . . . ولقد كان الإمام يستعيد دائماً في خاطره حديث الرسول : « إن الجنة حفت بالمكاره ، وإن النار حفت بالشهوات » ثم يحذر أصحابه أن يذلوا للبدن فيقول لهم :

« ما من طاعة الله شيء إلا يأتي على كره ، وما من معصية الله شيء إلا يأتي

في شهوة . فرحم الله رجلاً نزع عن شهوته ، وقمع هوى نفسه . »

وكأى يعلم أن رياضة النفس تتطلب طاقة روحية تعي بحملها الأجسام ، وجهد

لا يصبر عليه الأكثرون ، فكان يقول لمن ثبتوا في ميدان هذا الكفاح ولم ينكصوا على قدم :

« لا تستوحشوا في طريق الهدى لقلة أهله . . . »
وكان يقول :

— إنما الدنيا دار مجاز ، والآخرة دار قرار . نخذوا من ممركم لممركم . .
وأخرجوا من الدنيا قلوبكم من قبل أن تخرج منها أبدانكم . . إن المرء إذا هلك
قال الناس : ما ترك ؟ وقالت الملائكة : ما قدم ؟ . . »

لكن الذي كان يروعه ويزيد أمله ، أن يرى أناسا لهم صحبة مع الرسول ،
أو من ذوى الشرف والأقدار الخلقين بألا يدوروا مع الريح ، يشترتون بدينهم
دنياهم ، نابذين وراءهم ظهريا لب الدعوة الإلهية ، ومهطمين كالساعة إلى عروض الحياة .
أولئك كان الحق يبهظهم ، والعدالة تعضل بهم ، والأنانية تقودهم بأخطائهم إلى
تنسكب طريق الإنسانية القويم . فإذا لم يكن العدل هو السبيل الحرى بأمثالهم
طروقه ، فلمن إذن يكون السبيل ؟ . . وإذا لم يكن هو الركيزة التي ينبغي أن
تقوم عليها حياة البشر ، والأسلوب الذي ينظم العلاقات في المجتمع بين الناس ،
فعلى أى أساس ترتكز هذه الحياة ، وكيف تنظم ، وبأى أسلوب ؟ . .

في صفوفه أيضا كانت من هؤلاء طائفة . بعضها أسر الهوى إلى حين ،
وبعضها أسرع فأسفر . ولقد امتلأ عهده بالنصح لهم . وبالأزراء عليهم .
وبالشكوى منهم . . ولعله حين استفاض ذات مرة في الحديث عنهم مع الأشر ،
لم تكن تلك شكوى فريدة يبتها ، عن أسى وأسف وحسرة ، تنفيسا
عن صدره . . .

وقال له الأشر عندئذ وهو يتناول موقفهم بالتحليل ، ويحاول أن يرده
إلى علته :

« أنت تأخذهم ، يا أمير المؤمنين ، بالعدل ، وتعمل فيهم بالحق ، وتنصف
الوضع من الشريف . فليس اشريف عندك فضل منزلة على الوضع . فضجت طائفة
عن معك من الحق إذ عموا به ، واغتموا من العدل إذ صاروا فيه ، ورأوا صنائع
معاوية عند أهل العناء والشرف — فتاقت أنفس الناس للدنيا ، وقل من ليس
للدنيا بصاحب — وأكثرهم يفتوى الحق ، ويشترى الباطل ، ويؤثر الدنيا . .
فإن تبذل للمال يا أمير المؤمنين عمل إليك أعناق الرجل . . »

فابتسم بسمة مرة . يرمون إذن بالمساواة التي شرع الله بين خلقه ، ويأبون إلا الاستعلاء درجة على الناس ؟ . .

وقال :

« يا أشر .. إن ما ذكرت من عملنا وسيرتنا بالعدل ، فإن الله يقول : « من عمل صالحا فلنفسه ، ومن أساء فعليها » ... وأنا من أن أكون مقصرا فيما ذكرت أخوف .. وأما ذكرت من أن الحق ثقل عليهم ففارقوا لذلك ، فقد علم الله أنهم لم يفارقونا من جور ، ولا لجأوا إذ فارقونا لعدل ، ولم يلتمسوا إلا دنيا زائلة عنهم ، وليسألن يوم القيامة : ألدنيا أرادوا أم لله عملوا ؟ .. وأما ما ذكرت من بذل الأموال واصطناع الرجال ، فإنه لا يسعنا أن نؤتي أمرا من التي أكثر من حقه .. وقد بعث الله محمدا وحده ، فكثره بعد القلة ، وأعزه بعد الذلة ، وإن يرد الله أن يولينا هذا الأمر يذل لنا صعبه ، ويسهل لنا حزنه .. »

فالعدل وحدة لا تنجزا . المساواة لا تنتقص ميزان الحق لا يطفف أو يخسر . لا يشتري أحدا بظلم آخر . لا يحابي .. وهذا ابن أخيه : عبد الله بن جعفر ابن أبي طالب يجيئه في حين محنة ألت به يستعينه :

« يا أمير المؤمنين ، لو أمرت لي بمعونة أو نفقة ؟ .. فوالله مالي نفقة إلا أن أبيع دابق .. »

فلا يزيد على أن يجيب :

« لا والله لا أجد لك شيئا إلا أن تأمر عمك أن يسرق فيعطيك .. »

لقد طالما أسف وهو يرى القوم ، هنا وهناك ، يسفون . لقد طالما جهد ليقوم اعوجاج الأنفس ، ويردها إلى الجادة .. بالدعوة كان عهد ، بالحكمة والموعظة . بالقدوة والأسوة .. وها هو الآن ، وقد نفذ الصبر والتصبر ، وتقطعت الأسباب والوسائل ، يشرع في وجود أولئك المشاقين سلاحه ، لا يروم به حملهم على الخضوع نصرته له ، وإنما امثالا للمبادئ الكريمة ، وتوطيدا لحق الإنسانية ، ونصرة للدين . .

وكانت الشام — لا ريب — بؤرة أهواء الدنيا ، وصاحبها معاوية النافخ في نار هذه الأهواء . فإذا عدل في السير عنه إلى الخارجة بالنهروان فإنه إذن

صيقطع المذنب . ويترك الرأس يسعى لينهش وينثر لعابه المسموم ! . . .
وكذلك أغضى عن جماعة الراسي ، وأسقط من حسابه ما ضخته رسالتهم ،
ثم نزل النخيلة ، ووقف في حشدها ، يحثهم على السير :

« أما بعد ، فإنه من ترك الجهاد في الله ، وأوهن في أمره ، كان على شفا
هلكة إلا أن يتداركه الله بنعمته . فاتقوا الله ، وقائلوا من حاد الله وحاول أن
يطفيء نور الله . قاتلوا الخاطئين الضالين المقسطين المجرمين ، الذين ليسوا بقراء
للقرآن ، ولا فقهاء في الدين ، ولا علماء في التأويل ، ولا لهذا الأمر بأهل
في سابقة الإسلام . والله لو ولوا عليكم لعملوا فيكم بأعمال كسرى وهرقل . . .
فسيروا ، وتهبوا السير إلى عدوكم من أهل المغرب . وقد بعثنا إلى إخوانكم
من أهل البصرة ليقدموا عليكم ، فإذا قدموا فاجتمعتم ، شخضنا إن شاء الله . . . »
وكان قد كتب لابن عمه : عبد الله بن عباس ، عامله على البصرة ، يخبره
الخبر ، ويدعوه وجنده :

« أما بعد . فإننا قد خرجنا إلى معسكرنا بالنخيلة ، وقد أجمعنا على السير إلى
عدونا . . . فاشخص بالناس . . . »

فما فعل العامل ؟ . . .

لم يشخص . . .

أفقد شام يا ترى خيرا في بقاءه حيث هو ، فأثر المكث بدار إمرته ؟ . . .
لمعلمة ما قد قعد عن الشخص . لدواع عساها احتجزته . لأموور لعله خشى أن
تنتكس إن هو غاب عن مقره . . . أم قد مل هذه الحرب التي لا تسكاد تهذا إلا
لتثور ، ولا تسكاد تشور إلا لنهدأ ؟ . . . أم قد كل متته عن عمل السيف وضاق
بالمقاتلة ذرعه ، فاستطاب أن يركن للبيعة حتى حين ، قائما من المشاركة في الأحداث
يتبعها من بعيد بسمه وعينه ؟ . . .

الرجل ونيته . . . فما يسهل اللحظة استنباط دخيلة نفسه ، والغيب دائما
مستر ، والقلوب مغلفة بالعلم . . . لكنه ، على أي حال ، لم يأنثر وهو عندئذ
أولى امرئ بالاثمار ، وأحرى الناس بأن يكون قدوة لبلدته ، ولغيره من العمال
والسكان من الجمهور ، في فترة حازبة من عمر الإسلام هي بلا ريب المقطع الفصل
في مستقبل الدولة ، والشعب ، والقيم الخلقية لأجيال وأجيال . . .

وما فعلت البلدة ؟ . .

الحاضرة العراقية الثانية تشاقلت كأنما شدت أقدام الرجال فيها إلى الأرض ،
أو هان عليهم الأمر فاستقبلوه بغير احتفال . . كان قصارها أن تبعث ، من جندها
المجيش ألفا وخسمائة ، هم كل من وسعها حشدهم من المقاتلة ، كأنما الأمر لهُو
لا جد ، واللقاء في مراح وملعب لا في حومة وغى وميدان قتال . .

٥

الكوفة أيضاً غيرتها السلم الموقوتة . .

الجسوم فيها استرخت الهمم تهاوت . العيرة فترت . . الزمن لم يعد له في
بال أهلها ذلك الخطر الذى كان يدفعهم من قيل إلى قياسه باللحظة وطرفة العين
مبالاة به ، وتقديراً لقيمته ، وحفراً لأقدامهم على ملاحقته ثم استباقه على طريق
الأحداث إلى مكامن النصر .

« اللحظة » لم تعد وحدة القياس بل الرغبات . . والرغبات فوضى لا تحدها
حدود ولا تسجيها أسوار فهي تيه بلا إتهاء . ولا يعسكها عنان بينان فهي شوارد
تهم في كل واد من أودية الأمانى والأهواء ، طليقة أينما تشاء وأبان تشاء
لا تستقر بقرار ، وليس يسهها أن تستقر لأنها دائماً تتطلع إلى جديد ، كلما انتهى
بها هيامها إلى غاية تجددت لها وراءها غاية تفرزها طاقنها الذاتية إفراز الموجة
للموجة في بحر لجى طام تتلمب به أكف إعصار . .

بوادر الثبوت الذى خالج الأنفس راحت تتجمع في الأفق وتتراكم غيمة فوق
غيمة ، ناشرة الظلال والدكنة والسواد . كسفة واحدة منها لم تخف عن اح الإمام
وقطرة من وبل الخطر الذى تحترنه لم تغب عنه . الجو « الحدنى » عاصف
ولكن الجو « النفسى » رخاء . . فالناس حوله يسكنون إلى الدعة العارضة ،
ويستروحونها ، ويميشونها بكل قلوبهم وجوارحهم كأنما هى الحياة كل الحياة .
والأمور في البلدة تسير على هون سيرا هو أبعد شيء عن « وحى » الوقت الذى
تجتازه الأمة ، وأبعد خط عن الطريق الذى ينبغى أن تسير فيه . . كلهم شغله
همه عن الهم العام . الكبير كالصغير ، والشريف كالشريف . . وكلهم أخلد إلى
إلى نفسه أو أهله ، واستنام للدعة ، واستسلم للاسترخاء . الرئيس قطع ما بينه

وبين رجاله فإن التقى بهم فعلى دنياه أو دنياهم اللقاء . . . والفارس هجر دابته إلا
لزينة . والراجل ترك سلاحه ودينه في عناية الصدا والإهمال . .

ولقد لوحث النذر بالمصير الخوف ولكن الناس كانوا من هواهم بنجوة عن
أى نذير . لا عين ترى ، ولا أذن تسمع ، ولا بصيرة تنفذ فتعى وتعلم . الخاصة
من الخنة كالعمامة وإن انتصف الواقع من أولئك لهؤلاء . إذ ترسموا خطا قادة
ساءوا قدوة ومثلا فضلوا بهم عن سواء التقدير . والكوفة كالبصرة وإن اعتذر
للأخيرة بأن نصيبها من الكوارث قد ملائ كيلها إلى حافته إبان « الجمل » ثم
فاض به في أتون « صفين » حتى كلت النفوس بالمواقع وطنت البيوت بالأنين .
لكن الكفاح هو الكفاح ، والحرب هي الحرب ، والسلائق السليمة لا تؤمن
قط بأن الأسى تعله يتعمل بها الذين نذروا أرواحهم لبدأ والتفوا بعلمه التفاف
أحرار . . .

وهز ابن عباس ثبوط إقليمه وإن كان هو قد أسهم فيه بالقدوة ، عفوا
أو مدفوعا بأسباب . لكن الاستخزاء قد آده ، والتهافت قد ثقل عليه . فالسلوك
الذى طالعه به القوم لا يباعد بينهم لحسب وبين ضرورات الموقف في حساب
السياسة ، بل يباعد كذلك بينهم وبين المروءة في حساب الأخلاق . .

ما من قلة في الرجال قعدت البصرة ، ولا من عجز في العناد . . فما هو إذن
خطب الناس ؟ . . ما خلفهم ؟ . . أى الأدوية قد سرحت منه إلى قلوبهم
جرثومة معضلة رعت فيها رعى السوائم الهيم في أرض محل لا تسكاد تبدو بها
عشبة يابسة بين شقوق الصخر حتى تغدو وليمة ثرية تتخطفها البطون الجياع ؟ . .
أى داء وكيف الدواء ؟ . .

وركب العامل من فعلهم هوان حتى له صدره واتقدت عينه ، واشتد لسانه ،
فوقف في جموعهم يزأر وينذر :
« أيها الناس .

جاءنى أمر أمير المؤمنين يأمرنى بإشخاصكم ، فأمرتكم بالنفير إليه مع الأحنف
ابن قيس ولم يشخص معه منكم إلا ألف وخمسمائة وأنتم مستون ألفا سوى
أبنائكم وعبدانكم ومواليكم . ألا انفروا مع جارية بن قدامة السعدي .
ولا يحملن رجل على نفسه سبيلا فإنى موقع بكل من وجدته متخافا . . »

فما أغنى عنه وعيده ، ولا كان نذيره إلا كمثل صرخة في واد تبددت غير
أصداء . . . وعندما خرج جارية ، آخذاً سمته إلى النخيلة ، لم تسكن عدة فيلقه
سوى مئين قليلة توشك ألا تمدو جيش الأحنف لتؤاف معاً نحو ثلاثة آلاف
جندى بين فارس وراجل ، هم كل من وسع البصرة أن تحشد هم من بين ستين
ألف مقاتل سوى الأبناء والموالى والعبدان . . .

كذلك كانت الحال : نداء ولا تلبية ، ودعوة ولا جواب . . الحوادث هوج
والأنفس رخية . الجوارح تنشط والهمم تفتقر. المبادئ تنخبو والأهواء تزدهر . .
الدنيا تقبل والآخرة تدبر . . . وبعد أن كان الناس يشوقهم الموت إذ هو المجاز
للحياة الحقة ، ويطيرون إليه بجناحي الجهاد والفداء ، غدوا وقد شدتهم الأرض
إلى دنياهم الزائلة بوثق الذات . . .

بغير إكراه كان الناس قبل هذا يقبلون من كل حي وكل قبيل إذا ما ادلهمت
محنه لا تفرج كربتها إلا مشافر السيوف . . . كانت المطى تساق ، والأسلحة
تجمع ، والألوية ترفع ، والجنود تصطف ، ودعوة الحرب تردد في أهازيج
طروب ، ندية النغم تنشر الأمل ، نارية اللفظ تشعل القلوب . . طواعية كانت
المقاتلة تحتشد ، وتزود من لديها بزاد القتال من ظهر ومؤونة وعتاد .

هذه هي السنة التي استن رسول الله في الحرب ، يندب لها ، ولا يستكره أحداً
عليها . فإذا نودي للجهاد خف إليه المجتمع الإسلامي خفة رغبة وإقبال . .
فانقادرون كلهم له . كلهم جيش . كلهم يزحف إلى ساحة الخطر ما وسع فرداً
منهم أن يفعل : بنفسه ، أو بولده ، أو بعاله ، أو بعبد ، وما اقتضى الأمر أن
يخرج الناس : رجالاً ونسوة ، شباباً وشيباً نصرة لهدف أو درءاً لعدوان . ولقد
كان أصحاب اليسار يجهزون أناساً للغزو والدفاع لا يقوون عليه من حاجة أو عيلة ،
فيتكفلون هم بنفقتهم ونفقة ذويهم حتى يكون الظفر وتنطقى النار . وما عرف
قط أن رجلاً تشاقل فتخلف عن قتال إلا غداً أمثلة سوء بين القوم ، ينكرون
عليه فعله ، وتقاطمه جماعتهم وتجتنبه في الحياة اليومية حتى ليغدو منهم مثل
جزيرة مهجورة في بحر لجى من النفور . ثم هو لا يسلم على الأيام من ازدراء
تضيق به عليه الرحاب والنفوس فلا يكاد يلتقي دونهم ملاذاً يعصمه من الحسرة

إلا أن يسارع إلى طمس زلته بالخروج إلى غزاة جديدة تعيده إلى رحاب الشهادة ، أو تعيده إلى ظلال القبول .

وطبيعى أن الدولة فى إبان فترات السلم لم تسكن تترك هملا بغير جند على أهبة حتى تأزف الأوازف ويتردد فى جنباتها دوى الخطوب . بل قد كان لها بكل إقليم فريق من المقاتلة يختص به ، ويرابط فيه ، حراسة وحماية . . ومع ذلك فهذه الفرق لم تكن هى الجند كله ، وإنما كانت القلة الأقل فيه الموكولة بالطوارىء والمفاجآت . فإذا جد الجد ، رأيت طوفانا من العسكر يقبلون على حمل السلاح وسد الجبهات ، منتظمين فى صفوف الحرب ، قد تقدموا من كل صوب فى الإقليم ومن خارجه على السواء ، لا يدفعهم إلى الالتحاق غير الرغبة الخالصة فى النضال من أجل غاية عامة ، ويحركهم الحافز المعنوى طاغيا بسطوته على أهواء الذات . . فالتطوع إذن كان أول دعامة — إن لم نقل هو الدعامة — التى قامت عليها الجندية حينذاك ، والإحساس بالخطر ، أو تسويد الهدف هو داعيها ، والندب إلى القتال — دون السوق إليه وبغير استكراه — أسلوب التجنيد . . .

غير أن الفراغ الروحى الذى جاء فى ركاب الدنيا راح ينخر فى الناس ، ويردهم كرة أخرى بعيدا عن القيم إلى حب الذات ، والحرص على الدم فبردت فى الصدور اللحم ، وتعلقت بالحياة الأعين ، ونهاوت فى التراب القلوب ، والتصقت بالأرض الأقدام . . ولم يكن بمستغرب أن ينتشر هذا الضباب المعتم على الأفق العلوى مشيما التراخى فى أرجائه ، ملتهما المبادئ منه النهام أستار الظلمة لخطوط النور . . .

ويوشك امرؤ أن يتساءل : إلى أى مدى شاع ذلك الضباب فى سماء الشام ، ولف بقتامه أنفاس القوم الذين استبطنهم عاهلها واتخذهم ظهيرا وأولياء ؟ . . لا مرأى قط فى أنه كثف هناك . وخالج كل قلب . ونفذ إلى كل رئة . وجرى فى دمائهم حتى عاشوا به وعاشوه . ومن الخطل أن نضعهم — فى هذا المقام — بمرتبة أدنى من رجال الإمام إلى الاحتفال بالحياة إذا وزن التطلع إلى الدنيا بالدرهم والثقال ، وقيس النأى عن المبادئ بالفتق والذراع . لكن الخطل كل الخطل أيضاً أن يقال إن الفريقين كانا على سواء حين نحسب لها مقومات الفوز فى هذا

التسابق المادى ، وتنفحص عدده وأدواته ، وخططه ومرجعاته . . . فالثابت الذى لا شك فيه أن أنصار معاوية كانوا يتطلعون إلى زخرف الدنيا ونشبهها وإنه منهم لعل قيد خطورة لا يكلفهم إلا أن يخطو أحدهم فإذا هو فى نطاق مشتاه ، ثم يمد يده فإذا هى على ثمرة النشب ناضجة جنية بغير جهد مذكور . بل قد يرجو وهو قاعد فلا يبخل عليه دهره ، ولا يبسط به سويعة أو بعضها من زمان عن السارعة إليه بالمطلب المأمول . بل قد يكون أبعد امرئ عن الطلب والتنى ثم يجيئه المنصب هبة ، والجاه صلة ، والعطية هدية ، ترويض له ، وتألفاً لقومه من ورائه ، وإغراء لأمثاله من كل ناصل أو نافر كان لا يأبه بالعرض أو يتحصن عنه بالتأبى إلى حين . . .

أما رجال طى فقد كان النشب يجرى فى أخلادهم مجرى الأمنية لا يكاد يعدو مواقع الظنون والأوهام . فصاحبهم صلب فى الحق ، قوى فى الله ، قد حمى حولهم حمى من خلقه ، ومن المثل والقيم ، أوصد دونهم سبيل الانطلاق إلى عالم العروض . فإذا تطلع أحدهم فتطلع الناظر إلى سياج معومج يعلو كالجبل وتعجز عن اجتيازه نزوة تثقلها القيم ، وتشدها البادى إلى حيث يجب أن تكون لا إلى حيث تحب أن تكون . . . هذا الصراع النفسى المتكرر ، على الزمن ، يوماً يوماً ، وساعة وساعة ، استطاع أن يجرد قلوباً ضعيفة كثيرة ، من القدرة على المقاومة والثبات ، لتهباً فى تربتها السبخة البيئة الملائمة لبذرة « الشهوة الدنيوية » لتنمو وتفرع وتأخذ طريقها إلى الازدهار . فما أصعب أن يغمض امرؤ عينه دون وهج الإغواء ، وما أشد تهافت الفراش على النار . . .

إنها لطبيعة البشر . آدم نفسه قارف الثمرة الشهية وإنه للأمور بأن يتحصن منها ، ومنذر — لو ذاقها — بالضياح . . . لكن النذير لم يغن عنه ، واللذة العاجلة ، لحظة الشهوة ، طمست وعيه ، وأعميت صبره ، وأنسته لذة الخلود . . .

من الناس من قد يرى حقاً لهذه الطائفة المشتهية المحرومة أن تعتذر — أو يعتذر لها — عن نزوعها إلى المادة بعض اعتذار . ومن يرى نصفه أن يحسب لها لا عليها تعلقها بالطبع البشرى الذى ينجح إلى الطموح ، إلى التفوق ، إلى حب الاقتناء مشدودة ببقايا الغرائز التى جبل عليها الإنسان منذ دبت على الأرض ديب

الساعة وسعى سعيه إلى إشباع رغباته دون أن يهذب انطلاقه إلى طريق الحياة شيء من القيم الخلقية — فضلا عن الدينية — التي ترتفع ببشريته إلى المسكرام فوق الناعم ، وإلى متعة الروح قبل متاع الأبدان . فهذه الغرائز أصلا هي الأداة لتأمين حياته . والإنسان ليس نورا وشفافية . والدنيا ليست بصومعة ناسك . . وهؤلاء الرجال الذين التحقوا بعلى وآزروه هم أناس من البشر . ثم هم بعد هذا لم ييخلوا بشيء على نصرته . ما منهم إلا من أبلى أحسن البلاء في سبيل ربه ، وأتمته ، وإمامه ، وإنه جميعا لبلاء صادق رفع راية الحق والعدل والسلام . ما منهم إلا من ركب أخشن مركب ، وسلك أوعر مسلك ، وطعم العلقم والحرمات من أجل الظفر بحسن العاقبة في هذا الصراع : وحدة ورخاء وطمانينة . ما منهم إلا من تخلى حيناً — طال أو قصر — عن شيء وأمره : نشأ وطموحا ، منكرًا ذاته ، كالبها نزواته ، كابتا رغباته عن طواعية واختيار أو عن قهر وإجبار فآين الجزاء ؟ . . . وإلى أى مدى يستطيعون التسامى على طبائهم ويمكن أن يسكنهم صبر أو تصبر ؟ . . . وأين لنفوسهم أن تظل هكذا جامدة حيث حبسها صاحبهم فلا تنوء بحملها وإنها لتلتزم بما يشق عليها ، ويتسرب اقتدارها على الاحتمال رويدا رويدا في هذا المناخ النفسى الذى يعتصر منها جلدتها ، ويعتصه امتصاص الرمل لقطرات مطر أمقطتها غيمة عابرة على أديم صحراء صديان ؟ . . . ثم ها هم أولاء — على قرط التزامهم — يشهدون أعداءهم المترخصين فى الحق ، العابثين بالقيم ، المؤازرين الضلال ، ينعمون دونهم بما هم أولى به . يستزيدون يوما وراء يوم من أطايب الحياة . من الأمن فى الأهل ، من الوفرة فى المال ، من العزة فى الجاه كأعما الغرم موكل أبدا بالأخيار ! . . . فهلا من ثغرة يطلون منها طوى الشطر الثانى من حياتهم البشرية ؟ . . . هلا من فرجة فى هذا السياج المعوسج ، العالى كالجبيل ، الحصين كالمستحيل ، تفتح أمامهم أفق التطلع . . . هلا من أمل ؟ . . . من برق خير ؟ . . . من علالة منقعة تثبت بها كفة المائدة بمض ثبات وتقى ميزانهم النفسى الاختلال ؟ . . .

الذين راودهم هذا الخاطر لم يكونوا قلة فى صفوف أهل العراق . والذين يعتذرون لهم ليسوا قلة حينذاك ، والآن ، وإلى ما بعد أجيال وأجيال . فالقلوب

داعاً تهفو للطموح ، للتفوق ، للمغنم ، للمال ، لكل عدة من هذه وتلك ومن شبهاتها يعتد بها لتأكيد الكيان وتأمين الحياة . وحديث الأشر لا يغفل هذه الحقيقة ، وإعنا يعبر عنها تعبير معاصر لخلجات القوم ، متبوع تطورها ، علم باتجاهاتها . وهو حين طلب إلى الإمام أن يخفف قبضته عن أسرار الناس ، ويتألفهم بالمال ليمطفهم حوله ، وتميل أعناقهم إليه ، قد كان حقاً بمنزلة من عرف الداء فوصف الدواء . ولعلنا اليوم نجد بيننا فرقة من أصحاب الشغف بالمقارنة والنقد تسخط تشدد أمير المؤمنين وهي تستحضر في بالها قصة المؤلفة قلوبهم من قريش الذين حباهم رسول الله — تألفاً لهم ، واستبقاء لطاعتهم — فضلاً من عطاء عقب حنين والطائف ، بزت به أنصبتهم أنصبة سواهم من المسلمين ذوى القدمة الذين رعوا الإسلام في مهده وناضلوا عنه كفار الجزيرة ، وأولئك المؤلفة منهم ، حتى شب واستطال . . .

في مجال المقابلة لا نستبعد أن يتقدم مجادل بهذه القصة اعتذاراً ، من ناحية ، لأصحاب علي الذين رنت أبصارهم إلى الدنيا مصدرين في رنوهم عن سليقة النفس البشرية ، وإزراء ، من ناحية ، بتشدد علي حيث كان ينبغي أن يترخص وله أسوة في رسول الله . . . ولقد يبدو هذا المنطق الجدلي — في أولى ومضاته — خليفاً بالاعتبار . فالرسول قد فضل أناساً على أناس ، ولم يكونوا بخير الناس ، ولكنه فعل استجابة لوحى الموقف ، وثبت بالتألف أقدام فرقة حرة — إن لم يحبوها — بأن تنزلق بعيداً عن الجماعة ، فيتصدع الصنف ، وتتفرق الوحدة ، في وقت الأمة أحوج إلى اجتماع الشمل ، وتوثيق العقدة . وفعل لأنه رآها سياسة محمودة أن يفعل ، لا تفعل عن كنهه الطبايع وتركيبها ، ولا عن خضوع السلوك للنوازع النفسية ، ولا عن دواعي المال وظروفه التي عاشتها آنذاك نفوس لا تسعها طبيعتها البشرية بالتجرد من الأثرة ، والتزهد عن الدنيا ، والقدرة على إخضاع البدن للروح . . . فإذا كان محمد ، وهو راعي العدل ، وناصر ميزانه ، قد رأى أمام إلحاح الموقف أن يؤثر ليتألف ، أفليست الحال الآن حيال الإمام أشبه بالحال ، وجديرة بأن تنال منه بعض تحلل من صلابته ، وأنه لو تحلل لقاض على جرثومة تفكك في جيشه نهم أن تنخر فيه ، وسالك نهجا رشيدا شفه قبله ، وسار فيه ، أعرف امرئ بما يجب أن يكون ؟ . . .

كلا ولا جدال . . .

لقد وجد بعض الأنصار لذلك التمييز الذي آذاهم وسخطوه ، ولعظوا به ، فأقبل محمد عليهم ، يبين لهم ، ويستفيئهم إلى الرضا الذي خرجوا عنه :
 « إنما أعطى قوما حديثي عهد بالإسلام ، أتألفهم عليه . . أما ترضون أن ينصرف الناس بالشاء والبغير وتنصرفوا برسول الله إلى رحالكم ؟ . . »
 أما اليوم فالإسلام قد تم . والعدل استكمل قوامه ولا سبيل إلى تجزئته والترخص فيه . وهذه الحرب المشبوبة بين قريقي الأمة إنما اندلعت لتوطيد مثل الإسلام وقيمه قبل أن تندلع لتأديب جماعة من الخارجين على سلطان الدولة ، أو بسبب منازعة عامل صاحب الإمرة الشرعية سطوة الحكم والنفوذ . . . والذين سخطوا أيضا تصرف الرسول آنذاك إنما سخطوا انسياقا وراء عاطفة خرقاء حركتها غيرتهم من بعض قريش أن يحظوا دونهم بعطف محمد لا غضبا لشذخ مبدأ أو هدم قيمة . . فما جار رسول الله — حين فضل أولئك — على حق أحد غيرهم من الناس لا على حساب العدل ، ولا على حساب حق الأمة آثرهم من العطاء بمزيد ، وإنما جورا على حقه هو ، وانتقاصا من نصيبه الخاص أعطاهم إذ كانت الفضلة التي حباهم بها من خمس الخمس الذي شرعه له الله . فهل من ضير إذن أن ينزل عن حقه ، أو يعضه ، ليؤثر من شاء بما شاء ، تمسكينا لدين الله ؟ . .
 الحال ليست الحال .

ولمن أراد من بعد أن يمارى فليشر صحيفة ابن أبي طالب أمامه ليرى أكان يؤثر نفسه بشيء ، أو يفاوت بين الناس في العطاء على المنازل والأجناس ، أو يرجى عنهم حقهم من المال ، أو ينقصهم منه . . .
 . . . قال له غلامه قنبر ، يوما :

« يا أمير المؤمنين ، لقد خبأت لك خبيثا . . »

« وما هو ويحك . . . »

قال :

« قم معي . . »

وانطلق به إلى داره فوضع بين يديه غرارة مملوءة من جامات : ذهبية وفضة ، وهو يقول :

« رأيته لا تترك شيئا إلا قسمته ، فادخرت لك هذا من بيت المال . . »

فغضب ، وصاح بغلامه :

« ويحك يا قنبر ! . . . أردت أن تدخل بيتي نارا عظيمة . . . »

ثم دعا بالناس ، فقال :

« اقسموه بالخصص . »

ومضى على الأثر إلى بيت المال فأخذ يقسم بينهم كل ما وجد فيه حتى وقع

على إبر ومسال جاءتة من بعض عماله ، فدفعها للناس :

« ولتقسموا هذه . . »

قالوا :

« لا حاجة لنا فيها . »

فأبى أن يدعوها ، وقال لهم ضاحكا :

« ليؤخذن خيره مع شره ! . . »

ما كان ليؤثر نفسه بشيء على الناس ، وكان دائما يقول لهم :

« يا أهل الكوفة ، إذا أنا خرجت من عندكم بغير راحلتي ، ورحلي وغلامي ،

فأنا خائن ! . . »

وكان يخف دائما إلى تقسيم الأعطيات على الناس ، كلما اجتمع لديه منها شيء ،

ويكره أن يؤخرها عنهم ، كأنما يتأثم من إرجائها أو اكتنازها لهم إلى حين ،

ولا يهدأ له بال إلا حين يكس بيت المال كل جمعة ، ثم يصلي فيه ركعتين ، ويقول :

« ليشهد لي يوم القيامة . . »

ولم يكن يؤثر أحدا على أحد في القسمة ، لا ينزل وقدمة ، ولا يلون

وجنس . . . أتته امرأتان ذات يوم ، إحداها من العرب ، والأخرى من الموالي ،

فسألته . فدفع إليهما دراهم وطعاما بالسواء ، فقالت الأولى :

« إني امرأة من العرب ، وهذه من العجم . . . »

فابتسم وقال :

« إني والله لا أجد لبني إسماعيل في هذا الشيء فضلا على بني إسحاق ! . . . »

لمن أراد أيضا أن يعارى ، وقد وضحت له سياسة الإمام في القسمة ، أن

ينفض ثانيا جعبته ، ويتبين ما ملكت عين ابن أبي طالب ثم يطالبه أن يتألف

من فائض ماله المتذمر والساخط والمتطلع إلى زحارف الحياة . . .

لقد كانت نفقته تأتيه من غلته بالمدينة ببيع ، فيطعم الناس منها الخبز واللحم
ويأكل هو الثريد بالزيت . . .

ولقد دخل عليه مرة صاحب له فإذا بين يديه ابن حامض له ريح نفاذة من
شدة حموضته ، ومعه رغيف يابس على وجهه قشار الشعير وهو يكسره ويستعين
أحيانا بركبته . فأذى الصاحب ما رأى ، وهتف بجارية الإمام يلومها :
« يا فضة ! . . أما تتقون الله في هذا الشيخ ! . . ألا نخلم دقيقه ؟ . . »
قالت فضة :

« إنا نكره أن نؤجر ويأثم . . قد أخذ علينا ألا ننخل له دقيقا ما صحبناه . . »
ولم يكن على ملقيا باله إلى الحديث بين صاحبه وجاريتيه حتى صكت سمعه كلمة
أو كلمتان من قول فضة ، فالتفت إليها يسألها :
« ما تقولين ؟ . . »

قالت تشير إلى صاحبه :

« سله . »

فاستبأه الأمر ، فأجابه :

« إني قلت لها : لو نخلم دقيقه . . »

فإذا الدمع يعلأ عندئذ عيني الإمام ، فيقول :

« بأبي وأمي من لم يشبع ثلاثا متوالية من خبز بر حتى فارق الدنيا ، ولم
ينخل دقيقه . . »
وقال :

« كان رسول الله يأكل أيبس من هذا » ولوح برغيفه . « وكان يلبس
أخشن من هذا » وأشار إلى ثوبه . « فإن أنا لم آخذ بما أخذ به ، خشيت
ألا ألحق به . . . »

ولقد قيل له ذات مرة ، وقد هال أصحابه إسرافه الشديد في ماله
بالصدقة والبذل :

« كم تصدق ! . . كم تخرج مالك ! . . ألا تمسك ! . . »

فكان جوابه :

« إني والله لو أعلم أن الله قبل منى قرضا واحدا لأمسكت . ولكنى والله ما أدرى أقبل منى شيئا أم لا . . »

أجل . لمن أراد أن يعارى بعد هذا فليفعل ! فأما والرجل هو من هو فى عدله ، وفى تسويته بين الناس على اختلاف الأنساب والأحساب وتباين الألوان والأجناس ، وفى ييس مأكله ، وخشونة ثوبه ، وخشونة حياته ، وعزوفه عن العرض ، وخروجه دائماً دائماً عن كل فضلة من ماله — إن لم يكن ماله كله إلا فضله — فإن السبيل بمد هذا إلى اصطناع الأنصار واستمالة الرقاب من بيت المال جوراً على حق غيرهم من الأمة ، وافقتان على العدل العام ، وهو الترخص الذى يأباه خالقه ، وترفضه سجاياه إن لم يكن الدنية التى تحرمها شريعة الله . . .

لم يجتمع له ما أمل أن يكفي اللقاء الحاسم . البصرة تناقلت . والكوفة تناقلت . والأيام وهي تمر تزود عدوه بزيادة الإعداد ، وتحرمه هو فرصة المبادرة كما تحرمه سرعة الحركة . . . والأقوال بعد هذا تشيع في جنوده بأن التريث إلى حين أولى وأنفع . والسير إلى الخارجة — قبل الشام — تأمين للظهر ، وسد للمورة ، وجنة تقيهم كسرة مفاجئة من أولئك المتربصين عند النهر ، على عتبات البلدة ، ينتظرون خلوها من حمايتها ليعملوا فيها السيف ، ويركبوها بطغيانهم الذي يهمون أن ينقشوه كالسموم . . .

وهو لا ينكر عليهم خشيتهم . ولكنه ينكر عليهم أنهم جسموا أمام أبصارهم وبصره هذه الخشية حتى بدت كقارعة . وأنهم ركبوها مطية للتوصل من دعوة السير لقتال عدوهم الأول . وأنهم ستروا خلفها ثبوتهم فقمعدوا ولم يصرفوا جهدا مذكورا للتجهز للحرب . وأنها أسلمتهم إلى دعة رحية استعمرأوا معها طعم السلم ، حتى جرى في دمائهم كمخدر ، فتر الجوارح كما فتر اللحم . . . ولقد كانت ثمة طائفة منهم ترى رأيه ، وتتعجل اللقاء الأكبر تعجلا للأمن الأكبر ، ولكنها كانت قلة يكاد صوتها يفرق في أصدااء لفظ التريث وضوضاء الإرجاء . . .

وما كانت متطيرا إذ أنكر . ولا كان متعلقا بوم صورته بعض البوادر . لكن النظرة المحيطة بالظروف التي رسمت الموقف ، وبالاتجاهات التي راحت تسوقه إلى عاقبته المرهوبة هي التي أنجبت قلقه . فالكسة قد بدأت منذ فتنة المصاحف في صلين . بدأت إشفاقا من استعمار القتل . ثم ملأ من القتال . ثم ميلا إلى الدعة ، ثم استسلاما للواقع . ثم تنكرا للقيم التي شبت هذه الحرب — حين شبت — لتجاولها وتذهب عنها بالنار صدا البهتان . . . وهذه الخارجة التي خرجت عليه هي نبتة هذه الفتنة . والانتقاض عليه في التحكيم جذعها . والتقاعد في البصرة وفي الكوفة بعض فروعها . أما تمرها المر فالقدر يدخره إلى حين . . .

ولقد أسف لحال القوم . بمقياسه العدل أسف من أجلهم لا منهم . . . فإنه

لصاحب رسالة لا صاحب دنيا ، لا يضيره أن يموت دون رسالته وإعنا يؤسفه أن
تموت دونها القلوب . وأن يملو سلطان الدنيا على سلطان الحق . وأن تنهاوى
النفوس تحت ضغط أدرانها إلى الرغام . . .

وفي بعض ومضات الرجاء التي كانت تتسرب إلى نفسه ، وتلقى بأثر شعاع
على الموقف الداكن ، مضى يخاطب أهل حضرته وإنه لمشفق الإشفاق كله على
رجائه أن يذوب في الظلمة ، وعلى أولئك المحتشدين أمامه من وقر السمع وعشا
البصيرة . . . ولكنها على أى حال محاولة جديرة بأن تكون . والطبيب دائماً
يقدم الفأل وإن ملأته مظاهر الداء وعلاماته بالشؤم والتطير . . .
قال يهيب بالقوم :

« يا أهل الكوفة . . أتم إخواني وأنصاري ، وأعواني على الحق ، وصحابتي
على جهاد عدوى المحلين ، بكم أضرب المدبر ، وأرجو تمام طاعة المقبل . . وقد
بعثت إلى أهل البصرة فاستنفرتهم إليكم ، فلم يأتني منهم إلا ثلاثة آلاف ومائتا
رجل . فأعينوني بمناصحة جلية خلية من العش . . إني أسألكم أن يكتب لي
رئيس كل قوم ما في عشيرته من المقاتلة ، وأبناء المقاتلة الذين أدركوا القتال ،
وعبدان العشيرة ومواليهم ، ثم يرفع ذلك إلينا . . . »

فاستقبله أشرافهم بالقبول . بادر سعيد بن قيس الحمداني ، فقال :

« يا أمير المؤمنين ، سمعنا وطاعة . . أنا أول من أجاب . . . »

وثني معقل بن قيس . ثم عدى بن حاتم ، فزياد بن خصفة ، فحجر بن عدى ،
فغيرهم ، يسابقون إلى تلبية الدعوة . وما لبثت قوائم الجند أن توالى ، تتبعها
الجنود المصطفة في العدة والجهاز حتى بدا كأن الأمر قد عاد سيرته الأولى ، وبلغت
الأنفس ذروة الولاء والأهبة للفداء . . .

لكن القلوب لم تسكن — مع هذا كله — مجمعة الرأي على « القصد »
وإن أجمعت — فيما يلوح — على الوسيلة . إنهم لا يرفضون القتال ، وإعنا
يختلفون في « موقع » الحرب ، وفي « العدو » الذي له تجهشوا وتسلحوا وإليه
هموا أن يغذوا السير . . إلى النهر أم إلى الشام ؟ . إلى الخارجة أم إلى
معاوية ؟ . أم هي حرب تأمين جزئية على عتبة حاضرتهم ، أم هي حرب فاصلة

حاشية تنقض على الغريم الأكبر وتردع بقمعه والقضاء عليه كل من وراءه ومن دونه من الشاغبين والمخالفين ؟ . . .

الحشية من الحوارج ظلت تخايل الكثرة منهم ، وتلح عليهم الإلحاح الذى يترك الرأى وهو شتيت . والهمس يتطاير . والجرس يعلو . والجدل بينهم يعتدل ويشور . . . ولم يكتفوا رغبته ، وإنما تداولوها فيما بينهم ، صريحة ، بلا تحرز ، ولا مواربة :

« لو سار بنا إلى هذه الخارجة ، فبدأنا بها . . . »

فكأنما لهم الأمر . وكأنما السنة فى الجيش — أى جيش — أن يختار الجند أنفسهم لأنفسهم الموقع والخطوة والعدو والحركة وساعة اللقاء لا أن يصغوا للرأى قيادة هى التى تزن وتنظم وتخطط وتوجه وتدير المعركة فى المكان والزمان اللذين تراهما كفيدين بالنصر . . .

أم لعلها أمنية خالجتهم ؟ . . . إن تكن هذه أو تلك محاولاتهم عندئذ قد شكلت « ضغطا » على أميرهم يستمد القوة من رغباتهم ويدع السبيل مفتوحا إلى النيل هونا من معنويات الجيش لو جاء السير على غير ما يشتهون ، ثم يضع قيادا على حرية قائدهم فى التصرف والحركة وهو يستعيد فى باله ، عند كل خطوة يخطوها ، ما قد طالعوه به ، ويمسب له كل حساب . وإذا ما اختلفت النظرة بين الجند والقائد فالطاعة خليقة بأن تتقلقل ، والنظام حرى بأن يضطرب ، واتجاه الالتزام يغدو أدنى إلى انعكاس خطه الطبيعى فيتسنى التابع وينزل المتبوع !

وتحرك الإمام ثانية يحاول أن يحد من شططهم هذا الذى يوشك أن يقترب بجيشه من الفوضى والاختلال واتقطاع النظام إن لم يقارب الخروج والتمرد . . . قال وقد جمعهم لبحث الأمر :

« . . . قد بلغت قواكم لو أن أمير المؤمنين سار بنا إلى هذه الخارجة التى

خرجت عليه فبدأنا بهم فإذا فرغنا منهم وجهنا إلى المحليين . . . »

فدارت عيونهم بينهم مليا وإن فكرتهم تلك مستدور أيضا دورانها فى الأخلاذ حول محور الرغبة . . . لكن كلماته القلائل التى سرى فى نبراتهما جرس الإباء ولمحة القطع ، خلفتهم على تربص ، ينظرون . . .

وأكل :

« .. إن غير هذه الخارجة أهم إلينا منهم . فدعوا ذكرهم ، وسيروا إلى قوم يقاتلونكم كما يكونوا جبارين ، ملاكا ، ويتخذوا عباد الله خولا ... »
ولم يأتهم قوله بحجة جديدة ، ولكن شيئا من هيئته — فيما أحسب — قد وقع إذ ذاك في قلوبهم حتى أنساهم منطقهم ، ودفعهم — أو دفع كثيرهم الغالبة — افتتاننا بشخصيته ، إلى الانصياع ...

وتنادوا من جوانب الجمع :

« سر بنا يا أمير المؤمنين حيث أحببت ... »

ونهم صيفي بن فسيل الشيباني يفصح عن تأييده :

« يا أمير المؤمنين نحن حزبك وأنصارك ، نعاذ من عاديته ، ونشايع من

أناب إلى طاعتك ، فسر بنا إلى عدوك من كانوا ، وأينما كانوا ، فإنك إن شاء الله لن تؤتى من قلة عدد ولا ضعف نية أتباع .. »

وعقب بعده محرز بن شهاب التميمي :

« يا أمير المؤمنين ، شيعتك كقلب رجل واحد في الإجماع على نصرتك ،

والجد في جهاد عدوك ، فأبشر بالنصر ، وسر بنا إلى أي الفريقين أحببت ، فإننا شيعتك الذين نرجو في طاعتك وجهاد من خالفك صالح الثواب ، ونخاف في خذلانك والتخلف عنك شدة الوبال .. »

أفكان هذا هو رأى الجمع قد ساقه بعضهم عن اقتناع أم كان وليد عاطفة عارضة ، وحماسة طرأت والإمام حيالهم يطالعهم بنظرته ؟ .. إنك حين زن حقيقة الإجماع على اتجاه لا بد أن تعرف إلى أي مدى أضرته معارضة كانت لا تؤمن به منذ حين ، لتصفو أمامك مرآة الواقع ، وتعرف إلى أين ذاك الاتجاه . لكن الذين مالوا إلى « تجميد » حرب الشام ، ولم تسعفهم طبيعة الموقف بالمجاهرة بالتجميد — نأيا بأنفسهم عن مواقع الزيف والشبهة — تستروا هذه اللحظة بالصمت ، لا يقرون ولا ينكرون . فبحسبهم أن يدعوا القوم وما هم فيه وإنهم يعلمون أن عمر الحماسة قصير . وبحسبهم أنهم قد حرثوا لهذا التجميد تربة صالحة منذ المواعدة في صفين . وبحسبهم أن استطاعوا شغل الأذهان بالعدو « القريب »

التربص على عتبة بلدتهم ملقين في روع الناس أنه أولى بتعجيل سحقه من عدوهم « البعيد » الآخر ، الذى يجنهم عنه بعد الشقة ، وإيثاره السلامة داخل حدوده ، وميله المعروف إلى التمسك بهذه الهدنة العارضة ، إلا أن يخرج من قوقعته سيرهم إليه . . .

فى هذا الاجتماع لم ينطق الأشمث . وما كان لينطق حتى لا يشى به ميل نذره منذ البدء لكف الحرب عن معاوية وعن قومه اليمنية الذين لاذوا به وآزروه . إنه لينكر — لا شك — ما جهر الناس به من وجوب تقديم السير إلى الشام على السير إلى النهر ، ولكنه يرجى إنكاره ، ويدخر الجهر برأيه حتى تخف فورة الحماسة العارضة ، وينعسر المد ، وتتكشف الأحداث عن ظروف أصلح لانطلاقه . ولا أيسر عليه عندئذ من تصيد الأسباب والدواعى ، ولا أيسر أيضا من انحرافه بالاتجاه العام إلى وجهته الخاصة التى مهد طويلا طريقها والنفوس جميعا مشعونة بما يعطفها إلى متابعتها حيث يريد أن يسير . . .

ولم تبخل عليه الأحداث بما شاء . فما أسرع ما جاءت الأنباء بسوء سيرة الخارجة — حيث ارتحلوا وأقاموا — فى الناس ، واقترافهم ألوانا من الفساد يعدوا بها عن كل متوقع من أمثالهم ذوى الجيأ السوداء ، المنتسبين للورع والتقوى ، المنتسبين بحرف القرآن . . .

وكثرت القالة فيهم . فهم يعيشون فسادا فى الأرض . ينشرون الإرهاب ، ويشيعون الذعر ، وينتقصرون الأمن ، ويكثرون القتل . ولا كت الألسن ما اقترفوا ، ووجد الكثيرون فيه سندا لتوجسهم منهم ، ودواعى للتعجيل بقمعهم . وتزيد — لا ريب — أناس فيه ، وجسم خطره آخرون . وما يستطيع أحد أن ينكر أن الخارجة قد جنحت إلى الشطط فى سيرتها بالنهر ، فدأبها الشطط دائما — منذ نجمت — فى كل ما أصدرت عنه من فعل أو قول . ولكننى أحسبها قد رأت ، أو رأت بضعة منهم ، أنهم خليقون أن يوطدوا بالشدة هيبة أقاتهم فى مقامها ذاك ، كفيلة بأن تردع عنها كل ساخط دعوتهم ، مستهين بشأنهم ، طامع فيهم ، وأن تنفى بهم إلى شىء من طمأنينة يعوزهم فى معتزلهم الذى اختاروا إذ تشعرهم أنهم هم الأعلون فى مجتمعاتهم الجديدة وترضى غرورهم وكبرياءهم .

غير أنها في الحق ليست سوى شدة المذعور الذي يتوهم الخطر في كل حركة ،
لا شدة القادر القوي المدل بالسطوة . وحين نستقرئ ما اقترفوا نكاد نتيين فيه
صوراً من أهواء متفرقة اتخذت مظاهر من السلوك الفردي المنحرف الذي يدل
على القلق النفسى واختلال التقدير قبل أن نجد فيه لونا من « العدوان الجماعى »
الصادر عن وحى تصرف عام . فلم نرهم ، بعد محاولتهم دخول المدائن ، قد أعادوا
الكرة ، ولا حاولوا اقتحام بلدة محاولة فتح وغزو ، ولا أغاروا إغارة منظمة
شاملة على مكان مأهول . ولم نألف منهم ، منذ خرجوا خرجتهم من الكوفة
والبصرة ، إلا سير التخبط المضطرب الذى ينطلق عفوا عسى أن يجد المأمن ،
أو يجد نصرا لا يتوقعه ولم يعد له . واقد كان قصار انهم أن يتستروا بالليل ما وسعهم
التستر ، وأن يفروا من اللقاء ما وسعهم الفرار . فعلوا هذا حينما انبرى لهم سعد
ابن مسعود وقد لقيهم عند موقع الكرخ ، فلم يستقبلوه استقبال قوة لقوة ، بل
ناوشوه المناوشة التى تدنيهم من الليل ليتخذوه سربا للهروب . وفعلوه أيضا حين
تبعهم أبو الأسود الدؤلى عند الجسر الأكبر ، فتحاموه بالظلمة ثم أدلجوا
هاربين . . . فهم إذن موقنون بعجزهم عن مواجهة حرب ماهرة ، عليمون بأن
قوتهم ليست بالقى تثبت فى قتال جاد . أو هم — فى القليل — لم يجعلوا من
القتال فى آوتهم ملك وسيلتهم إلى مأربهم ، ولا وضعوا لأنفسهم خطة تعتمد عليه
وتسكون السبيل لتنفيذ سياستهم . ولعلمهم قد شاءوا الاعتزال إلى حين . ولعلمهم
قد أرجأوا الحرب — إن كانوا بيتوا عليها النية — حتى يشتد ساعدهم ، ويكثر
جمعهم ، ويزودهم الوقت ب زاد جديد من النصر ، أو يكرهوا عليها حتف الأنف
فلا يصح لهم عنها محيص . . . فإذا نحن بعد هذا استنبأنا دخالهم ، لا يعسر أن نجد
التردد بحكم خطاهم ، ويكبل سلوكهم ، ويعوق أمانهم أن تتحمل حقيقة
حية تدب فى دنيا الواقع على قدمين . . . فمعروف أنهم لم يسلخوا من تلوم ما فتشوا
يستشعرونه ويتناولون أنفسهم به لأن موقفهم إبان صفين حين دعوا إلى الاحتكام
للقرآن هو الذى فرخ الفتنة . ومعروف أنهم الآن يعتقدون نفس نظرة على
ويرون مثله وجوب مناجزة معاوية وإن كانوا قد شاءوا لهذه المناجزة أن تقع
قبل التحكيم . ومعروف أنهم يؤمنون بأن الإمام على شاكلتهم رجل دين من أهل
القرآن وغريمه رجل دنيا وضلال . . . وقوم شأنهم كهذا خلقون — عند

سير الأمور وإيمان النظر — أن يقتحم الدخل عليهم ثوابهم ، وتحيط الشبه
بمداخل سلوكهم ، ثم يتهبون في حيرة . . .

ومع ذلك فالكوفة استكثرت ما اقترفوا في النهر كأنما وزنته بغير ميزانه ؟ . .
من بينها أناس أقطعهم التصرف . ومن بينها أناس رأوه كارثة . ومن بينها
أناس يبينوه خطرا ليس بعده على الدولة خطر ، يهون دونه خطر الشام بانشقاقها
على الأمة وبجيشها المنظم ، وبجندھا المجھز بخير عتاد وزاد . . فإذا نحن قسنا
بمقياس سليم تكلم الجرائم التي ارتكبتها الخارجية وهالت الكوفة هذا الهول
الأكبر لكان حقا لنا أن نعجب لهذا الهول وننكره ، لأن المقدمة لا تنجب هذه
النتيجة ، ولأن شواهد الحال تأبأها . فمن المحال أن تبني الصرح الشامخ على الرمل
ولا ينهار إلا أن تمد له دعامة ركنية تذهب تحته في الأرض إلى أبعد غور لترتكز
على الصخر ! . .

فما هي إذن تكلم الدعامة ؟ . . ما هي القوة التي آزرت هوان جرائر أصحاب
النهر فأكسبتها أبدا جعلها الهول الأكبر ؟ . .
إنها الدعوة إلى الفرع ! . . فلقد كانت ثمة لاريب دعوة صاحبت هذه الجرائر
ونفخت فيها ، وأزكتها نارا مدمرة . . وما أريد هنا أن أسمى داعية بذاته قد
آثارها ، وتنادى بها بين الناس . ولكنني لا أستطيع في هذا المجال أن أبرئ
الأشعث بن قيس وشرذمة أخرى على شاكلته من التشديق بالخطر الموهوم ،
وتغذية أنباء الجرائر بما ينميها ويفظعها على النفوس . فالرجل وشرذمته أهل
موادعة . وهم لا يشاءون لأنفسهم أن يظهرُوا منكربين للعرب حق لا تأكلهم
الأسن . ولقاء الخارجية رده لهم من شبهة التثييط والتخلف . والبلدة قبل هذا
وبعده أكرت القول في الخطر المتربص على عتبتها ، فغديشهم إذن عنه ، ودعوتهم
لوأده ، لن تنفر منها أذن ، لأنها تسير الاتجاه العام . .

بغريزة القطيع التي حركتها صيحة الفرع انحرفت الكوفة إلى هذا الطريق
الجانبى ، وانطلقت منه مشحونة بماطفة مضللة . بهلع موهوم ، بظل لخطر ؟ . .
أما الدعوة الحققة . فمع معاوية . السير إلى الشام ، فقد غدت همسا لا يكاد تنفرج
عنه الشفاه حتى يذوب في صياح القطيع ! . .

٢

قصه الفزع الأكبر الذى عم الكوفة كانت ملهامة . بلية مضحكة . قهقهة عالية الرنين أطلقها القدر ليتردد صداها رعودا مدوية فى آذان القوم نزلزل جلدهم ، وتهز ثباتهم ، وتدفعهم يثلفتون رعدة وقلقا فلا تثبت لهم قدم ولا يستقر حلاق .. إنها للفزع من خيال . من ظل يتحرك بليل .. أصلها واه ، وباعثها واهن ، وعقبها المنتظرة أوهن على أى امرئ يتجرد من التأثير بطبلها الأجوف ، ويحاول على روية أن يتلقاها بالتأمل والتفكير . لكنّها الحصة الصغيرة ترشك ألا تنال شيئا من نهر يتدفق ، ولكنها حين تلقى فى مائه تستطيع أن تفرقه ، وتحيل سطحه من حولها دوائر ودوائر لا تزال تنسع وتتوالى ، ثم تنسع وتتوالى ، حتى تمس بأقواسها المترامية شاطئيه . . .

المخبر هين ، والمظهر يهول . . . فالحارجة فعلت . والحارجة عاثت . والحارجة قتلت . والحارجة لم تدع شيئا يقطع إلا كانت لها وراءه أصبع . . . ومع هذا فإن وقائع الحال التى دونها الزمن فى تلك الحقبة وضممتها الأسفار لا تطامنا بغير « عصابة » من الحارجة كانت هى التى أتت بما رج النفوس وشق على جلد الناس بالكوفة حتى تركهم فى صورة تخللها وغشاها ضباب الدهول حتى انوشك أن تراهم جلودا تنضح بالجزع بدل العرق ، ومناخر تنفث الخوف بدل الزفير ، كأعما الجوكلة حولهم قد استحال بهوائه وهبائه ذعرا خالصا لا مكان به لطمأنينة . . . الحصة الصغيرة فرقت الدوائر ، ووسعتها ، ورفعتها الواحدة فى إثر الأخرى أمواجاً تترى . وتسبح ، لتضرب بخطوطها السارحة كل جوانب البلدة الهلوع . . .

ولقد لا ننسى هنا أن خطة الخوارج ، منذ بارحوا منازلهم فى البصرة وفى الكوفة ، كانت الانطلاق على استخفاء إلى منتجعهم الجديد . . فرادى انطلقوا ، أو سراذم صغيرة — بأوسع تقدير — نزولا على وصية صاحبهم زيد ابن حصين إذ نصحهم قبيل الرحيل :

« إن خرجتم مجتمعين اتبعتم . ولكن اخرجوا ، وجدانا ، مستخفين . »

ولقد لا ننسى كذلك انهم رأوا أنفسهم أهون من العصف بالمدائن واقتحامها على حماها فآثروا الابتعاد عنها ، والانحراف بعيدا إلى موضع آخر مأمون ، عند جسر النهر وان .

لا ننسى هذا وذاك . ولا ننسى أنهم وعوه وفعلوه لأنه يتفق وطبيعته الوضع الذي كانوا عليه ، والتستر الذي آثروه ، والخشية أن يجتذب أى « دنو » لهم من أرض مأهولة ، أو أى « تجمع » قد يضمهم أنظار الناس ، فيستقبلهم مناوئوهم بمقاومة لا قبل لهم بها في وقت ما تراهم هياوا فيه أنفسهم للقاء جاد ... فهم إذن قد مضوا وحدانا ، أو مضوا شراذم صغيرة مفرقة ، من بضعة نفر ، لو استبحنا التجاوز إلى هذا التقدير . وهم إذن قد جانبوا المدن والبقاع المأهولة التي قد لا ينجم دنوهم منها من مصير رهبونه ، ويحرصون كل الحرص على تحاميهم . وهم خليقون بعد هذا — وقد عسكروا عند النهر — أن يلزموا نفس سياستهم فيسكون تنقلهم أيضا فرادى ، أو مثنى وثلاث ، أو عصابات — مهما تعدد نفر الواحدة منها فلا نظنه يجاوز أقل القلة — إذا — سبهم ظروف حياتهم اليومية الجديدة إلى التنقل من مكان لمكان ، بحثا عن زاد ، أو كشفا عن موقع ، أو عسا لتبين مكن من مكامن الخطر ، لأنه لا يعقل قط أن يسيروا بجمعهم الكامل : أربعة آلاف ، ولا بنصفه ، ولا بعشرين مئتين . .

« عصابة » من جماعة الخارجة — كما حدثتنا الأخبار — هي التي قارفت تلكم الجرائر التي أشاعت الدعر في الكوفة وبهرت الأنفاس . عصابة من نفر قد يبالغون العشرة عدا ولكنهم لا يجاوزون الأربعين مهما مططنا نطاق التقدير . ولم يكن فعلها — فيما يلوح — عن إعداد مرسوم ينبئ عن اتفاق كافة الجماعة عليه ، ولكنه كان عفوا لحظته ونتيجة خبطة عشواء . . فلقد جاء فيما روى عن فعلتهم أن خارجة البصرة أقبلت حتى دنت من إخوانها بالنهر ، فخرجت « عصابة » منهم ، فإذا هم برجل يسوق بامرأة على حمار ، فعبروا إليه ودعوه . وما أدري فيما كانت الدعوة . ولكن لعلهم خشوا أن يكون عينا عليهم فرأوا أن يتثبتوا لأنفسهم . . . ويبدو أن أمرهم أزعجه ، وقد كانوا لا ريب إذ ذاك في السلاح ، فاضطرب وسقط عنه بعض ثوبه على الأرض . وعندئذ أرادوا التهوين عليه . .

سألوه :

« من أنت ؟ . . »

قال وهو يلتقط ثوبه ويلتقط معه أنقاصه :

« أنا عبد الله ، بن خباب بن الأثر . . »

« صاحب رسول الله ؟ . . »

« نعم . »

« لا روع عليك . »

فاطمأن هونا .

وعادوا يقولون :

« خدثنا عن أبيك بحديث سمعنا من النبي لعل الله ينفعنا به . . »

فتفكر مليا ، ثم أجاب :

« حدثني أبي عن رسول الله أن فتنة تكون ، يموت فيها قلب الرجل كما يموت

بدنه ، يمسي فيها مؤمنا ويصبح كافرا ، ويصبح فيها كافرا ويمسي مؤمنا . . »

فما كان أغناه عما قال . . ما أحسبه إلا قد نكأ بالحديث قرحة نفوسهم

وأدماها . ألم يطف به حول حالهم ، والفتنة الواقعة ، وتذاؤبهم فيها من النقيض

إلى النقيض حتى يرون مرة الإيعان في التحكيم ثم يرون فيه الكفر والفسوق ؟ . .

وكأنما أحسوا أن الرجل قد شاء غمزهم والتمريض بهم ، فما جلوه وإنهم

ليحبسون غضبهم خلف نواجزهم :

« لهذا الحديث سألتك ! . . »

ثم أردفوا ليهتكوا خبيثة صدره :

« فما تقول في أبي بكر وعمر ؟ . . »

فأثنى عليهما خيرا .

فسألوه ثانية :

« وما تقول في عثمان ، في أول خلافته وفي آخرها . . ؟ »

فأثنى كذلك .

فسألوه ثالثة :

« وما تقول في علي قبل التحكيم وبعده ؟ » .

فلم يتردد ، وأجاب :

« إنه أعلم بالله منكم ، وأشد توقيا على دينه ، وأنفذ بصيرة . . »

وواضح من حركة الحوار ، مده وجزره ، أنه لم يكن مجرد سؤال وجوابه ، بل الأغلب على طابعه أنه كان نقاشا بينهم وبين الرجل ، يحاجونه فيه بمنطقهم ويحاجهم بمنطقه أو المنطق الذي كان عليه — عداهم — جمهور الناس ، ثم لم يصلنا منه إلا نزره وهو هذا النثر . فما كان لسؤال — أي سؤال — بادروه به في مثل هذا المقام أن يحمله على الإجابة عليه إلا بقدر مقدور . بما يلزم . بعبارة هينة « مسطحة » ، بلا بعد ولا غور ، توصل وراءها الباب فتكف فضولهم عنه ولا تغريهم بالملاحقة والإلحاح . فأما وكلمات ابن خباب ذات عمق وأبعاد ، بما حوت من وصف حالهم ، وتعريض بهم ، ونقد أفعالهم ، وإعلاء لانتظارهم على نظرتهم ، فإنها إذن الكلمات الخليقة بأن تجيء خلال جدل لا خلال استفسار . . وكذلك حتى غضبهم عليه . أشعلته صراحة " ابن ، وخوضه في شأنهم ، فاحترقت نفوسهم حقدا وموجدة ، فإذا بهم يخاشنونه :

« إنك لست تتبع الهدى . . إنا تتبع الرجال على أسمائها . . »

ونظروا إلى مصحف معلق في عنقه ، وقالوا :

« إن هذا الذي في عنقك ليأمرنا بقتلك » .

فلم يزد على أن أصابهم بسكينة الإيمان :

« ما أحياء القرآن فأحيوه ، وما أماته فأميتوه . . »

قالوا :

« والله لنقتلنك قتلة ما قتلناها أحدا . . . »

وانقلبوا عليه ينفون به وهو مستسلم صابر . فشدوا وثاقه ، ثم أقبلوا به وبأمرأته وهي حبل مته ، يسوقونه إلى مصيره . ونزلوا في طريقهم تحت نخل موافر ، فسقطت رطبة منه ، فأخذها رجل منهم فوضعها في فيه يهم أن يلوكها ، فإذا صاحب له يصيح يزجره :

« بغير حلها ، وبغير إذن ! . . »

فلفظها ولما تمسها أسنانه توقيا للحرام . . .
ومر بهم خنزير فقتله آخر . فأنكر عليه رفاقه فعلته :
« هذا فساد في الأرض ! »

وعوضوا صاحب الخنزير — وكان من أهل الذمة — عن دابته المرداة بما
أرضاه . . .

ويبدو أن هذه اللامعات المشرقة من سلوكهم قد خدعت ابن خباب عن حقيقتهم
وزودته من الأمل بزاد ظنه بشيرا بنجائه . فما هو أن رأى منهم التقدم على ما فرط في
الرطوبة ، وفي دم الدابة ، حتى استبشر ، وقال بصوت خفيض كأنما يهمس لنفسه :
« لئن كنتم صادقين فيما أرى فما على منكم بأس . إني لمسلم ، ما أحدثت حدثا
في الإسلام ، وقد أمتعنوني . . »

فإذا هو لا يكاد يكمل الهمس حتى يبادروه بنقيض ظنه . . .
قتلوه ! . .

أضجعوه على حافة النهر وذبحوه ، فسال دمه يلون صفحته في خطوط وقطرات
كأنما يخطط قصة وحشية رهيبة . ثم جاءوا بامرأته على الأثر يجرونها إلى ما أعدوا
لها من جزاء لا يستقيم إلا في شريعتهم الحقاء .
وصرخت المرأة الملتاعة فيهم ، بكل أسى قلبها الجريح :
« ألا تتقون الله ! . . »

فما ردهم عنها شيء وأن زارت ، وولولت وذكرتهم بقيم العدالة والرحمة .
وأنى لهم أن يدعوها وإنهم لا يرون رحمة إلا في عدلهم الخاص ، ولا عدلا إلا
في سنتهم ، ولا تقوى وتمسكا بأهداب الدين إلا في إنفاذ مشيئة هي نتاج زواج
حرام لأنفس مهزوزة من عقول مكزوزة . . .

وأتبعوا الرجل امرأته . فبقروا بطنها عن جنينها ، وألقوا بهما إلى جواره
سلبا هشيا لهذه العزاة . . ثم قتلوا نسوة ثلاثا أخريات لعل أحدا لا يدري بأية
جريرة إن كان لا مناص عن تقصى الأسباب لكل بدوة لأولئك الخارجة تربط
النتائج بالمقدمات . . ولكنهم إذ فعلوا ، إنما استشعروا لا ريب طمأنينة وراحة
وقد شدتهم نظرتهم المتعصبة إلى إيمان موهوم يمرهم ، ويسيطر على أحاسيسهم
فيدفعهم إلى الثقة بأنهم يفعلهم هذا قد استأدوا حق الله . .

معالم على الخيال ! . . . معالم تظهر إلى أى مدى كان القوم من جمود الضمائر واختلال التفكير . . . فلأن يأكل أحكم وطبة بغير حلها ، ولأن يقتل آخر دابة بغير ثمنها ، فإن هذه أو تلك لهى كبيرة الكبار ، والحرام الذى ليس بعده فى صفحات الآثام حرام ! . . . أما أن يذبحوا مؤمنا ، ويقطعوا جنينا مخلقا ، ويقضوا على طائفة أخرى صبرا أو غدرا وما تولتهم بسوء ولا قارفت جريرة ، فهذا هو الحلال البين الذى لا يريثهم عنه تلوم ولا يردهم تخرج ، ويقبلون عليه خفافا سراعا بالنفس الراضية المطمئنة والصدر المنبسط المشروح ! . . .

فما هى آفتهم ؟ . . . ما بلواهم ؟ . . . ما هو الداء الذى أصمهم ؟ . . . إنه الغلو ! . . . الغلو الذى يقتحم بهم كل معقول مقبول . التعصب الذى يورث الهوس فيشرد بالعقل عن كل سوية وقاعدة وقانون . الجنون الذى يشل التفكير ويمحق سلامة التقدير . . .

إن سلامة النظرة فى أمر — أى أمر — هى التى تهب القدرة على وزنه حق الوزن بغير إفسار ولا تطفيف . وعدالة الميزان هى التى تجىء بصحة التقويم . وهذه الصحة بدورها هى التى تحدد قدر الأمر من ثمن ، أو تبعته من جزاء . . . غير أن الخارجة — فيما بلوناهم من قبل ومن بعد — كانوا أناسا يفتقرون إلى حاسة التمييز التى تصنع الأتزان . . . كانوا فرقة على شبهة . كره البصائر . عقولا مضطربة ، وقلوبا غلغا ، وضمائر مألوسة . . . يتدأبون دائما بين عين ويسار ، وخلف وأمام بغير ثبات تداؤب الدبالة المريضة كلما لعبت بها نفخة نسمة من هنا ومن هناك . يعرفون القلق ولا يعرفون القرار . لا يقفون عند مبدأ ، ولا يشبتون على رأى . إنما لا يزالون يتأرجحون بين الأمر ونقيضه من لحظة للحظة ، ثم لا يعوزهم فى الإقبال ولا فى التراجع منطق أخرق يؤيد كل بدوة تسوقهم إلى اقترافها أيا فكرة عارضة . الصواب دائما فيما يأتون وإن كان من قبل خطأ لفظوه إذ ذاك وحاسبوا عليه الناس . والخطأ فيما ينبذون وإن كان من قبل صوابا طالما آزره وناضلوا عليه . النور أبدا على خطاهم . والحق أبدا ظلهم أينما تولوا ومالوا تولى ومال . فالذين يخالفون عن نظرتهم ، وينبرون لنقدها وزنا بميزان المنطق هم الخطاءون المارقون وإن كانوا المسلمين جميعا ، وإن أيدتهم فى محاجتهم عبرة الماضى ، وشواهد الحال ، وقوة التدليل .

هذه كانت نظرتهم . ومن لم يعتنقها فهو الآبق الخارج من دائرة الحق وحظيرة الدين . فكل مسلم — عداهم — ضال لأنه عارضهم يوم ظاهروا رفع المصاحف وأبى قبول دعوة التحكيم . وكل مسلم بعد هذا — عداهم — ضال حين رجعوا عن رأيهم هذا ، وشاءوا نقض ذلك العهد الذى ناضلوا على قبوله ، ثم أبرموه ، ثم ألزموا به عليا وأصحابه ، ثم ارتدوا عنه متنادين : « لا حكم إلا لله ! » . وإذا كانوا قد أقروا على أنفسهم طواعية بالكفر إذ قبلوا الحكومة ثم تابوا عن القبول ، فكيف نعفيهم من رؤية « الردة » التى كابدوها ، فى قلوب أبناء الأمة الإسلامية جميعا الذين لم ينقضوا عهد الحكومة وثبتوا عليه — وفاء — إلى أجله المكتوب ؟ ..

« الردة » هى القضاء الذى قضوا به على كافة المسلمين . و « التوبة » — بعد الاعتراف بالكفر — هى الخلاص . ومن لم يعصم قلبه بهذه التوبة التى يفرضونها فليس جديرا بأن يكون فى صف الإيعان ، ولا بأن يوقى جزاء ارتداده ، ولا بأن يعصم منهم دمه وماله وولده لأنه عندئذ أعقى شركا بمن لم يذق قط طعم الإيعان .. أما جب الإسلام الشرك ؟ .. أما برىء الله ورسوله من المشركين ؟ .. أما قال فى محكم تنزيله : « فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ، وخذوهم ، واحصروهم ، واقعدوا لهم كل مرصد » ؟ ..

زرعة بن البرج قال للإمام مرة :

« أما والله يا على لئن لم تدع تحكيم الرجال فى كتاب الله قاتلتك ، أطلب بذلك وجه الله ورضوانه .. »

وعبد الله بن وهب قال لأصحابه قبيل مخرجهم من الكوفة ، يحثهم على هجرة فى الله حق تعلو كلمته :

« .. اخرجوا بنا — إخواننا — من هذه القرية الظالم أهلها ، منكرين لهذه البدع المضلة ... »
وقال لهم :

« إنكم أهل الحق .. »

وحكيم بن عبد الرحمن بن سعيد التبانى ، قطع ذات يوم على أمير المؤمنين خطبته بالمسجد ، وصاح به :

« ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك
واتكونن من الخاسرين »

فالدعوة إذن للحكومة — في رأيهم — شرك . والحكومة شرك . والرضا بها
شرك . ولقد قال الله قوله فيمن يشرك وأبرم جزاءه فلا مناص لهم من التزام
قول الله ، واتباع أمره وإنفاذه . فمن أولى إذن في الناس بإعلاء كلمة الله ، والأخذ
بحقه ، ممن قارفوا الكفر فزعوا عنه ، وعرفوا الإيعان فثابوا إليه ؟ ..

لا سواهم ! .. وإنهم لو حدهم على البيئة البقاء . الموكلون بدحض الشرك .
المعتمرون تنقية الإيعان . الآخذون أنفسهم بتطهير الدين من كل متعهم وعابث
وإن كان عليا والذين معه ، ومعاوية والذين معه ، والأمة جمعاء بشق أقطارها من
أقصى اليسار إلى أقصى اليمين حربا بالدعوة ، وضربا بالسيف حق تنزع وتتوب ؟ ..

٣

لم ينقسم رأى على امرئ من أعلام الناس في عصر من العصور مثلما انقسم
الرأى أقساما ، وتشعب شعبا ، مع الإمام وعليه ، في تقدير مقومات بنيته النفسية
أو مظاهر سلوكه المحسوس ، ذهابا مع التقدير والتصوير من أقصى نقيض إلى
أقصى نقيض ، ومع الإقرار والإنكار من غاية الولاء إلى غاية اللدد في العداء ...
وفيما بين طرفي غايي الرأي كثرت النحل الموالية والمعادية ، كل فريق منهما
يسلك طريقا طويلا ممدودا قد تعددت مراحله بتعدد منازع الدين طرقوه . فإذا
أولى الطائفتين تبدأ من مجرد الاستسلام وإلقاء السمع له ، مأخوذة بسحر
شخصيته أو راضخة لسلطانه ، لتمضى — تدرجا في متابعتها إياه ورضاها عنه —
إلى حد تقديسه وتأليه ... وإذا الثانية تنطلق ، على سننها المغاير ، في أشواط
انشقاقها عنه ، من مجرد خلاف تضرره النيات ، حتى يصل بها سخطها
إلى تكفيره ...

شيء شق تزاحمت تنحله الصفات والأضداد في آن ، وتعاقبت على الزمن
لا تنحصر في مكان . . . إبان حياته ومماته ظاهره ، ووقروه وعبدوه . وإبان
حياته ومماته خالفوه ، وحاربوه ، وكفروه . وفي ظلال نزعاتهم — بكل غلوها

أو اعتدالها — عاشت الأرض الإسلامية تاريخها وهي لا تخلو من شعبة هنا وشعبة هناك ، تنشر بأوصافها — الموقعة منها في العداء والمفرقة في الولاء على السواء — ضبابا كثيفا حول خليقة الرجل الموصوف ، وحقيقة الأحداث والظروف . .

وما نبرئ الذين شطحوا فمالوا إليه حتى علوا به عن البشر وعدوه في المقدمات ، ولا الذين اختبلوا فمالوا عنه حتى ألبسوه الضلالة ، ولكننا — مع هذا — لا يجعل بنا أن نلومهم وإن فسقناهم وذهبنا في تفسيقهم أبعد الأشواط . فاللوم لا ينهض إلا على معاية الأسباب الموضوعية التي ولدت الانحراف إلى هذا الجانب المورغ في الإغلاء أو ذلك المورق في الإزراء ثم قياسها بالحساب المنطقي الدقيق . فأما والنزعة هنا وهناك تعبر عن « جنون » عاطفي فإنه لا سبيل إذن إلى اللوم لأن « الجبال » لا يدخل في نطاق الأفعال الاختيارية ومن ثم فلا وجود لأسباب تميز العتاب ! .

ولد أنبا رسول الله عن هذه الشطحات المجنونة من قبل أن تتمخض عنها وعن أصحابها الأيام . فلعلها عندئذ فراسة قد استقرأت في صفات الإمام ومقومات خلقه ما تكشف عن الأحداث من سلوك أو لثك وهؤلاء المدخولين نحوه بعد حين . . أو لعلها إشراقة إلهام ، طافت بخاطر خير من نطق في هذه الدنيا عن إلهام ، جعلته يحرك بمكامن صدورهم لسانه فيقول :

« فيك مثل من عيسى بن مريم . . أبغضته اليهود فبهت أمه ، وأحبته النصارى فرفقته فوق قدره . . »

وخبرهم على بنفسه من بعد ، إذ أحس منهم الشطط إلى عين أو إلى شمال ، فقال :

« يهلك في رجلان : محب غال ، ومبغض قال . . »
ولقد كان .

ولا عجب قط إن انبعث غلواء الإكبار والإغلاء من نفوس أنصاره الذين شايعوه ، أو غلواء البغض والإزراء من نفوس عدوه الذين شنأوه ، لأن المتشبع المحب يضع العيب ، والعدو الكاره يصطنعه ويهول فيه وله من حسده

الذى يسد عليه منافذ الإنصاف ويستعبد حواسه وتفكيره ذخراً ضخماً يده بما يريد . . . لا عجب قط أن يحب التشيع وأن يبغض العدو ، وإنما العجيب كله أن ينبع الحب والبغض من قلوب عرفت قدره والتفت به ثم يعزى كلاهما إلى الشأو الذى تتحطم دونه الحدود والأصول ، وتتيه فيه الأخيلة قبل العقول . .

ومع هذا فقد اجتمعت فى شيعته الفئتان ! . . فى أنصاره من ذوى الهوس الدينى اجتماعاً ، ونضحت كل فرقة منهما بما فيها ، هذه تغلو فى حبه ، وتلك تغلو فى بغضه . لأن الغلواء يدين العقول التى تدين بعبارة « الحرف » فيسيطر عليها عناد يجعلها دائماً حبيسة نص مسطور لا تستطيع أن تستكثنه دواعيه ولا مراميه . وهام أولاء القراء ، فيما تكشف من سلوكهم وأحاديثهم ، أناس قد كلفوا الكلف كله بالإصرار على ما يرون أو يريدون ، لا يحولهم عنه منطق ولا برهان ، فعاثوا فى غيابة جب من الجمود إن لم يكونوا تحولوا هم أنفسهم — عقولا وقلوبا — إلى جمود الجمود . .

ولقد علمنا كيف ارتد فريق منهم عن موالاته إلى معاداته ، ثم شطح بهم هذا العداء المجنون ، بعد التحكيم ، إلى رميه بالكفر والمروق حتى أباحوا دمه ودم أعوانه ، وعدوا حربه جهاداً فى الله ، إلا أن يشهد على نفسه بالشرك . ويتوب . . فكأنما اقتضت طبيعة الوجود التى تجمع فى وفاضها الأمثال والأضداد : كثافة إلى شفافية ، وجموداً إلى سيولة ، ومواداً إلى بياض ، أن تعادل أيضاً بينهم وبين طائفة على نقيضهم تجثم على الطرف الآخر من الغلواء . . على نقيض أولئك الغالين فى البغضاء نجمت فرقة بين أشياعه سلت من صدورهم وأخلاقها كل ما لعله قد يחדش صفة من صفاته ، أو يعس باللمسة الرقيقة الناقدة ، بل المتدبرة ، ذاته . . لا عن روية وتقدير فعلوا ، وإنما — لا ريب — عن هيام مجنون بشخصه ، صدر عن خبال ، وسدر فى إكباره إلى ما يجاوز كل مقبول معقول ، ويخرق كل تصور وخيال . . إنهم ليرقون به إلى النبوة . فإلى التنزيه . فإلى التقديس ، فإلى الإلهية المألكة الخالقة ، القادرة الرازقة ، الآبدة الواجدة ، الواحدة المعبودة . .

. . . إن منهم لمن اقتطعوا له نصيباً من نبوة رسول الله . . .

... وإن منهم لمن علوا درجة في غيهم فافتروا على محمد أنه كتم عن الأمة من الوحي تسعة أعشار ، فأزاح على الستر ، وأظهرهم على السر ، حتى لقد كانوا يقولون :

« هدينا لوحي ضل عنه الناس ، وعلم خفي عنهم ! ... »

وإن منهم لمن حسبوا أن « إيمانهم » به معفيهم من الحساب ، لأنه يرفع عنهم التكليف ! ...

... وإن منهم لمن أمعنوا في شطحيتهم هذه ، حتى لقد أسقطوا الثواب والعقاب ، ومجدوا البعث والنشور ، قائلين :

« إنما الثواب والعقاب ملاذ هذه الدنيا ومشاقها ! »

... وإن منهم لمن قالوا بخلوده ، وببقاءه على الدهر ، لم يردم عن ذلك أن مات وطواه التراب . فما مات ، وما يمكن أن يموت ! ... بل غاب إلى حين ، ولسوف يعود :

« لم يموت ! ... وإنه لفي السماء ... »

ثم اصطنعوا من ظواهر الطبيعة شاهدا على ما يزعمون . فالبرق صورته ، والرعد صوته . وكلا أرعدت السحب ، وسطعت في جوانبها ومضات البرق ، رفعوا وجوههم نحوها في خشوع ، ورددوا يحيون :

« السلام عليك يا أمير المؤمنين . »

... وإن منهم لمن جعلوا له الحساب ، يعذب إذا شاء ، ويثيب إذا شاء ...
مر يوما يقوم يأكلون في نهار رمضان ، فهاله ما رأى منهم ، وأقبل يستفسرهم سر قتلهم الشنماء :

« أسفر أم مرض ؟ ... »

قالوا :

« لا ، ولا واحدة »

فعاد يسأل :

« فمن أهل الكتاب أتم ، فتعصمكم الدمة والجزية ؟ ... »

« لا »

« فما بال الأكل في رمضان ؟ . »

فإذا بهم يجابهونه بالرد الذي يجافي السليقة قبل أن يوقر الأسماع أو يزلزل العقول ، فيدعون أنه هو عاصمهم من جزاء ما يقترفون ، قائلين :
« أنت أنت . . »

ويصخب :

« ويلكم . . . إنما أنا عبد من عبيد الله . . »

ويسجد عبودية لله ، ويلصق خده بالتراب .

لكنهم لا يرجعون عن هذا « الإيعان » بربوبيته وإن توعدهم أن يحرقهم بالنار ، بل يزيدهم وعيده تشبثا بإيعانهم المزعوم ، فمن يعذب بالنار غير الله :
. . . وإن منهم لمن ادعوا أنه الخلاق الرزاق ، فقال له قائلون :
« أنت خالقنا ورازقنا . . »

وقال آخرون :

« لو شاء لأحيا عادا وعمودا وقرونا بين ذلك كثيرين ! » .

فرق ونحل تدرجت في مراتب الولاء له ، شعبة بعد شعبة ، وفرقة وراء فرقة ، على طريق الزمان المحدود ، وفي نطاق الدولة التي ترامت برقعها التخوم والحدود . لم تنحبس حيث عاش ، ولا حين عاش وكان له سلطان ، وإنما انطلقت تردد دعوتها ودعواها أينما كان له شعبة وأتباع ، وأيان سرى ذكره ولقفته أسماع . . .

وما زبد أن نغضى شوطا آخر مع هذا النوع من الغلواء ، فبحسبنا أن رأينا يرق بطبيعة الرجل « البشرية » إلى « الإلهية » وهو قصارى ما يمكن أن تبلغه عواطف الولاء . . . ولكننا نحاول أن نكمل الجانب الآخر من الصورة ، ليلتقى الضدان . ويجتمع النقيضان . .

إن الأنفس التي خامرتها البغضاء ، ليس يعينها في شيء — إن هي أسلست لجوحها القياد — أن تجار بماطفتها على ملأ الناس قدر ما يعينها أن تجتر هذه العاطفة وتلوكها في دخيلتها ، تلمذا بها ووفاء للمادة ، كما يلوك المدمن مضغة التبغ ، قد لا تنفعه ، بل تؤذى حلقه ، أو تنوشه بغشيان فلا يعنيه إلا أنها تشيع في كيانه « متعة » نذوب فيها أفدح غضاضة ، وأقسى أذى ، وأعق غشيان . .

كهنه الشاكلة رأينا من رجاله — دع عنك مناوئيه — طائفة قد كتبت
إلا عن « عالم النفس الداخلي » بغضه ، يعيشون معه وهم قواقع قد انطوت
أصدافها على الغل وإن لاح ظاهرها براقا أملس يبهز النواظر حتى لتسلكهم
— مخدوعة — في صفوف الأعوان . . رأيناهم رياء يدب ويخطر على قدمين :
على الشفاء عبارات ولواء ، وفي القلوب دودة بغضاء . . بعضهم أخفى غله ، ووسعه
أن يسيطر في صدره على ناره أن تثور إلا نفضات دخان تتسرب حيناً من الرجل
الفوار لنهداً ثانية إلى حين . . وبعضهم أعجله مأرب ففسد « الصمام » واندلعت
النار . . .

ولا حاجة بنا كما أسلفنا ، لتقصي كافة المدخولين ، وأنهم لكثير ، في صفوفه
وفيمن اعتزلوه وبدوا من شيعته وشيعة عدوه على سواء لا إلى أولئك ولا إلى
هؤلاء . . ولكننا حين نعرض لتلك الطائفة منهم ، التي أظهرت ميلها إليه ،
وانخرطت حيناً في سلك الأعوان ، نجدها قد آزرت عن ألف دافع ودافع إلا عن
اقتناع ولا نقول عن إيمان . . فالصيت الذي تضيفه عليهم متابعتهم إياه مدعاة .
والقرب فيه من صفي رسول الله مدعاة . وخشية تقمة عامة قومهم عليهم مدعاة .
والمباهاة والفخر والخيلاء مدعاة . والتطلع إلى ثمرة مظاهرتهم مدعاة . وكلها
وغيرها عروض وقشور لا تثبت قط عند الاختبار . .

ولعل المثل ، ونحن نعجم قرائن الحال لنسوق الأمثال ، لا يعوزنا حتى فيمن
لهج بحمده على الأشهاد ، وسل القلم واللسان ينضجان عنه ، ويفضحان غريبه
بمقدع من النعوت والأوصاف طالما تناقلتها الرواة . . لعل المثل قد لا يعوزنا
في « النجاشي الشاعر » الذي أسال فكره قريضا ونظما يفيض ثناء على مناقب
الإمام وإعزازاً لأمره ، وهجوا لابن هند وتحقيراً لشأنه ومسلكه . . ومع ذلك
فلا يكاد هذا الشاعر الغاوي يتعرض للامتحان حتى ينقلب الميزان ، فإذا هو يرتد
عن نهجه ، وإذا الممدوح هو الخلق بالهجاء ، والذموم هو الحقيق بالثناء . .

خلط من الخلط يجره الهوى . ويفرضه الإخلاص الأثيم للذات ولا نسائل
أنفسنا فيم كان انقلاب الرجل ، أعدولا عن باطل كان ، أم استجابة لحق ، أم
تشبهاً بعبداً جديداً . . لا نسائل أنفسنا وأماننا من خبره قرينة حال تغنى عن
كل سؤال :

كان ذلك ذات رمضان . في أول نهار من هذا الشهر الذي يعف المسلمون فيه عن الطعام والشراب والشهوات زكاة للنفس وتعبئة لقوى الروح . وكان النجاشي قد خرج من بيته يسير إلى غير غاية كأنما ليشغل بعض وقته ويعلا بالحركة ما يحسه فيه من فراغ ، فإذا هو يمر بصاحب له ، قد لاذ بفناء داره فأقرأه السلام . . . قال الرجل وهو يدعو أن يلزمه لعله يغريه بالقبول :

« . . . وهل لك في رموس وأليات قد وضعت في التنور في أول الليل فأصبحت قد أينعت وقد تهرأت ؟ »

فراجع الشاعر سمعه ثم رد في استهجان :

« ويحك ! . . . في أول يوم من رمضان ؟ . . . »

لكنه قبل . الطعام أغراه ، ثم أغراه بعده النبيذ ، فأهدر صومه ، وخرق شريعة الله . . . ثم راح يعب وصاحبه من الشراب حتى فقد الوعى وعلا صياحهما المحموم ينبىء عما اقترفا . . . فلما انكشف الأمر ، وأخذ بسكره إلى الإمام أمر بحمليه ثمانين جلدة وزاده عليها عشرين . . .

وكأنما هاله الجزاء فأطلق لسانه يقول :

« يا أمير المؤمنين . . . أما الحد فقد عرفته ، فما هذه العلاوة ؟ »

قال على :

« لجراءتك على الله ، وإفطارك في رمضان . »

فمن عجب أن تأخذه العزة بالإثم وتأخذ معه طائفة من الليانية ، فيها طارق بن عبد الله بن كعب النهدي . . غضبوا له ولم يفضبوا الله ، فمشوا — بمنطق الاستكبار والاستعلاء — إلى الإمام يحاجونه وينكرون عليه ما كان . . . قال له طارق :

« يا أمير المؤمنين ، ما كنا نرى أن أهل العصية والطاعة ، وأهل الفرقة والجماعة عند ولادة العدل ومعادن الفضل سيان في الجزاء حتى رأينا ما كان من صنيعك بأخي الحارث . . . »

أنهَذَا منطق تناقض به جريرة الشاعر . . . أم يرون قسطاس الله يحابي الناس على أصولهم فيلين بهم ما شرفت الأصول وإن خفت الأعمال ، ويشدد عليهم في العقاب إن انحفضت الأحساب ، . . . أم يريدون الإمام على أن يشتري من أتباعه طاعتهم بإهدار أحكام الله ؟ . . .

وكرهه قولهم ، ولكنه استمسك ما استطاع ليلفظ في وجوههم جوابه الذي لا جواب غيره في مثل هذا المقام :

« يا أخا نهدي . . وهل هو إلا رجل من المسلمين انتهك حرمة من حرمات الله . . »

ومع ذلك فقد أدلج طارق والشاعر بلبل يفران من الحق إلى معاوية ، ملتحقين به ، ولاقيين في رحابه النعمة التي يجدها عنده كل خوان . . ثم لائذين بمجلس لديه لا يتشدد رواده في صباح ولا مساء إلا بالطعن على الإمام واستخراج العيوب والمثالب من كل مكرمة وسعها خلقه واستوت في سلوكه وطبعه مع سواها من المكرمات تؤلف شعاعا هاديا لمن أراد الانطلاق على غير شبهة في طريق الله . . ولقد شاء معاوية كدابه ، وإنه لفي أسر غله ، أن يدهن الوافد الجديد على حساب القيم الحلقية الرفيعة فراح يثلب محامد الإمام ويلطخ صحيفته النقية بالافتراء ليبدى صحيفة كل مرتد عنه منتقض عليه ناصعة بقاء . . . شاء هذا فأطلق لسانه ما وسعته عبارة ذم ، وبالع ما شاء ، ثم غلا في قدحه إلى شأ ولم يستطع عنده أولئك المرتدون أنفسهم التصبر على السكوت ، فاتفقت طارق من بينهم يعارضه ويقول :

« يا معاوية . . إني متكلم فلا يسخطك . . »

وتكلم . . لقد أنطقه الله عندئذ بكلام ليس من ثناء قط إن لم يكن هو الثناء ، على الإمام ، والذين معه من رجال . فهم منار للهدى . وهم معالم للدين . وهم عدول ، ليسوا بنا كثيرين ولا قاسطين . . وإنا غير هذا زمرة الناصلين منهم ، المنحرفين عنهم ، المنحازين مع الأهواء ، وإن كان هو أحدهم ، وإن أوشك أن يقرن طاعتهم بمن صباؤ عن الإسلام . . .

كان مما قال :

« . . فلم يكن رغبة من رغب عنهم ، وعن صحبتهم ، إلا لمرارة الحق حيث جرعوها ، ولوعورته حيث سلكوها . . غلبت عليهم دنيا موثرة ، وهوى متبع ، وكان أمر الله قدرا مقدورا . فلقد فارق الإسلام قبلنا جيلة بن الأيهم ، فرارا من الضيم ، وأتقا من الذلة . . فلا تفخرن يا معاوية إن نحن شددنا نحوك الرجال ، وأوضعنا إليك الركاب . . »

... وإن نحن أطفنا بأولئك الذين عاشوا على رياء في صفوف الإمام طوال حياته ، يصابرون حقدهم أن يشور ، ويكتفون عن الإظهار بالإضمار ، وعن المكاشفة بالاجترار ، لرأينا على رأسهم الأشعث ، الذي كان يحسب دائماً في أعوانه حين القياس بالأقوال ، وفي عدوه وشائتيه حين تعجم النيات أو تستقصي الأهداف الخفية وراء أية بادرة بدرت منه ، يستوى في هذا مانده من بادرته التلميح ومظاهر السلوك الصريح .. ولئن كان قد ظل دائماً في ركاب الإمام ، فإنه لم يكن ، في حقيقة الأمر وحكم الواقع ، محسوباً له بل محسوباً عليه ، ومنتقصاً منه لا مضيفاً إليه . . . ولئن كان قد التزم بحبته ولم يفارقه ، فللأنفة فعل ، والمباهاة والتفاخر وليس للولاء والوفاء . . . ولعل أبلغ ما يصور لنا موقفه ، ذلك الحديث الذي جرى به لسان الهيثم بن الأسود أبي العريان ، حين استفسره معاوية مقدار إخلاص أهل العراق وأهل الشام ، كل فريق لأمره ، وصدقهم له النصح ، وفي سبيله البلاء . . .

قال له معاوية يسأله ، عقب التحكيم :

« ياهيثم . . . أهل العراق كانوا أنصح لعل في صفين ، أم أهل الشام لي ؟ . . »

فبادر على الأثر يجيب :

« أهل العراق قبل أن يضربوا بالبلاء كانوا أنصح لصاحبهم . »

فعجب معاوية :

« كيف قلت ذلك ؟ . . »

قال الهيثم يوضح له :

« لأن القوم ناصحوه على الدين ، وناصحك أهل الشام على الدنيا ، وأهل الدين أصبر ، وهم أهل بصيرة . وإنا أهل الدنيا أهل طمع . . ثم والله ما لبث أهل العراق أن نبذوا الدين وراء ظهورهم ، ونظروا إلى الدنيا فالتحقوا بك . . »

هنا جاءه من العاهل الأموي السؤال الذي لعله طالما تردد في كل خاطر

آنذاك ، في العراق ، وفي الشام ، بل في كل بقعة غيرها من ديار الإسلام :

« فما الذى يمنع الأشعث أن يقوم علينا ، فيطلب ما قبلنا ؟ . . »

فكان فعل الخطاب الذى يعاير العلة بأدق معيار .

« إن الأشعث يكرم نفسه أن يكون رأسا فى الحرب وذنبا فى الطمع ! . . »

وصدق الهيثم وأصاب .

فعلى هذه الشاكلة ، شاكلة النجاشي وطارق والأشعث ، كانت كثرة من رجال الإمام ، فى تلك الحقبة من تاريخه التى تلت صفين . . كثرة تضمر السخط — إن لم تكن تضمر الحقد — وتلوكه ، تلذذابه ، ووفاء للعادة على أقل احتمال ، كما يلوك المدمن مضغة التبغ ، هى لا تنفعه ، بل تؤذى حلقه ، وتنوشه بغشيان ، ولكنه لا يكف ، لأنها تشيع فى كيانه « متعة » نفسية تذوب فيها أفدح غضاضة ، وأقسى أذى ، وأعتى غشيان . . .

ولكم تحطم فى نفوس بعض أولئك الكثرة المرائية الصمام فانبعس البخار المكتوم . أما الآخرون فوسعهم أن يصابروا محنة نزوعهم إلى الانسلاخ عنه إلى عدوه ، فمكثوا حيث كانوا منه ، قرييين بالمسافة ، بعيدين بالإخلاص ، عن أنفة وكبرياء ، لا عن عقيدة ولا ولاء . . .

٤

تحفزت الأوصال للحركة ، وامتلاأت القلوب بالتطلع . . النخيلة ناشطة كما لم تنشط قط من قبل فى عهدى الأخير . الخطا لا تستقر على أديم المواقع . الجنود تحتشد لتنتظم . المطي تخطر وتطفر . السلاح يلتصع على وهج الشمس ، ويخايل بريقه الأعين . فى النواظر لهفة ، وفى الجوانب وجيب . فالأيام القلائل المقبلة — المغلفة بعد بالغيب المجهول — تنسج ، فى خفية عن الظنون والأحداث ، خطوط الأحداث التى تشكل المستقبل .

أينما استدار بصر كان ضجيج يشور رجه تحت الحف والحافر . وأينما مالت أذن كان وقع وقعمة . وأينما سرح ذهن كان حدث يهم أن يتخلق جنينا فى بطن الزمن وراء مشيمة من ضباب التوقع لاتنى تشف وتشف لتتشق عنه . . كل حركة فى الأرجاء المائجة تنبئ عن عزم مستور . .

وعلى الأفق لون الدم . فى الهواء رائحته . فى العروق النافرة سوريته وحياته . .
 مامن امرئ هنا إلا رنا ، بلا حظ عينه أو ذهنه ، إلى حلبة تعتنق فيها الأسنة الهوج
 لتصمى وتبتر ، وأجساد تلتقى وتضطرب لتتهاوى فى سواد السنابك ، وبقاع
 تنفسح وتضيق كالأفواه المتلحظة لتلتقم ذوب الأنفس . . ، ما من يد إلا تشرعت
 للطمان . . مامن خيال إلا ارتحل بصاحبه عبر الزمن والمسافة ، شرقاً أو غرباً ،
 إلى موقع صدام منتظر ، يحجبه اللحظة عن الرؤية — وإن طالعتة قوى التصور
 القلق — هيكـل تل ، أو منبسط بادية ، أو شريعة ماء . .

فأما الملتقى فقد تفرقت عليه الأفهام . المنطق أحياناً يرسمه والوهم أحياناً
 يبينه . . أهو بعيد بعيد ، أم هو قريب قريب ؟ . . أعلى كشب ، أم دونه مراحل
 تتقطع عليها الأنفاس ، وتتمزق الأقدام ؟ . . أفى ساحة الأمس ، أم بمكان يباعدها
 أو يدانيها ، تجسسه الرغبة أو تحدده الصدفة واحتمالات الظروف الطارئة التى
 لا تخضع لقواعد الإعداد ؟ . .

تفرقت عليه الأفهام !

طائفة طمأنتها الأمانى وتلقت الحركة الدائبة بغير احتفال . ما عسى يغريها
 بهذا الضجيج الذى يشغل الجسوم ، وبهذا التوقع الذى يعلأ الحواطر وإنها —
 لفرط التصاقها بفكرة السلم — توشك أن ترى المنظر كله فقاعة هواء لا تلبث
 أن تنفث ، ثم يرين الهدوء . الناس ، فى رأيها ، استرخوا للدعة ، ولد لهم مذاقها
 فراحوا يلوكونها ناعمين . . .

أولئك فريق الامتسلام !

طائفة أخرى التصق يومها بأمسها ورأته معبراً لا معبر غيره لغدها المرقوب
 الذى تتوسم فيه النصر والوحدة والسلام للأمة جمعاء . إذ تأكل الحرب بنارها
 عوامل الفرقة ، وتمحق دعاة الفتنة ، وتطهر الأرض الإسلامية — طولها وعرضها —
 من درن الانقسام . . فإلى أين إذن تكون الوجهة إن لم تكن هى الشام ،
 أو مشارفها ، أينما كانت لأمرها المتمرد بقعة يدل فيها بسلطان ؟ . .

أولئك خاصة الإمام . .

طائفة ثالثة حزبها — أو خالت ، أو بدت كأن قد حزبها — أمر خارجة النهر ،

فراة أن نهطع إليها بموقعها فتقصها ، تأمينا للكوفة ، وقضاء على احتمالات غزوها من وراء أظهر أهلها حين تدعوهم الدواعى إلى الانطلاق للقاء فاصل بينهم وبين متمردة الشام . .

أولئك كانوا الأشعثية — رجال الأشعث بالولاء أو بالانحياز — سواء منهم الذين أضمرُوا مسألة معاوية عن عزم معقود غلفوه بخاطر أصحاب النهر ، أو الذين منهم استجابوا لدعوة الرعب مخدوعين . .

ولقد يوشك من يرى المنظر العام لهذه البيئة التى تشابكت فيها خيوط الاتجاهات ، واشتبه الرأى ، أن يظنها قد أجمعت أمرها على المعركة الفاصلة التى تحسم كل تردد ، وتقضى على ما نشب من خلاف بين الأمة ، وتضع حدا حاجزا بين مقتضيات الظرف الحازب وبين التذاؤب مع الآراء مرة تقدما إلى أمام ومرة تقهقرا إلى وراء . . يوشك أيضا من خبر الموقف ، وسبر غوره ، أن يتنبأ بفسار المطى ، وآثار الأقدام ، ومواقع الصراع المنتظر والجيش عندئذ يتأهب للانطلاق . .

لا جدال فى هذا . فالإمام قد قال . والناس استجابت ، والجند احتشد وغدا فى الحلقة والدرقة . . غير أن الأبناء ، فى نفس الوقت ، كانت ما زالت ترى عليهم ، تدخل فى آذانهم كلمة أو عبارة ، فتخرج من حلوقهم هلعا أو رهبة . . إن منهم لن يصوغها كما يهوى ، ويلفها بما يزلزل الأئدة ويرج الأوصال . وإن كثرة لتوغل فى تصوير الهول وعقباة ، ويتطائر حديثها متفجرا حتى يبلغ سمع الإمام ، فيستحضر ابن مرة العبدى إليه ، ثم يبلغه أمره لعله يأتيه من لدن خارجة النهر باليقين :

« اخبر لى خبرهم ، واعلم لى أمرهم ، واكتب إلى به على الجلية . . »

ويعضى الرسول . .

ويتلبث الناس على ترقب بريده أو سمته يطلعه لهم الأفق فى صباح أو مساء ، ولكنهم لا يظفرون إلا بنبأ هو آخر ما كانوا يتوقعون من أنباء . فلقد أصبح الرجل نفسه الخبر المرقوب وغدا فى الغابرين بعد أن قتله الخارجة وقد أبوا أن يسمع منهم أو يسموا له . . .

عندئذ اشتد الهول ، وعلا التصايح حول على والجيش بهم أن يأخذ طريقه إلى الشام . . .

وتزاحمت عليه أصوات في جرسها من التمرد أشد مما بها من إنكار :
« يا أمير المؤمنين .. علام ندع هؤلاء وراءنا يخلفوننا في أموالنا وعيالنا ؟ .. »
وقال منهم من حسب أنه يأتي بفصل المقال :

« سر بنا إليهم ، فإذا فرغنا مما بيننا وبينهم ، سرنا إلى عدونا من أهل الشام . »
ولم يخل الجمع من رءوس تستدير ، عيانا أو مخالسة ، صوب الأشعث ، كأنما يذكرونه رأيه ، ويعلنون تأييده ، ويستحثونه أن يظهرهم هذه اللحظة ، كدأبه في لحظات الفصل التي تقلب الميزان ! . . . ولقد وقف الرجل هنيئة مزوم الشفتين وإنه ليشعر أنه في غنى عن الكلام . فالهرج قد وقع . والتمرد أطلع قرنه . وما غرسه في الليالي الطويلة وتعهده عوده قد أضر الآن ! . . .

ومع ذلك فقد تكلم . ردد ثانية دعوته . أخذه زهوه بانتصار نظراته فلم يستطع الصمت والكتمان . . .

وكرة أخرى انقلب القوم إلى ما أوشكوا أن يخرجوا منه . أن يتحرروا من إيساره . أن تغتسل عقولهم من عواطفهم الموهومة الرعناء . . . كرة أخرى سيطر عليهم الدعر ، أو سيطرت النزوات المنحرفة أو الرغبات المخدوعة فإذا بهم يلبون بأعنة مطاياهم ، ويقسرون الأقدام على غير ما اعتزمت من قبل . . .

أفصرع العبدى حقا هو الذى قلب الميزان ؟ . . .

ذاك ما لعله بدا حينئذ لمن عاش معهم هذه الحنة النفسية وتنفس القلق والصخب والثورة على ما سبق لهم الاتفاق عليه وأبرموه في لحظة تعقل ، أو لحظة ولاء للهدف الحق ، خطفت كومضة البرق ثم ذابت مع الظلام ! . . .

لكن الصرع لم يزد ، في الواقع ، عن تملة مصنوعة ، تعلموا بها ، أو تعلمت بها فتنة الانقسام وعرفت كيف تفرسها في أذهان الناس لتعدل بهم عن السير إلى الشام . . . لقد عملت فيهم — وإن لم يفطنوا ، حمى السلام لتدعهم بعد قليل صرعى استسلام .. وإذا كان الأشعث بن قيس قد نعم بما أفشى ، إذ انفتح أمامه الطريق إلى مشتاه ، فإن تقرا من جمعهم هو الأقل ، مضى الشوط على كره

وفي حسابانه أنه حلقة — تقدمت أو تأخرت — ليست خاتمة النضال المنشود على أى حال . أما الأشعثية ، وأما الانهيار النفسى ، وأما سطوة القدر المتربسة بالسوانح والأخطاء لتجعل منها وسائل إلى ما تروم ، فسكاهما عرفت أنها نهاية المطاف . . .

وعندما بدأ الجيش العلوى عندئذ زخفه فى الرحلة الجديدة ، كان يطوى السجل على هدف نضاله ، وينحاز إلى درب فرعى لا يفضى به إلى الغاية بقدر ما يفضى إلى تيه من التخبیط فى ضباب أحداث ، فإنها موج فى يدي عاصفة ، لا يعرف مذهبه ولا مأتاه ، ولا يرسم هو خطوطها ، أو يحدد إليها مسالكه ، لأنها هى التى كانت تحركه ، وتزلق به — عن غير إدراك منه بخطر المزلق ، ولا قدرة على التحكم فى نفسه — لتصنع ، على هواها ، مصيره . . .

٥

عبر الجسر ساسكوا على دير عبد الرحمن ، ثم مضوا على دير أبى موسى ، ومنه على شاطئ القرات . .

على ضفة النهر خطوا رحلة النهاية . . . لعل التراب ها هنا لم يحفظ أثر الأقدام . . لعل ربيع الشتاء الآفل سفت عليه ونسكته . . لعل رموسا عديدة ودت — من بعد — لو استطاعت تخيلاتنا طمس معالم هذا السير . . فلم يطمح الناس إلى نسيان ما يسيئهم والفرار من ذكره . .

ولم يكن الإمام ، وهو يؤمهم فى الانطلاق ، إلا مثقل القلب ، نفسه حزينة ، وحلقه ممرور . . . كان له مظهر القائد وليس له إلا انصياع المقود . كان ريشة على تيار .

إنه ليعلم أنهم أخطوا السبيل ، من البدء كان يعلم . وكان قلقا من عاقبة ما يفعلون ، منذ خدعة المصاحف . . منذ وقف القتال . . منذ فرضهم أبى موسى الأشمرى عليه . . منذ مهزلة الحكم . وطوال الأيام التى صرفوها تعللا وتلكؤا عن تلبية ندائه لمعاودة استقبال معاوية بالسلاح كان يخشى منهم ألا يتابعوه ، ألا ينتظمهم أمره ، ألا يوفوا ، بسلوكهم هذا ، على الغاية التى رسمها من أول

لحظة خرج فيها من مدينة الرسول لضرب التمرد وقمع الفتنة رأبا للصدع الذى أحدثه مناوئوه فى جدار الإسلام . . .

ولكم كان هينا عليه أن يحملهم على غير ما أرادوا وذهبوا إليه مذهبهم الملتوى عن هدفه . فما زالت به قدرة ليقف فى وجه السيل . . وما زال بينهم نفر يؤمنون نفس إيمانه بنظرته . . . وما زال أمة رجاء فى أن يتابعه جمعهم الحاشد وينصاع لأمره ، ولاء له ، أو هيبة منه ، أو تظاهرا بطاعته . فكيف إذن عدل عما فى مقدوره إلى هذا الذى حملوه عليه ؟ . . .

لو أنه لم يعدل إنه إذن لراكب بهم ، وبنفسه ، وببضاله كله أضعف مركب وأسوأ يمكن أن يسير إلى غاية يتطلب بلوغها اجتماع القلوب قبل اجتماع الأبدان . وما انتفاعه عندئذ بجند إن يكونوا ككسفة الليل — لو تراصوا أمام العدو قد يحجبونه عما وراءهم بمددهم الوافر — فإنهم أيضا كستار ضباب ما إن تلتصع أشعة الشمس حتى يتبدد ويذوب . . . إن أعنى أسلحة الحرب وأقدرها على انتزاع النصر من بين أنياب الموت هى ، لا ريب قوة النفس وقدرتها على التحكم فى جوارح البدن وموجبات الذهن تحكما كفيلا بأن يروضها على مواجهة أى موقف قد تفجؤها به احتمالات الصراع الحربى — المتذائبة أبدا بين مد وجزر — بمسلك تلقائى حاسم ، منبعث من جنان ثابت ، يفرز الجلد والصبر والإصرار ، ولا شية فيه من تردد أو قلق أو خشية . . « الروح المعنوى » هو السلاح الأول والفعال فى كل قتال . وهؤلاء الذين ينطلقون معه الآن — أو ينطلقون به — إلى النهروان ، كان قصاراهم ، لو التقوا بأهل الشام آوتهم هذه ، أن يكونوا ظلال رجال ، قلوبهم جوفاء ، ونفوسهم هباء ، وعيونهم وإن يكن حمالقها يمتد أما ماصوب جند معاوية ، فإن أعصابهم ، التى هدها القلق على ذويهم بالكوفة ، خليفة بأن تشدهم إلى وراء . . .

فأية كارثة كانت حرية بأن تحيق بهم لو أنه « ساقهم » إلى معركة تشهدها منهم الأبدان ويغيب الجنان ؟ . . وبأى سلاح كانوا سيقتلون وقد جردهم القلق من أقوى سلاح . . إنها إذن « سوقة » إلى المصارع . إلى مذبح لا تقتناثر على ساحتها الجوارح والأشلاء بل تدفن كذلك تحت ثراها القيم والمبادئ التى يناضل

طوال حياته لرفع علمها إلى مسار النجوم . وإذا كان هو اليوم قد استلان لهم بالإذعان فلائها — في حساباته — أزمة نفسية لعل جنوحه اللحظة إلى جانبهم يخفف عليهم شدتها ليجتازوها بأمان .

لقد كان ، مع كل ما ثقل عليه منهم ، يدرك ما يثقل عليهم . ويحاول بكل طاقة أناته واحتمال صبره أن يعيد إلى نفوسهم طمأنينة سلبتهم إياها أحداث قد شحنوها — إبان فزعهم الفارض — بأفزع خطر موهوم . فإذا رأى الآن أن يشفى بهم على ذلك الخطر ، ويكشف لهم عن حقيقة الطبل الأجوف فيه ، فإنه إذن للشفاء . . .

وكذلك مضى معهم إلى الدواء المر ، ونفسه لا تخلو من رجاء أن يجتاز بهم المحنة النفسية التي يمانون منها كل هذا العناء . فالخارجة لا تهوله وإن تعضل به . والنصر عليها ميسور . وتطهير الأرض من طغمتها مزود رجاله بزاد من روح معنوى هو أقوى الأسلحة التي يفتقرون إليها أشد افتقار حين يشدون الرحال . للقاء متمردة الشام . . .

ولم تهتز أيضا ثقته . فما كان شيء في الدنيا بعينه من سياسة الحكم أو الناس هو الذى دائماً كان بما فى يد الله أوثق منه بما فى يديه وأرسخ إيماناً بقدره وإن جاءه هذا القدر بأهول ما تسوقه الأقدار . . . وعندما اجتاز الجسر ، وهم أن يبدأ الخطأ على الطريق ، مثل بين يدي ربه ، وألقى نفسه فى ذاته القدسية فى ركعتين ، نأى فيهما عن عوالم المخلوقات . فاعله عندئذ قد راح يجلو يقينه . لعله استزاد فى شعلة روحه . لعله غسل بابتهاله ما عساه قد علق بذهنه وبقلبه من غضب أثاره فيهما كنود أصحابه ولاث ما كان عليه من صفاء . . .

ومضى وإياهم والنهر وإنهم أجمعين — وإن اشتدت الأسواق تحتهم تحت السير — قد تعثرت عزائمهم ، واضطرب فلكها ، بعضهم من غيظ ، وبعضهم من ندم ، وبعضهم من حيرة بين أولئك وهؤلاء ، دع عنك تلك الطائفة للشبوة التى استطارت بها الفرحة برجعان رأيها وكانت — دونهم — على زهو وخيلاء . . . حتى إذا قطعوا أشواطاً ، وأوشكت بهم مراحل السير أن تشرف إلا قليلاً على على مجمع الخارجة ، أقبل امرؤ له هيئة وسمت ، يشق طريقه بين الحشد إلى الإمام .

وتساءل أناس .

وتهاشم ، فيما بينهم ، آخرون .

« منجم ، يعرف أسرار النجوم ، ويقرأ الأقدار . . »

واقترب صاحب السميت المرموق ، من ابن أبي طالب يناديه :

« يا أمير المؤمنين . . »

فتلبث يصغى .

« يا أمير المؤمنين . . لا تسر في هذا الوقت إليهم . . . »

ورمقه الإمام بنظرة استفسار . فأردف الرجل يقول ولهجة تفيض بالتوكيد ،

وكانها صيحة القضاء :

« لا تسر ! . . إنك إن سرث ، يا أمير المؤمنين ، في هذا الوقت ، خشيت

ألا تظفر برادك . »

« ومن أين علمك بما تقول ؟ . . »

« من طريق علم النجوم . »

عندئذ ارتسمت بسمة ساخرة على وجهه على وهو يثر الرجل نظرة إنكار :

« أزعم أنك تهدي إلى الساعة التي من سار فيها صرف عنه سوء ، وتخوف

من الساعة التي من سار فيها حاق به الضر ؟ . . . »

ورمى ببصره يدور في رجاله ، كأنما يحشهم أن يحسنوا الإصغاء ، ثم أكمل

يقول :

« . . إنك لتبتنى في قولك للعامل بأمرك أن يوليكَ المجد دون ربه ، لأنك —

بزعمك — أنت هديته الساعة التي نال فيها النفع ، وأمن الضر . . . ألا فمن

صدقك بهذا فقد كذب بالقرآن ، واستغنى عن الاستعانة بالله . . »

ثم استقبل الناس يحذره :

« أيها الناس ، إياكم وتعلم النجوم إلا ما يهتدى به في بر أو بحر ، فإنها

تدعو إلى الكهانة . فالمنجم كالكاهن ، والساكن كالساخر ، والساخر كالكاfer ،

والكاfer في النار . . . »

وحيث خطاه :

« سيروا على اسم الله . . »

ولم ينقطع قط اتصاله بالخارجة . مرارا عدة استفاءهم إلى الطاعة ، وأملى لهم في مراجعة النفس عما نزعته إليه ظلمة . . . بلسان كثيرين من رجاله فعل ، لعلمهم أن يرعوا الحق ، وتثوب قلوبهم إلى الخير والوحدة والسلام . . . لكنهم كانوا قوما قد صس على أفئدتهم هواها فعميت البصائر ، وخفت الأحلام ، وتبدو كأنما يخبطون كالمشواء إلى الهاوية وهم معصوبو الأعين ، وما أكشف العمى الذي يحجب عن تعصب . . . إنهم لا يرون غير رأيهم هم ، ولا يسمعون إلا نفس قولهم هم ، كأنما يرون ويسمعون من داخلهم ولا تحترق بهم عين ولا أذن ولا بصيرة جلدهم الكثيف ، أو تنطلق إلى خارج طبيعتهم المصمتة الصماء .

كان علم السلام والمصالحة الذي رفعه لهم ، كلمات قلائل تحقق حق الله ، وتقيم حدوده ، ثم تفتح الطريق بعد هذا إلى الوثام والإصلاح :

« ادفعوا إلينا قتلة إخواننا منكم ، نقتلهم بهم ، ثم أنا تارككم وكاف عنكم حق ألقى أهل الشام . فلعل الله أن يقلب قلوبكم ، ويردكم إلى خير مما أتم عليه من أمركم . . »

ما أراد أن يحملهم نفس حملة على قتال معاوية ولما تصف نفوسهم بعد الصفاء كله ، وإنما شاء أن يفسح لهم في مجال التفكير عسى أن يثنيهم التدبر والادكار عن المكابرة وقد اتسع وقتهم أمامهم في تناول الأمر كله بالتأمل الهادئ والنطق السليم .

ومع ذلك فقد أبوا الفرصة المبسوطة أمامهم ، وردوا بجفاء واستعلاء :

« كلنا قتلهم ، وكلنا نستعمل دماءهم ودماءكم . . »

لكنه تعبر وإنهم عندئذ ليرفضون الانصياع إلى بديهة من بديهيات حياة المجتمعات هي بديهة القصاص ، ويضعون بهذا رأيهم وحده قواما على رأى الدين تعبر مستمكا بهدى ربه الذى يقدم الدعوة بالموعظة الحسنة على الأخذ بالعنف والشدة سبيلا إلى رتق الانقسام واستعادة الولاء . . .

وكرة أخرى ينقل وافده إليهم قيس بن عباد ، الدعوة السمعة ضنا بدمهم

أن يهدر ، وحرصا عليهم وعلى الأمة أن يستغرقها خلاف مسلح حيثما تغنى الرويه
عن امتشاق الحسام .

يحدثهم قيس ، في تودة ولين مفصحا لهم عن خطل ما يعتنقون :

« عباد الله . . أخرجوا إلينا طلبتنا منكم ، وادخلوا في هذا الأمر الذى
خرجتم منه . . وعودوا بنا إلى قتال عدونا وعدوكم ، فإنكم وركبتم عظيمًا من
الأمر : تشهدون علينا بالشرك والشرك ظلم عظيم ، وتسفكون دماء المسلمين
وتعدونهم مشركين . . . »

فيأبون ثانية في عناد مجنون . .

ويثنى من بعده أبو أيوب الأنصارى :

« عباد الله . إنا وإياكم على الحال الأولى التى كنا عليها . . ليست بيننا
وبينكم فرقة ، فعلام تقاتلوننا الآن ؟ . »

فيقولون ولما يتزحزحوا عن موقفهم ، كأنما قد غاصوا بأقدامهم إلى الركب في
حمأة سلبتهم القدرة إلا على التدلى والانزلاق دون التحرر أو الخلاص :

« إنا لو بايعناكم اليوم حكمتم غدا . . »

لوثة « لا حكم إلا لله » تعاودهم ، وتلح عليهم ، وتغلق دونهم كل باب إلى
الصواب . .

عندئذ لا يملك الرجل إلا أن يحذرهم قفزهم هذا إلى خاتمة في طى الغيب ،
لا ينبئ عن وقوعها شيء قط إلا ما في مخيلاتهم من اضطراب :

« فإنى أنشدكم الله أن تعجلوا فتنة العام مخافة ما يأتى في قابل »
ولكنهم لا يسمعون .

٦

بدوا كأنما آثروا الحرب حلا لازما للخلاف الذى أنشبهوه . فأصاليب التفاهم
قد تقطعت واحدا بعد آخر . ووعوه الفىء إلى الجماعة خفتت كالهمس . ذابت في
غمرة العناد . وندت تحت تراب شعارهم الذى يجافى كل حق ومنطق وروية ...
ووقفوا على تحفز . أعصابهم كالأوتار . أجيادهم ممدودة مشرعة إلى الأمام
كالسهام . أكلهم لفرط تقبضها أو شكت أن تغوص فيها القسى والحراب ومقايض
الأغمار والسيوف المسلولة . .

اللحظة الفصل . لا عودة أبداً لأمس الذى نبذوه وخلصوا من خزيه .
لا رجعة بنقاش وكلام ولا إلى نقاش وكلام . الجسور التى عبروها إلى رأيهم
وباعدت ما بينهم وبين على ومن بقوا معه قد تحطمت واحترقت وتناثرت مع
الريح كالهشيم ...

ومع ذلك فقد ثبتوا نظراتهم على وجهه الذى لوح الغضب قسماته كأنما حرصوا
على ألا تفوتهم منه طرفة هذب أو اختلاجة شفة . . ثبتوها على كره وإنهم
لراغمون ، فما فى طاقتهم أن يقتحموه . . إن له لسحرا يشد حنلاهم إليه ،
وسطوة روح تجذب الآذان والعيون . ولئن عرفوا — من السنة وافديه إليهم
طوال ما سلف من أيام — ما عساه محدثهم الآن به ، فإنهم لا يملكون حياله
إلا التطلع إليه بانتباه وترقب ، لا عن رغبة فى الأصغاء ، وإنما لإحساس يشيع
فى جنباتهم يخالون معه أنه يعلأ الأفق حولهم بهامته المربوعة ويسد منافذ الفضاء
فلا يتلفتون هنا أو هناك إلا وجدوه !

وسكنوا كأنهم جمود . وأتأروه نظرات ثابتة لا تطرف كأنها أسلاك مشدودة
من مآقيهم إلى عجياه . واستغرقوا كل استغراق فى ملاحه ، فكل حركة الآن
تبدد منه إنما تبدد لغرض ، كما تبدد بمقدار . . .

أما هو فقد اجتاحتهم بنظرة طافت بجمعهم الحاشد وحصرتهم فى إنسان عينه
الدقيق . نظرة محيطية ، أسرة مسيطرة ، إن يكن فيها سخط ، ففيها كذلك نذير ،
وفيه رثاء . . فما كثره قط أنهم من قبل قد خالفوه . وما يكرهه الساعة أنهم

مصرفون على خلافه والانسلاخ عنه . إنما الذي يكرهه منهم ولهم أن يلج بهم
سفهم حتى ليخرجهم من حظيرة الإيمان وهم يحسبون خروجهم الإيمان كل الإيمان .
وعندما همد الصوت ، وأطبق السكون ، واحتبست الأنفاس ، وغدا المكان
بما فيه ومن فيه أذنا مصغية ، سرت إليهم كلماته قاسية كضربات معول على صخر :
« أيتها العصابة . . . »

فلعل جرس النداء العنيف قد اخترق عليهم قشرة الجمود التي غلفتهم ، وسرى
في عروقهم برج دماءها رج الحمى دماء محموم . . . لعلمهم عرتهم انتفاضة . لعلمها
اتسعت الحدق . لعلمها رعشت الأهداب . . . أيما ثوبة نابوها آتت من عالم الجماد
لدنيا الأحياء — طالت أم قصرت — لم تنل شيئا من همود السكون المحيط الذي
تجمدت أنفاسهم على حواشيه تجمد الصقيع في صبح بارد على مدر صحراء . . .
واستطرد بنفس قسوة الجرس ، يسوط بصوته وجوههم وجوانب الفضاء
المحدود ، في تهمل وريث ، وهو يضغط على الكلمات ضغطا ينحلها حياة تزيد
قدرتها على التعبير :

« . . . أيتها العصابة التي أخرجتها عداوة المراء واللجاجة ، وصدها عن الحق
الهدى ، وطمع بها الترق ، وأصبحت في اللبس والخطب العظيم . . . »
ثم هدر في حديثه صوت القدر القاصف ، وعينه تقفحهم إلى النهر الذي
تدافع مياهه على كئب ، ويرسم تدافعها انسياب أحداث لن يلبث ستر اللحظات
القلائل الباقيات من عمرهم أن ينجاب عنها لتبرز إلى عالم الوجود :
« . . . إني نذير لكم . . . أن تصبحوا تليفكم الأمة غدا صرعى بأثناء هذا
النهر . . . »

ولم يمض حديثه فيهم على طريق التهيب وحده دون أن يعيل إلى المحاورة
التي تجمع الترديد إلى التهديد ، والإعذار إلى الانذار . فما جاء اليوم ليلعاهم بقدر
ما جاء ليصرهم بغبة ما هم فيه ، عسى الله أن يحملهم بمنطقه إلى الصواب . . .
وحين سألهم يستنبئهم سر خروجهم من طاعته ، وانتفاضهم عليه ، تناثرت
منهم العبارات ترسم حجهم ، فإذا هي لا تخرج في مضمونها عن نفس العلة التي
اعتلوا بها من شهوة :

« الحكومة . . . »

عندئذ قال :

« . . ألم تعلموا أني نهيتكم عن الحكومة ، وأخبرتكم أن طلب القوم إياها
وهن ومكيدة ؟ » .

فلم يكن لهم إلى الإنكار سبيل .

« ونبأتكم بأنهم ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن ؟ . . وأنى أعرف بهم منكم
— عرفتهم أطفالا ورجالا فهم أهل المكر والغدر ؟ . . »
فبدأ على ملاحظهم الإقرار .

« . . وأنكم إن فارقتم رأيي جانبتم الحزم ، فعصيتُموني ؟ . . »

أجل . إنهم ليعلمون أنه صدقهم عندئذ النصيح بخالفوه . وليعلمون أيضا أنهم
ندموا على ما فرط منهم أبلغ الندم وأوفاه حتى لودوا لو محوا من صحيفة عمرهم
ماتلا صفين فعاد بهم الزمن ثانية إلى مساحتها والدعوة إلى تحكيم القرآن تزحف
عليهم من صفوف العدو ليقمعوها بحمد الحسام من جديد ! . .

وأحياهم الإمام بكلامه كرة أخرى أمسهم المتأثم القريب ، والحنة المدمرة
التي جرها ضيق أفقهم ، وعنادهم المعقوت ، وجهالتهم الخقاء ، على أنفسهم
وعلى الإسلام :

« لقد اجتمع رأى ملتكم على اختيار رجلين ، أخذنا عليهما ألا يتعديا القرآن .
فتأها عنه . وتركنا الحق وها يصرا نه . . »

فكأنما سرت ، للذكرى ، بين جمعهم همهمة تلوم تفيض ندما على ذلك الرأى
الخبيط الذى اعتنقوه ، وتتنزى بالاستغفار لأنفسهم عنه ، ثم لا تخلو من الإزراء
بالحكيم وبالحكم معلنة سوء الأسلوب وسوء النتيجة . على السواء . . وكأنما
شاء الإمام على الأثر أن يخفف عنهم بعض هذا الذى يعانون من وطأة الإحساس
بالذنب ، فانقلت يذب بعض الذب عن الوسيلة التي عساهم ركبوها
وفى نيتهم الإصلاح :

« . . إننا حكم الحكمان ليحييا ما أحيا القرآن ، ويميتا ما أمات القرآن .
وإحياءه الاجتماع عليه ، وإماتته الاقتراق عنه . . فإن جردنا القرآن إليهم ابتضام .
وإن جرهم إلينا ابتيمونا . . »

فهل لقي منهم تخفيفه هذا هوى أو موضع رضاء وإنهم لموقنون أنهم — إذ قبلوا التحكيم ودعوا إليه — قد قارفوا جرما لا قبل لأحد بالتهوين منه بنصاعة حجة ولا بقوة دليل ؟ . . . بل كلا . . . فالإثم إثم وإن نبع من دافع . والذنب ذنب وإن بررته المآذير . . . وما ركونهم أمسهم الداهب لهذا التحكيم إلا حوية حوية لا تغسلها إلا توبة ، وممصية لا يحطها عن كواهلهم إلا مغفرة يسبقها ندم يمدهم إلى ظل الله وليس يملكها غير قابل التوب ، كاشف القلوب ، غافر الذنوب . . .

وما أحسب بعضهم عندئذ إلا قد تهامسوا بينهم بشعارهم الذى اختلط بكيانهم روحا ومادة ، وملاك عليهم منافذ الحياة والموت ، وعوالم الرؤية والرؤيا ، والسر والعلن ، فأوصد دونهم كل باب إلى دنيا الناس . . . ما أحسب إلا أنهم تهامسوا بعبارة : « لا حكم إلا الله ! » إظهاراً لاستمساكهم بالحق دون أمة الإسلام ، وإعلاناً عن نزوعهم — وحدهم — إلى الصواب بعد غي ، وإلى الهدى بعد الضلالة . . . ولئن كانوا قد استطاعوا هنية من وقت أن يطلقوا نفوسهم على سجيتهما ، فتجهر بما تهوى ، وتنفس عن الداء المكبوت معربة بذلك الشعار ، فإن اللحظات القلائل التى خرقوا خلالها جنة الصمت المهيمن على المكان ، وتردد فيها تلاغظهم بدعواهم ، ما لبث عمرها أن انطوى فى هدير صوت الإمام وهو يأتهم حاسم النبرة قاطعا عليهم التردد :

« . . ألا من دعا إلى هذا الشعار فاقتلوه ، ولو كان تحت عمامتي

هذه . . . »

وقرن قوله بحركة ارتفعت بها كفه تلامس عمامته ، وامتدت عينه تحتاج جماعتهم فى تحد عنيد ، وتكاد تحرق عمامتهم إلى ما تغطيه من رءوس . . . ولم يكن بهزل وإن كان يسخر . فتلك الطائفة المفتونة كانت — مظهرا وعخبرا — خليفة بالسخرية والتندر ، لا بسبب شعارها المعقيد الذى رفعته فدلّت به على هوس وضيق أفق وحرفية ، بل لأنها كذلك ، استزادة من إحساسها بالتفرد ، قد شاءت أن تجمع إلى الهوة الفكرية التى باعدت ما بينها وبين بقية العقول هوة مظهرية تباعد ما بينها وبين بقية الأبدان . فلقد ترجمت شعارها إلى

هيئة بدنية تعلم أفرادها عمن سواهم من الناس . ولو أنك حسرت عنهم العائم ،
لتمثلت لك تلك الهيئة في رءوس حلقت أوساطها فبدت كالأرض الجرداء ، وترك
الشعر على حوافيها أكاليل مهدلة شعنا ، كأنها العشب الجاف . . .

وأخذتهم بلا ريب سخريته . ولكنهم فروا منها إلى نفس الحجة التي لم
يفتأوا يتذرعون بها تفسيراً لانقلابهم من نقيض لنقيض .

قالوا يبررون :

« إنا حكمنا ، فلما حكمنا أئمتنا ، وكنا بذلك كافرين . وقد تبنا . فإن ثبت كما
تبنا ، فنحن معك ومنك . وإن أبيت فاعتزلنا ، فإننا منا بذوك على سواء ، إن الله
لا يحب الخائنين . . »

فتلون وجهه بالغضب لقولهم ، وصاح :

« أصابكم حاصب ، ولا بقي منكم أبر . . . أبعد إيماني بالله ، وجهادي مع
رسول الله ، أشهد على نفسي بالكفر ؟ ... »

ثم انثنى يسألهم في استنكار :

« ... فإن أبيتم إلا أن تزعموا أنني أخطأت وضللت ، فلم تضللون عامة أمة
محمد بضلالى ، وتأخذونهم بخطي ، وتكفرونهم بذنوبي ؟ . . »
وتفرس في وجوههم مليا يترقب ، لعل عبارة من هنا ، أو عبارة من هناك
تسرى إليه من بين صفوفهم برد مقبول أو غير مقبول . . . غير أن السكوت وحده
هو الذي أتاه لو تسكلم سكوت . . . وبقيت شفاههم مطبقة على حسر ، وعيونهم
تسيح في حيرة . حتى إذا عدم منهم الجواب ، استرسل يلقيهم الحجة التي ليس
لهم بدفعها قبل وإن نظراته لتطوف بهم وبما يحملون من سلاح ...

قال معاوداً السؤال :

« . . بماذا تستحلون قتالنا والخروج من جماعتنا ؟ . . سيفكم على عواتقكم
تضعونها مواضع البرء والسقم ، وتخلطون من أذنب بمن لم يذنب ؟ لقد
علمتم أن رسول الله رجم الزاني المحسن ، ثم صلى عليه وورث ميراثه أهله . وقتل
والقاتل وورث ميراثه أهله . وقطع السارق وجلد الزاني غير المحسن ثم قسم
عليهما من الفئ ونسكحا المسلمين ، فأخذهم رسول الله بذنوبهم ، وأقام حق الله

فيهم ، ولم يمنحهم سبوحهم من الإسلام ، ولم يخرج أسماءهم من بين أهله «
 فلو أنك شهدتهم بموقفهم منه آنذاك لحسبتك شهدت جسوما قد امتعالت حجارة
 صلبة صماء استنزفتها الحجة كل نبضة حياة ، إلا تذاؤب المقل — حيرة — في
 المآقي ، ورجفة التأناة — عيا — على الشفاه ! .. وهل لهم بمنطقه طاقة ؟ ..
 وأنى لهم وهو يقارعهم رأيهم الخبيط المهزوز ببرهان الله وبسنة رسول الله ؟ ..
 إنهم الآن لفي تيه ، يستشعرون معه أن الدنيا كلها حولهم فراغ وهباء ، بلا نامة
 صوت ، ولا لمسة نسمة ، ولا صورة موجود ... بل ذواتهم أيضا قد هانت ،
 وراحت تتضاءل وتتضاءل من تخاذل وخزي كأنما تذوب في ذلك التيه ... أفعدوا
 إلى عدم ؟ .. أم تلك غشية أخذتهم أو سنة نوم ضربها عليهم جبروت بيانه للفهم
 فلا يستطيعون قولاً ولا إشارة ؟ .. وحين وسمهم أن يشربوا إلى بعض وعى ،
 سمعوا كلماته تتحدر إليهم — كأن في حلم — مبينة بلا جرس ، معبرة بلا رنين ،
 كما ينفذ لفتح الشمس — بغير وهج — من خلال كسفة ضباب ! ..

ولقفت آذانهم من مقالاته كلمات ، تندد بسلوكهم وتلعاه :

« . . . إن هذا هو الخسران المبين ! .. والله لو قتلتم على هذا دجاجة

لعظم عند الله قتلها ، فكيف بالنفس التي قتلها عند الله حرام ؟ .. »

فلم يجدوا وسيلة تجنهم من لومه ومنطقه إلا أن يسيجوا أنفسهم بالعناد ،
 شأن العاجز المعت ، الذي تعضل به المناقشة ، ويعيبه تلمس منفذ يلاقى من خلاله
 الرأي بالرأي ، والدليل بالدليل . . .

اتنفض بعضهم يهيب بمن لعلمهم قد يحدتهم اللجاج بمحاولة اصطناع جواب .

« لا تخاطبوهم ! .. »

وصاح آخرون :

« لا حكم إلا لله ! .. »

وهتف فريق :

« تهياًوا للقاء الرب ! .. »

وهبت الصفوف وهي تهز السلاح في أكفها تصيح :

« الرواح الرواح إلى الجنة ! .. »

نداءات تواتت تتعالى في الجو ، وتنتشر بأصدائها إلى ما يجاوز المكان ويعدوه ، لا ساقها عقل ، ولا بعثتها حكمة . إنما فاضت عن الصلف والغرور وأنفة الرجوع عن رأى رأوه إلى رأى يخالفه ولو كان لهم في هذه المخالفة أمان وحياة ، وللأمة صلاح ونجاة . . .

ولم ينبس الإمام . أطبق على الألم فيه الممرور ، وترك فؤاده يتحدث بشجوه ، رثاء لهم ، وحسرة عليهم . ثم راح يعد بصره بعيداً عن ملتقى الجمع والضجيج والضوضاء ، إلى النهر وراءهم وهو ينساب في مجراه ، وقد بدت أثنأؤه وجوانبه كأنها تفغر أفواهها انتهاءً للوليمة المقبلة . ففي ثرى شاطئيه ، عما قليل ، سينطوى صرعى عصاة العناد والمرء .

٧

رتب على رجاله . .

الفرسان في المقدمة ، من ورائهم النبالة ، تليهم الرجالة . وعقد ألوية الفرق لحيرة أصحابه ، وأصبرهم على القتال . . .

وكان الجيش ، كألوف التنظيم آنذاك ، قلباً وجناحين . في القلب أبو قتادة الأنصاري ، وعلى الميمنة حجر بن عدي ، وعلى الميسرة شيب بن ربيعة ومقل بن قيس الرياحي . وقاد الخيل أبو أيوب ، وأهل المدينة قيس بن سعد ابن عباد . .

ولم يمن الإمام بهذه التعبئة أن ينشب الحرب ، ولا أن يخوف ويرهب ولكنه أعد وتياً فما يدرى كيف يتطور الأمر وهام الآن خارجة النهر على أهبة أشد من الأهبة ! على شغف وشوق ! فلقد كسروا جفون السيوف ، وعرقبوا الخيل ، وجثوا على الركب يوشكون بهذا التحفز أن يطيروا إلى الالتحام متعجلين موعده . وهل دونهم اللحظة غير خطوة واحدة إلى الأمام ليلتقوا مع الله ؟ . .

كذلك نحسب . وكذلك هم يوقنون . . فعلى نحو من الأنحاء — وإن خالفوا آنذاك برأيهم جماعة المسلمين — كانوا فئة قد تنسى لها كل فضيلة ثم يعسر إغفال أنها أرباب دين ، يتمسكون به ، ويذودون عنه ، ولا يبيعونه بمرتخص ولا غال . فئة نهجها النسك ، ومنوالها الزهادة ، وطريقها عبادة الله . ما طلبت ضللاً من

باطل ، وإنما طلبت حقاً فغررت بها شبهة أوقعتهما في المحذور . و « ليس من طلب الحق فأخطأه ، كمن طلب الباطل فأدركه » كما قال عنهم الإمام . . .
ثم هاهم — في ربة الرأي المشبه — يجرون شوطهم كله إلى غايته . إلى نهايتهم . إلى أقرامهم المترتبة بهم عند حافة النهر ، والإمام يتشهد اندفاعهم فيود لو يردهم ليجنبهم هذه الأفذار . . إنه ليأسى لهم . ويستشعر الألم من كل خطوة يخطونها إلى مجمع المصارع كأنما يطأون قلبه بالقدم وبالحافر . . وإنه ليرجع بذهنه القهقري ، فتشط ذاكرته وتستضيء . لتستحي صورة من الماضي البعيد ، ما زال تتجمع خطوطها ودقائقها ، بما تضم من ظلال وأضواء ، لتبرز حياله كاملة ، قد مثل فيها رسول الله بين أصحابه ، يتحدث إليهم ، وينساب صوته مع الصورة ، عبر الزمن والمسافات ، ومن وراء الأعوام والتخوم :

« إن منكم من يقاتل على تأويل القرآن كما فاتلنا على تنزيله » .

فيهب إليه أبو بكر ، وإنه ليرجو أن يكون هو ذلك الذي عناء بالحديث :

« أنا يا رسول الله ؟ . . »

« لا . . »

فيتقدم على الأثر عمر بن الخطاب . لم لا وها هو ذا شرف يخائله ويدنو منه بعد

أن فات رفيقه ، وإنه لتحقيق به — لا ريب — بمد الصديق .

ويسأل ، في تردد وشغف :

« أنا يا رسول الله ؟ . . »

« لا . . »

ثم يتبع محمد رده بلفتة إلى ابن أبي طالب ويقول :

« بل خاصف النعل »

وكذلك آن للنبوة أن تحرك الأحداث . . .

ويتفكر على ، والد كرى تفيض بواعيته وتعلأ عينيه . .

نعم تأولوه تأولوا القرآن فأخطأوا التأويل . اجتهدوا الرأي فاشتبه عليهم

الأمر ، وكبا الرأي بهم في غير ما أرادوا ، فإذا النتيجة تخالف النية ، وإذا العقيدة

تغاير الإرادة ، وإذا الأنفس تزل على كره وتزل معها الأقدام فتزلق بهم إلى هذا

المقام ، بهذه الأرض المنكودة عند النهر الذي يوشك أن يلتهمهم ماؤه وشاطئاه ! .

ويطوف يبصره فيهم هنية ، ثم يرده عنهم إلى جمهرة أصحابه يوصيهم ، ويؤكد لهم ، وإن رحمته لتلك الفئة المشبهة لتكاد تسبق في قلبه عزيمة القصاص :

« لا تبدأوهم بقتال حتى يبدأوكم . . »

حتى إذا رأى قوله قد وقع موقعه ، وعان من رجاله علائم الامتثال ، التفت إلى الخارجة يقول :

« عباد الله . . أقيدونا بدم عبد الله بن خباب . . »

فهل أثر فيهم نرفته ، وحملتهم دعوته السمحة على نبذ العنف والنزوع عن العناد ؟ . .

كلا ! . . بل هبوا جميعا ، في صوت واحد ، يهتفون :

« كلنا قتله ! . . »

غير أنه لم ييأس ، وما كان لييأس وئمة بصيص رجاء في فيهم إلى السلم ، ورجوعهم إلى جاده العقل والصواب . . لكأنما خشى أن يأخذ فيهم البريء بالمسيء ، والحق بالمبطل ، فعاد يخاطبهم ليستوثق كل استيثاق :

« . . فانفردوا كتائب ، لأسمع قولكم كتيبة كتيبة . . »

ففعلوا . وراح هو يتأملهم بعين هادئة ، ويسألهم في لين ، زمرة زمرة ، وكتيبة كتيبة . .

لكنهم لم يغيروا . فرادى وجماعات كان الجواب الذي صكوا به مسعاه نفس الجواب .

« كلنا قتلناه ! . . »

وازدادوا عتيا ومغالاة :

« ولنقتلك كما قتلناه ! . . »

ومع ذلك فقد صبر . ما عليه إذ فعل ؟ . فمسي الله أن يخرج خيرا من شر ، ويكتب هدى ونجاة ، لهم ، أو اطائفة منهم ، لو نزع للأناة . .

كرة أخرى رأى أن على لهم في المراجعة والتفكير . . مضى في سكون يرود الوجوه المظلة من اللحي الكثيفه ، ويقرر بنظراته الثاقبة جلودها المرتخية والمشدودة عن دخائل النفوس . . على ملامح بعضها جمود أخرس ، كأنه للوت ،

يحسم الإصرار . . على ملامح غيرها وجوم يمثل الضياع . . على ملامح أخرى
اختلاجات تنبئ عما يعمل في الصدور من صراع . .

ثم رمى بآخر ما في جعبة صبره من ترفق وريث وإمهال . فدفع راية أمان
إلى أبي أيوب الأنصاري ، أمره أن ينشرها ، ويدعوهم ، ليلوذ بها منهم من شاء
من عسى يهديهم الله . .

ونادى عليهم أبو أيوب :

« عباد الله . . من جاء هذه الراية منكم ، ممن لم يقتل ولم يستعرض ، فهو
آمن . . ومن انصرف منكم إلى الكوفة ، أو إلى المدائن ، وخرج من هذه الجماعة
فهو آمن . . »

وتلبث بهم قليلا ثم أكمل ، يوضح لهم ، بلا مواربة ولا إخفاء :

« . . عباد الله . . لا حاجة لنا — بعد أن نصيب قتلة إخواننا منكم — في
سفك دمائكم . . »

وسكن الصوت . . وران الصمت على المكان حتى لأشك ألا تسبح فيه غير
الأنفاس . . .

للحظة بدا كأنما حركة القوم التي كانت تعلاّ الجو من قليل ، وتشيع في جنبانه-
الضجيج ، قد انتقلت كلها إلى العقول . . للحظة لاحوا يراجعون النفس ، ويزنون
العرض السمع ويعايدون قيمته وجدواه . . للحظة وضعوا أمسهم وحاضرهم في
كفة وإزاءه في أخرى وضعوا مصير الأمور . . ولم يكن مصيرهم هو الذي عناهم ،
ولا الذي دفعهم إلى التدبر والتفكير . ولكن شرارة من شك لا بد قد ومضت
آنذاك في أذهانهم فلسعت بعض ثقتهم فيما اعتقدوه ، وردتهم حيارى بين التردد
والانصياع ، وبين المسكبة والرجوع . .

وأثمرت الدعوة . . هزت فيهم الريب كما هزت اليقين . فإذا أحدهم ، فدوة
ابن نوفل الأشجعي ، يردد نفسه ، ثم يصارح أتباعه :

« والله ما أدرى على أي شيء نقاتل علينا ؟ . . لا أرى إلا أن أنصرف حق

تنفذ لي بصيرتي في قتاله أو أتباعه . . »

وانصرف في خمسمائة فارس ، يغادر وإياهم الميدان . .

وإذا الطريق يستضيء أمام فئة ثانية ، تتبين لنفسها النهج الأقوم ، فتسرع — إذ تحررت من أسر الشبهة — لتلتحق بالإمام ، وتلتظم في صفوفه . .

وإذا آخرون ، جماعات وفرادى ، يتفرقون — على تردد أو عن اقتناع — منسولين من مواقع العصابة المناوئة ، إلى الدائن ، أو الكوفة ، أو أى مكان غير هذه وتلك ينأى بهم عن ساحة القتال . .

أما البقية التى أزلتها الشبهة ، واستذلها العناد ، فقد أخذتهم عزة الأنفة المضلة ، فأصقوا القدم بأديم الأرض ولو وسعهم لغاصوا بها فى مواطنها ضمانا للرسوخ والثبات . . ثم هبوا على الأثر ، بنبرة راعدة كالهزيم ، يتصايحون :
« لا حكم إلا لله . . »

ومن بينهم انقلت فتى ناء بثباته ، يشهر سلاحه ، ويخبط به حيثما وقع مسانه رجال الإمام ، نعمة وحقدا ، وهو يرتجز وفى صوته يترنم شيطان :
« أقتلهم ولا أرى عليا ولو بدا أو جرت الخطايا » . .

وبهت الناس لهذه البغلة . فلقد سقط ثلاثة منهم صرعى وما زال الراجز يتغنى بفخره ، لكن عليا ما لبث أن انبرى له فكان أسرع إليه من عبارته على شفتيه ومن ارتداد طرفهم عنه ، وعاجله بضربة صعقته وأهدته لسانا وأداة قتال . . ومع ذلك فقد ملك جناته ، ولم يتبع الضربة غيرها ، ولا لاقى عدوانا بعدوان . إنما عاد فى هدوء يؤكد لأصحابه :

« كفوا عنهم . . »

فكأنما أغرى الخارجة به وبصحبته هذا الحلم ، فرمت صفه رميا حرك الحمية ، حتى صاح بعض رجاله :

« يا أمير المؤمنين ، قد رمونا . . »

فأعادها :

« كفوا . . »

ثانية وثالثة ردهم عن القتال . عن مقابلة العدوان بثله ، وفى يقينه أن الإمهال خليف بالاتباع إعذارا لعدوه ، وإعذارا لنفسه أيضا أن تلتطخ يدها بدم عسى مشيئة الله تسبق غضبة الإنسان إلى حقنه والإبقاء عليه . . فلما أبى الله أن

يرعوا عن النى ، ولاح كأنما شيطانهم يعدم بزاد جديد من المكابرة يسعون به
شعلة الحرب التى رجا لها الإطفاء ، ألقى هزيمة بأذنه إلى صياحهم المحموم :
« لا حكم إلا لله ! . . »

ثم مال عنهم إلى جنده ، يفسر لهم حكمة التمهل :
« كفوا عنهم حتى يبدأوكم ، فإنهم لو قد شدوا عليكم — وجلهم رجال —
لم ينتهوا إليكم إلا لاغبين وأتم رادون جامون . . »
وكذلك كان منطق القتال . فالمدو فى أغلب جمعه مشاة ، بعد إذ رحل فدوة
وفرسانه ، يقتضيهم للقاء مبارحة مواقعهم ، بكل عدتهم ، سيرا على الأقدام ،
دون دريئة تحميهم عصف الخيل المناهضة . وفى هذا عناء ومشقة ولعب ، تنال
من طاقة الاحتمال . وتحد ، قليلا أو كثيرا ، من قدرتهم على الثبات للقتال . .

وأقبلت الخارجة زاحفين ، يختلط فى صفوفهم المندفعة هزيم الصياح بهدير
الأقدام . وعلا الرهيج ، وثار الغبار . وحملت الأنفوس بعد إذ نشطت الأوصال .
وضاقت الشقة رويدا رويدا بين الجمعين ، ولكن جند الإمام ظلوا كافين ، على
تربس وأهبة ، وفى سكينة وهدوء ، لا يقدمون ولا يحيدون . . .

فإن هى إلا لحظات من بعد حتى انطلق الخارجة انطلاقة إعصار محتاح ،
يشدون على خيل على ، وهم يرددون صرخة الجهاد :

« الرواح الرواح إلى الجنة ! . . »

عندئذ نادى الأمام أصحابه :

« الآن طاب الضراب ! . . شدوا . . »

والتعم الفريقان .

لكن الخيل ناءت بثقل الهجمة العنيفة ، فانفرج صفها ، والتوت بها الأعنة
إلى الجانبين ، كأنما لا تقوى على الصمود ، وكأنما الأرض تحت سنابكها تعيد
فتحاول أن تلوذ عنها بمواطن غيرها جديدة ، لعلها أصلب موطنًا ، وأنسب
للثبات والقرار . .

ولاح لكل من شهد الواقعة أن الصف الأول ، والأقوى ، من جيش على راح
يتقصف أمام يأس المهاجمين ولم يعد جنة لمن وراءه تحميهم وترد عنهم عادية

الانقضاض ، بل غدا بابا مفتوحا على مصراعيه ، تلجئه إليهم الهزيمة طائفة بجناحي إعصار . . .

أفتلك الشدة القاصفة — تؤازرها البغته — هي التي أذهلت الفرسان ، عن أنفسهم وواجبهم ، فزحزحت الخيل ، وأزالتها عن مواقعها في مثل لمحاة الطرف ، أم قد كان وراء هذه الحركة المتخاذلة خدعة قتال ؟ . . .

ليوشك الأكثرون أن يروا في تزايل الخيل دحرة مقهور . . . وفي بلوغ الخارجة مبلغها هذا من القتال بداية انتصار . . .

لكن الأحداث هي التي تحسم وتحدد ، وتأتى وحدها بعقب الأمور . . . وهي لا تحسم ولا تحدد إلا عن استقراء واع لسكافة العوامل النفسية والمادية التي يتحرك العدو بوحى منها ، وفي نطاق قدرتها المحسوبة المعدودة . فإذا قررت من بعد ، فقرارها عندئذ مقرر بخطة محكمة ، أصابت التنبؤ بكل احتمالات الموقف لدى خصمها ، وكل بادرة سلوك لعلمها تند عنه ، ليقابلها بما ينقض تدبيره ، ويلوى النتيجة إلى غير ما يرضيه . . .

وهكذا قرر الإمام .

فلم يكن عبثا أن رتب جيشه كما رتب ، فقدم الخيل التي تخفى من ورائها رامية يذودون حين البأس عن الرجال

ولم يكن عبثا أن أمر — رجاله — وإن أنارهم عدوهم مرارا بغاراته المفاجئة — أن يكفوا عن القتال ، حتى يحتدم الهجوم الباغي ، ويلتحم الجيشان أوثق التحام . .

ولم يكن عبثا ، ولا عن دحرة — فيما يلوح — أن ينشطر صف الخيل أمام هجمة الخارجة شطرين ، شطرا إلى عين ، وشطرا إلى شمال ، كأنما قد تقوض وانهار . . .

لم يكن هذا كله وغيره عبثا ، وإنما كان — بلا جدال — عن تقدير وتدبير ، بتخطيط وإعداد ، كل خطوة بحساب ، وكل حركة بمقدار . . .

فما إن لاحت الخيل تنهاوى تحت طرقات الهجمة المفاجئة ، وترتد إلى عين ويسار ، حتى انفتحت ثغرة في الصف ، مرقت الخارجة من خلالها كالسهم ، مفضية إلى قلب الجيش الذي كشفته دحرة فرسانه . . .

بداية نصر لا شك فيه ، لمن أخذ بظاهر الأمور
ولكنها في الحقيقة بداية بوار . .

فإن هي إلا لحظات حتى انقلب الميزان . .
من طريقهم الذي شقوه للظفر ، فاجأهم الخطر بأسوأ ما يمكن أن تجيئهم
بهم المفاجآت . .

إن قلب الجيش العلوي لم ينكشف لسلاحهم آنذاك ، بل هم الذين انكشفوا
له ، حيثما لا جنة تجنهم عنه ، وتحميهم منه ، ولا فرجة للملاذ ينأون فيه عن
ضرباته ، إن إلى بعيد ، أو إلى قريب . .

فما كادوا يلجئون الثغرة ، ويغوصون في جيش المسلمين غوصا حسبوه فاتحة
الظفر ، حتى استقبلهم أولئك الرامية — الذين أعدت لهم من قبل مواقع معلومة فيما
على الخيل — برشقونهم بالنبل ، ويغرقونهم من قذائفهم الطائرة في سيل . .
وأخذتهم المفاجأة . .

ثم عاجلتهم المنايا ، ولما يفيقوا من أثر البغنة . .
لا مهرب الآن . لا ثغرة لنجاة لا سبيل إلى الارتداد . .
فهاهي النبل أمامهم لا تنى تضرب منهم الوجوه والقلوب .
وهاهي الخيل التي حسبوها ولت ، تأتيهم عن جانبيهم ، تكرر من هنا كرة ،
ومن هناك كرة ، ليلتهم ثانية صفها المشطور . ثم تعطف عليهم بالموت . .
وهاهي ميسرة الجيش ، وتلك ميخته ، تطبقان عليهم ، ويعمل فيهم رجالهما
الرماح والسيوف .

ثم هاهو القلب أيضا ، وهو راد جام لم ينله منهم شيء ، قد شارك في استكمال
محنتهم ، التي لم تجل لهم في بال .
من وراء وأمام ، ومن عين ويسار ، سارعت إليهم المصارع ، وهم بينها
حبيسو حلقة محكمة الإغلاق . .

ودارت الرحي قطعهم ، وما كان أسرع الدوران . .
أهدوا في ساعة ، وما أفاقوا بعد من نشوة النصر الذي استطعموه . . لكأنما
قليل لهم موتوا فماتوا . . وكأنما كانوا على موعد مع النصر والموت في آن . .

٨

مال الإمام إلى جمع المصارع ، على حافة النهر ، يسبح بناظره في الجثث
الشوهاء التي طعنتها الحرب ، وإن الأسف ليملك عليه نفسه ، على هذه الغروس
المهوج التي طالما ود لو قوم أعوادها فعمادته في أملة الأقدار . .

وقال في صوت هامس خفيض :

« يؤسا لكم . . . لقد ضرکم من غرکم . . »

وسمع الهمسة بعض رجاله ، فسألوه :

« فمن غرهم ، يا أمير المؤمنين ؟ . . »

قال :

« غرهم الشيطان ، وأنفس أمارة . . غرهم الأمانى ، وزينت لهم المعاصى ،

ونباتهم أنهم ظاهرون . . »

والنفث به جماعة المسلمين تسير وإياه في رحلة الموت على جانب النهر . . أينما

أجالوا البصر كان صرعى وكانت أشلاء . . وأينما ألقوا السمع كان حسيس من

بين تلك الأكداس التي فرشت الثرى بالدم ، ينم عن أنه خافته — كخفقة سراج

جف زيته — تلفظها ، وما تكاد ، شفتان أخذت تنطفئ عليهما ذبالة الحياة . .

لا معالم ، هنا وهناك في الساحة الفسيحة ، إلا لعدم ، ولا مظاهر إلا لقناء .

الخارجة ذهبت مع الظهيرة المولية . إلى غير عودة ذهبت . . مالت إلى مغيب عن

وجه الأرض كالشمس الجانحة نحو الغروب . . غدت ذكرى . . عبرة في خاطر

ذاكر ، وعبرة في عين محزونة ، وحديثا على لسان راوية . .

ولم يخلفوا غير أثر لا يذكر . . قلة بقيت ، تتردد القلوب في صدورهم واهنة

بينما قد أهدتهم الجراح . . وكثرة مضت إلى نشأتها الأولى تخالط التراب لتحول

إلى تراب . . في جانب من أرض الواقعة رقد إمامهم الراسي ذو الثغفات وفي جسده

الممزق رجحا هانيء بن خطاب الأرجسي وزيد بن خصفة . . في جانب آخر

انبطح زيد بن حصين بضربة رمح نفذت من صدره إلى ظهره . . في ناحية يجندل

حرقوص بن زهير ، وفي أخرى همد شريح بن أوفى . . أشياخهم هلكوا جميعا

ولم يبق إلا نكير من عرض الأتباع قد أنختهم الجراح . .

ما كان أغناهم عن هذه العقبي المشئومة . . . ما كان أولاهم إذن بالإصغاء
إلى نذيره وهو يحذرهم الختوف والمصير الخوف . . . أقد كفت لحظة عن النصيح ،
وعن الإعذار ؟ . . . أخفى عنهم ؟ . . . أطبق دونهم سبيل القدر على البلاء
المنتظر ؟ . . .
بل كلا . . .

لتوشك أصداء حديثه المحذر الزاجر أن تظل لها — إلى الآن — بقية عالقة
في الجوى ، تحمل النذير وترسم المصير . . . الهواء لم يبدد الأصداء ورهيج الوقعة
لم يغلفها بعد بغلالة ضباب تصدها عن التردد والانسياب . ونحيب المعركة — من
صليل السلاح ، وصهيل الخيل ، ووقع الأقدام — لم يذوبها في العدم . . . والذين
قد بقوا منهم حطام رجال إلالهات مبهورة ، يسمعون أن يلقفوا من هذا الجو
الواجم الساكن ، مع آخر ما يلتقطون من أنفاس ، كلمة أو عبارة مما قال . . .
ولقد سبق أن قال ، وإنهم ليندفعون للقتال :

« مصارعهم دون النطفة والله لا يفلت منهم عشرة ، ولا يهلك منهم
عشرة . . . »

وصدق . ما نطق عن هوى . لكأنما كان يقرأ الغيب من كتاب مفتوح .
وها هي القلة المحتضرة تشهد في أنفسها ، وفي أشلاء جماعتها المبعثرة حولها ، آية
صدقة فتستوثق حين لا غناء في تصديق . . . وهام أولاء أصحابه يرون نبوءته
رؤية عين لا رؤية تصور أو خيال . . . عيونهم تملؤها الآن — وهم يذرعون معه
شاطيء النهر الدامى — النتيجة المسبوقة الواقعة ، المقدرة المقدورة . . . في كل
مكان بهذا الميدان ، لا تقع من عدوهم إلا على قتيل . . . على مناظر نصر لا يسبق
ذهن إلى مثيله . . . على مشاهد هزيمة بلا نظير . . . على معالم بوار ساحق ماحق
هو الفناء . . . لكأنما ترجمت رمية القدر عن عبارته ، أو كأنما ترجمت عبارته
عن الرمية . . . حرفا حرفا ، وكلمة كلمة تجسدت العبارة في صورة . . .

لكنه كان — مع الذى لقيه من نصر — بادی لهم ، مشغولا بهذه الأرض
المزروعة بالجثث والجحاشم ، لا ينى يبحث في كل شبر ، ويتفرس في كل صريع . . .
كان يمضى على قلق . ويحيل بصره على قلق . ويكاد ينبش التراب ويغوص في ماء

النهر عساه يعثر على ما يسعى إليه . . ومن حوله طائفة من رجاله ، تفعل فعله ،
وتسعى معيه ، تسبقه آنا ، وتتأخر آخر ، ثم لا تلبث أن ترد إليه ، وفي نظراتها
حيرة وإخفاق . .

ويهتف بهم حين يعودون :

« ويحكم . . . التمسوا الرجل فإنه في القتل . . »

ويعودون إلى ما كانوا فيه ، ينبشون ويفتشون . ثم يكرون إليه مرة وثانية
ومرات وليس في وقاضهم ما عناء . .

والحيرة تسيطر ، والقلق ينتشر ويشيع . . ومع ذلك فإنه لم يبأس ، ولم
يجد به القنوط عن متابعة وجهته . كان موقنا أشد اليقين أنه واقع حتما على طلبته
حيثما أراد الله أن تكون . لا شك ولا مرأ . فما كذب عليه من لم ينطق إلا عن
بينة من ربه وبرهان . .

وحينما تبين اليأس في وجوه أصحابه ، وأحس أن جهدهم الضائع يوشك أن
يخوزهم إلى راحة الإستسلام ، عاد يحثهم ويحفز عزيمتهم :

« والله ما كذبت ، وما كذبت . اطلبوا الرجل ، وإنه لفي القوم . »

بهذه اللهجة القاطعة خاطبهم ، وإنه لو اتق كل الثقة بما يقول . مؤمن كل
الإيمان بأنه سيعثر على الرجل في القتل ، إن اللحظة ، أو في ساعة ، أو بعد ليال
وأيام . . فما كذبه محمد . والأعوام التي انصرفت إلى اليوم منذ وقعة « حنين »
لم تكن لتبلى نبوءة الرسول الصادقة أو تغير منها في قليل ولا كثير . . .

ومع ذلك فعلاطم الضيق لم تغادر قسامته . والقلق النفسى ما فتى ينتهيه وهو
يشهد رجاله يروحون ويغدون في غير طائل . حتى إذا عيل صبره ، وطال عليه
الانتظار ، رأى أن يحسم حديثهم ، فنأدى على بضعة منهم دانية منه :

« اتئونى ببغلة رسول الله . . . »

وجاءوه بها فامتطاها وهو يقول :

« . . إنها هادية »

ثم مضى ، وهم يحفون به ، يرتاد المسكن ، لا يدع منه ناحية دنت أو بعدت
إلا طوف بها طواف تحقق وإيمان ، ولا صريحا مجذلا إلا تفحصه أو أمر رجاله

فقلبوه أمامه ظهرا لبطن ليغوص بناظريه فيه . . حتى إذا بلغوا من شاطئ النهر
وهدة غائرة قد شرقت بجثث القتلى وافعمت بها إلى الحافة ، مالت به البغلة إلى
جانب به خير ، وتوقفت سن السير . . .

هنا ترجل يجيل بصره في تل الصرعى . ثم دعا أصحابه أن يفرقوا الجثث ،
وينشروها جثة جثة تحت عينيه . . فلما أفرغوا الوهدة وبلغوا أسفلها دون أن
يعثروا في قاعها على ما يطلبون ، أوما الإمام إلى أحد رجاله وهو يشير إلى
جانب الحرير :

« فتش هذا . . »

وبادر الرجل . فإذا يده الموغلة في الماء تقع تحت أطباقه على شيء ما إن
أطبق عليه حتى صاح :

« هذه رجل إنسان . . »

وجذبها إليه كأنما ليستنقذ صاحبها أن يترحل به تيار النهر . وأسرع الإمام
يعاونه ، ويجذب الرجل الأخرى ، حتى إذا جرا الجثة ووسداها التراب على
حافة الماء ، طالعهم منها قتيل يعلمه سواد لونه ، ونبن ريحه ، وقطعة لحم على منكبيه
كثدى المرأة عليها شمرات كشوارب الهرة ، إن مددتها غدت كذراع ، وإن
تركها تقلصت وعادت إلى شكلها الأول ككثدى مهمل . .

وصاح الناس حين تبينوه :

« ذو الثدية ! . . »

وخر على ساجدا ، شكر الله ، وهو يقول :

« صدق الله ورسوله . . »

وهللت جماعة المسلمين :

« الله أكبر ! . . الله أكبر ! . . »

وامتلاأ المكان ، هذه الساعة من الأصيل ، بهدير التكبير ، يسلمه العصر
إلى المغرب ، ويسلمه المغرب إلى العشاء ، فأبلى الليل كله ، أوله ومنتهاه . . .
أما الإمام فقد سبغت روحه في طمأنينة ملكت عليه كل حواسه ، وأشفت
به على ذلك المجلس الذى شغله بأمر هذا القتل ما حدث فيه . .

إنه مجلس الرسول ، ومحمد قد توسطه يحف به أصحابه ، وغنائم حنين التي غنمها المسلمون أمامه يقسمها بين الناس . .

ويقبل عندئذ ذو الخويصرة ، أحد بني تميم ، يشهد القسم الذي يجريه رسول الله . فإذا الشيطان يستذله ، فيصور له الحق باطلاً والباطل حقاً . وإذا جلافته تذهب به إلى التطاول على رسول الله ، فيصيح مزمزلاً بتقسيمه :
« اعدل يا محمد ! . . »

فيعرض النبي عنه .
غير أنه لا يكف ، بل يكرر الإزراء :
« اعدل يا محمد ! . . »

ويعرض النبي ثانية ، كأنما ود بإعراضه أن يلى لهذا الجلف في الرجوع عن رأيه الظالم . .

ومع ذلك فإن ذا الخويصرة لا يفيد من هذا الحلم الممدود له ، بل يعاود ثالثة ، بمعنا في بهتانه :

« اعدل يا محمد فإنك لم تعدل ! . . »
عندئذ يرد الرسول :

« ويلك ! . . ومن يعدل إذا لم أعدل ؟ . . »

ويتبدى على عياه الكريم غضب يدفع أصحابه إلى الضيق برجل بني تميم المكابر الزنيم ، وإلى سخط قوله ، فينبري بعضهم وقد أثارهم مسلكه ، يقول للرسول :

« يا رسول الله ، إئذن لي أضرب عنقه . . »
لكن محمداً ينهاه :

« دعه ! . . »

ثم يتبع النهى بقول لن تلبث الأعوام من بعد أن تحقق كل ما ورد فيه ، وترجمه إلى حقيقة واقعة . .
يقول لهم رسول الله :

« ... سيخرج من ضئضئ هذا ، قوم يرقون من الدين كما يرق السهم من

الرؤية . ينظر أحدكم إلى نضله فلا يجد شيئاً . فينظر إلى بغيته فلا يجد شيئاً . ثم ينظر إلى القذذ فكذلك . سبق الفرت والدم .. يخرجون على حين فرقة من الناس ، تحترق صلاتكم في جنب صلاتهم ، وصومكم عند صومهم ، يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم . آيتهم رجل أسود ، محدج اليد ، إحدى يديه كأنها ثدى امرأة ... » ثم يكمل يقول :

« . إنهم شر الخلق والخليقة ، يقتلهم خير الخلق والخليقة ، وأقربهم عند الله وسيلة . »

... ويعود الإمام من رحلة الذكريات بنفس مطمئنة هادئة ، وقلب عامر بالثقة واليقين ، وبصيرة مجلوة قد استضاء أمامها الطريق . فقد قتل ذا الثدية ، فحقت بهذا فراسة الرسول في الأمر كله — في استقامة نهجه هو ونهج أصحابه ، وفي بطلان قضية الخارجة الذين مرقوا من الدين ، وغدوا الآن صرعى بأثناء النهر ...

عز نصرهم . الخوف الذي أوشك أن يشلهم وهم بالكوفة قبيل الواقعة كأنما غلبوه الآن بالنهر . فلا خارجة . ولا فرصة تسنح لكرة على نسائهم وأطفالهم بالكوفة ممن عسكروا على مشارفها ، وراحوا يشيعون حكم الإرهاب ويستعرضون عباد الله بالتنكيل والقتل . ولا ميبيل من بعد لنكسة ينتكسها أمرهم عليهم ، وقد ذاب عدوهم في الموت كما ذابت طلعة هذا النهار من أواخر أيام السنة الثانية لإمرة على في غبشة الغروب . .

الساعة التي قضوها على قدم ، يضربون فيثخنون ، بالنهروان ، جنبتهم القلق والفزع والعورة المكشوفة التي ظلت طويلا شاغلهم الشاغل . . أصحاب النهر أصبحوا اتي مضيقا على شاطئيه . جماعتهم المشاقة العادية غدت كلها قطعة من الفناء . همدت عديدا ودرست عدة . وحين تلفتوا حولهم في الميدان لم يروا حيالهم منها سوى بضعة لم تبلغ عشرة ، ثم فريقا من مكلومين وجرحى بغير حول ولا حيلة .

وشغلوا أنفسهم قليلا عن بقي بهم رفق من أولئك المدحورين يستنقذونهم من بين القتلى والأشلاء . فما يجدر إلا أن يحفظوا عليهم بقية الأنفاس . ولا هو يعقبول في شرعة صاحبهم أن يجهزوا على جريح ولو جاء الإجهاز عن إهمال وتغافل . فكذلك أمرهم . وكذلك برأيه تسير خطة الانقاذ .

وقال لهم :

« ادفعوا بهم إلى عشارهم . . »

ثم مال إلى المشائر يوصيهم :

« احملوهم معكم فداووهم ، فإذا برأوا فوافوا بهم الكوفة . . »

ولقد بدا من أصحابه كأنما قد عنتم الغنائم والأسلاب في معسكر عدوهم

فودوا لو احتازوها ثمنا للنصر ، فإذا هو يردم عما ودوا ، ويبين لهم :

« . . أما السلاح والدواب وما شهدوا به الحرب فقسمة بين المسلمين ،

وأما المتع والعبيد والإماء فمردود على أهله . . »

ولم تعد لهم من بعد بساحة الموت حاجة ، فقد انطفأت الحرب ، وجمعوا السلب ، واحتملوا الجرحى ، إلا أن يجعلوا الأرض بها مجازا إلى غايتهم التي من أجلها بارحوا الكوفة . لم يبق لهم بعد هذا النصر السريع المؤزر ، إلا أن يولوا وجوههم شطر النصر الأشق الأكبر . . .

وأوجز الإمام لهم هذه الغاية في كلمات :

« عباد الله . . . إن الله قد أحسن بكم ، وأعز نصركم . فتوجوا من فوركم هذا إلى عدوكم من أهل الشام . . . »

وما يشك أحد لحظة في أنه كان موقنا عندئذ أنهم سابقون عبارته هذه إلى السير ، خفافا مشوقين ، إلى وجهتهم المنشودة . فالنصر يشعل الحماسة . والحماسة تورث الثقة ، والثقة تفتح آفاقا من الأمل فسيحة تغري الأنفس بارتدادها نشدانا لتعزيز نصرها الأول بنصر غيره جديد . . .

ما يشك أحد في هذا قط لو أنهم حقا — حين سيرهم بدء الأمر إلى النهر — كانوا مؤمنين بما ساروا فيه ، عارفين أنه مرحلة من كفاح مفروض ، لا يمكن أن يتكشف عن نتيجته المرتجاة إلا بمتابعة الخطا على بقية المراحل . . . لكنهم ، في واقع الحال ، إنما ساروا آنذاك خداعا وتعمية ، وهم يضمرون غير ما يظهرون . كان سيرهم ذاك مرحلة في حسابان من يأخذ قولهم على ظاهره ، ولكنه ، في حسابانهم ، كان نهاية المطاف ! . . . وكذلك انكشف عنهم الغطاء ! . . .

فلم يكذ الإمام يطالبهم بكلماته ، حتى انبرى له الأشعث بن قيس : رأس الشيطان ، يقول بلهجة الناصح الأمين :

« يا أمير المؤمنين . . . نفدت نبأنا ، وكلت سيوفنا ، وانصلت أسنة رماحنا ، وعاد أكثرها قعيدا . . . ارجع بنا إلى مصرنا ، تستعد بأحسن عدتنا ، ولعل أمير المؤمنين يزيد في عددنا مثل من هلك منا ، فإنه أقوى لنا على عدونا . . . »

وأحسب أن طائفة من الجيش — وإن تكن قلة — سفهت آنذاك قول الأشعث ، ونبت بدعوته فلغير النهروان كان مخرجهم إلى القتال ، ولغير الخارجة كان إعدادهم قبل أن يبرحوا الكوفة . وإذا كانت الخطا قد سارت بهم إلى معركة

اليوم فلائها وسيلة وليست بغاية ، ولأنها معبر لا بد منه إلى الشام ، بتطهيره من من الفئة المناهضة يؤمنون ظهورهم ، ويحنبون بلدتهم كل عدوة مفاجئة ، ثم يحفظون خطوطهم إليها ومنها سليمة حين اشتبا بهم على مشارف الشام . . .

غير أن الأصوات التي ناهضت الدعوة الأشعثية ، لم تكن أعلى جرما من أصوات المؤيدين ، ولا كان أصحابها أعز نفرا وأبلغ أثرا في الجمع حين تقاس العزة وقوة الأثر بالأعداد والمعدات . . . فما أن أعربت تلك القلة عن رأيها حتى تعالت حولها دعوة العودة ، وأغرقت أصوات المعارضة في طوفان .

ولاح كأنما المناخ النفسى للجماعة يوشك أن يطلع عليها بفتة جديدة قد لا تؤمن مغبتها في هذه اللحظة الحازبة التي بلغوا عندها مفرق الطريق . فالإصرار على المضي للحرب ، إن وجد سبيلا إلى التحقيق ، سيقدم إلى سعيها رجالا كلا رجال ، نفوسهم خواء ، وقلوبهم هواء ، خليقين أن يشكوا وقودا شهيا للنار ، إذا لم يؤثروا السلامة ، ويهطعوا إلى الفرار . . . وهو دون ذلك وقبله مدعاة أى مدعاة لخلاف لا بد من وقوعه ، مآل الأمور به انقسام الجيش العلوى على نفسه ، وتمزق وحدته ، وانتكاث صفوفه : صفا في جانب ، وصفا في آخر لا يحتكان إلا لمنطق السلاح . . .

ورأى على من غالبية القوم ميلا لرأى المنافق ، وانحيازاً إليه يوشك أن يفسد الأمر عليه ، فبادر يستحث الناس ، ويشير فيهم حمية الجهاد بكلمات من عند الله : « يا قوم . . ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ، ولا تترددوا على أدباركم فتقلبوا خاسرين . . »
لكنها كانت صرخة في واد .

لم يلق أيهم إليه السمع . إنما تلكأوا ، وبادل بعضهم بعضا نظرات جوفاء . ثم انقلبت طائفة منهم — وقد أعوزتهم الحجة — تقول على تردد وهي تصطحع العذر الذي تحسب أنه يؤيد الرجوع :

« إن البرد شديد . . »

فرد في عجب :

« إنهم يجدون البرد كما تجدون ! . . »

فأخلدوا هنيئة أخرى إلى صمت عاق ، وفي عيونهم علائم معارضة وإباء إن لم تكن نذر تمرد وعصيان . .

عندئذ استنأس ، وزفر في ضيق :

« أف لكم ! . . إنها منة جرت » .

ثم تلا قول الله :

« قالوا يا موسى إن فيها قوما جارين ، وإننا لن ندخلها حتى يخرجوا منها ،

فإن يخرجوا منها فإننا داخلون . . »

وكأنما رأت فتنة بينهم أن تعالج الداء بالتريث ، لعل الله أن يجمع كلمتهم من

بعد ، ويبقى بهم كافة إلى تدبر يفضى إلى الطاعة ، فبادر إليه منها من قال :

« يا أمير المؤمنين . . الجراح فاش في الناس . فارجع إلى الكوفة فأقم بها

أياماً . خار الله لك ! . . »

كان قولهم أمنية . ومع ذلك فلم ير ، حسماً للنزاع ، إلا أن ينزل على الرأي

المعروض . وهل كان له معدى عن النزول ؟ . .

وعاد . .

مضى يجترأله ! . . من إذن لله وحقه إن لم يقم فيه — بصلاته رمح وسرعة

إعصار — أصحابه هؤلاء ، العلماء الأبرار ، التالون القرآن ، العابدون القانتون ،

المنهجون بالأسعار ؟ . . من على الشيطان وحزبه ، إن لم يثب جمعهم الجم ،

الذى فرق الهدى من الضلالة ، وطعم حلاوة الإيمان ، وأصبح على بينة من أمر

ربه ؟ . . فيم نكوصهم اليوم عما نذبهم له ، ودعاهم دينهم إلى النهوض فيه ؟ . .

فيم تمجدهم السلامة ، وطريق الجنة — كما يعلون — تحفه المكارة ؟ . .

ليس بوسعه حماهم على محجته . أعياه أن يفعل . النصح الذى طالما بذله ذهب

مع الريح . تبدو كهباء . . لو شاء . لألقمهم السيف لهذا العصيان ، ولكنه يأتى

أن يخوض في دم ! . . لو شاء أيضاً لصانعه ، بالمنصب وبالمال ، ولكنه لا يبيع

دينه بدنياه ! . .

ماله إلا أن يصبر . . وها هو الآن ينطلق بهم ، على كره ، فيشمر أنه

يطوى الأعوام طياً إلى الوراء ! . . ها هو يعود القهقري بالتاريخ ! . . ها هو

يخلف مدرجة الجهاد إلى أرض الدعة . . إلى الاستسلام . .
وسار والحنة . . الهم والغيظ في ركابه . في قلبه ثقل ، وفي فمه حنظل . .
النصر الذي حازه وإياهم اليوم أشد قسوة عليه من هزيمة مدمرة . . طوال الطريق
كان يمشي على عذاب . والجيش الظافر الذي يتبعه ، بدا في عينه كالفلول الممزقة
التي تهيم في تيه من الجزع والضياع ، لا تسكاد تعثر في فراغه على فرجة إلى
طمأنينة . .

وعندما لاحت لهم مشارف الكوفة ، أراد أن يغلب جموحهم الأحمق إلى
الراحة الدليلة ، فقال بهم عنها إلى معسكر النخيلة ، امل مكثهم به لا يخذل في
نفوسهم ما بقي من جذوة القتال . حياة المعسكر خليقة بأن تحفظ عليهم صلابتهم ،
وتقوى روح الجندية فيهم . . .
ونزلوا النخيلة . .
وفيها أوصاهم :

« . . الزموا معسكركم ، وضموا نواصيكم ، ووطنوا على الجهاد أنفسكم ، ولا
مكثروا زيارة أبنائكم ونسائكم ، فإن أهل الحرب المصابروها ، وأهل التشمير
فيها الذين لا يتقادون من سهر ليلهم ، ولا ظمأ نهارهم ، ولا خص بطونهم ،
ولا نصب أبدانهم »

وكان هو الرأي لو فعلوه ، لأنه عندئذ رياضة للنفس ، وتدريب على السلاح ،
ومعيشة تهبهم القدرة على لقاء العدو حين تأزف الآزفة ، وهم موفورون ، أهبة
ودربة . .

لكنهم خادعوه . .

عاشوه أياما بهذا المعسكر رياء ومخاتلة . ثم أقبلوا يتسللون إلى الكوفة ،
واحداً بعد واحد ، وجماعة بعد جماعة ، حتى لم يبق منهم غير قلة ، لا يجاوزون
الحسين . . .

وفضح الفعل النية . .

٢

تنفس معاوية الطمأنينة ملء رئتيه !
يوشك فجر دولته أن يبرغ . الأمل الذي غذاه الليالي الطويلة ، قد زكا
وطال . ثم أزهر . ثم أطلع براعمه . ثم أثمر . . .
الأنباء تبيته مهطعة ، أسرع من شطحات أحلامه ، كأنما تطير بجناح . . .
بشائر الفوز تتجمع حوله . الزمن معه على عدوه . والقدر معه . وأنصار على
كذلك معه بهذا الخلاف المتكرر الذي يشنونه بين كل صبح ومساء على أميرهم ،
وينتقص من أمره ومقداره . . .

فلا صفين والتحكيم كانا نصرا له وللشام وإن لم يفاج بهما على غريته في قتال
ولا يبرهان . . الخديعة هي التي علت به ، ونصرتة . والخديعة هي التي نالت
من الإمام فقهرته . . . والأيام أيضا تظاهر المخادع وتأخذ بيده بعد إذ خرجت
الخارجة وناوأَت صاحب السلطان . . .

حتى وقعة الثروان كانت وبالا على المنتصر . ولقد غرست في قلوب أهل
العراق حزنا مقبها على صرعاهم من الجانبين ، الذين حصدتهم الحرب ، لأنهم
جميعا ذوو عصبية وأولياء ، أبناء وآباء ، إخوة وأصحاب وإن تضاربوا بالسيوف
والحراب . . غرست حسرة في كل قلب . وأسالت دموع في كل عين . وأقامت
مأتما في كل بيت . ثم لم تجمع الكلمة من بعد بل زادتها تفرقا دفع بالقوم إلى
الارتداد دون الالتحام بجيش الشام .

وكذلك رجع معاوية إلى حاضرتة ، على طمأنينة . موفورا وما خاض حربا ،
منصورا وما ضرب بسلاح . فلقد كفاه عدوه القتال . وتركه ليزيد منعة بين أمة
من الناس ، تلتف حوله كأنه علم . لا تراجع في رأى وآه وإن حملهم على باطل .
يدعو فتجيب . ويأمر فتطيع . ويقود فتتقاد . . .

ولم يعد همه بعد هذه الأحداث أن يخلد إلى السكون . فالمراحل التي كانت
من قبل تفصل بينه وبين هدفه قد طوتها له — إلا أقلها — الأيام . والشقة
أصبحت قصيرة . والجهد المنتظر منه ومن رجاله غدا كمشية الهويى
في نزهة . . .

ولقد عرف الرجل عنا، إذ أين يقف وأين يقف أيضا غريعه ، فلم يقفه أن
يقدر الوقفين بالحساب الدقيق ، ويزنهما فلا يستوفي ولا يخسر الميزان. ثم يطالع
بالأمر خاصته وإنه لينوى أن يسير خطوة جديدة إلى الأمام . .
قال في هذه الآونة وقد دعاهم ليسمعوه ويشيروا عليه :

« قد رأيتم كيف صنع الله لكم في حربكم هذه على عدوكم .. لقد جاءوكم وهم
لا يشكون أنهم يستأصلون ببيضتكم ، ويحوزون بلادكم ، ما كانوا يرون إلا أنكم
في أيديهم ، فردهم الله بغيظهم لم ينالوا خيراً . وكفى الله المؤمنين القتال . وكفاهم
مؤنتهم . . وحاكمتموهم إلى الله فحكم لكم عليهم . . ثم جمع كلمتنا ، وأصلح ذات
بيننا ، وجعلهم أعداء متفرقين ، يشهد بعضهم على بعض بالكفر ، ويسفك بعضهم
دم بعض . . »

وتعمل هنية ثم أردف ، وهو يدور فيهم بعينه ، ليشهد كيف تقع منهم كلماته :
« . . والله إنى لأرجو أن يتم الله لنا هذا الأمر . . وقت رأيت أن أحاول
حرب مصر ، فماذا ترون ؟ . . »

كان حوله إذ ذاك خيرة صجيبة ، وأعلام رجاله ، ممن لهم في سياسة الأمر
شأن وخطر : فيهم من قريش عمرو بن العاص ، وحبيب بن مسلمة ، ويسر بن
أرطاة ، والضحاك بن قيس ، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد. وفيهم من غيرها :
شريحيل بن السمط ، وأبو الأعور السلمي ، وحزمة بن مالك الهمداني . . فلما
أن نطق بقوله ، كان أسرعهم إلى جوابه ابن العاص :

« قد أخبرتك ، وأشرت عليك . . »

فابتسم العاهل . لقد سبقهم حقاً عمرو إلى نيته المضمرة من قليل ، قبل أن
يتحدث بها لسانه ؛ فمصر ، لا ريب ، أولهم ، وأدعى إلى وثوبه ، لوفرة ناسها ،
وكثرة خيرها ، وودنها الداني من أرضه . . وانقطاعها إذن عن العراق خلق
بأن يفقد عليها أحد جناحيه ، ويدعه كالطائر المهبط . .

ومال عن ابن العاص ، يسأل البقية :

« وما ترون ؟ . . »

قالوا :

« نرى ما رأى عمرو بن العاص . . »

« إن عمروا قد عزم وصرم بما قال ، ولم يفسر كيف ينبغي أن تصنع . . »
فقال عمرو :

« فأنى مشير عليك بما تصنع . . أرى أن تبعث جيشا كشيفا ، عليهم رجل صارم ، تأمنه وتشق به ، فيأتى مصر فيدخلها فإنه سيأتينا من كان على مثل رأينا من أهلها ، فنظاهره على من كان من عدونا . . فإن اجتمع بها جندك ومن كان بها من شيعتك على من بها من أهل حربك ، رجوت الله أن يميز نصرك ، ويظهر فلجك . . »

فتفكر معاوية مليا في الأمر . . إن هذا الغزو الحربى الذى يقترحه صاحبه هو أقصر السبل لا ريب إلى مبتغاه . ولكن الحرب — تماما — كالبحر يتأثر بالانحراف وطبيعة . فيهما الأمن والخطر . وفيهما المد والجزر . وفيهما النصر والهزيمة . وهو يؤثر ألا يقبل على مغامرة قد تحمله إلى شاطئ السلامة ، كما قد تنحصر به إلى القاع ! . .

ودفعه حذره أن يماود سؤال ابن العاص :

« فهل عندك شيء غير هذا ، نعمله فيما بيننا وبينهم قبله ؟ . . »

فأصر عمرو :

« ما أعلمه ! . . »

عندئذ بادر معاوية برد رقيق حصيف :

« إنك يا ابن العاص لا امرؤ بورك لك في العجلة ، وأنا امرؤ بورك لى فى

التؤدة ! . . »

ثم أفصح يقول :

« إن رأيى غير هذا . . أرى أن نكتب من كان بها من شيعتنا ، ومن

كان بها من عدونا . فأما شيعتنا فنأمرهم بالثبات على أمرهم ، ونعنيهم قدومنا

عليهم . وأما عدونا فنندعوهم إلى صلحنا ، ونعنيهم شكرنا ، ونخوفهم حربنا . .

فإن صلح لنا ما قبلهم من غير حرب ولا قتال فذلك ما أحببنا ، وإلا فحربهم

من وراء ذلك . . »

فلم يزد عمرو على أن قال :

« فاعمل بما أراك الله ، فوالله ما أرى أمرك وأمرهم يصير إلا إلى حرب ! . . »
وكذلك فضح معاوية بعمده — ذلك المعدن الذي يديه دائماً صاحب ترفق
ولين ، لا يعنف بالناس ، ولا يقتحم الأحداث ، وإنما يصابر ويداور ، ويلتوى
ويلتف ، شأن الثعبان . . .

على هذه الجادة سار العاهل أشواط كفاحه ، منذ حدثه طموحه أن يضع
خيوط سياسة الدولة في أصابعه ، يرخيها إذا شاء ، ويشدها إذا شاء . . من
يوم توليه الشام ، كان يعمل على جمع هذه الخيوط . وفي محنة عثمان أعد لبيدو
وهو وحده المناضل عن الخليفة المظلوم . وحين اندلعت الثورة ودفع بجيشه
إلى مشارف المدينة لم يكن يعنيه أن يكف الثوار بقدر ما عناه أن يظهر للناس كأنه
على أهبة لناصر أمير المؤمنين لو دعاه . . . ولما أفضت الإمرة إلى علي ، برغبة
الكافة ، لم يحاول قط مخالفة هذه الرغبة العامة لا بفعل سافر ولا بعبارة صريحة ،
وإنما تستر بدعوة القصاص . وعندما وقعت صفين ، وأخذت حربها تلهم الناس ،
ثم رأى أمرها قد أعضل به ، لبس سرح الإصلاح وتوارى خلف القرآن . . .
في كل مسلك له ، كان يبدو بوجهه ، ويعمل بآخِر . كان يعلأ عينه بدمعة
تمساح . . . كان يبدى الجلد الأملس وهو يخفي السم في الناب . . ولقد التزم
سياسته هذه بمصر فلم يحاول قط أن يعصف بها وإن دعتة دائماً مقتضيات الحرب
أن يوجه إليها أعنف ضرباته ، وأجلد قواته . فقرَّبها من فلسطين ينقض عليه
أحلامه ، ولا يكاد يدع له سبيلاً إلى الرقاد إلا بعين مغمضة وعين مفتوحة . . .
وحراجها يثرى غريمه بالمال والعتاد . وأهلها الجم الغفير يغشونه بالأجناد . .
وهي بهذه الصفات سيف ماضى الشفرة ، حديد السنان ، معلق فوق ناصيته
بأوهى من خيط عنكبوت ، وليس يسكه أن يقع فيفري ويقطع ، ويبقظ
ليقد ويقط ، غير كلمة آمرة تند من شفتي الإمام . .

على أن الكلمة الآمرة القاتلة لم يكتب لها قط أن تقطع الخيط . . هي — فعلاً —
تخلقت على الشفتين ، ولكنهما لم تزد على حروف جوفاء . . . لفظ أصداء ألقا لقيت
عندئذ السميع الحبيب ، حين بلغت قيس بن عباد ، وهو إذ ذاك عامل على

مصر ، ورجله بها الذى اختاره لتأمينها له ، والقضاء على من فيها من مشاغبين على أمره ، لتخلص من بعد موحدة الرأى والسلاح ، تطبق من الغرب على معاوية حين يتبين لجيش العراق أن يطبق عليه من الجنوب . . .

قيس بن عباد شاء أن يدع العنف ويعتصم بالدعاء . . هادن من بها من الخارجين على سلطة الدولة ، وأبى أن يحملهم بسيفه على الطاعة . رضى لهم الانحياز عنه ، والاعتزال فى رباطهم بخربتا وغيرها من ريف مصر ، ما هداؤا لا يناوئونه ولا يشغبون عليه . . .
وأعطاهم عهده . .

« .. لا أكرهكم على البيعة . ولكنى أدعكم وأكف عنكم .. »
ويوشك امرؤ أن يرى الحكمة فى هذه السياسة المهادنة ، التى تصطنع الرفق بالغيريم المنابد ، عسى الله أن يتألفهم بهذه المهادنة ، ويردهم إلى الجماعة والطاعة . . لكنها ، فى حقيقتها ، لا تزيد على أمنية فى ضمير متفائل ، بحسب الظروف مقهورة على السير فى الطريق الذى يرسمه ويرتضيه . وهى — من أساسها — لا تنهض على ظواهر الواقع ، ولا احتمالات المستقبل التى يوشك الغيب أن يطلعها فى مدى قصير أو مدى طويل . . إنما كل قصاراها ، ومنتهى ما تستطيعه هو أن تجمد حركة التاريخ وتقف بأحداثه عند نقطة البداية ، دون تقدم ، إن لم تعد به إلى الوراء خطوة أو بضع خطوات . .

لب السياسة القيسية الرخوة ، فى هذه المرحلة الحاسمة من إمرة على يكاد يفتأ — من قبل أن تجهزها لتتجهز المرة — أنها كانت سبيلا إلى تفاقم شأن المعتزلين ، واشتداد أيدهم وشوكتهم ، وإن تواروا فى مراتبهم على مسكنة ، لا يبادرون واليهم بفتنة ، ولا يجاهرونه بعداوة . . فما كان مثلهم إلا كمثل قوقعة طوت على نفسها صدقتها الصلبة ، فبدت للرأى هامة جامدة لا تنم عن حياة . ومع ذلك فالخبر يغاير المظهر ، لأن علامئ العدم البادية على القوقعة ، لم تكن لتنع تطور الحياة داخل القشرة أن يسير سيره ، أو تحرم البنية الحية بها قدرتها على النمو والإكتمال والاستفعال .

حتى العهد الذى قطعه لهم قيس إذ ذاك ، كان يغريا أولئك المعتزلة ، أشد

إغراء ، بالإصرار على الخلاف . وكيف لا ، وإنه وهو عاملهم من قبل على ، لا يحاول حملهم على الدخول في بيعة أميره ، كأنما لا يرى هذه البيعة تلزم الناس ، وإنما يعتبرها رخصة يقبلها من شاء ، ويرفضها من شاء . . . ؟ وكيف لا ، وإن خطابه إلى الإمام عنهم أيلقى في روع الذين قرأوه ، أو عرفوا ما فيه ، أنه هو نفسه — ذلك العامل المهادن — على شبهة من أمر صاحبه ، وحقه في ولاية المسلمين . . . ؟

والرجل عندنا لا ريب غير متهم في ولائه لأمر المؤمنين ، ولا نضح قط تاريخه بحرف واحد من حروف الاتهام ، ولكن كلماته هي التي نطقت بغير ما عناء . فلقد كان مما كتبه للإمام :

« .. إن قبلي رجلا معتزلين ، سألوني أن أكف عنهم ، وأدعهم على حالهم حتى يستقيم أمر الناس ، فنرى ويرون .. »

فكيف للأمر أن يستقيم والناس على فرقة واختلاف ، لا وحدة تجمعهم ، ولا سلطان يدينون له بالولاء . . . ؟ كيف تتفق كلماتهم وقد خلى بينهم وبين الأهواء ، تذهب عنة بأولئك ، وتذهب يسرة بهؤلاء . . . ؟ وهل حق على في ولاية الدولة ، معلق بتقلبات الظروف والأيام ، فإن غدرت به فهو مبطل ادعى ما لم يكن له ، وإن آزرته فإنه محق منذ البدء وحق الختام . . . ؟

إن الأثر النفسي الذي نحسب موقف قيس بن عباد قد غرسه في النفوس ، لهو أنسكى على أمره من كل عداوة كان من المحتمل أن يجار بها معتزلة مصر ، وأشد وقعا من أية حرب كان في مقدورهم آنذاك شنّها عليه . . . فلقد كانوا أهون من المجاهرة بالعداء ، وأدنى إلى الاندحار واليوار لو أخذهم قيس بما كان يجدر أن يؤخذ به أمثالهم من العصاة . ولقد كانت فرصة استفتاءهم للطاعة أو تأديبهم بالسلاح ملء كفيه لو أنه اصطنع الحزم الواجب ولم يلتزم تلك السياسة الرخوة . لكنه آثر أن يلين في مقام شدة ، وأن يجمد وداوعى المبادرة تدعوه إلى سرعة الحركة . . . كانت الظروف عندئذ مواتية كل مواتاة . والأحداث هادئة من حوله تكاد تستجيب له لو أشار . والمعتزلة تساكنه على ذعر وهي مهيضة الجناح لا تستطيع أن تدفع سطوته عليها بينان . ومعاوية في الشام لا تخايله بشأه النصر وإنما تؤرقه خيالات الاستسلام .

ومع ذلك فقد فرط الرجل فيما كان يديه ، وترك الوحش المنجحر في خربتا
حق استطالت مخالبه ، وبرزت أنيابه . . ولم يكفه هذا التفريط ، بل أغراه
اعتداده برأيه ، بأن يخالف عن رأى أميره ، حين أمره أن يدع خطته التي
لا تقرها طبيعة الظرف ، وشواهد الحال ، ويعمد إلى الحل الحاسم الذي لا تصلح
الأمر بسواه :

« . . سر إلى القوم الذين ذكرت ، فإن دخلوا فيما دخل فيه المسلمون ،
وإلا فناجزهم . . »
فقد أجاب :

« . . تأمرنى بقتال قوم كافين عنك ، ولم يدوا يدا للفتنة ، ولا أرصدوا لها ؟ . .
أطعنى يا أمير المؤمنين ، وكف عنهم ، فإن رأى تركهم . . »
لكن الفتنة كانت تغتذى في مرابط المعتزلة ، وتنمو ، وتستفحل . وليخرجن
وحشها المنهوم ، بعد قليل ! . .

٣

أو كانوا حقا عشرة آلاف ، أم دون ذلك ، أم كانوا أكثر — أولئك
العصبة التي انجحرت آنذاك في خربتا ، تبكى عثمان ، وتربص من الزمن بسانحة
تسبح في طالع يمن ، لعلها تستطيع تلبية نداء الدم ؟ . .
في تقدير الأرقام ، قد تعلو بها عدتها ، وقد تقل ، ثم لا تكون ، آخر الأمر ،
ذات خطر له أتره المرجح ، لأن الكثرة العددية ليست وحدها العامل الفعال
في تصوير النتيجة ورسم العقبي في ساحة القتال . . وفي تقدير الظروف المحيطة ،
قد يكونون هباء أو أوهى منه ، وقد يكونون ذوى شأن حاسم يقلب ميزان
القوى ، ويلوى الطريق أمام الأحداث ليسير موكبها الحافل إلى حيثما لم يكن
متوقعا له قط أن يسير . .

ولقد رآهم قيس عندئذ كثرة ، بحساب العدد ، ورآهم قوة ، أيضا ، بقياسه
للظروف التي عاشها إبان ولايته أمور البلاد . . ولا عليه — لاريب — إذ فعل ،
فله رأيه ، وله ، إلى جوار هذا ، حقه في أن يسوس إقليمه على النحو الذى يضمن

الأمّن ، ويوثق في ربوعه الولاء له وللإمام في آن . فإذا تحقق له من وراء سياسته ما طمح إليه ، فإنه إذن الحاكم الذي وزن فأحسن ، وقدر فأصاب . . .
فأين يقف حسابه من دقة الحساب ، وينزل تقديره من رحاب الصواب ؟ . . .
سؤال لا يسوقه الجدال ، وإنما يفرضه سلوكه بمصر إزاء أولئك القوم ، منذ دخلها إلى أن غادرها بعد عدة شهور ، ثم لا تجيبنا عنه إلا وقائع الحال . . .
في صفر من سنة ست وثلاثين ، أقبل الرجل على مصر ، واليا من قبل على يجتاز حدودها ، ثم يقتحم على المنجحرين وجارهم وهم إذ ذاك على كثرتهم المزعومة ، وما يمينه سلاح مرهوب غير كتاب توليته ، ولا بصحبته جيش كثيف ، أو بطانة عزيزة الجانب تشد أزره غير سبعة نفر من أصحابه أو أهل بيته كانوا وخدم كل من رافقه من جند وأحراس . . .

ومع ذلك فقد ارتضاء الناس ، واستقبلته البلاد بطاعة ضاعت في غمارها نقمة الناقمين . . . فما أن قرأ عليهم كتاب الإمام بتوليته حق أقروه . وما أن دعاهم للطاعة لملي حتى أسرعوا وبايعوه . . . أما العصبية الساخطة فبقيت دون بقية المصريين بمزل ، في قريتها تلك ، لا تحرك ساكنا أمام هذا الاجماع . فلا هي عاجلته بسلاح ، ولا عارضته بإشارة . . . كل ما وسعها ، وكان قصاراها حينذاك ، أن تبعث إليه ، على لسان أحد ساداتها : يزيد بن الحارث ، برسالة تقول :

« . . . إنا لا نأتيك ، فابث عمالك ، فالأرض أرضك ، ولكن أقرنا على

حالتنا حتى ننظر إلى ما يصير أمر الناس . . . »

تمنع كرضاء ، وعداء كولاء . . .

واستقامت له الأمور .

فهل عن قوة أم عن ضعف كان منهم ذلك الخضوع ؟ . . .

إن جماعة هذا شأنها ، وإن كانت عشرة آلاف ، أو دون ذلك ، أو فوق ذلك العدد أضعاف الأضعاف ، وما كانت لتخشى قيس بن سعد بن عبادة إلا وهي تدرك تمام الإدراك أنها ليست بإزاء رجل واحد في سبعة نفر من أهله ، وإنما بأزاء أمة بأسرها خفضت جناحها للوافد الجديد ، لأنه يمثل رأيها ، ويعمل به ، وينشر على أديعها ، بها ولها ، سلطان ذلك الأمير الذي آمنت ، وآمن معها عامة

المسلمين ، أنه أولى الناس بالإمرة وأحقهم بالسلطان . .
هذه حقيقة لا يشغلنا قط عن تقريرها أن فريقا من رعاياه حاولوا في البدء
أن يثروا الشوك في طريقه حين تواب مسلمة بن مخلد الأنصارى ينعى عثمان
ويدعو إلى الطلب بدمه وقيس عندئذ لم بكديقف بقدم واحدة على أرض
الإقليم . . فدعوة الدم تجمدت وما كادت تغادر الشفاه . وشرارة الفتنة
المنبعثة عنها خمدت ولما تلاحق بحطب ولا بهشيم ! . . وما جاء خوردها ذاك
عن جهد مذكور من قبل الوالى ولا رعاياه بقدر ما كان نتيجة لافتقارها إلى
البيئة الصالحة للاشتغال . وبحسبنا أن نعلم أن قيسا لم يكلف نفسه أكثر من كلمة
عتاب بعث بها إلى النافخ في النار فإذا ناره سلام وثورته استسلام . .
بعث قيس إليه :

« ويحك ! . . أعلى تثب ؟ . . والله ما أحب أن لى ملك الشام ومصر وأنى
قتلتك ! . . فاحقن دمك . . »

ورد مسلمة :

« . . إنى كاف عنك مادمت أنت والى مصر . . »

عتاب فإقرار ، وإعذار فاعتذار ، كأنما لم يكن ثمة خلاف فلا موجب إذن لإضرار
النار ! . .

كذلك كان .

ولقد يزعم زاعم ، هنا ، أن الدهاء القيسى المعهود ، الذى بطن ، هذه المرة ،
دعوة السلام بالوعيد ، هو الذى وأد الفتنة قبل أن ينجم لها قرن ، وقضى على
نطفتها وما تخلقت بعد ثورة مدمرة حرية بأن تجتاح الأرض المصرية وتصبح تراها
الأخضر بالدم . .

ولقد يزعم آخر أن حكمة الوافد الغريب على بلد غريب طالبتة أن يترث
عندئذ بالعثمانية حتى يعرف المشكلة ، ويسبر عمقها وغورها ، ويدرك حجمها
وأبعادها ، ليتبين — عن تثبت — أين موقفه من عامة أهل الإقليم ، وأين منهم
موقف العصبة المنحازة ، ثم يرم فيها أمره — حربا أو سلما — على يقين . . .
قد يكون هذا ، وقد يكون ذاك ، ولكننا لا نراها غير زعمين جدليين ،

إن أبحاثهما مقتضيات ترويض الأذهان ، ومساجلات النقاش والحوار ، فإن عناصر الواقع ، وشواهد الأحوال لا تؤيدهما بحال . . .

فالثورة — أية ثورة — كيان عنيد متمرد ، بلا مسمع تصفى لوعيد ، وبلا جنان يرضخ لتهديد . بل شأنها — بطبيعتها — شأن السيل ، يعصف بالجيل كما يعصف بالسهل ، ثم لا يكون أعنف ما يكون قوة وبطشا إلا في مواجهة التحديات . . .

والترث — دائما — رهن بأجل موقوت ، وموعد محدود ، ولا ينطلق به عمره سرمدًا بلا حدود . . .

فإذا مضى الفكر مع الزعم الأول — تدبرا وتعميضا — لاح من ثنايا المراجعة والبحث كأعما تلك المعزلة فئة اشتبه عليها عندئذ الأمر ، وتقسما حياله اضطراب فكري حرما القدرة على تحديد موقفها منه ، وحسمه الحسم الناجز في لحظة كانت — بلا ريب — أنسب اللحظات للمجاهرة بالمداء . . .

فلأى سبب إذن يمزى تقاعس الفرقة المنحازة عن مبادرة الوافد الغريب بما ينكث عليه خيوط الحكم ، ويعجل به إلى حيث لا يكون له عليها سلطان يقهرها بالشدّة ، أو يداورها باللين ؟ . .

أكانت على ريب — إذ ذاك — من الخلاف الناشب بين على ومعارضيه ، لا تعلم أى الحزبين على حق وأيهما على باطل ، فاستأنت بالعامل الجديد لعل الزمن بعد قليل يضيء لها طريق الصواب ؟ . .

أم رأت أن تملئ لنفسها في فسحة من الوقت تجس خلالها نبض هذا الوافد — قبل أن تضرب ضربتها — لتعرف مواطن الضعف ومواطن القوة فيه ؟ . .

أم استجابت — رياء وخديعة — لدعوة المهادنة ، ليطمئن إليها الداعى ، وينام عنها ملء جفنيه ، ثم تأخذه بغتة قبل أن يفيق ؟ . .

أم أحست في نفسها وهنا يرجح كفته في مجال الصراع لو أنها شغبت عليه ، واستقبلته بما لا يرضاه ؟ . .

أم خشيت نقمة أهل مصر وإنهم ، فيما تدرك ، على ولاء لعل ، وهي فيهم كجزيرة معزولة ، يحيط بها بحر لجى من الإنكار ؟ . .

أم أرجأت اللقاء الفاصل حتى تستكمل عدتها ، وتشد ساعدها ، ويعدها
وليها خارج الإقليم ، ثم يؤذنها بساعة القتال ؟ . .
فروض تدور في فلك الزعم الأول ، عليها المراجعة ، وتبسطها دواعي
التحريض ، ثم لا تأبأها وقائع الأحداث ، ولا دوافع النفوس . .
فلأى سبب إن من هذه الأسباب ، قبلت معتزلة مصر — صاغرة
أوراضية — الهدنة المريبة التي عرضها قيس ، وليس في عرضها حينذاك ما ينبغي
منه بطمأنينة ، ولا يوحى باطمئنان ؟ . .
لا لهذا السبب وحده أو لذلك من الأسباب ، بل لكل هذه الأسباب ! .

ولمن شاء أن ينكر ، ويخالف عن هذا الجواب ، فليستنبط الحقيقة من
شواهد الحال ، في الحاضر والمستقبل ، وإنها لخبرته أن معتزلة خربت لم يكونوا
الفئة التي تشد السلام ، بل كانوا الفئة المفتونة — أو المخدوعة — بدعوة
القصاص لعثمان ، شأنها في ذلك شأن طلحة والزبير بالبصرة ، ومعاوية بالشام ،
وأحزابهم ممن تباكوا أو بكوا على الشيخ ، ونصبوا أنفسهم قوامين
على الإمام ! . .

أجل ، لم تكن هذه المعتزلة ساعية لوفاق ، ولا مبتغية لسلام ، بل — كبقية
الحزب المنشق على وحدة الشعب الإسلامي — كان هدفها إثارة فتنة تفضي
إلى انتزاع السلطان ، حسدا وضمينة ، بمن قلدته الأمة بيعنها العامة إذ هو أحقها
بالسلطان . . فلئن آثرت المودعة ، ولأنها غطاء لما تضرر ، وطريق تحق سري
إلى ما تروم ! . . ولئن قعدت عن إضرار الفتنة ، فكسبا لفسحة من الوقت
تستطيل فيها المخالب وتبرز الأنياب !

الفرقة الخارجة في مصر على سلطة الدولة ، المنعازة عن الإجماع ، رسمت
لنفسها أنسب سياسة لظرف الزمان الذي تعيشه ، ولظرف المكان الذي تعيش فيه .
ففرزعتها الحزبية تريدها على الشعب ، وقوتها الظاهرة تدفعها أن تهتم به ، ولكن
سياستها الخدرة تحملها على الإرجاء . . . وهل كانت لتقعد عن القتال في تلك
الآونة إلا وقد أيقنت أنها لا تقوى عليه وإن كانت عشرة آلاف أو زادت على
هذا العدد أضماف الأضماف ؟ . . وهل كانت لتهمل قيسا ساعة من زمان ،

لو أنها آنتست في نفسها القدرة ، وندعه يدخل البلاد ، ويأخذ البيعة ، ويبيعت العمال ، ويجبي الخراج ، ويوطد سلطانه أميرا من لدن على مصر وما هو — إذ وفد — غير رجل واحد ، في سبعة نفر من الأعوان لا يمنعونه سطوة المخالمين ؟ . .

هذا منطلق الفكر مع الزعم الأول ، الذي يرتب انطفاء الفتنة الوشيكة على دهاء وإلى الإقليم ، نضعه في شتى صور الاحتمالات بغير اعتداف . فلاى منطلق لعله يتجه الفكر ، وهو يتقصى الزعم الثانى : تلك الحكمة التى دعت الرجل إلى التريث بالعثمانية ، وإلى استقباله تشرعهم للنزو عليه — غب وفوده — بالملاينة والترويض ؟ . .

في لحظة صرودة وأريحية ، بلاريب ، وليس في لحظة حزم ، ألقى إليهم الوالى بكلمة أمان .. وما نلومه إذ فعل . فالمرودة محمودة تحسب للمرء ولا تحسب عليه . والأريحية إحسان يصانع الأنفس النافرة ، وقد يجتذبها إلى ساحة الرضا ، إن لم يكن إلى حظيرة الولاء . . وقيس بن سعد ، إذ اختصم آنذاك بالترفق ، ولان لهم ، إنما كان يرعى فيهم الرحم ، وحق الجوار ، وصحبة الأمس ، ورفقة العيش والسلاح في الجاهلية وفي الإسلام ، لأن رءوسهم وأشياخهم مثله ، من الأنصار — أهل مدينة الرسول — ثم من قومه ورهطه الأدين . .

لا تنكر أقيس مجاملته هذه سادة المعزلة المصريين ، ولا تنكر أيضا لم مجاملتهم إياه . . فهو يتعفف عن مقابلة شعبهم عليه إلا بالكلمة الرقيقة دون الحزم الذى قد لا يتحقق بغير شفرة السلاح . . وهو يأبى على نفسه اجتماع أمر مصر والشام في يديه ، لو دانتا له بدم أحدهم — دع الباقين — وساد فيهما النظام . . وهو على لهم في استرسالهم في الخروج على إجماع المسلمين والقعود عن بيعة الإمام ما شاء له الإملاء . . وهو يسجج إلى مدى تنكره عليه مبادئ الحيلة والحذر ، فيسمح لرفاق فكرهم وتآمرهم ، من خارج البلاد ، ومن الشام بالذات ، بالوفود عليهم ، زائرين أو معززين . . وهو يجرى عليهم — في رباطهم الشبهه — ما يجريه من الأعطيات والأرزاق على بقية الناس أصحاب الطاعة والولاء ، دون نقصان . .

مجاملة لا ننكرها لقيس ، ونقره عليها ، حين استطاع — أو يرتجى —
توثيق الصلات ، وتذويب الحزازات بالمجاملات . ولكننا ننكرها عليه ،
ونأخذ بها ، حين لا يكون قصارها غير الإملاء في العصيان والانتقاص من
هبة السلطان . . .

فلأية وجهة تقودنا هذه المجاملة ، أو السياسة التي التزمها قيس منذ دخل
الإقليم ؟ . . .

إلى الإنكار لا إلى الإقرار . . .

بدا ونهاية ، لاح من خربنا أنها لا تعمل على رأب الصدع الحادث في
جدار الوحدة الإسلامية آنذاك ، ولا تنقويه ، ولا تترنو إليه مجرد رنوة آلمة
مرتجبة في شطحة حلم أو في سرحة خيال . كل ههما كان الانتظار . التربص
بالأحداث . تحمين الفرصة التي تعن للوثوب . . .

حتى مجاملة قيس لم ترحزها عن موقفها ، ولم تغير من نظرتها — قيد
شمرة — إلى الأمور . الشقة الفاصلة بينها وبين الإجماع ظلت ثابتة ، كالمها
عندما أعلنت الانشقاق . والعدوان على النظام القائم كان شاغلها الذي أجمت
الرأى ، وتشرعت له ، وبيتته إلى حين . . .

بل بيتته إلى موعد معلوم . . . إلى أجل مسمى . إلى ساعة مقدورة محدودة ،
لم تسرها عن العامل المجامل ، وإنما طاعته بها في غير موارد وبلا إخفاء ،
كأنما تبيعه وعيده بوعيد . . . فهذا النظام الذي يثله ، ويرعى دولته ، ووفد
عليهم لينشر سلطته ، لن يلقي منهم سوى عدوة مدمرة ، تهد كيانه ، وتتنقض
بنيانه ، وتذهب به في الغابرين . . .

كل ما صانعوا به قيسا وجاملوه هو أنهم أمهلوه . أنذروه لأوان . أرجأوا
ضررتهم حتى يستوفي مدة ولايته ويغادر مصر إلى حيث جاء . . . فالترفق إذن
بأبن بلدتهم رفيق أمسهم ، لصيق رحمتهم ، وليس بالنظام . والوفاء بالإرجاء رهن
ببقائه هو على عمله ، طال أو قصر عمر البقاء . وفيما بين النية المضمرة والعدوان
الصريح ، مدح لبدوات الأنفس ، أو تطورات الأحداث ، تبرر نقض العهد
وامتساق الحسام . . .

وكان قيس على بينة من احتمالات الموقف أو يكون إذن في غفلة تهدر دهاءه وتمنن ذكائه ، وتضمنه حينها لا نرضاه له ، ولا يرضاه كل الذين خبروه . . . فسير الأحداث في تلك الفترة من تاريخ الدولة الإسلامية لم يكن رخاء يجري على نسق معلوم مرسوم ، وإنما مضى على اضطراب وتقلقل ، يطالع الناس بين الآن والآن بما ليس بحسبان . . . ونزعات الطموح أو الطمع كانت تتلمب بالأنفس فتفرق جماعة الأمة ، وتزرع الضغائن ، ونحزب الأحزاب ، أو تجيش الجيوش وإرادة قيس ليست هي الإرادة التي تستديم له ولايته على مصر ، أو تطيل فيها مدته كيف شاء وأنى شاء ، لأن الولاية عليه ، والأمر دونه ، لأمر المؤمنين الذي يثبت ، وينقل ، ويمزل عماله حسبما تدعوه سيااسة الحكم ، وغير الظروف ومقتضيات الأحوال ، في قلب الدولة وفي مختلف الأقاليم .

فإذا نحن ذكرنا أيضا عناصر الدس والتآمر التي كان أعداء على يسرحونها إلى الأمصار ، نشرًا للفتنة ، وإيقاعًا للفرقة بين أهلها وبين عمالهم ، ثم بين أولئك الولاة وبين أمير المؤمنين ، للقضاء على هيئة الحكم ، ونكث خيوطه ، والذهاب بالاستقرار المذهب الذي يضمن السلطة الشرعية ويدعها فريسة سهلة للعدوان ، إذا نحن ذكرنا هذه العناصر التآمرية فإن العنصر الوحيد الذي يظهر في الأفق ، بعد هذا كله ، ويضمن بقاء قيس على مصر لا يكون غير الخلود . . . وما نحسب الرجل إلا آمن أنه — لا محالة — زائل عن مكانه بانقضاء أحد الأجلين : نهاية عمله ، أو نهاية أجله . . . وما نحسب مصر بعده إلا آتلة لوال سواه ، دون عهد قد يقبها عند ذاك سطوة المعتزلة ، أو يجنبها الخروج — بحمد السيف — عن طاعة الإمام .

كل هذه الحقائق والاحتمالات كانت ، بلا ريب ، مالة أمام قيس وهو يحنج للسلم ، فيؤثر مهادنة مخالفه لأنها الوسيلة الوحيدة التي تكفهم عنه ، في مستهل عمله ، أن يعبثوا بالنظام الذي يمثل ، ويمزقوا الأمن ، حتى يتبين ويتبين الناس . فإذا المعتزلة أقرته على هذه المهادنة ، فإنه لعلم أنها تقره مصانعة له ، وليس مصانعة للدولة ، لأجل موقوت بزوال ولايته إن لم تكن وقته باكتمال عدتها ، واشتداد أيدها ، وقدرتها المرتقبة على المجاهرة بالثورة التي تكنها في الصدور . .

إذا هو مضى على سنه هذا لفترة ، فحسبنا منه على تجنب العهد العلوى الناشئ فتنه جديدة ، تزيد من أعبائه ، وترهقه عبثا ، وقدمه لم تثبت بعد على أرض الحكم . .

سياسة إغضاء ، تؤجل العدا ولا تعجل به ، ارتضاها الطرفان ولكل منهما مأرب من ورائها يأمل أن تحققه الأمام . فخطر خربتا قائم على الدولة ، وإن نام عن قيس ، أو أغنى بعين حذرة ، تتسرب منها النظرة المخالصة من خلل الأهداب . وخطر قيس عليها قائم ، وإن عاهدها على حبسه عنها حتى تتكشف الأحداث ويتبين الناس . واستقامة الوضع بعد هذا ، فى الدولة تحت إمرة أيما امرئ تولاها ، لا تتم إلا بانجلاء أحد الخطرين ، وخضوع فريق للآخر الخضوع الذى يلازم الصدع ، ويحقق الألفه ، ويجمع بالوحدة بين طرفى النزاع . .

هذا هو الوضع الذى يوفر للدولة — أية دولة — مقوماتها ، ويضمن لها السيادة على ما لها من أرض ، ومن بها من أفراد . وكل عامل بها مسئول عنه فى ولايته ، ومسئول عنه أيضا فى نطاق الدولة العام . من الحكم الأمثل مشاركة عامة ، وليس مشاركة بالاجتزاء . . فاستقرار النظام فى إقليم ، يعين على استقراره فى بقية الأقاليم . وانقطاعه فى أحدها يعزى بانقطاعه فى آخر ، والنظام كالانقسام ، لكليهما عدوى حقيقة بأن تصيب الأمة ، وتترك أثرها فى بنيتها القومية وكيانها السياسى : سقما أو صحة ، ضعفا أو قوة ، كيفما تهيات لأيهما البيئة الملائمة ، وأسباب النفوذ والتحكم ، وذرائع الانتشار والاستثمار .

على هذا الوجه استطاع معايرة الموقف الذى اتخذته قيس تجاه معارضيه فى الإقليم . وبه وحده يستشف المآل الذى تفضى إليه سياسته . ينصر : دعما للدولة أو دفعا بها إلى الانهيار . .

فهل وفى الرجل ، وهو يقف موقفه ذاك ، بما عليه ، ونجح فى أداء دوره المفروض قبل الدولة ، التى نصبتة ممثلا لسيادتها ، كما ينبغي أن يؤديه عامل يعرف نصيبه من المشاركة العامة فى الحكم ، فينهض به ، ملتزما فى خطط حكمه الإقليمى تلك السياسة التى لا يقوم على غيرها — فى دولة من الدول — حكم ثابت متمسك ، ولا يستقر نظام وطيد ؟ . .

يظلم الرجل من يراه أخفق كل الإخفاق ، ويظلم الحق من يراه نجح كل النجاح . . . فما ينسى له أنه ، في داخل حدوده ، سمى سعيه لإفراز النظام وإن سلك إليه سبيل الحسنى ، أو المجاملة ، أو تجميد العصيان . . . ولكنه ، مع هذا ، النظام الجزئى الذى — إن صالح به حكم ولاية « خاصة » منفردة ، أو باللفظة التقليدية : « إقطاعية » — لا يمكن أن يصلح به حكم دولة موحدة تدوب « فردية » كل ولاية من ولاياتها فى الكيان السياسى العام . .

فإذا دعنا شرعة الإنصاف إلى الاعتراف بفضل الظاهر فى إرجاء الفتنة لإطفائها ، وبقدرته على نشر سيادة الدولة على مصر — إلا خربنا — إبان عهده ، فإن حتما علينا أن نذكر أيضا أن هذه الخطوة التى خطاها إنما كان ينبغى أن تتبعها خطوات أو تكون السيادة التى حققها عودا هشا قد تقلمه خفقة هواء ! .

كان إذن عليه ، وقد أمن عمله بعض أمن ، وبسط ظل الإمام على معظم أرجائه ، أن يعضى قدما وما بدأ ، متابعا سيره إلى الأمام ليستوفى سيادة الدولة على مصر : بكل اجزائها ، وكل أبنائها ، لا بلوغا بهذه السيادة — بهيبة الحكم وليس بنزوة المجاملة ! — إلى الحد الذى يثبت الأرض تماما تحت قدميه وقدمى أى عامل سواه ، بل توكيدا لشخصية الدولة ، ولحقها على كافة مواطنيها ، وتحقيقا لوحدها والاستقرار العام على أديمها السياسى كله ، من أدنى إقليم إلى أقصى إقليم . .

لكأنى به قد استيقن وفاء تلك الطائفة من رفاق أمسه الأنصار بعهدهم له ، فأمن منهم الغدر والعصيان . . لكأنى به أيضا استيقن استقامة الأمر ، لا محالة للإمام فى كافة أرجاء الأرض الإسلامية ، فى خلال أيام ، فلا حاجة به ها هنا إلى عنف تغنيه عنه الهوادة ، ولا إلى سيف تكفيه عنه بشار السلام . . . وهل هى إلا بضعة من الزمن قصيرة يدوب فيها القلق النفسى الذى يصاحب التغير ثم تثوب القلوب ، وتهب الخواطر ، ويألف الناس الأمر فتدخل زمرهم أفواجا فى طاعة الخليفة الجديد ؟ . .

أدنى إلى هذا ومثله كان رأى قيس ، لا ريب ، وهو يترفق ترققه ذاك بينى

بلدته ، رفاق أمسه ، الذين شاءوا الالتجاء عنه ، عند وفوده ، وتخلفوا بانتحائهم عن الإجماع . . وما يستطيع أحد أن يأخذ عليه نظرتة ، أو يقابها بثريب وشواهد الحال عندئذ تقره عليها ، وتكاد توفر لها كل مقومات الصواب . . فلقد شهد بعينه كيف لاحقت الجماهير عليا غب مقتل عثمان ليتولى الأمر وهو يمانع — زهدا في الإمرة — ويهيب بهم أن ياتمسوا غيره ويدعوه . . ثم شهدهم يتدأكون عليه ، تذاك الإبل الهيم على الشرب ، ويحملونه حملا على القبول . . ثم شهدهم يدلون إليه بطاعتهم عن رضا وإجماع كلمة ، على ملأ ، وفي بيعة شعبية عامة لم تنعقد قبله لأمر . .

ما كان قيس يتوقع قط أن يخرج امرؤ من المسلمين على طاعة على والشعب كله هو الذي ولاه . الشعب كله . بكل فئاته . بكل طبقاته . بكل أجناسه وألوانه . بكل بقاعه وأوطانه . . فلم تكن بيعته بيعة خاصة كالعهد من قبل غيرها من البيعات التي كان فيها اختيار الخليفة لمجتمع المدينة ثم المتابعة والإقرار لما عداه من مجتمعات . لم تكن بيعة مهاجرين وأنصار كبيعة أبي بكر الصديق . ولا بيعة عهد شخصي ووصية فردية كبيعة عمر بن الخطاب . ولا بيعة بضعة قرشية لقرشي منها كبيعة عثمان بن عفان . إنما كانت بيعة عامة ، توفرت لها كل جوانب « العمومية » وأجمع عليها المهاجرون ، والأنصار ، والقرشيون ، والقبائل الأخر ، والرعاة ، والعبدان ، وأهل الأمصار . بل هي كانت ، فوق هذا كله ، ترجمة صادقة أمينة عن التطور الفكري والإرادة الشعبية الحرة والتغيرات الاجتماعية في بنية الوطن الإسلامي على إتساع رقعة أراضيه ، تمثلت في أهل المدينة ، وعبدانها ، وأهل المياه ، ووفود مصر والكوفة والبصرة الذين أمروا عليهم — بمحض اختيارهم ورغبتهم ، وبغير عهد ، ولا دعوة ولا توجيه — رجلا لم يمرض نفسه ، ولم يسع إليهم ، لأنهم رأوا فيه وحده ، من دون الناس أجمعين ، المثل السكامل للحاكم الذي ترنو إليه مبادئ ثورتهم السياسية النازعة إلى شعبية الحكم بغير تعيين عنصر على عنصر ، وثورتهم الاجتماعية الهادفة إلى وحدة العدل وجماعيته ، بغير تفضيل طبقة على طبقة . .

فلو أنه لحظ قبل مخرجه إلى عمله بادرة خلاف أو انشقاق على إمرة على ،

لما شفع له في موقفه المهادن من الخارجة المصرية شفيع . ولكنه خرج في صفر
والرأى العام مع الإمام ، وكلمة الثورة هي العليا ، والناس كلهم لها تبع وظهير .
ودخل مصر في نفس الشهر ، والحال هي الحال : الوضع ثابت والأمر جميع .
الريح رخاء . على الأفق هدوء ، وفي الجو سلام ، وليس نمة غيمة تنذر بعاصفة ..
الثابت قطعاً أن بذور الانتفاض على الخلافة الجديدة ظلت مطمورة في طوايا
باعثيه بضعة أشهر بعد البيعة لا تبرز لها أسواق ولا ثمار . . . يؤكد هذا كل
التأكيد أن الأمصار استقبلت عمال على عليها بلا معارضة . . عثمان بن حنيف
ارتضته البصرة . وقيس بن معد ارتضته مصر . وعبيد الله بن عباس ارتضته
اليمن . وإذا كان عمارة بن شهاب قد حيل بينه وبين الكوفة ، فإنها بايعت للإمام
على يد واليها قبله أبي موسى ولم تحاول أن تشق الطاعة أو تخرج على دعوة
الخضوع

أما الشام فهي وحدها التي ردت عنها عامله سهل بن حنيف ولما يجاوز
تبوك ، ثم لم تدل بالبيعة . ومع ذلك فإن ردها إياه ، وتخلفها عن الدخول في
الإجماع كان خليقاً بأن يحمل عندئذ على الإرجاء أو التردد قبل أن يحمل على
العداء أو التمرد . فما أسفر عاهلها عن نواياه المناهضة لأمر المؤمنين إلا في ربيع
الأول من العام عندما بعث إليه بالطومار . .

وفتنة الجمل لم تبرز أيضاً إلى الوجود إلا في ربيع الثاني — على الأرجح —
بعد مصرع عثمان بأربعة شهور . وإذا كانت دعوة عائشة إلى القود للخليفة الصريح
قد سبقتها في الحرم ، وترددت بمسكة ثم جرت بها إلى ماورائها الأنباء ، فإنها
دعوة لم تكن لتفهم ومثيلاتها من الدعوات آنذاك على أنها نداءات انقسام
أو عصيان . بل قد كان لها من ظاهرها البرى ما يبعث على الاعتقاد أنها غير
على هيئة السلطان . واستعداداً للحاكم على المجرمين . وصيحة تفجع تطالب بإقرار
العدل مستعثة ولي الأمر إلى التعجيل بالقصاص للمظلوم دون أن تشي بتمرد أو تم
عن خلاف ظاهر أو خلاف مستور . . .

طوال شهرين ، أو ثلاثة ، كانت الظواهر كلها لا تنبو بموقف قيس ولا
تجافيه . بل قد كادت تبدى الحكمة ، كل الحكمة ، في مسلكه تجاه معتزله . .

فقيم إذن مجاهرته إياهم بالعداء ، ونزوه عليهم بحرب مجلبة ، تقطع الرحم ، وتهد الصعبة ، وتبذر النار بينه وبين طائفة عزيزة عليه من مواطنيه ؟ . . ولم التعجل وصبره عليهم ، في هذا الجو المبشر باتساق الأمور ، لا ريب آتية من لدنهم بالافتناع والطاعة والأمن المنشود ؟ . .

غير أن الأقدار أبت أن تسبح على ظنه ! . .
بخلاف ما قدر ورجا ، تكدر الأفق الصافي ، وراحت تزحف عليه الظلال . .
بدت غيمة هنا ، وبدت غيمة هناك . تجمعت كسفة ظلام إلى كسفة ظلام . ثم تحركت الريح . ثم ولولت . ثم عصفت . ثم عربدت كشيطان ! . .

في أسابيع قليلة ، بل في أيام ، توالى الحوادث سراعاً على أديم الدولة ، حتى ليلهت الذهن وهو يتابعها ، وتترجرج العين — من حيرة — إذ تحاول ملاحقتها من مرمى نظرة إلى مرمى نظرة ، ومن مكان إلى مكان . . في البلدة الحرام ، اكتست الدعوة البريئة المتفجعة جلد ثعلب ! . . على الطريق إلى البصرة ، هدرت السكتائب المعبأة تقودها الضعينة ! . . بأرض الشام انحسر مد التريث الأخرس عن ثورة عصيان ! . . وإلى كل هذه الخطوب ، المتفجرة من قاع الغدر ، تناثرت زمر وطوائف ، في شتى الأنحاء ، ترد أمزلة ، أو تخلع البيعة ، أو ترفع ألوية الدماء والدمار ! . .

حتى الإمام بدا كالخير ، أسرع بالردع إلى هذه الفرقة الخارجة على سلطان الدولة ، أم يجعل دونها بتلك ويدعها هي إلى حين . . في أول الأمر أوشك أن يسير بجيشه إلى ابن أبي سفيان ، إذ ألب الشام عليه ، وخرج بها ، وبأهلها ، من النظام العام . ثم كبسج نفسه وسيفه ، وهم أن يلحق بطلحة والزبير وعائشة ، عسى أن يردهم بالحسنى عما اعتزموه ، وهم ببعض الطريق . ثم عدل خطته ، وحشد لهم حين فاتوه وعصفوا بالبصرة ، وأشاعوا بها القتل ، وأفشوا الجراح . وهل له معدى إذن عن ملاقاته السلاح بالسلاح ؟ . .

درا كما تعاقبت الأحداث على الحكم الناشئ ، وعلى الخليفة الجديد ، وأسهم الناس فيها : كل بنصيب ، يدرأون الخطر ، أو ينفخون في النار ، بحسب ولائهم أو عدائهم ، ويقدر أيدهم وجهدهم ، يدفعهم إلى العمل إيمان يهدف ، وإحساس

بشيعة وتشبع بماطفة ، ومشايعة واعية أو عشواء لرأى روج له بينهم صاحب السلطة فيهم ، أو حملهم عليه . .

أدغاب في هذه الأونة ياترى عن قيس الخطر المائل ، الذى تجمعت نذره في أفق أمته ، وكاد يصيبها الأنقسام ؟ . . أخفيت عنه الأنباء وغاض نبغ الأخبار ؟ أ كانت التبعة الملقاة على عاتقه — كوال من ولاية الأمصار ، وممثل للدولة — تسمح له بإغضاء طرفه عما يدور ؟ . . أغفل صاحب الإمرة الشرعية دعوته إلى المشاركة في الصراع الوشيك ؟ . .

ساعة ساعة ، ويوما يوما ، كان عامل مصر يعيش الخطر ويتنفس الأحداث . وخطوة خطوة ، ومرحلة مرحلة ، كان يتنقل بباله وخياله مع الإمام . . فنذ مولد حركات الخلاف والتمرد ، يمث على إليه ليندب من قبله من الناس لحرب الشام ، حين كان مظنوناً أنه سيبدأ بالشام ، وما كان قد ظهر بعد ما بيت أصحاب الجمل للبصرة ، ولا ما أكتوه من خلع البيعة وصدع وحدة المسلمين .

ومع ذلك ، فمابان من الخطوب وجزرها ، عاش قيس ثابتاً كأثبت ما يكون جأش ، هادئاً كأهدأ ما يكون بال . . . كأنه بلا أعصاب . . . كأنما الأمر لا يعنيه . . . كأنما النوازل المحيقة ، بعالم ، وهو منها بنجوة ، في عالم بعيد بعيد . . . لقد ندب ، وكان هذا قصاراه ، كأن في الندب الغناء في الغناء . . . وقد توات عليه الأخبار ، وكان قصاراه أن يتابع من خلالها ، تطور الأمور . . . أما دلالتها . . . وأما ما لعلها تثير من تكهن ، وتشير إليه من توقعات . . . وأما ما عسى تتمخض عنه من عواقب ونتائج ، فكلمها — فيما يلوح — لم تحمله على تعديل أسلوبه . ولا على التكيف المرن الذى يقتضيه تغير الاتجاهات والظروف . . .

آثر التريث . بدا كأن شاء الثبات حيث كان . رأى تجميد موقفه الذى اختاره من اللحظة الأولى ، فلاح كالذى يرى قمة الخير في التجميد . . . فهدوء مصر ، وسط تواتر القلاقل في سواها ، يحسب لعل ويصلح أمره ، وليس يحسب عليه . . . وصبره بها على خارطة خربت إيماء لهذه الطائفة في الطمأنينة ، وكبح ليلها العدواني عن المبادرة لسلوك قد يضيف اضطراباً إلى اضطراب ، ويوسع رقعة التمرد المشبوب . . . وتخدير الفتنة أضل من إيقاظها على أى حال . .

كل ما فعله قيس ، في هذه الآونة الحرجة ، هو التصبر الحذر . . . الترقب والانتظار . . . الانحياز عن الإسهام الفعال الذي عليه لسان الواقع ، ويرجعه منطق الظروف . . . الوقوف بعصر بمعدة عما يدور خارج الحدود . . . المشاركة في الحكم بالاجتزاء كأنه صاحب « إقطاعية » خاصة ، وليس بعامل على ولاية في دولة موحدة ، ذات أمن موحد ، قد تؤثر سياسته الإقليمية — الخارجية على الإطار العام — في وضع الدولة ، كما يتأثر أيضا إقليمه أسوأ تأثر بما قد يصيب غيره من أقاليم . . .

أية نظرة عابرة عجل يلقبها أمرؤ على الحركات المناوئة للإمام إذ ذاك خليفة بأن نقر خطة الحيلة المحاذرة التي انتهجها قيس ، وشاء بها — إبان تفجر التمرد — تجنب على شر محنة جديدة . لكن إمعان الفكر في تلك الحركات ، بوسعه أن يعدل بالمرء عن الإقرار إلى الإنكار . حين يستقرىء الحوادث ، ويتبين دوافعها ، يود ويود معه منطقة — لو لم يستمسك الرجل تجاهها بمسلكه ، ولو غير أسلوبه . . . وحين يغوص إلى جذور بعضها ، يرى فيه ما قد أسفر عن نتائج ترتبت على مقدمات ما كان ليعوز قيسا الوقوع على مثيلاتها في إقليمه . وحين يستوحى بعضها الآخر دلالاته ، لا يعدم أن يجد بينها ما يحثه على ترك ركوده ، والمضى قدما إلى عمل حاسم بأوسع خطأ وأسرع اندفاع . . . ولا نريد بهذا أن ننساق إلى لوم ، أو تنزلق في مساجلة جدلية وأماننا ما يغنى عن التأويل . . .

أجل . بغير جنوح إلى مجادلة ، ودون اعتساف لتأويل ، يسع المنصف أن يتبين الدوافع الكامنة وراء حركات التمرد كافة ، في تلك الآونة ، فإذا هي لا تصدر إلا عن حسد للإمام واضطغان عليه . فأسباب التمرد ، في حقيقة الأمر ، « عاطفية » لا موضوعية . . . خروج طلحة والزبير على طاعته باعته فوزة دونهما بإمرة زهدا ، ولم يطلبها ، بينما قد طالما منيا النفس بها ثم سميا إليها سعيهما الدائب ، وركبا متن التدبير خفيت دونها القدم وكبت المطية . . . ودعوة عائشة إلى مناوئته انبنت على أسس « نفسية » لا على أسس تتصل بسياسة الحكم ، أو قدرة الحاكم ، أو صالح المحكومين . . . وعصيان معاوية تفجر ، كما هو معلوم ، من بركان ذلك الحسد الأموى القديم لبني هاشم ، الذي ظل طويلا يثور ليهداً ، ويهدأ

ليثور ، عدة أجيال . . فإذا بدا لامرئ من بعد أن يقول إن رغبة الثأر لعثمان هي التي حركت نمرود المناهضين ، فإن ظروف المصراع ذاتها تدحض هذا الادعاء وتنفيه لأن دعوة القصاص ذريعة مفتعلة مصنوعة ، وسبب زائف دخيل وليس بصادق ولا أصيل . . وبحسبنا أن علمنا ، في هذا المقام ، أن طلحة والزبير وعائشة كانوا رءوس المؤابيين على عثمان ، الداعين الناس — في حياته — سرا وجهرا ، إلى الثورة عليه وطى سجله أجلا وخلافة . . . وأن ابن أبي سفيان لم يحاول عندئذ — وقد كان بمقدوره — أن يحرك جيشه المتربص على مشارف المدينة ، ليدفع عن الشيخ ، المحصور فيها ، مصيره ، ثم ساوم الإمام ، بعد المصراع على البيعة لقاء جباية مصر فوق ولاية الشام . . .

ولم تدم الدعوة من رجالها أناسا نبأ زيفها بهم ففارقوها ، أو نقدوها ولحوا دعائها على ما ادعوه ، وإن كان صلاح أمرهم في نجاحها وبلوغها الشأو الذي تريد . . . وليس سعيد بن العاص ، وإلى الكوفة من قبل عثمان بالوحيد الذي جرى ذكره في هذا المقام . ولا محمد بن طلحة بن عبيد الله ، الذي ألقى على أبيه — زعيم الدعوة للنار ! — ثلث دم الخليفة المقتول ! . . فدعوة القصاص إذن لم تكن لتنجم ويرتفع لها صوت لو أن البيعة قد أفضت إلى غير طي بعد عثمان . . . ولم تكن أيضا سوى ذريعة ، مفتعلة ومصنوعة ، حاول أصحابها — خداعا وتمويهها — أن يرفعوها شعارا عاليا أمام أعين الأمة ، انتقالا بحركاتهم المنقضة الحاقدة من نطاق الهوى الخاص إلى حيز قضية عامة . . .

ولقد أطلق رجال الفتنة النيران من عقالها ، وأججوها في أرجاء الوطن العربي بدعوتهم هذه التي مست مكنن الأسف والتفجع في قلوب الناس ، ثم راحت تستثير التعطش للانتقام من عاد ظالم لقتيل مظلوم . ولا ينفع هنا أن يقال إن الجرم قد ألقى على غير مقترفيه ، لأن الجماهير ، في مثل هذه الحالة ، يصدرن في انقيادهم العاطفي عن غريزة القطيع . . .

ومع ذلك فإن الخطر في الدعوة التي ذاعت ، وتوالى موجهها العاتى كالطوفان ، لم يكن فيما حركت من غريزة الوحش القابع في جوف الإنسان ولا فيما أيقظت بنفوس بضعة حاسدة من حقد ، أو جشعة من نهم بالسطوة والجاء . . .

ولا فيما ابتدعت من عوامل الشقاق والانقسام . . فالتنافس على السلطان —
أى تنافس — يحمل دأماً فى طواياه بذور خلاف تنبت العداوة وتزكى الصراع ،
وتثمر الفرقه . وهو عادة يقترن بالشغف بالدم . . إنما الخطر ، كل الخطر ،
كان فى استغلال الدين ، وتسخير خدمه الشعار الخداع . ومن ذا يستطيع أن
يقول إن القصاص لا يدعم الحياة وأنه ليس بمض شريعة الله ؟ . .

الذى لا جدال فيه أن شعوب المجتمع الإسلامى عندئذ — على امتداد الدولة
الجديدة — كانت حديثه العهد بالإسلام . وأن أبناءها كانوا لا يزالون قريبين ،
قرباً زمنياً ، من الرسول . وهم بهذا وذاك أحرى بالاهتمام بالدين الجديد الذى
اعتنقوه ، وأدنى إلى الغيرة عليه أن يخرق فعل فاعل ، أو جماعة ، أحد مبادئه ،
أو يخرج على بعض أحكامه . وليس يجدى أن يقال إن الفترة الزمنية القصيرة
المنقضية على انبثاق فجره ، لم تكن كافية للتمكين لهذا الدين فى قلوب الكافة
على نحو يحقق توثق التفاهم به ، ويعضى بجموعهم فى مظاهرته إلى أبعد
الأشواط . . فمن آمن به حق الإيمان فأيمانه الصادق يكفيه . ومن اعتنقه متابعة
فالحياة الجديدة التى نقله إليها الإسلام — بكل مزاياها المادية التى أثرت الشعب ،
وبكل مزاياها المعنوية التى رفعت فوق الشعوب المعاصرة وسودته على أعظم
الحضارات — أعده بمثل قوة الإيمان الخالص العميق . .

عن هذا الخطر المنذر بأفدح النتائج ، تكشففت حركة التمرد ، فى عدة أرجاء ،
وتبلور حولها ، هنا وهناك ، تأييد مؤمن بدعوتها عن اقتناع ، أو تأييد قطيعى
مخدوع . . وبهذا الخطر قوبل على ولما يكذب بخطور أولى خطواته إلى الانتقال
بالدولة من قلق الثورة إلى هدوء الاستقرار . والسماح لهذه الدعوة بالذيع ،
أو الإفساح لها فى الانتشار ، هو فى حقيقة الأمر صب للزيت على النار . وهو
سلاح حاد بتار يسهل أن يجد طريقه إلى قلب الأمن القومى للبلاد ليصميه ،
ويهدد وحدة الأمة بالانهيار وما لا يمكن أن يقال فى موطن صواب إن ثمة حاكماً
مستولاً ، أو مواطناً عادياً من عامة الجمهور يستشعر حق أمته عليه ، والغيرة
على مصيرها وإن لم يكن له دور مقرر فى الحكم ، يستطيع وهو آمن من اللوم
أن يستبجح لنفسه الإغضاء عن شبح هذا التهديد . .

من هذه الوجهة وحدها — دع ما سواها من الوجهات ! — يكفي معايرة المسلك الذى سلكه عامل مصر حيال جماعة خربتا المعتزلين ، فإذا هو بعيد غاية البعد عن مسلك الحاكم المسئول ، ومسلك المواطن الغيور . . . فلقد آمن هذه الطائفة الخارجة على البيعة ، وعلى النظام العام ، وجعل منها — بفعله — لافتة منشورة أمام الناس ، تعلن بجلاء مشروعية تلك الدعوة الخداعة إلى القصاص . ولقد يسر لها — أو لم يمنع — اتصالها بأمثالها من الوافدين عليها من خارج الإقليم . . . وافد وفر أيضا لأفرادها رزقهم كاملا من الخبز توفيره لمن عداهم من الموالين . . . فإذا لم يكن فى مسلكه ما ينم عن رضائه عنهم ، ثم يروج الانتقاص — مبرقا بدعوة القصاص ، فأى مسلك يا ترى سواه يمكن أن يحبوا الخارجين على الإمام ، وسلطة الدولة ، ووحدة الشعب ، بالتأييد ؟ . . .

ونكرر أن هذا لا يطمئن على الرجل ، ولا يتهمه فى ولائه ، لأن تاريخه ، ونقاء نيته ، ينزهانه عن الاتهام . ولكنه زلة بدرت ، وفى مقدورها أن تطفو على كل مانحله ، أو عرف عنه ، من دهاء . . . وهى زلة عصية أمامنا على التبرير . وهى حلقة فى سلسلة طويلة من الزلات . وبحسبها هنا أن أضفت على الخارجة صفة الغيرة على الدين لتلف حولهم السذج من العامة وعرض الناس الذين يستهويهم بريق القشور ولا تسعفهم عقولهم المحدودة بتعمق ما تحت هذا البريق . . .

ومع هذا كله ، فلم يكن عصيا على قيس أن يتدارك الأمر والأحداث تلتوى أمام عينيه ، وتنعت لها فى الصخر مجرى آخر ، يصل بها إلى غير ما حدس ، ودله عليه الاستقرار . لكنه — فيما بدا — تركها تسير . وآثر أن يمضى دونها فى طريق مسدود ، أو فى دائرة التيه التى لا يجديه سميه على محيطها — ولو بالخطا السراع — ولا يزيده شيئا على البقاء حيث كان . . . وعندما ندع قصة المجاملة ، أو — بأسلوب تفكيره — واقعة تأمين مصر بالكف عن خارجتها ، فإننا لا نراه إلا عاش فى قوقعة هذا التفكير ولم يحاول أن يطل من الصدفة برأسه ، ليرى ما يدور خارج مكنته ، أو يستشف نذر العاصفة من معالم الأفق الممدود . . . لقد كانت النذر الحاضرة أوضح من أن تجاوزها عين ، وكانت النذر الغائبة أدنى إلى نطاق الاحتمال . وليكننا ندعها جميعا وما تسفر عنه إلى أوانها القدر ،

ثم نتابع الأحداث الجارية بالنظرة العابرة ، لا بالنظرة الثاقبة التي تتعمق الأمور إلى الأصول والجذور . . ندع رباط خبرتنا بما فيه ومن فيه . . وندع مخرج عائشة وحزبها المنتسرين بالإصلاح . . وندع « تردد » معاوية عن الدخول في الإجماع ولا نقول « تمرده » على الإجماع . . وندع الدعوة « الدينية » إلى القصاص . ندع هذا كله ولا نحاول أن نحمل قيساً على استكناه دلالاته وما يسر من أخطار ، ثم نغضى وإياه مع الأحداث متابعين متابعة المواطن العادي لا متابعة السياسي المسئول . . فلا نرى سلوكاً لعلها تهدينا هذه المتابعة التي لا تقتضينا قط عناء تعمق الشواهد الماثلة استخلاصاً للنتائج ، أو تنبؤاً بمستقبل الاتجاهات ، واستقراء للامتنع والمستور من خلال المنظر . . ؟

سلوك الرجل العادي ، ولا جدال . .

السلوك الذي يصدر عن الموقف ، ويعمل بوحيه ويتبع المتابعة بالاتباع . . وإذا نحن عرضنا لصور التصرف « الشعبي » في كافة مراحل الزمن ، ومختلف المواطن ، إزاء الأحداث والأزمات التي تعترض مجرى التاريخ ، لما وجدناها إلا أشبه شيء بالتقليد الغريزي لسلوك القادة ، وذوى الرأي ، الذين اجتبتهم شعوبهم ، ووضعهم على قمة المسئولية ، لا لمجرد إيمانها بقدرتهم ، بل لحاجتها الطبيعية إلى من يسير أمامها ويهديها الطريق . فللأزمات والمحن نواقيس تحتشد الجماعات البشرية — نفسانياً — على جرسها المنذر ، وتكون بنية متماسكة ، كأنها النهر الدافق ، القطرة الأولى في مقدمته هي التي تقود انطلاقه . .

على هذا النحو صحت الأمة الإسلامية في تلك الفترة ونواقيس الخطر المتمثل في حركات الانتكاس والتمرد تملأ بجرسها الأسماع . وبطبيعة الجماعات البشرية تجمعت نفسانياً ، ثم تجمعت عضوياً ، كبنية النهر الدافق ، وراء الإمام وهو يعضى في مقدمتها إلى مكامن الخطر لقصف عناصره التي تهدد وحدة البلاد .

ولم يكن الخطر ، في شق صورته إذ ذاك ، إلا فروعا عدة لشجرة واحدة هي النار لعثمان . فكذلك كانت الدعوة العائشية ، في نسختها « المدنية » المنادية بالإصلاح ، وفي نسختها « العسكرية » التي زحفت على البصرة ، وترجمت إصلاحها إلى دمار وأشلاء . . وكذلك كان التمرد الأموي ، منذ بدأ « مساومة » تاجر ماكر ، حتى شب « سلطاناً » لولى دم المظلوم . . وكذلك كان شعار خبرته

وهى تتأوت — أول الأمر — كالثعالب ، ثم تنتفض من بعد لالتهام الفريسة !
فإن يعجب امرؤ من الناس لسلوك قيس إزاء الخطر الذى تنطوى عليه
حركات الانتكاس فلا لوم عليه إذ يراه لا يصدر فى سلوكه عندئذ عن دهاء
داهية ، ولا عن تبعة حاكم ، ولا عن حنكة سياسى ، ولا عن انفعال رجل
عادى من عرض الجمهور . . .

إن الأفق حوله فوق الدولة الجديدة ليظلم . وإن سحائب الأحداث لتزحف
من كل ناحية . وإن النفوس لتتفعل وتتشمعل . وإن الجماعات لتتشد على رنة
النذير . ولكنه ، مع هذا ، يظل بمزلة ، داخل قوقعته الفكرية . . . حق النكسة
المصرية التى عايشته وهى على قيد خطاه ، لم تسكد تلقى من اهتمامه ، فيما تحدث
عواقبها ، ما هى جديرة به ، وما هو مفترض فيه . . .

لقد كانت لقيس — على أهون الفروض ، ومن أيسر السبل — أسوة حسنة
فى الإمام لو أنه شاء أن يجد ، فى موطن لا بديل فيه للجد ، ويستقبل الأمور
بالأكثرات الذى يقدم الحسم على ما عداه . فالإمام قضى برأيه فى ادعاء القصاص ،
بما لا سبيل بعده لإعمال فكر ولا اجتهد . وقوله حين سمع بالدعوة العائشية ،
وما حركت ، وأوشكت أن تذهب إليه ، تدينها كفتنة لا بد للناس من وأدها
قبل أن تستفحل ، ومن قمعها إذا ما شاء مروجوها أن يطلقوا لها العنان .
وما نحسب عامل مصر قد غاب عنه أن أمير المؤمنين أخذه الغضب أى مأخذ ،
عندما تناثرت الشائعات عن مخرج عائشة وحزبها من مكة بحجة الإصلاح ، وقال :
« لو فعلوا لانتقطع نظام المسلمين » .

هذه أسوة رأى لكل من اشتبهت عليه الآراء وشاء الوصول من أقصر
طريق بغير حاجة إلى عناء التعمق والاستقراء . . . وهذا هو رأى من لسان
الرجل الذى تمكنه طبيعة وضعه على قمة السلطة من الإحاطة بكل ما يجرى تحته
على أديم دولته ، وبكل ما قد يجد من احتمالات ، لأنه ينظر إلى الظروف
والمواقع ، وإلى العلل والنتائج ، نظرة شمول وعموم ، لا نظرة اجتزاء عليها رغبة
عارضة أو تحبسها حدود إقليم . . . وهو أيضا رأى « المسئول الأول » الذى يرسم
سياسة الدولة ، وتحتم قواعد الولاء للنظام أن يلتزم بها المواطنون فضلا
عن الولاية . . .

فإذا انتهج الإمام أسلوب المقاومة والردع حيال حزب القصاص من أصحاب الجمل ، وقعد قيس عن اتباع نفس الأسلوب بإقليمه ، فإنه إذن خالف أصول الالتزام وأخل بفهوم الولاء السياسى للإمام . وإذا اعتل له بظروف وضع خارجة مصر وإيمانه بأن كفه عنهم أجدى على أمير المؤمنين ، وأولى بتجنيبه شر اندلاع فتنتهم النائمة وهو آنذاك مشغول بفتنة الجمل فى البصرة ، فإن دحرة الحزب بهذه البلدة ، ودخول فلولة فى سلطان الدولة — أو نهاية المعلول بانتهاء العلة ! — كانت أدعى إلى استغلال ذلك النصر بإخضاع بقية الحزب فى مصر ، واستخلاصها صافية الولاء للإمام . . وإذا قيل ، مع هذا ، إنه خشى منهم قوة تنقض عليه أمنه ، وتهدد الوضع العام ، فإن قوتهم الذاتية ، التى لم تستطع مواجهته فى بدء عهده وهو أعزل ، وأنصارها خارج البلاد فى تلك الآونة أعزة ، خليفة بأن تصبح أخشى له ، وأهون عليه بعد الهزيمة المشكرة التى مزقت جيش عائشة ، وقضت على من فيه من رؤوس الدعاة للقصاص ، وزعماء الانتكاس .

شجرة الثأر قد اجتز — فى الجمل — فرعها البصرى ، وغدت دانية أقرب دنو من شفرات النفوس الكفيلة بتقويضها ، جذعا وفرعا ، لو اجتمع الجهد إلى الجهد وتضافرت عليها الضربات . . لكن قيسا لم يعمل فأسه . . لأمر ما حملها معطلة يمينه ، يلوح بها من بعيد ، مكتفيا عن الجهد بالتهديد . . لأمر ما لم ينتفع بأسورة الرأى التى أصبحت عن خطر دعوة القود المنطلقة من أفواه المبطلين نشر الموت باسم الحياة ، وطلبها للدنيا باسم الدين ! . . لأمر ما لم ينتفع بأسورة السلوك التى ضربها له الإمام ، ولم يلتزم خطوط سياسته العامة التى رسمها نهجا للمواطنين وخطة للولاة والحكام . .

وما يتبدى هنا من مخالفة الرجل فى هذا المقام ، لا يقتصر على مجافاة العرف والأصول ، بل يباين أيضا المنطق السوى ، ومقتضيات الظروف الماثلة ، وطبيعة البشر الجانحة دائما بهم إلى التطلع للأفضل ، وتغزية المزيد بمزيد . . فلا مرأى قط فى أن القوى الخارجة على الإمام ، كانت تصدر جميعها ، فى قولها وفعلها ، عن واقع واحد هو مسخط إمرته ، وتعمل جميعها ، بكافة وسائلها ، لهدف واحد هو

ابتزاز السلطان . وهى بهذا أشبه بجيش ، إن لم يكن موحد القيادة ، فإنه موحد المبدأ ، موحد الغاية ، موحد الأسلوب ، يتهاى للزحف على سلطة الدولة فى ثلاثة ميادين . بل لكأنه — بلغة الجيوش والحروب — قلب وجناحان : الشام القلب ، والبصرة جناح ، وخربتا جناح . . فإذا أسفرت أول حركة مضادة تشنها الدولة عن إخضاع بعض أولئك الخارجين على سلطانها ، فإن « منطق » الأمور يقضى بمعالجة بقية عناصر الشغب والعداء بما يكرهها على الإذعان والولاء . . وإذا ضربت البصرة ، وهى أحد جناحي جيش العصاة ، فإن ضرب خربتا بعدها ، وهى ثانيهما ، ضرورة « حرية » كفيلة بأن تكشف القلب وتنتهى بالجيش كله إلى البوار . . وإذا حيز النصر فى موقع ، فإن إتباعه على الأثر ينصر آخر ، هو من شيعة الطبايع « البشرية » المجيولة على إشباع غريزة التفوق والظهور . .

مقدمات تقع فى حيز السمع والبصر وتنطق بما كان ، ونتائج تقع فى حيز المضاهاة والقياس وتعلق ما يجب أن يكون ، ليس من بينها جميعا — سببا ونتيجة — ما يحتاج إلى إمعان فكر ولا جهد اجتهد . . حوادث واقعة ، ووقائع ماثلة ، وحقائق مشهودة ، تكشف العلة ، وترسم الوسيلة ، وتحدد العلاج ، حين نحاول استنباءها نكاد نسمع لسان حالها يتساءل : كيف غاب مشهدها عن عيني قيس ؟ . كيف خفى جرسها عن أذنيه ؟ . كيف أفلتت تترى وتزار تحت حسه وإدراكه دون أن يبذل فى تطويعها وتطويرها لصالح دولته — وفى نطاق المرسوم والمعلوم — شيئا من مكر الداهية الأريب ، أو حنكة السياسى الماهر ، أو دربة المحارب المتمرس الذين كأنهم الرجل جميعا فى آن ؟ . .

ثم تدع ما وجب أن يكون إلى ما كان فى الإمكان ، فترجع إلى العهد الذى عاهد عليه خارجة خربتا وعاهدته هى عليه . . لقد كف عنها ولا يكرهها على البيعة ، وكفت عنه لا تناوته ولا تشغب عليه أمره حتى يتبين الناس . . فإذا لم يكن فى رجوع البصرة — بعد الجمل — عن الخلاف ، ودخول أعوان عائشة وطلحة والزبير فى طاعة الإمام ، بيان كاف يؤكد أبلغ تأكيد اتساع من التأيد الشعبى للنظام الجديد ، فأى بيان بعده ينتظر قيس ليطلب خارجة مصر بامثال

هذا الاتجاه العام ، وفاء بمهدم ، وترجمة له من لفظ جامد إلى واقع ملموس ؟
أغضى إذن قيس عن الأخذ بما وجب أن يكون . . . وأغضى كذلك عن
اتباع ما كان في الإمكان ، فإذا هو ، في كلا حالي سلوكه ، قد عزل نفسه عن
الأحداث الجارية من حوله حين لا مناص عن مشاركته في هذه الأحداث . .
وفصل مصر عن الدولة وإنها — بكيانها الإقليمي — لإحدى ولايات تؤلف ،
مجتمعة ، وحدة الأديم ، وبمشاركتها الوجدانية تكتمل الوحدة القومية ،
وبإسهامها السلوكي في الأحوال العامة ، تتم وحدة السياسة . . . وإذا كان لنا
أن نعرض بشيء للأثر النفسي الذي تركه موقفه هذا في أبناء إقليمه : الموالين
والخارجين على السواء ، فإنه إذن تقاص ظل هيئته كحاكم في نظرة كلا الطائفتين
من مواطنيه . . . أم لا ، فكيف عسى يراه أعوانه ، والقدرة عندئذ حاضرة
بيمينه ، والفرصة قد سمت إليه ، ثم لا يقدم على جمع كلمة الإقليم كأنه ضالع مع
العصاة ؟ . . . وكيف تراه الطائفة المحتجرة وإنهم ليرجعون في الظرف القاسم ،
بطبيعة الحال ، أنه حاملهم — طوعاً أو كرهاً — على الوفاء بمهدم له ، أو التزام
رأى الجماعة بمد أن وضحت دواعي الالتزام ، فإذا هو لا يبادر إلى إنفاذ
ما يرجحون ، كأنما يقصر عنه بآءه لأنه يخشاهم ويحسب حسابهم حيث لا موجب
لخشية ولا حساب ؟ . . .

إغضاء يختلط على المرء تبين حقيقته . .

يشابه التهاون ، ويمائل الاستخذاء حين تتوفر القدرة ، وتنتهي الفرص لعمل
سلمي أو حربي ، يروع الخارجية ، تمكينا لسلطة الدولة ، وتحقيقاً
لوحدة الولاء . . .

ويدانى الميل إلى جانب العصاة ، كما يضارع تشجيع العصيان وإغراء المحكوم
بالحاكم ، في رقعة إقليمية محدودة ، وعلى امتداد أديم الدولة سواء بسواء . . .

وهغبة الأمر في الحالين غير مأمونة مع توقع أضغاف النتائج وأهول الاحتمالات ،
لأنها عندئذ هوان السلطة ، وزوال الهيبة ، وانقراط عقد النظام في دولة تتحطم
فيها مقومات الطاعة والولاء عند رعاياها ، وحقوق القيادة والولاية في أيدي
الحكام . . .

لكنها أخطر وأشد وخامة ، بلا جدال ، حين تجمع الدلالات على أن أثر هذا الإغضاء ، بما يضم من تهاون ، لا يقتصر على الانتقاص من هيبة الدولة ، ولا على إغراء عناصر الشغب والمروق بها ويعن يمثلون سيادتها ، وإعما يعتد إلى النيل من « عمل عام » يرى لدعم سلطتها ، وضمان وحدتها ، وقمع عصابات الخروج والتمرد التي ما فتئت تصطنع من الذرائع ، وتستحدث من الأساليب ، ما يؤدي بالحكم القائم إلى الانهيار . .

فلا مرأى في أنه كان نة « عمل عام » يرمى إلى توطيد السلطة ، أخذت تلتئم جزئياته ، وتنسق أساليبه ، وتتفق غاياته حتى ليبدو كأنه « خطة » موضوعة ، واضحة المعالم ، محددة الاتجاهات . . وما ظهر خلال هذه الفترة من قرآن ، وأذيع من رسائل وأنباء ، يوشك أن يقطع بأن شيئاً على هذه الشاكلة هو الذي كان يحرك الأحداث — أو أريد له أن يحركها — في البصرة ومصر والشام ، بلوغاً إلى غاية موحدة ، ووصولاً إلى هدف مرسوم . . ولعل من ملامح تلك الخطة اهتمام الدولة بتوجيه قواتها المحاربة لضرب مراكز التمرد ، مركزاً بعد آخر ، في مواقيت قصد — في حدود الزمن والمسافة — أن تتلاحق لكيلا تدع فرصة لالتقاط الأنفاس أو تفسح سبيلاً لمركز منها لتعزيز سواه حتى لا يفسد هذا التعزيز على « العمل العام » تقديره ، ويؤثر في النتيجة النهائية للقتال ، ثم في الحاجة المقدرة للنزاع . . ولعل أيضاً من ملامحها أن يعلن الإمام ، في ربيع الأول ، سيره إلى معاوية ، ليشغله بالإعداد لحماية الشام ، ويحبسه وجنوده مرابطين فيها ، أو على مشارفها ، خشية هذا الغزو المرتقب ، بينما ينفلت هو بأغلب جيش المسلمين إلى البصرة ، ليقضى على من غزوها من العصاة . . ولعل منها ما بدا من تباین الروايات عن موعد التقاء جند على يجند معاوية في شمال الأرض السورية ، ومناوشاتهم هناك على الماء ، بعضها يحدده في ربيع الآخر ، وبعضها يحدده في ذي القعدة وإن اتفق هذا التباین حين ترجح أن الامام قد سرح بعض فصائله إلى تلك الحدود الشمالية ليشغل بها عاهل الشام في نفس الوقت الذي اتجه فيه بقواته الرئيسية لخوض معركة الجمل . . ولعل منها إلحاحه المتوالى على قيس — في جمادى الآخرة ورجب وشعبان ، على الأرجح — أن يعزى إلى من قبله من خارجة خربنا فيظهر منهم مصر ، أو يستفيهم للطاعة ، إذ هم في حقيقة الأمر من أنصار

معاوية أو بمألوف العبارة التقليدية «طابور خامس» وفرقة غير رسمية من جيوشه يدخرها لوقت موقوت . . . ولعل منها تريت على عن محاربة الشام ، وتراسله ومعاوية ربيع الآخر والجماديين ، في بعض الروايات ، وتحمله اتهام أصحابه له بخشية اللقاء لأنه كان عندئذ ، فيما بدا ، على تقيس في الفرصة كما على اصحاب الشام في الرجوع عن غيه ، والدخول في إجماع المسلمين . . . ولعل منها ما كان ذا نفع في تلك الآونة بين حزب معاوية أن يقبل على عليه بجيش من أهل العراق ، ويقبل عليه قيس بجيش من أهل مصر ، فيقع بينهما ، وتطحنه الرحي وتقضى عليه . . .

هذه كلها ملامح ، إن لم تصور لنا خطة موضوعة ، فإنها توشك أن تشير إلى ما يقرب من مفهوم الخطط الحربية ، وما تتضمن من إعداد وحشد ، وتستند إليه من توقيت وتمويه ، وتتطلب من تنسيق العمل وتضافر الجهود في مختلف الجبهات . فإذا غم على قيس أن له فيها دورا ، فليس لآخيه بالملوم . وإذا ثبت أنه دعى لدور معلوم ، ثم لم يلب الدعاء . . . أن تختلط في موقفه الآراء . . .

ولقد كان له حقا دور ، ما نظن لو أنه أداه في أوانه ، إلا مجنبا الدولة والشعب والإسلام ذلك المصير الحزين الذي انتهى إليه عهد الإمام . وسلوكه عندئذ لا يحتمل التبرير ، أي تبرير . . . كما أن لومه عليه يؤخذ بالقول الفصل ولا يحمل على الترجيح والتقدير . . . وكيف لا وقد سطر بيمينه كتابا إلى الإمام يرفض أمره حين استعشه على قتال تلك المصابة المعادية بمصر ، ويقول فيه :

« إنهم وجوه أهل مصر ، وأشرفهم ، وأن الحفاظ منهم . وقد رضوا مني أن أؤمن سربهم ، وأجرى عليهم أعطياتهم وأرزاقهم . وقد علمت أن هواهم مع معاوية ، ولست مكايدهم بأمر أهون علي وعليك من الذي أفعل بهم فذرني فأنا أعلم بما أداري منهم . . . » .

أمان ما بعده أمان ، وإن قيل مكايده . . .

وتهاون ما بعده تهاون ، وإن قيل دهاء . . .

٤

جاوز الاعتداد العناد !

أبى قيس بن سعد أن يرضخ لرأى على ، ويعمل به . . ثم اندفع — عن غضب — يرى في إلحاحه عليه بلزومه ، نوعا من التشكك والاثهام لا يحمد معه بقاؤه على عمله إلا إذا رضى كريم لنفسه أن يدع ذكره لقي في يدي شائعات مسعورة تنعم بالولوغ فيه . . .

وما كان قيس غير كريم . ولا كان بالذى يسهه أن يصبر على سبة تنال من قدره ، عن جور أو عن ريبة . .

بميزان كبريائه وزن الأمر لا بميزان المراجعة والترجيح بين رأى ورأى ، وفكرة وفكرة ، في إطار من ظروف وأوضاع قد تهبط بكفة ، وتعلو بالأخرى فيتبين المرء قدر الموزون محسوبا — على التحقيق بالحساب الدقيق . .

إنه ليزن بميزان الانفعال . . يحس بالثقة بينه وبين الإمام تتهاوى وتعيد كأرض رخوة يعابشها زلزال . . . تغيم وتظلم كأفق تلاحقت عليه كسف السحب السحباء ذات أمسية غائرة الأنجم . . . تتقلص وتذوب كظل راحت تلتهمه وقدة الظهير . . .

ولم يكن مسرفا في إحساسه وهو يعتزم أن يهجر مصر إلى حيث ينأى بنفسه بعيدا عن الشبهة . . فالهمس في هذه الفترة الأخيرة من عهده لا يكف عنه . واللفظ يتناثر حوله ويعلق بثوبه . والأصابع لا تنف تشير إليه ، بالإيحاء أو بالادعاء . . . هنا ، في هذه الأرض التي معنى فيها سعيه ليسكن تأثرات الحسام ويوقظ بارقات السلام . . هناك ، في قلب الدولة التي أخلص لها ، ولأميرها الولاء ، عملا ورأيا ونصيحة . . بميدا ، في مواقع عدوه الذين حيرهم بهدوئه وأكدهم بدهائه . . .

في مصر ، والعراق ، والشام . . في الحجاز أيضا . . في كل مكان على الرقعة الإسلامية ، إلى هذه وتلك من مصر ، وغير هذا وذاك من إقليم ، تحركت عليه الشبهات ، وتداولته الريب والظنون . . . حتى بعد أن تفض يده من عمله ،

وأوى إلى ملاذ يلحق فيه جرح كرامته ، وينشد بعض راحة البال ، لم يعدم عبارة
لوم ، أو نظرة زراية ، أو بسعة شماتة وسخرية تحرك عليه آلامه ، وتجزيه عن
وفائه أسوأ الجزاء . . .

بعلاذه في المدينة ، جرحته ألسنة ، واقتحمته أعين ، وتناولته ألفاظ شوارد
رعناء بالوعيد . . مروان بن الحكم صورته على حافة هاوية من الضياع والأسر
ثم خايله بالصورة . . والأسود بن أبي البختري هول له في مصير تحمله إليه راحلة
تشق انفيافي إلى الشام . . وحسان بن ثابت أتأثره نظرة جوفاء من ثقيبي عيذه
اللتين مات فيهما الحس ، وغاض اللح ، وانطفأ البريق حتى غدنا حفرتين من
رماد ، ثم راح يلوك في فمه لسانا كالشعبان ، في طرفه المنذلع سم ، ولحركته
الأفعوانية فحيح . . !

ولم يأبه الرجل للتهديد ، ولا خشى شيئا من تنكيل معد ، وعذاب حاضر
أو موعود . إنا آذاه أن يشمت فيه ذلك الشاعر الضرير ، ابن قومه ورفيقه
القديم ، الذي طالما — في سنى الإسلام الأولى — جلى الكرب ، بنظيمة
الأنور عن وجه رسول الله ، وقمأ عاديات الكفر والظلام ، فإذا هو اليوم
أعنف ما يكون حقدا ، وأشد ضغينة على ابن عم رسول الله والذين تابعوه من
رواد الإيمان ، وأحنى قلبا ولسانا على عدوهم من المتخافين وبقية الأحزاب الذين
أكرهوا — بآخرة — على الدخول في الدين . .

وألقي بسمعه ، في تصبر ، إلى حديث حسان ، فإذا الشماتة تدفق من فيه كأنما
راح يلفظ قلبه الأسود مع لعابه الكريه :

« نزعك على بن أبي طالب ، وقد قتلت عثمان . . فبقى عليك الإثم ، ولم
يحسن لك الشكر . . . »

وبدا كمن يحسن الرثاء لحال صديق مظلوم ، وإن كان قد استذله حقا
شيطانه ، تلك اللحظة ، كما استذله يوم أزرى بعائشة ، وولغ في حديث الإفك
السموم مع الوالتين من رؤوس المنافقين . . !

وثار قيس بالشاعر الظنين :

« يا أعمى القلب والبصر ! . . والله لولا أن ألقى بين رهطى ورهطك
حربا ، لضربت عنقك . . . »

وطرده من مجلسه . .

لكن لات حين رجعة إلى ما كان . ولا عن عزم أبرمه وقضى به ، بنفسه ،
على نفسه ، وعلى مصر ، وعلى الدولة كلها بالمصير الذى كان يمشاء . وهل عزله
على ، أو هو الذى شاء هذا المزل ، وجرى فيه ، حتى استوفاه ؟ . .

بل قد أعجلته كبرياؤه . . مالت به عن الطريق الذى كان أولى به سلوكه ،
وأجدى على الناس والبلاد فى فترة حازية تتطلب اجتماع الجهود ، واصطناع الصبر ،
ومعالجة الأمور بروية تزن مختلف الاحتمالات بيزان المراجعة والترحيل لاييزان
الاتفعال . . .

لكنه شاء أن يحتكم إلى ظنه ولا يحتكم لهقله ، فرأى فيما ارتآه الإمام تهمة
تنتقص من ولائه ، وتخط من كرامته ولم يرفيه ضرورة حتمها تطور الظروف ،
واقضاها منطق السياسة فى تلك المرحلة إزاء معتزلة مصر وإزاء غيرهم من
المتمردين والعصاة على امتداد أديم الدولة الاسلامية ، وأينما كان وكر للتمرد
وبؤرة للعصيان . . وإذا كان اقتناع قيس عندئذ بسياسة المهادنة هو الذى دفعه
إلى الإصرار عليها ورفض القتال ، فإن غضبته لمبدئه هذا ليست هى التى حملته
على اعتزال منصبه ابتعادا بنفسه عن المشاركة فى حكم يتناول الأمور بغير الأسلوب
الذى يرتضى هو وتحمل تبعه الأخذ به إذ يأمن منبته ، ويضمن نتيجته ، ويوقن
بنفمه وجدواه . . لا عن تمسك بعبدئه قد استقال ، ولا عن تملك من التبعة
اعتزل ، مادام قد عاود الالتحاق بالإمام بعد قليل وراح يسهم فى تنفيذ سياسة
الردع التى أبأها من قبل . إنما الأدنى إلى الصواب أن يكون ما حملة على الاعتزال
هو خشيته أن يقترن بقاؤه على عمله بالريية فيه ، لأنه عندئذ البقاء الذى يؤمن
العدو ويحميه . .

بهذا الشعور ، فيما نحسب ، كتب إلى أمير المؤمنين يرض أمره له بالقتال ،
ويقول :

« . . إن كنت تهمنى فاعزافى عن عملك . . وابعث إليه غیری . . »
ولم تكن للإمام حيلة تجاه العناد ، فأبرم المزل وإنه — كما نرى — لأكره
شئ على نفسه ، لأنه يعرف ولأه قيس ، ويؤمن إيمانا عميقا بإخلاصه وإن

حالته في هذا ظنون بعض خاصته ومشيريه . . فما نظن قرار العزل جاء عن رغبة في نفس على ، ولا استند إلى شبهة ظاهرة أو خفية قدر استناده إلى مقتضيات الرحلة ، وتطورات الظروف . . ولعل كلاة عبد الله بن جعفر ، قبيل هذا القرار ، تغنينا عن كل تعليق . .

قال عبد الله ، وهو ينقد للإمام مسلك قيس تجاه معتزلة إقليمه ، وإصراره على سياسته السليمة . .

« يا أمير المؤمنين . . إنك إن أطعته في تركهم واعتزالهم ، استشرى الأمر ، وتفاقت الفتنة ، وقعد عن بيعتك كثير ممن تريده على الدخول فيها . . . » . .
وتحاول طائفة هذا أن ينسبوا تنصيب محمد بن أبي بكر خلفا لقيس على مصر ، لمحبة على له إذ هو ربيبه ، ولهووى أخيه لأمه — عبد الله بن جعفر — فيه ، ثم يجعلوا من هذه القرينة وحدها أساس توليته . .

ومع أننا لا ننكر هذه العاطفة ولا نردها ، فإن منطق الواقع يأبى الإباء كله أن يراها فيصل الاختيار والأخبار تنبئنا من قبل أن محمدا أوشك أن يصبح عاملا لمصر من قبل عثمان ، لا بهوى على وذويه بطبيعة الحال ، بل برغبة أهل مصر أنفسهم ، الذين أقبلت وفودهم عندئذ إلى المدينة ، تطالب الخليفة الراحل بمزل ابن أبي سرح ، وإقامة وال غيره يرضاه الناس . .

وأبرم العهد في غرة رمضان لمحمد ، فدخل مصر بسياسة تغاير ما اختطه قيس ، وتنبع من دواعي الظروف التي تحيط بالأمة كلها ، وتدعو إلى مخاشنة جماعات الانقسام ، حماية لوحدة الشعب ، واستعادة طيبة الدولة . . .

ولم يكن الفتى بالصلف المستعلى ، فلم يخذش شعور سلفه ، ولا جبهه بما يؤذيه ، وإن كانت الكياسة في مثل هذا المقام تعجز عن تذويب غضاظة الواقع المرير . . لكنه أخذ نفسه بالتلطف مع الرجل ، إكبارا لشأنه ، وتهوينا عليه ، حتى إذا بدا الغضب من قيس ، وصاح بالعامل الجديد :

« ما بال أمير المؤمنين ؟ . . ما غيره ؟ . . أدخل أحد بيني وبينه ؟ . . »

كان الجواب الرقيق :

« لا . . وهذا السلطان سلطانك . . »

ولم يكن أيضا بالذى يزهى بصولة النفوذ ، وأبهة المنصب ، فأعاد ثانية إلى الأذهان تواضع أبي بكر حين تولى إمرة المؤمنين ، وكاد يكرر على منبر مصر ، وهو يتقدم إلى أهلها بخطبة عمله ، نفس ما قاله أبوه على منبر الرسول
كان من بين ما خطب به الناس ، بعد أن تلا عليهم كتاب تنصيبه :

« . . . إن أمير المؤمنين ولانى أموركم ، وعهد إلى بما سمعتم . . . ولن ألوكم خيرا ما استطعت . . . فإن يكن ما ترون من آثارى وأعمالى طاعة لله وتقوى ، فاحمدوا الله على ما كان من ذلك ، فإنه هو الهادى إليه . وإن رأيتم منى عملا بغير الحق ، فارفعوه إلى وعائبونى فيه ، فإنى بذلك أسعد ، وأنتم به جديرون . . . وفقنا الله وإياكم لصالح الأعمال برحمته . . . »

وما نريد أن نفيض فيما عهد إليه أمير المؤمنين سياسة جديدة يسوس بها أبناء إقليمه ، فذاك يدلنا عليه استعماله خلفاً لسلف ، ويعيننا فيه هذا التغيير عن أى تغيير ولكننا نجترئ من عهد على — وما جرى جريه من كتبه — بما يرسم النهج ، ويحدد العالم ، ثم لا يفتح السبيل للتأويل . . .
أمره :

« . . أن يدعروا من قبله إلى الطاعة والجماعة ، فإن لهم فى ذلك من العاقبة وعظم المثوبة ما لا يقدر قدره ، ولا يعرف كنهه »
وقال له :

« . . قد وليتك أعظم أجنادى : أهل مصر ، ووليتك ما وليتك من أمر الناس ، فأنت محقوق أن تخاف فيه على نفسك ، وتحذر فيه على دينك ، ولو كان ساعة من نهار »
وخاطب المصريين :

« . . فإن استطعتم يا أهل مصر أن تصدق أقوالكم أفعالكم ، وأن يتوافق سرهم وعلاانيتكم ، ولا تخالف ألسنتكم قلوبكم ، فافعلوا »
وحذرهم الفرقة ودعاتها ، وقرق الحق من الباطل فرقا لا يفسح لهم فى التردد عن اختيار الطريق القويم :

« . . وإياكم ودعوة الكذاب ابن هند . . . واعلموا أنه لاسوى إمام الهدى

وإمام الردى ، ورضى النبي وعدو النبي . . . ولقد سمعت رسول الله يقول : إني لا أخاف على أمتي مؤمنا ولا مشركا . أما المؤمن فيمنعه الله بإيمانه ، وأما المشرك فيخزيه الله بشركه ، ولكني أخاف عليهم كل منافق اللسان ، يقول ما تعرفون ، ويفعل ما تنكرون . . . »

ولقد كان لهذا التغيير أثره في نفوس معزلة خربت المتشيعين لعثمان ، الملتحقين — ولاء وخطة — بابن أبي سفيان ، فإذا هم عندئذ يديرون أمرهم بينهم خوفا وهيبة من هذا العامل الجديد الذي يوشك أن يخرق عليهم ما كان سلفه قد أفاء من طمأنينة ، وأن يعجلهم عما بيتوا من تربص وتدبر ولما يظاهروهم بعد الزمن والحليف . . . فالأمور الآن تنطلق على غير ما يشتهون ، الزمن يتسرب من بين أصابعهم ليعزز من شأن على والذين معه لأن ساعاته تدعم طاعته ، وتضيف إلى نصره . . . والحليف يضطرب ويكاد ينشغل بنفسه ، وفي قلب أرضه ، عما عداها من رفيق وإقليم . . . ها هي الفورة المائشية همدت ، وذهبت — إلا أمداء — مع الريح . . . ها هو الجمل وحزبه التهمتهم المصارع . . . ها هم أولاء فلوله يؤوبون — كرها أو طوعا — إلى رحاب الولاء ! . . . ها هي البصرة خرجت من نطاق الارتداد وغدت عوناً على العصاة من بعد عصيان ! . . . ها هو معاوية وحدة يواجه الطوفان ! . . .

شهرآ قضوه في وجل . صحوهم قلق ، ونومهم أرق ، والوساوس والظنون تبدل عليهم وتتقلب وهي تخايلهم بصور شق من المصير ليس أشقها على نفوسهم بغتة تصبحهم أو تمسيهم لأن غضاضة الهواء أشد مرارة من مذاق الخوف . . . ولقد لاح لهم ، مع كل صباح ، وهم في حيرة الترقب ، كأنما العامل الجديد أراد أن يستأخر بمحملته ، يومه ذاك ، إلى غد بعده أفسح للإعداد ، وأنسب للتدمير . . . أو كأنما شاء أن يعلى لقلقهم في الاستفحال ليحطم العزم ويوهن الروح . . . أو كأنما قد أحب أن يظنوا ركونه لرأى قيس وقد نصحه ، غب مقدمه ، باتباع نفس أسلوبه في « المكيدة » حتى إذا أمنوا أخذهم على غرة . . .

كيفما كان ما خامر منهم الأخلاق فإن محمدا لم يفاجئهم بما صورته الوسوس ، وشردت إليه الأحداش . إنما آثر الإغذار فكتب إليهم بخيرهم بين أمرين :

أن يدخلوا في الطاعة ويلتحقوا بجماعة المسلمين ، أو يخرجوا من مصر إلى حينما يبتغون . وفي نطاق هذين العرضين تتحقق لهم السلامة ويتقوا إياهم القتال .

ولا حاجة بنا لتحليل فكرة الخروج لأن ارتحالهم عن مصر إلى غيرها من الأقاليم — كبتائهم بها وهم على خلاف — لا يفل من حذمهم ، ولا يمنع خطرهم إن لم يكن سبيلا إلى نشر دعوتهم المناهضة أينما يحلون وإعداد سواهم من المواطنين بعدوى العصيان ... فالفكرة يعوزها التبرير . والحكمة منها خافية ، إلا أن يكون ابن أبي بكر قد أراد بعرضه أن يظهر في عين الرأي العام كمن لا يدخر وسعا في التساهل إلى أبعد الحدود وهو موثق أنه العرض المعصي على القبول لأن الارتحال مستحيل . . .

على أى حال أثبت الخارجة أن تستجيب . وكألوف عهدا لم تجاهر برفض سافر ، وإعنا تسترت بالمطل ، وكرت مرة أخرى إلى التمعل بنفس عذرها القديم ، الذي قدمته من قبل لسلفه ، فكان ردها عليه :

« دعنا حتى ننظر إلى ما يصير إليه أمر الناس ... » .

وما نظنهم كانوا يجهلون ما بلغه أمر الناس حينذاك . فها هي الدولة كلها — إلا الشام — قد أطاعت الإمام . وها هو الشعب كله — إلا معاوية والذين ظاهروه — قد فاء للوحدة ، تقديما لصالح الجماعة الإسلامية على صوالح نفر موغرة صدورهم بالحسد ، مشغوفة نفوسهم بالسلطان . .

لكنها الذريعة الوحيدة التي يرونها قد تكف عنهم نقمة الخصم وتستصفي رضاء الحليف . وهي ترجىء ساعة الفصل ما كانت فرصة لإرجاء . وهي تفسح أمامهم المجال للتدبر ، وربما للإعداد . وهي تداور الظروف ، وتربص بالزمن وتفتح ثغرة للأمل في جدار المجهول ! .

مخاتلة لم يكن والبهيم يتبين أنها لا تفوده إلا لسراب حق كان موكب الحوادث قد حث خطاه — سريعة واسعة — إلى القصد المقدور ! . فشوال تقلصت عن الأرض ظلاله . . وذو القعدة تسربت أيامه ولياليه ، كقطر الندى في الرمل الظمآن ، لتفيض في جوف الذكرى وتؤلف قطعة بالية من الأمس الدابر . . . والعام كله انفض سامره وإن الأخبار لتتوالى دراكا على مصر ، في صحبة الزمن

السيار ، من وادى دجله ، وسهل الفرات ، وبادية الجزيرة ، ومشارف الشام كأنها تطير بجناح ! . .

على أديم هذه المناطق انطلقت أقدام الكتائب تخط أسطرا بعد أسطر في كتاب الصراع يوشك أن ينقضى بها أجله ثم يطبق الغلاف ! خلال شهرين أو ثلاثة كان مد ، وكان جزر ، وكان تذاؤب وتراوح بين أقاصى النصر وأقاصى الهزيمة انتقل بكلا فريقى القوى المتصارعة من وهدة القاع إلى ذروة القمة ، ومن ذروة القمة إلى وهدة القاع ! وتواتر المراحل فى حلبة اللقاء الدموى ، وفى ساحة الحرب النفسية والنزاع الفكرى ، غدت وجوه خارجة خربت — وهم فى وجارهم يلهثون لاستنشاق الأنباء — أشبه بمرايا مصقولة ، يتعاقب على صفحاتها المجلوة سير الأحداث صورا شتى من الأحاسيس والمشاعر : هلما وخشية .. قلقا وحيرة .. تطلعا وأمنية .. أمنا وثقة .. زهوا وخيلاء ! . .

ولا عجب ! . . .

فالكاتب قد أطبق غلافه . .

الستار أسدل . .

صفين قد انكشف غطاؤها عن محنة « الحكومة » . . خفت بها صليل السلاح . ذاب وقع الأقدام والحوافر . انطفأت النار ثم تطاير الرماد وتبدد الدخان . . ألما يحق إذن للشعالب المدعورة أن تغادر وحارها مستعزة ، وتبرز الظفر والنااب ؟ .

٥

مرة أخرى يثور التساؤل وهذا محمد بن أبى بكر قد سار على خطه سلفه ، ولم يلاق العثمانية بمصر بغير ما لاقاهم به قيس كأنما جاء لإقرار ذلك الوضع القديم لا لتبديله ، ولتأجيل حسم موقفهم المشبوه لا لتعجيله والفراغ منه . .

لما فعل العامل الجديد ؟ . . كيف كان مسلكه إزاءهم طوال تلك الفترة التى قضاه بين ظهرانيهم ، منذ مبعثه إلى تنحرم ، وقد استطالت إلى نحو نصف عام ؟ . . الآية غاية عساه وجه حشدها الزمنى وسخر ما احتوى من شهور وشهور ؟ . . ماذا دعاه للتريث ، وما حكمة انتظاره ؟ . .

ويحار المرء وهو يتنقل بين مختلف الاحتمالات . . .
لكأنما الزمن فر خلسة من وراء ظهر العامل وهو مشغول عنه ، وعن العصبية
المعادية ، بغير ما كان ينبغي أن يكون همه العاجل ، وشغله الشاغل . . . بانتظار
سانحة ؟ . . . بالموازنة بين ما هو خطأ وما هو صواب ؟ . . . بمبادلة المنحرفين رسولا
برسول ، ورسالة برسالة ؟ . . . بحس نبضهم ، وسبر غورهم إلى مهوى القاع ؟ . . .
بالطمع في استفتاءهم إلى الحق بعد باطل ، وإلى الطاعة بعد عصيان ، وإنه لحقيق
بأن يعلم أنه طامع في محال ؟ . . .

كيفما كانت التعلات والأسباب ، فإنه لم يبادر القوم بما نهض فيه ، واختير له
خلفاً يقاوم ويقاوم لسلف يداور ويطاول . . . لم يعاجلهم بالخطوة المقررة التي
حان أن ينفض عنها غبار الانتظار . . . بالضربة الحاسمة القاصمة ، الكفيلة بأن
تسكفيه ، وتسكفي أمير المؤمنين ، والبلاد شر ما يبيتون . . .

إلى صفر ظل يحاول ، فيما يلوح ، معالجة خطر الخارجة بالبعوث والرسول
لا بالخليل والرجل ، وبالكلام لا بالحسام . . . أملى لنفسه في المحاورة فأملى لهم في
المداورة والإرجاء . حتى إذا استطاعت خدعة المصاحف أن تهدر نتيجة صفيين ،
وعاد الإمام إلى العراق بحسرة نصر مسلوب في هيئة مغلوب خاسر ، وقفل معاوية
إلى الشام بفرحة هزيلة متقاة في هيئة منتصر ظافر ، نقضت خربتاً تناومها ،
وكشفت — مطشنة — عن وجهها القبيح . . .

لا شيء الآن يمنع عثمانية مصر عن مجاهرته بالعداء . . . أملها أخيراً أضاء .
يومها الذي واعدتها به القدر قد أقبل . خصمها الذي كانت تحشاء وتتق سطواته
قد تهاوى إلا جمعا هو التجمع العشوائي الأجوف ، وفرقا هي التفرق الغلول .
ورأيا هو الرياء والتنازع . . . ووليها الذي تسانده وتستصني وده قد أفلح كيده ،
واشتد أيده ، وثبت أمره ، وعز قدره ، وتهيأت له مقومات الإمرة والسلطان
إلا لقباً يوشك الزمن أن يحيك طيلسانه . . .

حق هنا ، في مصر ، لا يعدم المرء أن يجد أناسا — خارج وجار خربتاً
نفسه — قد أثرت فيهم النتيجة المفاجئة ، وعبثت بميولهم المعروفة . . . بعضهم
ملكته الحسرة . بعضهم أكلته الحيرة . بعضهم اشتبه عليه الطريق . بعضهم

اهتزت ثقته في قدرة حزبه على توجيه الأمور إلى حيث ينبغي أن تسير . بعضهم
آثر السلامة فنأى عن النزاع . بعضهم وهنت روحه فمال مع الريح . . .
كثيرون لا ريب من أهل الإقليم فتر عزمهم — في تلك الآونة — عن
نصرة وال توحى ظواهر الحال وبوارد الظروف أنه لا يقف على أرض صلبة .
فنجم معاوية في ارتفاع . عاقبة صفين له . رجاله الآن أنوى روحا وأصلب
عزيمة . رأيه بينهم هو الرأي وكلته الكلمة . والأحاديث تملأ الأسماع ، في كل
مكان ، بأنهم نصبوه للإمرة العامة ، وراحوا يدعونه بلقب الخلافة . . وضوء على
يخبو . الخلاف المشبوب بين أصحابه ليس بخرافة . تصدع صفوفه يشيع في الهواء .
تفرق جنده عليه يشي بزوال هيئته ، وتهافت كلمته ، إن لم يكن هو النذير بتفكك
سلطانه ، وتصدع دولته ثم انزلاقها في القريب إلى حضيض الانهيار . .
ولا حيلة لابن أبي بكر الآن فيما وقع وكان . . . فقد ترك الفرصة تتسرب
كلما من بين أصابعه والقوة عندئذ معه ، والدنيا مقبلة عليه . ونهض — كأعما
من غفوة ! — ليرى تلك الفرصة المولية أبعد من متناول بصره ومرمى ظنه
وتفكيره ، والشقة إليها تعي عزمه وتدرته ، وتتقطع عليها أنفاسه . . .
أما معاوية فقد سبق الزمن إلى ما أراد ، فأحسن التقدير كما أحسن الإعداد .
ولئن بدا كالمشغول بنفسه وإقليمه إلى تلك اللحظة ، فإن واقع الأمر ينطق بأن
مصر لم تغب قط عن فكره حتى وهو في غمرة محن أو شكت أن عزق أحلامه
وتقضى عليه . . فكم حاول أن يستميل قيسا إلى جانبه ويدخله في حظيرة ولائه .
وكم جهد فدى — حين تأبى عليه وأعضلت به استمالته — ليعمده عن عمله
خلاصا منه ، وطمعا في بديل أهون شأنا عليه إن لم يكن أسلس قيادا له . وكم
تغذت — فيما جرى على لسانه — عناصر الفتنة بخربتا بعدد من عنده من العثمانية
يشد أزرها ، ويقوى عزمها ، ويشمرها دائما — وهي برباطها البعيد عنه —
أنها محور اهتمامه وليست معزولة عن الحليف والنصير . بل قد بلغ من طول
ذراعه أن تمتد من دمشق إلى مدينة القلزم — باب مصر الشرقي — فتبلغ عامل
خراجها ، وتحتضنه ، وتحيله عميلا خائنا يغتال الأشر درءا لحظره ، وهو في
طريقه إلى مصر إذ ذاك ليخلف ابن أبي بكر ، ويصلح ما فسد من أمرها
على الإمام .

ما غفل معاوية ولا تهاون ، وإنما فكر ودبر . عمل وتآمر على العمل حتى أضر . تآمر واحتال وكاد . ألقى بثقله في الميزان . سبق الحوادث ولم يترك الأمر في يد الصدف والاحتمالات ... وعندما وسعه أن يقدم ، طفر ووثب بالخطا الواسعة ، وبادر على الفور يستعدى أعوانه الممتنعين في رباطهم من سطوة واليهم الشاب ، ويحركهم لإشعال النار ...

وكتب عندئذ إلى زعيمى الخارجة المصرية : مسلمة بن مخلد الأنصارى ومعاوية بن حديج الكندى ، يقول :

« .. طلبتما بدم الخليفة المظلوم ، وغضبتما لله فأبشروا برضوان الله ، وعاجل نصره أولياء الله ، والمواساة لـكما في دار الدنيا وسلطاننا حتى ينتهى ذلك إلى ما يرضيكم ، ويؤدى به حقا . . . غالزما أمركما ، وجاهدا عدوكما ، وادعوا المدبرين منكما إلى هداكما ، فكأن الجيش قد أظلم عليكم ، فاندفع كل ما تكرهان ، ودام كل ما تهويان ... »

للنهي لا لدنياء ولا ماله نهضا في الأمر ، بل ابتغاء ثواب الآخرة ومرضاة الله ، فيما يقولان : ...
رداً عليه :

« ... نحن بهذه الأرض قد نفينا من كان بها من أهل البغي ، وأنهضنا من كان بها من أهل القسط والعدل . وقد ذكرت مؤازرتك في سلطانك وذات يدك ، وبالله إنه لا من أجل مال نهضنا ، ولا إياه أردنا . . فإن الدنيا والآخرة لله ... عجل لنا بنحملك ورجلك ، فإن عدونا قد كان علينا جريثا وكنا فيهم قليلا ، وقد أصبحوا لنا هائبين ، وأصبحنا لهم منابذين ... » .

ولقد لُحِث محمد وانبهر نفسه وهو يحاول أن يستعيد من الزمن ماولى منه ، ويفرض على الامتزلة هبة قد ظنوها بدء الأمر بعض قدرته ، ثم أيقنوا الآن أنها مجرد طلاء . . فقد أبوا أن يصغوا له . لا حاجة بهم إلى مهادنته . أولى بهم منابذته ، وأجدى عليهم مجاهرته بالعداء . فالقوة لهم . والزمن معهم . والبادرة في أيديهم ، وليس حائل يحول بينهم وبين اختيار السكان والزمان : أرض الموقعة وساعة اللقاء . . .

وكانوا من وضعهم على ثقة ، ومن تقديرهم على صواب . فسرعان ما طحنوا بقواتهم بعوثة التي أوفدها لتحملهم — طوعا أو كرها — على الخضوع . . . بعثة بعد بعثة مزقوا ، وفرقة بعد فرقة ألحقوا بها البوار . قضا على ابن جهمان البلدي ، وعلى يزيد بن الحارث الكندي ، وعلى ابن مضاهم السكبي ومن مار معهم في بعثات الدعوة أو حملات التأديب التي أريد بها تسكين الفتنة أو ردع العصيان : . وعندما نشر هذا الاحتكاك عن العامل طلاءه ، واستيقنوا منه غير ظنهم به ، خرج معاوية بن حديج يطلب بدم عثمان ، ويدعو أهل مصر جهرة إلى مناصرته والالتفاف حوله انتقاما للخليفة القليل . . .

ولم يكن محمد كما حب أصحابه . ولا كان أيضا كما حسب هو نفسه يوم انطلق إلى مصر ، وصدره تملؤه الثقة في غد مظفر . فالأيام تخلف ظنه والأمور تجري على غير تقديره ، إذ هو الذي شاء أن يتركها بغير عنان فراحت تضرب كالعشواء إلى حيث تشاء . . لا إلى حيث يشاء . . ونيتته تفوق همته . . ومن يستشرف اليوم قدرة الشاب يكاد يحده أو هن قدما أن يسير على شوك ، وأقصر قامته أن ترتفع هامته فلا يغمرها موج الأحداث . . .

وكذلك اجترأت عليه الخارجية . فهان أمره . واختل الأمن . واضطرب الناس . وفسد الإقليم . . وعندما علم على أن باع الفتى يقصر عن معالجة الداء ، لم يعد له معدى عن التغيير . فآخر الدواء السكى . وآخر العلاج البتر ، كما تقول الأمثال ! . . .

وعلى الأثر كتب إلى الأشتر :

« . . إنك بمن استظهر به على إقامة الدين ، وأقمع به نخوة الأئيم ، وأسد الثغر المخوف . وقد كنت وليت محمد بن أبي بكر مصر ، فخرجت عليه خوارج ، وهو غلام حدث السن ، ليس بذى تجربة للحروب . . فأقدم على . . . »
واستخلفه على مصر :

« . . ليس لها غيرك ، فأخرج إليها رحمك الله . . ولا أوصيك ، اكتفاء برأيك . . »

وكتب معه إلى الناس :

« من عبد الله على أمير المؤمنين إلى من بعصر من المسلمين الذين غضبوا الله
إذ عصى في الأرض
أما بعد :

فإني قد بعثت إليكم عبدا من عباد الله ، لا ينال أيام الخوف ، ولا ينكل من
الأعداء حذار الدوائر أضرب على الفجار من حريق النار فاسمعوا
له وأطيعوا أمره ، فإنه سيف من سيوف الله ، لا نابي الضريبة ، ولا كليل
الحد فإن أمركم أن تنفروا فانفروا . وإن أمركم أن تحجموا فأحجموا ،
فإنه لا يقدم ولا يحجم إلا بأمرى . وقد آثرتكم به على نفسي ، نصيحة لكم ،
وشدة شكيمة على عدوكم ..
والسلام . »

وانطلق الأشتر من الكوفة ، بعد مقدمه عليها من نصيبين ، يطبع معالم
قدميه على أديم الصحراء ، في طريقه إلى مصر ، ليلتحق فيها بعمله الجديد . لكن
الرمل لم يحفظ سره ، ولا امتص من وقع خطاه . . . بل كان يسرى ولسراه
دوى مجلجل في الآفاق كأنها الأرض تحت ضربات نعلية تلتفتض بزلزله عنيفة انبعث
عنها انفجار بركان . . .

بعصر اضطراب تحت ابن أبي بكر مقعده ، ورج ذاك الاضطراب نفسه فإذا
هي تشرق بغصة ألم كاللحم وهي تستشعر هوانا مدمرا من خلال التغيير . . .
وبدمشق ترنحت أريكة أهل الشام ، وكاد يعيد معها أمه المتوئب إلى سلطان
شامل ، ومملك مؤئل عريض . .

وبخربتا زاغت الأعين ، وجفت الحلق ، ووجفت القلوب بين علو وهبوط ،
تارة تضرب إلى الحناجر ، وتارة تغوص في الأقدام . . .

فأما محمد فقد ركن في هذا الجزاء الذي أصابه إلى ما يركن إليه أي امرئ
على مثاله يحس أن طالعه تعثر خفاصه زمنه ، وتنكرت له الأيام ثم لا يستطيع أن
يدافع عن نفسه بما قد يعطف الناس عليه ما دامت عواقب الأمور قد خاتته ،
وجرت ريحها على خلاف مشتهاه . . فإذا هو لا يملك إلا أن يحرك قلمه بكتاب
يخطه إلى الإمام ، ويبثه فيه ما يعاني من ألم ذلك الجرح الذي شقه في فؤاده قرار
عزله عن الإقليم . . .

وأما معاوية فقد اكتسى ثوب المستيثس ، الذى تقطعت به الحيل وسدت
السيول فى وجهه ، فلا محيص له عن التزام أسلوب العاجز الذى لا يذكر ربه
إلا إبان الملمات . . فإذا هو يقول لأهل الشام :

« إن عليا قد وجه الأشر إلى مصر ، فادعوا الله أن يكفيكموه . . »

فكان يدعو ، ويدعون معه ، على الأشر ، بعد كل صلاة . .

وأما خربتنا فخبيسة هم لا تبارحه . لكأنه سياج من حديد أصم قد أطبق
عليها من كل ناحية . وكأنما تدور فيه حيرى ، تذرع فراغه بغير قدم ، وتتحمس
جدرانها بغير أصبع ، بحثا فيه عن ثغرة إلى الطمانينة . . لكنها لا تنى تدور وتدور
حتى تدوخ ولا خمر ، وتلهث ولا جهد ، وهى تحاول أن تفر — بالحدس والتصور
— من ذلك القلق الذى يطاردها شبحه ولا يهدأ عنها لحظة من نهار أو ليل ،
فى يقظة الحواس والجوارح كما فى خدر الأحلام . .

غير أن المكتسى ثياب المستيثس لم يكن ممن يلزمون أسلوب العاجز فيركن
إلى الاستسلام . . معاوية لم يدع مكره . لم يذر حيله وأخاديه . لم يضع سلاح
كيد . . ولئن تظاهر أمام أبناء إقليدس بأنه لا يلوذ من الحنة النازلة إلا بالله ،
ورفع كفيه ضراعة إليه سبحانه أن يكفيه خطر الأشر ، فلقد تضرع ودعا محتالة
وتمويها ، وهو موقن اليقين كله — قبل الضراعة ودونها — أنه سيكفاه . .
وما يضيره أن يغوى ، سرا صاحب الخراج فى القلزم ليقتال الأشر ، فيبلغ هو
أربه ، ثم يبدو فى أعين أهل الشام صاحب الدعوة الملباة ، الأثير على الله ؟ . .
وكذلك مضى وفعلة . .

بعث إلى صاحب الخراج :

« . . إن الأشر قد ولي مصر . . فإن كفتنيه لم آخذ منك خراجا ما بقيت ،

وما بقيت . . »

وترك — كدأبه — الذهب يتولى عنه تسيير الأحداث . .

٦

هزت الفرحة قلب معاوية وجوارحه ، وشاع لونها المشرق في عجائه ، حين بلغ ذلك الرسول الوافد عليه من حدود مصر خاتمة المطاف في حديثه . . . والتفت دونه إلى من حوله من بطانته وصحبه يزف النبأ السار :

« إن لله جنوداً من العسل . . . »

وبدا كأنما قسوة الشماتة تراحم في عبارته سكينه الارتياح ، وهو يتنفس الزهر والخيلاء . . .

ولم لا ، وقد ذهب الأشر ولن يعود ؟ . . . أفل من أفق حياته . رقد بمضجع تحت أطباق الرمل ، على باب مصر ، لا يقظة منه حتى النشور . . .

إن للذهب لفتنة . وإن للجشع اسطورة . وإن للسكيد لبطشا يهون أمامه بطش السلاح . . .

ما كاد الأشر يبلغ القلزم ، ويحط فيها رحاله استرواحا من وعشاء سفره الشاق من العراق ، وتهيئوا لمرحلته المقبلة إلى القسطنطينية ، حتى أسرع إليه عامل الخراج يستقبله كأحسن ما يكون الاستقبال . . .

وسخا بقراه :

« أيها الأمير . . . هذا منزل فيه طعام وعلف ، وأنا رجل من أهل الخراج . فأقم واسترح . . . »

ولم تراود الأشر في الرجل شبهة . . . وأنى له ، وحديثه ولاء ، وسياه صفاء ، وكل حركة بدرت منه تضيف إلى الثقة فيه . إنه ليفنى لضيغه . يتبعه كظله . يسير بين يديه ككلب القطيع . يتمسح به كهرة . يلبي ولا نداء ، ويعمل ولا مطلب . يطيعه كبنانه ، وينطق كلسانه . . .

وكان حديثه كله حمداً لعلي ، وثناء على بني هاشم ، وذكر لأعجاد أنصارهم وشيعتهم الذين أخذوا أنفسهم بإقامة الدين صرحاً شامخاً بعد أن كاد أعداؤهم يقوضون بنيانه . . .

ثم أفرخت خيائه شربة عسل مزجها بسم زعاف . . .

هنا تنفس معاوية زهوه . . .

وعلى منبر دمشق ، وقف يعلن النبأ للناس ، مدلا بكيده ، مبطنا جديته
بما يوحى إليهم أنه صاحب الدعوة الملباة ، الأثير على الله :

« ... ألا ترون كيف استجيب لكم ؟ . . . لقد كان لعلي بن أبي طالب يدان
يمنان : عمار بن ياسر ومالك الأشتر ، فقطعت إحداها يوم صفين ، وقد قطعت
الأخرى اليوم ... » .

وفي الجانب الآخر ، بالكوفة ، عصف الأسى بعلى ، فسال قلبه في
عبارته وعبراته :

« ... اللهم إني أحسبه عندك ، فإن موته من مصائب الدهر ... ومع أننا
قد وطنا أنفسنا على أن نصبر على كل مصيبة بعد مصابنا برسول الله ، فإنها من
أعظم المصيبات ... » .

وظل طويلا يتلهف ويتأسف حتى ظن أصحابه أنه المصاب به دونهم . فراجعوه
وقد هذه الحزن :

« بعض هذا يا أمير المؤمنين ! .. »

فقال :

« وهل موجود كمالك ؟ . . . أما والله ليهدن موته عالما ، وليفرحن عالما .

على مثل مالك فلتبك البواكي ! .. » .

لسكن الحياة لا تتوقف فالزمن يسير . والليالي تلدن الأحداث . والكفاح
المر من أجل تسويد المبادئ — كريمة أو خسيسة — يحرف الناس في
تياره . .

وكان للظروف عندئذ ضغطا شديدا على الامام لامعدى له حياله من الإفادة
— وسعه — من الموقف الراهن حتى يتيسر له تناوله بتغيير أمثل أسلوبا ،
وأسلم نتيجة . فعزم أصحابه خور . وحشه إياهم على المبادرة لا يصادف أذنا سماعة .
وجنده ، بعد النهر ، ركنوا للدعة . وإذا كان القدر قد شاء لمصر أن تدفع بنفسها
عن نفسها أى عدوان أموى ، من الداخل أو الخارج ، فإن كبرياء عاملها
الجريمة لا بد أن ترا من جرحها الغائر ، فيستطيع ابن أبي بكر لقاء أعدائه وهو

أوثق ثقة في نفسه ، وأقوى إحساسا بقدرته على الاضطلاع بما أوشك أن ينزع منه . .

لذلك كتب أمير المؤمنين إليه :

« .. بلغنى موجدتك من تسريح الأشر إلى عملك ، ولم أفل ذلك استبطاء لك عن الجهاد .. ولو نزع ما حوت يداك من سلطانك ، لوليتك ما هو أيسر مؤنة عليك ، وأعجب ولاية لك ... فاصمد لعدوك ، وشمر للحرب . وادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وأكثر من ذكر الله والاستعانة به يكفيك ما همك ، ويمينك على ما ولالك ... » .

وكأنما أفاء الكتاب على الفتى طمأنينة ردت عليه بعض ثقته في اقتداره على مواجهة الأزمة التي نصبها له الخارجون ، فبعث إلى الإمام ردا يقول فيه :
« ... وليس أحد من الداس أشد على عدو أمير المؤمنين ، ولا أراف وأرق لوليه مني .. وقد خرجت فم كرت ، وأمنت الناس إلا من نصب لنا حربا ، وأظهر خلافا ... »

لكن هذه الثقة التي تجددت في قلب الشاب ، وهم عودها الطرى أن يفرغ ، ما لبثت الحوادث — في حلفها الدنس مع الترهيب — أن راحت تعصف بها ، لتقصفها ، ثم تدفنها بعنبتها الندى وهي بعد خضراء . .

ما بلغ محمد هذا المبلغ من الاعتداد الذي استشرمه ، ومن الإعداد الذي كتب عنه ، وما وصل جوابه مقصده ، حتى كان معاوية قد أبرم رأيه ، فلي مطلب زعيمى الخارجية المصرية : مسلمة بن مخلد ، ومعاوية بن حديج ، وأمر عمرو بن العاص بتجهيز جيش لغزو مصر ، وسلخها من إمرة الإمام . . .
حسم ليس يفسده تردد ، ومما جلة لا تبارى فحسب انطلاق الحوادث بل برق الظنون في الأخلاذ . .

ومن مشارف تلال فلسطين ، وربما الصحراء الشرقية ، يوشك المرء أن يطل على القوة المغيرة ، القبلية عبر تيه الرمال ، فلا يراها تسكاد تغنى عن نفسها شيئا ، في حساب الفتوح والغزوات ، أمام شعب ثرى بأهله ، قوى بماله ، قد عرف له ولاؤه الخالص لى ، وسخطه مناوئيه وشدته عليهم من بضعة شهور . فما كان

جيش ابن العاص غير آلاف قليلة قد تصلح طليعة ثم تقصر عن التوغل والانتشار . وما كان يسعه ، بالمقياس العددي ، إلا أن يشن غارة على الأطراف يركن بعدها إلى الارتداد . وما كان مزودا من العتاد بما هو أقطع حدا أو أوفر عددا من عتاد المدافعين . . .

غير أن الجيوش — فيما سمعنا على لسان الحروب — لا تقاس عادة بكثرة الأفراد أو بوفرة العتاد ، وإنما بالحطة المحسكة ، وحسكة القيادة ، وحسن التنظيم والنصر دائما ، بمد هذا ، رهن العزم والثبات والإصرار
وندع الحطة والحسكة والتنظيم إلى ساعة اللقاء ، ثم نستقصى عوامل النصر فإذا مصر منها خواء . . . بها وهي العزم آنذاك ، وتهاوى الثبات ، وذاب الإصرار . . . قبل أن يطاء عمرو منها موضعا على أديمها الأصفر أو رقعتها الخضراء كانت رحي الزمن قد طعنتها ، في مدى قصير ، وذرتها مع الريح . . .
النكسات التي توالى على دولة على ، حطمتها روحا ومادة ، شعبا وحكومة ، فكرة تجمع عزائم المواطنين وغاية تشمل حماسة الحريد . . .

ولا جدال .

فصدمة الخديعة في صفين أعقبت الحسرة . ونتيجة التحكيم الضال أثارت التنازع . و « خلافة » معاوية المدعاة غرست في النفوس بذور الاستسلام . وثورة خارجة النهر على الإمام شجت وحدة صفوفه ، وأغرقت به صنائع التمرد والعصيان . وتخاذل العراق عن العودة إلى غزو الشام أخلى لماهلها الميدان . . . وعرف معاوية طريقه . .

حرك بمصر أعوانه ، ومنى بخالفه ما في يديه من عروض وسلطان . ألهب بها دعوة الثأر للخليفة القتيل . حالف تنمر خربتا وخور أهل الإقليم . أدار ظهره ، وهو آمن ، للعراق الوسمان ، ثم سير ابن العاص . .

وكما أحكم الرجل التدبير أحكم التوقيت للغزوة المنتظرة . ثم انثنى يبعث الترهيب طليعة لجنوده المغيرة يخایل الوالى الشاب بمصير قائم ، ليهدم ما أبقت الحن له من خرائب اعتداده . . .

من الشام أرسل يذكره عدوته ، قبل نحو عامين ، على عثمان يوم الدار ،

ويحمله دمه ، وينذره نعمة عاجلة تنزل به وقد انقض عنه أهل إقليمه ، ثم لا يبخل عليه ، مع هذا كله — تفضلا وأريحية — بفرصة للنجاة ! . . .
كتب إليه :

« . . . ان سفك الدم الحرام لا يسلم صاحبه من النعمة في الدنيا ، والنعمة الموبقة في الآخرة . وما نعلم أحدا كان أعظم على عثمان بغيا منك . . . ثم تظن أني نائم عنك ؟ . . . فتتأمر على بلاد أنت فيها جارى ، وجل أهلها أنصارى ، يرون رأيي ويستصرخونى عليك ؟ . . . قد بعثت إليك قوما حناقا عليك ، يستسقون دمك ! . . . ويتقربون إلى الله بجهادك ، وقد أعطوا الله عهدا ليثخن بك ! . . . فلو لم يكن منهم إليك ما عدا قتلك ما حذرتك ولا أنذرتك . . . ولكنى أكره أن أمثل بقرشى . . . فتنج وأنج بنفسك . . . »
ومن مشارف مصر ، أرسل إليه عمرو :

« . . . تنح عنى بدمك يا ابن أبى بكر ، فأنى أكبره أن يصيبك منى ظفر ! . . . إن الناس بهذه البلاد قد اجتمعوا على خلافك ، ورفض أمرك ، وندموا على اتباعك ، فهم مسلموك إذا التقت حلقتا البطان . . . فاخرج منها ، فأنى لك من الناصحين . . . »

فلو تأثر محمد — وهو يعيش محنته ومحنة أميره تلك — بهذا التهويل ، لقل أن يجد من يلومه . . . فالجو حوله خائق عبوس . وشعاع الرجاء ابتاعته الظلمة ، والعبارات في كتابها غريمه قاطعة حادة كأنها الحراب ، والمصير الذى يطل عليه من سطورها ، ومن ثايا الظروف المحيطة . مثلة أو فرار . . . ولم لا يتأثر ونعمة عثمان تطارده فوق صهوة جواد ، وعلى شفرة سيف ، وبكدين مجهول . . . والجنود المغيرة الظمآن ، تشم ريحه ، وتتعبه ، لتروى عطشها من دمائه ؟ . . . وثمانب خربتاً تخاتله لتنقض عليه فى لحظة غفلة ؟ . . . وأهل مصر — إلاقلة — إذا ما خاصموه قتلوه ، وإذا ما ساعوه أسلموه ؟ . . .

قل من عسى قد يلوم الفقى لو تأثر والبلاد حوله غدت مثل غاب تعيث فيه الذئاب . . . فلا مثابة لأمن . ولا رجاء فى أمل . ولكنه ، طلى ما يعانى ، يستنهض جأشه ليثبت معه فى وجه الإعصار الأهوج لعله يهدأ ، أو يعيل عنه ، ثم يكتب إلى أمير المؤمنين :

« ... إن العاصي ابن العاص قد نزل أواني مصر ، واجتمع إليه أهل البلد جلهم ممن كان يرى رأيهم . . . وقد جاء في جيش لجب جرار . . . وقد رأيت ممن قبلي بعض الفشل . . . فإن كان لك في أرض مصر حاجة ، فأمدني بالرجال والأموال . . . »

وكانت للإمام في مصر حاجة ، أي حاجة ، بلا مرء . . . فما أن وصله كتاب محمد حتى يدعو الناس للتجهز ، والسير لمصر مددا ونجدة ، ثم يبادر فيثبت الفتى ويهون عليه حتى يبقى له بما يريد . . .
يبحث إليه :

« ... لا تفشل وإن فشلوا . . . حصن قريتك ، واضم إليك شيعتك ، وأذك الحرس في عسكريك . واندب إلى القدم كنانة بن بشر ، المعروف بال نصيحة والتجربة والبأس . . . وأنا نادب إليك الناس على الصعب والذلول . . . »
وتفعل الرسالة فعلها في محمد فيستشعر شيئا من ثقة يدفعه إلى الرد على غريعه بما يبعد عنه مظنة الخضوع للتهديد . . .

يكتب لأحدهما :
« ... تأمرني بالتنحي سنك كأنك لي ناصح ، وتخوفني بالحرب كأنك على شفيق ؟ . . . أنا أرجو أن تكون الدائرة عليكم . . . وأن تولوا الدبر . . . »
ويكتب للآخر :

« ... زعمت أنك ناصح لي ، وأقسم أنك عندى ظنين . . . وزعمت أن أهل البلد رفضوني ، وندموا على اتباعي . . . فأولئك حزبك وحزب الشيطان . . . »
ويقوم في الناس :

« ... يا معاشر المؤمنين . . . إن القوم الذين كانوا ينتهكون الحرمه ، ويفشون الضلالة قد نصبوا إليكم المداوة ، وساروا إليكم بالجنود . . . فمن أراد الجنة والمغفرة فيلخرج إلى هؤلاء القوم فليجاهدكم في الله . . . انتدبوا ، رحمكم الله ، مع كنانة بن بشر . . . »

أما دعوة الإمام فقد حصدت الهشيم . . . قبضت الريح . . : تبددت في فراغ . . .

يوما بعد يوم ، ليلة بعد ليلة ، كان يستحث المسلمين عنده أن يخفوا لنصرة أخيم بمصر ، وينهضوا لمجده ، فيسخون عليه بالوعد كل السخاء ، ثم يخلون بالوفاء . . . مرارا دعا ، ومرارا أمر ، فما أيقظهم دعوة ، ولا حركهم أمر . كانوا عيوننا تشخيص ولا ترى . وآذاننا تسمع ولا تسمع . وعقولنا قدت من صخر . . . حالهم الآن كحالهم عند رفع المصاحف ، وغب خدعة التحكيم ، ويوم التنادي للزحف الأكبر لغزو الشام لم يعودوا أوامك الفئة الصافية الأنفس ، المجلوة الأرواح ، التي يشوقها خوض العمرات جهادا في الله : نشر الحق ، ودفع الباطل ، وسحقا لأهل الضلال والطغيان . . .

بل قد غدوا أشد جحودا وعصيانا له ، وغدا أشد بعدا عن مشاعرهم كأنه وإياهم على طرفي نقيض . فلم يغن عنه منطقهم . ولا غيرتهم الكارثة التي أقبلت من عالم خطرهما ونذرهما تترى عليهم من ساحة الواقعة المنتظرة فعمرو يتقدم . وقواته المغيرة تعز نفرا وعتادا بمن على رأيها من أهل الإقليم . وأنصار محمد بمصر ينتقص منهم التخاذل ، ويوهنهم — عددا وعزيمة — توالي الأيام وجبهة الدفاع تميد تحت أقدامهم وتشقى على الانهيار . . .

ثم جاءت الفارعة ! . . .

إنه ليحترأله ، ذات يوم ، في صحبة يأسه ، فإذا رسولان بفدان عليه ، يسبقهما إليه نفس مبهور . . . من حدود مصر ، عبر الصحراء ، قطعاً مراحل برت الأقدام . بالعين لحفة ، في الحلق غصة ، على اللامح وجوم . . .

وانتفض ووقدة الحر عندئذ لا تبعث رعدة ، بل تعين على هدوء الاسترخاء . ولكن البغلة وخزته . والنسكة التي أقبلت بنبيها كانت كلسع النار . . .

وخرج فنادى في الناس :

« الصلاة جامعة ! . . الصلاة جامعة ! . . »

ثم ارتقى المنبر عندما احتشدت الجموع ، تتدفق المرارة من فيه :

« ... هذا صريح محمد بن أبي بكر ، وإخوانكم من أهل مصر ، قد سار

إليهم ابن النابغة عدو الله »

ولقف نفسه هنيهة ، انبرى بعدها يقول :

« ... لا يكونن أهل الضلال . . أشد اجتمعا على باطلهم . . منكم على حقكم ... » قد بدأوكم وإخوانكم بالغزو ، فاعجلوا إليهم بالمواساة والنصر ، عباد الله . . إن مصر أعظم من الشام ، وخير أهلا ، فلا تغلبوا على مصر إن بقاء مصر في أيديكم عز لكم ، وكبت لعدوكم «

وتفرس فيهم مليا ، حتى إذا وجد منهم الإقبال بالسمع ، دعاهم إلى الإقبال على التجهيز ، وهو يرجو هذه المرة منهم أن يلبوا النداء :

« ... اخرجوا إلى الجرعة . . لتوافي هناك كلنا غدا ، إن شاء الله ... »

V

هبط « الجرعة » على أول شعاع . . .

بين قطر الندى العالق بجو الصباح بلغ وجهته . . مكون الوجود حوله بيت السكينة . خفة النسمة ترطب التوتر . نضرة الشروق تبعث التفاؤل . ومن خلال هذا الصفاء الوديع سرى إليه أثر من أمل ، بهس في روعه ، أويسح على قلقه بيده الرحيمة . . .

* * *

عندما بدأ رحلته ، لس السواد في السكون والخاطر . . . في الكوفة ، حين مخرجه ، كان الظلام يطبق على الأرض بقتامه . على الطريق ، خارجها ، رافق الظل والوجوم والتوجس . في منطلقه الطويل منها ، كان يعيش على شوك ذكرياته الحزينة . . .

كالضباب بدا الفضاء الفسيح على مدى رؤيته . الأرض والأفق كتلة من الفراغ . الدنيا محيط من التيه ماله ساحل . . لا معالم ولا حدود ، أينما سبعت عينه ، بل شهية عميقة تذوب فيها المسافة . . كالسر تجسد الصمت الخيم على الوجود . لا نائمة . لا همسة ولا حفيف .

لا رجع صدى من قريب ولا من بعيد . حتى خطاه الحثيثة بدت بلا وقع ، وكأنما
يعتصمها الرمل الصديان . . .

العموض يغلف الخلق والأمر ، كما غلف أمسه ويومه ، والجمود يحكم الصوت
والحركة ، كما حكم فكره وقدرته .

فلعلها صورة شعوره ، بريشة الطبيعة ، هذه اللوحة التي يرسمها الضياع
والإيهام . . بكل يأسه ، بكل ضيقه ، بكل حيرته التي يبثها أمامه تردد صحابه . .
ولعلها حياته ، في مختتم عمره ، مثلت له وقد تقسمها في الشهور الأخيرة
المريرة ذلك التوجس في نفسه ، والنهاون في قلوب رجاله ، والحدق الأسود
في صدور شائتيه . . .

* * *

لكن الرقة الوديمة لونت الصورة . .

من جانب الأفق ، شق السواد المحيط ، سيف النهار . . في الثرى المعتم ،
راحت خطاء ، مع الفجر المسفر ، تغرس النور . . على أين النسمة ، ونضرة
الشروق ، ورفق السكينة ، تفتح الأمل . . .

وبدت له الجرعة ، من بعيد ، كواحة . بعد طوال السرى ، في وادى الظلمة
لمت كشعاع . ومن مشارفها أخذت ترحب به البكرة الوليدة . .

هو الآن ينساب كطيف . يترحل في الزمن بأسرع من ترحله على المسافة .
كل خطوة يخطوها ، كانت صفحة يطويها من سجل الغابر . كل نظرة يلقيها ،
كانت تكشف بسمه على ثغره . فالأمل معه الظلمة خلفه ومن أمامه بدأت تقبل
طلائع الضياء . .

وهان عندئذ أمسه . .

الهدوء في صدره ، والرضا على جبينه . .

ولم يعد يحس ثقلا في قلبه ، ولا تثرا في أوصاله . لا عبسة فسكر ولا تبهم
خاطر . لا فتور ولا رهق من سرى أو سير . لا ضيق بوحشة لغياب رفيق . .
والوقت أيضاً يمر به في هواة يخالسه ، فلا يستشعر فقره . وهو مشغول عنه
برجائه . . .

ثم أقبل الدفء يتهادى على ضوء النهار الجديد . . .

رويداً رويداً راحت الشمس تنسج خيوطها لتكسو الأرجاء الأفق الباهت
طلته الأشعة بلاء براق . الفراغ الممدود كالتيه ، في غبش الليل ، انقشع غموضه
وتخلفت له خطوط وحدود تحت أفيض النور . . هنا ظهرت وهدة ، وهناك
بدا كثيب . هنا بان قاع ، وهناك يفاع . هنا وعى الرمل بعض الأثر ، وهناك
محته يد الريح . . البصر الآن يستطيع أن يحيط بالمعالم ، ويدركها ، ويترحل معها
عبر الأبعاد . . .

لكن السمع ظل محصوراً في سياج محكم من السكون الكثيف . . المكان
يبدو كلوحة مرسومة ، لها قسبات وملامح ، بها أشكال وألوان ، فيها ظلال
وأضواء . المنظر ينطق ، أما الحركة فخرساء . . .

حتى الهواء لم يعد له حسيس فالهدوء الذي غمر الوجود أعدها . وحر
الصحراء خدره ولفه بالوسن . ورشاش الضباب ، السابح في الجو ساعة البكرة ،
هدم سبعا وفنى في أشعة الضحوة . والظلال أيضاً هواجع ، لا تتقلص ولا تطول ،
لأنها تنعكس عن جمود . . .

غير أن الرمال ما لبثت أن وشت بوقع خافت كأنه الهمس في أذن صماء . . .
على مدى البصر اقتحم اللوحة ، عند حد الفضاء الفسيح ، هيكل قادم من صوب
الكوفة ، لاح في وهج الضوء المتألق ، نكيال . وقيد خطوة منه ، أو خطوات
إلى الوراء ، ظهر آخر يسمى في أثره كأنه ظله . ومن خلف هذا وذاك بدا ثالث
ينساب كفورة غبار . . .

ثم تتابعت ، مع الزمن الوانى ، ومن خلال غلالة الريح الشفاف ، عدة
أشباح . . .

بضعة خيالات . . .

حفنة من رجال . . .

نهر تناثروا هنا وهناك ، على منبسط الرمل ، وفي سطعة الضمى ، كنفثات
دخان . . كنقط شهباء . . تكروق في ثوب الصحراء الأصفر . . .
ولم يغيروا شيئاً من رتبة الهدوء . ولا من سطوة الجمود المهيمن على

المكان . . كادوا — من قلة — لا يضيفون إلا فراغا إلى الفراغ ، وإلا عدما إلى همود الأرض الجرداء . .

وطاف بخلدكم ، وجمعهم يلتئم بجانب من المسكان ، أنهم أعصى على التعيز وشغل الممسكر الشاغر ، وأهون من أن يحسبوا بالأرقام . . . وبدوا في عيون أنفسهم خطوطا من الظلال لاصفوف مقاتلة ولا شخوص رجال . . ثم خالوا — من هوانهم — ذلك القادم قبلهم على أول شعاع ، قد ملأ بسحته الفضاء الرحب ، وأوصد دونهم منافذ الحركة والتفكير . . فنظرته لوم . وإعناؤه استهانة وازدراء . وهيئته ، التي أحاطت بها هالة من ضوء الشمس ، ألقت بينه وبينهم برزخا من الهيبة ، يمنعهم الإقدام أو الاعتذار . .

غير أنهم ، حين حاولوا الدنو منه ، ساروا إليه كالسحورين . . خطاهم واهنة لا توقظ ضوضاء . أقدامهم ثقيلة كأنها تتحرك ولا انتقال . جسومهم خدرة كسائرة في نوم . وطى وجوههم الغيرة وجوم محامع الملامح فستر التعبير ، وجد الأنفاس . .

وأخذتهم غشية من الشعور بالإثم وعيونهم تدور قلقة بين نفرهم المدود ، ثم تتطلع نهمة إلى حدود الفضاء . لكن الفضاء زم شفتيه ، ولم يسمعهم بجواب . فما أسفر عن حركة ، ولا أطلع هيكل إنسان . .

وتصارع ، على ملامحهم الباهتة ، الهوان والندم . وتبلور فوق جباههم الحشنة عرق كالندى ، مادروا أقطرته الأشعة القائظة ، أم أفرزه الحزى المكنون . وآدم من ذلك الركود الرتيب المريب أنهم لا يحسونه وإعنا يتنفسونه ملء الرئات حتى لتشرق به الخلق ويضغط على الصدور ويكنم الأنفاس . فلو خف عنهم ضغطه ؟ لو انجذب بعض ثقله ؟ لو قطع صاحبهم رتابته البغيضة ولو بغضبة جارحة ولوم مهين . . .

لكن الإمام لم ينبس . وهل الموقف يدعو لحديث ؟ . . إنما الصمت أجدى عليه ، وأقسى عليهم . حسبه ما يرى . وحسبهم ما يحسون . تخزيهم عذاب ، ومشهدهم يغنى عن العتاب . . .

وعندما انتصف النهار ، وارتفعت الظهيرة ، وأخذت الشمس تلسع الوجود

بسياط من نار ، مد إلى طرف الأفق سمعه وناظريه كأنما يحاول أن يستشفه سره . . مليا أرهف السمع . ومليا سدّد النظر ، واسكنه لم يعد من رحلة الرؤية والإصغاء بجديد . لم يفز بغير العموض . ولم يحظ بالرجاء الأخير . . لكأنما الأفق قد أغلق بباب ورتاج ، فلا وقع قدم ، ولا هيئة قادم . ولا ضبابه غبار . . .

وارتسمت على فمه بسمّة ، وهو يسترد من الأفق بصره ويحول إليهم نظرة نافذة تخرق منهم الجلود والأخلاق . . من حرارة كانت البسمّة . ومن كآبة كان الشماع الذي أرسلته عيناه . فالأمل الذي أحياء في قلبه صفاء الطبيعة ، ساعة البكرة ، قد محاه مشهدهم الآن كما يحو الليل الأسحم آية النهار . والماضي المرير الذي ظن عند إشراقة الصبح النضرة ، أنه انطوى إلى غير رجوع ، قد ارتد أعنى وأعمى . والفد المأمول الظافر ، الذي خابلته به لحظة رجاء ، لم يكن سوى سراب . .

وعاد مقهوراً لألمسه البغيض : لليأس والأسى والسأم . . وما قصاراه وهام أولاء ما زالوا على تراخيمهم ، لا تنهضهم محنة ، ولا تهزهم جلجلة الأحداث ؟ . . لكأنما آثروا الغفلة البليدة ! . . لكأنما أنسوا للضم ! . . لكأنما استمروا في الدم فعاشوه في الجحود لأنه راحة ودعة ، ونبوا بالحياة لأنها حركة وجهد وتغير ! . .

ثم تحرك على طريق العودة . بلا كلمة مضى ، وتركهم خلفه غائصين من خزيهم في الرمال . وما عساه يقول لطعمة مثلهم ، أرادوا للحياة ألا تسير ، وللواقع أن يظل بركة آسنة ، وللزمن أن يثبت فلا يطالع « غدا » وإن تبدل نهار بنهار ؟ . .

وأوى لداره لاثدا بهم . في قلبه كآبة ، وفي عينه سهوم ، وفي فمه علقم . . وكانت البقية الباقية من النهار أشد عليه من وصفه . جأعة على صدره كجبل ، ثابتة كسد حجب المستقبل ، عالقة في الجوكقطرات بخار في يوم مرطوب . وما أبطأ الزمن على قلب مثقل يقيس التواني بخفقاته التي يخالها كفت عن الوجيب ! . .

هدية الشهيد الشهيد
السيد من الدين بحر العلوم
مكتبة الروضة الحيدرية

أعوام عديدة من الأسى عاشها في تلك الساعات الطويلة كالدهر ، الهامدة كاللوت ، الجوفاء كالغراغ .. فما حدها بعد زمني ، ولا هزتها حركة ، ولا شغلها وجود . هو نفسه كان يؤلف من كيائها قطعة من اليأس الصامت الذي يضيف إلى كتلتها السلبية رصيذا ضخما من الضياع ..

ولم يد كيف أوفت ساعاتها على النهاية . ولكن عتمة الغسق آذنته بالتغيير . وضوء وقع وهمسات ، ردتته ثانية من مجاهل سهومه ..

والتفت إلى الجمع الذي تحلق به ، يستشرف فيه وجود طائفة من الأشراف والسادة ، الذين لهم في أقوامهم أقدار .. ولم يبال بما حاولت أفواههم أن تلوكه كلمة لواء أو عبارة اعتذار . فلا ولاء من ناكث ، ولا اعتذار من مدمن عصيان .. إنما كان همه أن يدع ذلك الرجل العالي في صدره ، ينفس عن البخار المكتوم ..

ورفع إليهم عينا تلهب بما في قلبه من غيظ ، ألزمتهم نظراتها الملتهبة الإصغاء ، وهتف يخاطبهم في هدوء مرير :
« الحمد لله .. الذي ابتلاني بكم ، أيها الفرقة التي لا تطيع إذا أمرتها ، ولا تجيب إذا دعوتها .. »

وتهمل يلى لهم في الجواب ، ولكن حصرم كم الأفواه .. وما عسام يقولون وقد كان قصاراهم ، حين واعدوه الاجتماع في الجرعة هذا الصباح في جيش لجب يرد عادية معاوية عن مصر ، أن وافوه بمائة رجل هم كل الجيش الموعود ..

وصخب صوته لعله يهز بجرسه العنيف همتهم الراكدة ، ويرد من غفلتهم إلى تفهم حقيقة الأمور :

« يا أيها الذين يجمعكم .. ألا تفضيكم .. ألا تسمعون بعدوكم ينتقص بلادكم ، ويسن الغارة عليكم .. أو ليس عجبا أن معاوية يدعو الجفأة الطغام الطلعة بدمعونة .. باسم أبا أدعوك ، وأنتم أولو النهى وبقية الناس ، فتختلفون وتفترقون عني ، وتمصوثنى ، وتخالفون على .. »
والجهم منطقته . وخلق عليهم من الوجوم ما حسبوا معه من الأموات ،

كما ملكه من اليأس ما جعل الموت أهون عليه وأحب من حياة هم فيها عذابه
الذى يتجدد في كل لحظة على صحوات حواسه وتردد أنفاسه . . . وهل أخفى عنهم
شعوره وقد قرأوه في عيانه أكثر من مرة ، ثم جابههم به بالعبارة الصريحة ،
وهو ينمى عليهم الهوان ؟ . . .

بل قد خرفت أسماعهم كلماته ونفذت فيها كما ينفذ السهم في الرمية إذ قال :
« . . . لا أبا لغيركم ! . . . ماذا تنتظرون بنصركم ، والجهاد على حقكم ؟ . . .
الموت خير من النذل في هذه الدنيا لغير الحق . . . والله إن جاءني الموت —
وليأتيني — لتجدني لحيبتكم جد قال ! . . . »

وأثار حديثه حية بهضمهم فدفعتهم نحوهم إلى الانتصار له ، والإزراء بما
أسرفوا من التراخي والثبوت ، فنهض منهم مالك بن كعب الأرحبي يقول :
« يا أمير المؤمنين ، انذب الناس معي ، فإنه لا عطر بعد عروس وإن الأجر
لا يأتي إلا بالكره . . . »

ثم التفت إلى الجمع يحثهم :

« اتقوا الله ، وأجيبوا إمامكم ، وانصروا دعوته ، وقاتلوا عدوكم . . . »

واثنى بعد الإمام ، بلهجة الواثق الذي لا يستريب :

« . . . إنا نسير إليهم ، يا أمير المؤمنين . . . »

وكأنما شاء أن يملئ لهم ، هذه المرة أيضاً ، في مراجعة أنفسهم ، إعدارا
وإبراء لدمته أمام الله ، فأمر سعداً مولاه أن ينادي في الجمهور :

« . . . ألا سيروا مع مالك بن كعب إلى مصر . . . أيها الناس . . . »

فهل يسيرون ؟ . . .



هدية الشهيد السعيد
السيد عز الدين بهر العلوم
لمكتبة الروضة الحيدرية

٣٩٢٣٠

مطبعة الحريّة - بيروت
تلفون : ٣٢٠٤٤٠

توزيع الهيئة العامة للكتاب
القاهرة - بيروت
المجموعة الكاملة ٤٠ جلد.